٣٠ طريقة لخدمة الدين

بقلم

أبو محمد المعتز بالله رضا بن أحمد صمدي

تقديم

د. سيد حسين العفاني

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

تقديم

محمد حسين يعقوب

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين







بسم الله الرحمن الرحيم

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٧٩٠٣

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع
ج.م.ع - الإسكندرية
٢ ش منشية الزهراء - حي الرمل
هاتف: ٠١٠٥٠١٢١٥١ / ٠١٠٦٧١٤٧٦٨

دار الفتح الإسلامي
للنشر والتوزيع
ج.م.ع - الإسكندرية
مصطفى كامل - بجوار مسجد الفتح
هاتف: ٠١٠٩٩٦٩٥٥٦

دار ابن المبارك
للنشر والتوزيع
ج.م.ع - الإسكندرية
هاتف: ٠١٢٤٥٢٥٣٧٢

إهداء

▪ إلى كُلِّ قَلْبٍ احْتَرقَ عَلَى الإسْلامِ ..

▪ إلى الجِبَاهِ التي لَمْ تَنْحَنِ إلا للهِ، والضَّمَائِرِ التي اشْتَاقَتْ إلى وَقْتِ البَذْلِ للدِّين، إلى شَبَابٍ وَفَّرُوا مِنْ قُوتِهِمْ، ومِنْ أَثْمَانِ ثِيَابِهِمْ لِيَدَّخِرُوا نَفَقَةً يُنْفِقُونَهَا في سبيلِ الله، إلى مَنْ يَعْمَلُونَ في صَمْتٍ لِعِزَّةِ الدِّينِ ..

▪ إلى حَمَلَةِ هذا الدِّين، أُهدِي هذا الكِتَاب، سَائِلاً اللهَ تعالى أَنْ يَنْفَعَهم بِه، وأَنْ يَكونَ سَبَبًا في فَوْزِهِمْ بجنَّةِ الرِّضْوان، وسَبَبًا في تَمَامِ سَعْيِهِمْ لِنُصْرَةِ الدين، كَمَا أَسْأَلُ اللهَ - عَزَّ وَجَلَّ - أَنْ يَرْزُقَنِي في هذا العَمَلِ الإخْلاصَ والمُتَابَعَةَ، وأَنْ يَغفِرَ لِي كُلَّ زَلَّةٍ، وأَنْ يَجْعَلَ هذا العَمَلَ سَبَبًا في غُفْرَان خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين، ودُخُولي الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ولا عَذَابٍ.

وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ ربِّ العَالَمِين.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

فضيلة الشيخ/ محمد حسين يعقوب

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله مِن شُرورِ أنفسِنا ومِن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِه اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

أما بعد،

إخوتاه: .. تجري دموع العين وفي الحشا زَفراتُ حُزْنٍ تلتطم، ويكتم المرء وجدًا في جوانحه، وكيف يُكتم ما ليس ينكتم؟ . . فهل للواجد المكروب من زفراته سكون عزاء أو تأوهُ ألم؟.

فلعمر الله . . إنَّما نحن في رُزءٍ عظيم، وخَطْبٍ أمره جلل جسيم، رزئنا في جبال كانوا على الأرض النجوم في ليل بهيم، وتقلب بصرك فلا تجد من يُدعى لخطب أو يُقال: عالمٌ كريم!!، فمن ساعتها فتكت بأنفسنا الهموم، فما في هذه الدنيا مكان يُسَرُّ بأهله الجارُ المقيم، وسرطان الجهل في الأمة يسري، فما تدري أعرضٌ حادث أم داء قديم، فلكِ اللهُ يا أمةَ محمد ـ عليه أفضل صلاة . . وأزكى تسليمٍ ـ.

فمن لنا غيرك يا ربنا، لا ملجأ منك إلا إليك فارحمنا.

كانوا بحور العلم . . فيا لحيرة العطشان في وقت الهجير!!

كانوا على ثغور . . فيا لذلة المظلوم وهو معدوم النصير!!

كانوا منارات . . فيا لحيرة الشيخ الأصم وحسرة الحدث الضرير!!

كانوا مزن الرحمة . . فيا لفجأة المكروه في اليوم العبوس القمطرير!!

إخوتاه: .. مات العلماء وبقينا في حُثَالة من الناس، والأمة تهيم في بحار الظلمات، فاللهم قيِّض لهذه الأمة أمر رشد يُعَزُّ فيه أهلُ طاعتك.

تحتاج الأمة اليوم ـ لعمر الله ـ إلى سواعد فتية، وقلوب فيها للدين حمية، ترفع راية الإسلام من جديد.

إخوتاه: .. إن قضية إعادة إحياء الأمة ليس هزرًا أو لعبًا، أو أحلام يقظة يلهو بها المهازيل، كما أنها ليست سرابًا في عيون نائمة أو ثرثرة في حلوق فارغة، كما أنها ليست فهلوة أو استعراضًا أو معلمة لفتية عابثة، وإنما هي أعمال كبار، وتحدٍّ وكفاح وعدة، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم﴾ (التوبة: ٤٦) الآية، ولكنه الضياع بين الهواة والحواة من الأندلس إلى البوسنة وكوسوفا، وبالعكس.

فقضية إحياء الأمة تحتاج إلى رجال، ويكون لهؤلاء الرجال منهج يسيرون عليه، وخصوصًا في هذا الزمان وقد اختلطت المناهج وكثر الضجيج والكلام، وكما قيل: أسمع ضجيجًا ولا أرى طحنًا، صرنا في زمان الفتنة التي تدع الحليم حيرانًا، ولكن مع ما ترى من الفواجع والمواجع، فإن الأمة لا تخلو من أهل الخير .. أهل العلم والصلاح .. أهل الرأي والمشورة .. أهل الدعوة القائمين على الثغرات.

قال رسول الله ﷺ: «أمتي كالمطر لا يدرى أوله خير أو آخره خير».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا ينشئهم على طاعته».

وهذا أخي الحبيب صفوة إخواني وخيرة أحبابي المخلص دومًا الذي يتفطر قلبه على حال الأمة ذوبًا، هذا ابني الغالي، وكأنه بالله فلذة كبدي ـ **رضا صمدي**.

هذا - لعمر الله - شيخي وليس الأمر بالسن . . فكم استفدت منه، ونفعتني مشورته، وألهمتني كتاباته، وفتح الله عليَّ بسبب بعض كلماته، هذا الأخ الفذ والشيخ الكريم، والداعية الحصيف، قدم لنا في كتابه هذا مشروعًا لإحياء الأمة، وإني وإن لم أتفقد كتابه كله، ولم أتصفح كل صفحاته وأطَّلع على جل كلماته، إلا أن ثقتي فيه، وحبي له، وصدق رجائي مع كثرة دعائي أن يوفقه الله ويلهمه، جعلني أسارع في كتابة هذه التقدمة، وإن كنت لست لها بأهلٍ، إلا أن صاحبي شقيق الروح: **المعتز بالله أبو محمد رضا صمدي** يستحق مني النصرة والولاء.

فدونك - أخي في الله - الكتاب، انهل من معينه ثلاثين طريقة لخدمة الدين لن تعدم طريقة تصلح لها وتصلح لك، والسعادة في الدنيا والآخرة علم وعمل، فهاك العلم وعليك العمل، وقد حصلت سعادة الدارين، غفر الله لي ولأخي رضا، ورزقنا وإياه الإخلاص في القول والعمل، وعافانا من البلاء، ونجَّانا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وصلى الله وسلم وبارك على النبي محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد حسين يعقوب

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

مقدمة

فضيلة الشيخ/ د. سيد حسين العفاني

الحمد لله حبيب العابدين، ومنتهى رغبة السالكين، ومحط آمال الراحلين، وصلى الله وسلم على سيد ولد آدم، وإمام الداعين إلى الله - عَزَّ وَجَلَّ - رسول الله ﷺ.

وبعد .. فهذا كتاب أخي شقيق النفس وحبيبي الغالي، التقي النقي الشيخ/ رضا صمدي، شيخ العجم، ومُربي شبيبة العرب المسلمة:

التي تغزل خيوط فجرنا الآتي ★ لا تفارقنا ذكراه الندية العطرة
ومن عجبٍ أني أحنُّ إليهمُ ★ وأسأل شوقًا عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهمْ في سوادها ★ ويشكو النَّوى قلبي وهم بين أضلعي

كل مكان فيَّ هنا يحنُّ إليه .. ولو نطق الجماد فيه لطار شوقًا إليه .. فمن ذا الذي استمع إليه وهو يرتل آيات الله في التهجد، ولم يضعه في سويداء قلبه .. كأن مزامير أنس في حضرة قدس بألحان توحيد في رياض تمجيد.

رجل يحمل همَّ الإسلام ويعيش له وبه بكل صدق ووفاء وإخلاص وتجرُّد.

مهما خطَّ القلم فلن يوفيه حقه، وعند الله وحده جزاؤه .. نسأل الله أن يجعله من العلماء الربانيين، وأن يجعلني أنا وهو ممن هم على سرر متقابلين .. وأن يكحل أبصارنا برؤيته والعيش معه في دار الدنيا قبل الآخرة.

هذه كلمات أسوقها بين يدي هذه الرسالة القيمة الطيبة التي يفوح شذاها وأريجها العطر بين أبناء الدعوة.

(ثلاثون طريقة لخدمة الدين) .. لله درك يا شيخ رضا، تقولها لأبناء الإسلام دينك لحمك .. دينك دمك .. دينك عرضك.

والدعوة إلى الله أحسن كلمة تُقال في الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء مع العمل الصالح الذي يصدِّق الكلمة، ومع التجرد لله الذي تتوارى معه الذات.

إن النهوض بواجب الدعوة أمر شاق، ولكنه شأن عظيم، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت: ٣٣).

هذا حبيب الله .. هذا وليُّ الله، كما قال الحسن البصري.

قال ابن القيم: «مقام الدعوة إلى الله أشرف مقامات التعبد، والدعوة إلى الله هي وظيفة المرسلين وأتباعهم، وهم خلفاء الرسل في أممهم، والناس تبع لهم، والله سبحانه قد أمر رسوله ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه، وضمن له حفظه وعصمته من الناس، وهكذا المبلِّغون عنه من أمته لهم من حفظ الله، وعصمته إياهم بحسب قيامهم بدينه، وتبليغهم له».

الدعوة إلى الله كريمة .. عظيمة .. رفيعة .. لا يعرض عنها إلا موكوس، ولا يصد عنها إلا مطموس.

والداعية مجاهد مهاجر، يصلي الله وملائكته عليه، فهو معلم الخير للناس .. قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[1].

كم من قتيل لإبليس قد أحياه، وضال تائه قد هداه.

لله درك يا شيخ رضا .. نزلت ميدان الدعوة مربيًا فاضلاً .. وأنت في هذا الكتاب الطيب تنبه الجموع الغافلة، وتحث الدعاة العاملين على الطريق السوي .. وترك العزلة والتوازي فهو تعبد مرجوح وحزن قاتل هادم.

هذه القواعد التي بثها فضيلة الشيخ رضا يعض عليها بالنواجذ من يعرف من الرجال قيمتها .. أسأل الله أن يُحلي بها قدر حبينا شيخ العجم في الدارين، وأن يجعلها في ميزان حسناته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه الفقير إلى رحمة ربه

د. سيد حسين العفاني

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٣٤٣) رقم (٢١٥٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفسنا ومن سيئاتِ أعمالنا، مَن يَهده اللهُ فلا مُضلَّ له، ومَن يُضللْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يا أَيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا الله حقَّ تُقاته ولا تمُوتُنَّ إلاَّ وأنتُم مُّسلمُون ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُمُ الَّذي خلقكُم مِّن نَّفْس واحدة وخلق منْها زوْجها وبثَّ منْهُما رجالاً كثيرًا ونساءً واتَّقُوا اللَّه الَّذي تساءلُون به والأرحام إنَّ اللَّه كان عليْكُم رقيبًا ﴾ (النساء: ١).

﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا اتَّقُوا الله وقُولُوا قوْلاً سديدًا (٧٠) يُصْلحْ لكُمْ أعْمالكُمْ ويغْفرْ لكُمْ ذُنُوبكُمْ ومن يُطع اللَّه ورسُولهُ فقدْ فاز فوْزًا عظيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٠-٧١).

أما بعد:

فإن أصدقَ الحديث كتابُ الله ـ تعالى ـ، وأحسنَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدَثَاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أما بعد،

فعندما استولى اليهودُ على القدس في عام (١٩٦٧)، عَبَّرُوا عن فَرَحِهِمْ، وخَرَجُوا في مظاهراتٍ عارمةٍ، وصاحوا قائلين: «محمدٌ ماتَ ماتَ .. محمدٌ خَلَفَهُ بنات»[١].

---

(١) نص العبارة: محمد مات مات، محمد خَلَّف بنات، أي: أنجب بنات، وصححت العبارة لتستقيم عربيًا.

قـرأتُ تلك الكلمة في إحـدى الكتب، وأنا بعـدُ غَضٌّ الإهاب، لا أفقـه المَعْنيَّ بالكَلِم، ولكنهـا وقعتْ في قلبي كـالإعصـار المدمِّرِ الذي غَيَّـر كثـيرًا من تَوَجُّـهاتِ حياتي، ومُـسْتَقْبلي الذي كنتُ أَحْلُمُ به كـأي فتى يافعٍ، وبكيت ساعتَـها، وقلت في نفسي: «لا . . محمد ﷺ لم يَخْلُفْهُ بنات».

ومرت الأيام . . بل السنـون، وتعاظم إدراكي للوَرْطَةِ التي تعـيش فيهـا أُمَّتي، وصِرْتُ أَرْقُبُ بِحُرْقَةٍ ما يدور حولي:

فـأنَّى التَـفَتُّ فَـحَقٌّ سليبٌ ** وأنَّى أصَـخْتُ فَـرَجْعُ النَّحـيبْ
وأنَّى سَـرَيْتُ فـدَرْبٌ مُـريبٌ ** وَصَفٌّ عـجـيبٌ ولُؤْمٌ رهـيبْ
أَصِـيحُ بِقَـومي إلى المَكْرُمَـاتْ ** فَـمَـا مِنْ مُلَبٍّ ومـا مِنْ مُـجِـيبْ

وصـارت نفـسي تَشُكُّ، وتذهب بهـا الظنـون كل مذهـب، هـل مَنْ حـولنـا رجـال؟ . . هل مَنْ يعيش بيننا ذُكُور؟

عايشتُ نكبـاتٍ كثيـرةً أَلَمَّت بأمتي، وأنا ذو عقل واعٍ، شـاهدتُ اقتحام اليـهود لبيـروت، ومَرَّتْ بي أحداث صَبْرا وشـاتيلا كالكابوس المريع، دَرَسْـتُ أزمة الخليج بِتَدَاعِـيَاتِهَا، وشاهدتُ مـأساة البوسنة بنكـباتها، وتابعت كارثـة الصومال وتَبِعَـاتِهَا، وعاصرتُ زلزال كوسوفا وتوابعَه، ورأيتُ الأشْباحَ هي الأشباحُ، والديارَ هي الديارُ، ولكنني لاحظتُ أمرًا مستنكرًا لم ألاحظه قبلُ، لـقد صرتُ أَشُمُّ رائحة البَلادة، وأجدُ نَتْنَها في أنفي أينما حلَلْتُ، العامـة يسمونه (التَنْبَلَة)، وهي في الشرع دِيَاثة، وهو أن يرى الرجل المنكر في أهل بيته ولا يُغَيِّرُه.

وقد رأيت أعـراضَ أمتي تُنْتَـهَك، ومحارمَـها تُسْتَـبَاح، وثرواتِهـا تُنْتَهَب، وإذا بصياح اليهود يقفز إلى خاطري مُذَكِّرًا.

أَتَسَمَّعُ أخبار المنصرين في كل حَدَبٍ وصوب تَخْرِق جدران قلبي، عشرات المليارات تُنْفَق للتنصير، أَتَرَقَّبُ العَلْمَنَة تجوسُ خلال ديار الإسلام، وأرى الإباحية والانحلال يتحولان إلى قانون، وطريقة حياة في بلادي . . بلاد الإسلام.

تابعت الإحصائيات التي تُصْدِرُها هيئات البحوث في البلاد الإسلامية، فَرَاعَني انتشارُ الجريمة، وتَدَنِّي مستوى الأخلاق، وهبوطُ معدل الأمن الاجتماعي، بل الأنكى من ذلك كله اعوجاجُ المفاهيم الإسلامية، واستيرادُ العادات من الغرب والشرق، وجَعْلُها من طرائق حياة المسلمين التي لا يُراد عنها حِوَلا.

ثم رأيت الصحوة الإسلامية تَمْتَدُّ وتَتَجَذَّر، حتى أَضْحَتْ واقعًا لا يُنْكِرُهُ إلا مُعانِدٌ، ولكنني صرت أرى مع ذلك انتكاسًا وقعودًا وكسلاً، صرت أرى خمولاً يشبه خمول تنابلة السلطان على نحو ما تقول العامة، ولكنني أبصره الآن بين صفوف الصحوة.

نَفَضْتُ الغُبار . . وأَزَحْتُ الدِّثار، وقلت: لا والله، لَتَعْلَمَنَّ يَهُودُ أن نبينا ﷺ ما خَلَفَهُ بنات، وسيعلم العالمُ أَجْمَعُ أنَّ وراءَ الأَكَمَةِ ما وراءها.

يَا أُمَّتي إن قَسوتُ اليوم مَعْذِرَةً ** فإنَّ كَفِّيَ في النيرانِ تَلْتَهِبُ
فَكَمْ يَحُزُّ بقلبي أنْ أرَى أُمَمًا ** طَارتْ إلى المجْدِ والعُرْبَانَ قد رَسَبُوا
ونحنُ كنا بهذا الكون أَلْوِيَةً ** ونحنُ كنا لِعِزِّ الشَّمْسِ نَنْتَسِبُ
مَهْمَا دَجَى الليلُ فالتاريخُ أَنْبَأَني ** أنَّ النَّهارَ بأحشاء الدُّجى يثِبُ
إنِّي لأسْمَعُ وَقْعَ الخيلِ في أُذُني ** وأُبْصِرُ الزَّمنَ الموعودَ يقتربُ
وفِتْيَةً في رياضِ الذِّكرِ مَرْتَعُهُمْ ** لله ما جَمَعُوا لله ما وَهَبُوا
جاءوا على قَدَرٍ والله يَحْرُسُهمْ ** وشِرْعَةُ اللهِ نِعْمَ الغَايُ والنَّسَبُ

وأَجْمَعْتُ أمري ولم يكن عَلَيَّ غُمَّةً، وبحثتُ وتباحثتُ هذا الهَمَّ مع بعض الغيورين من حَمَلَة هذا الدين، فقلنا: إن ثَمَّة خللا، فأمتي عددُ أفرادِها يربو على

الألف مليون، وثرواتها الأرضية (كالبترول، والذهب، والمعادن الأخرى) تُقَدَّر بنصف ثروات العالم، ومساحة الأراضي التي تسيطر عليها أمتي تقدر بثُلث أو بِخُمُس مساحة العالم أو أقل بقليل.

وليس العِلْم ينقُصُها، بل منها عباقرةٌ شاركوا في بناء حضارة القرن العشرين، وزاحموا أساطين التقنية الحديثة، ولهم نظريات علمية بأسمائهم، تشهد أن عقل المسلم لا يَقِلُّ ذكاءً عن عقول بني الأصْفَر.

وَرُحتُ أقلب نظري في أزمات أمتي الكثيرة، وطَفِقْت أستخلص العبرة من تاريخ أمتي القديم، لعلي أَجِدُ ما يَدْرأُ حَيْرتي ويقتل شكوكي.

فطالعتُ محنة المسلمين مع التتار والصليبيين والقرامطة، فعلمت أن أمتي قد مرت بمحن أشد وأنكى من المحن التي نشهدها.

وتأملت إمكانيات الصحوة الإسلامية، فوجدتها ليست بذاك العَجْزِ الذي يتصوره البعض، بل على حسب إحصائيات الهيئات التنصيرية نفسها: فإن الإسلام يحتل المرتبة الأولى من حيث الديانات التي تكتسح الساحة العالمية.

وبعد هذا التأمل استخلصت أن قُدْرَات الأمة على النهضة، وفرصتَها للخروج من الورطة جيدةٌ إلى أبعد الحدود، ولكنّ تَلَكُّؤَ القافلة في الُمضِيِّ، وتوالي المحن دون مواجهة صارمة، حتى صِرْنا كالُمصارع الذي يَتَلَقَّى الضربات الُموجِعَةَ وهو يترنَّحُ دون أيَّة محاولة للخروج من موقف الهزيمة، كلٌّ ذلك دعاني لمزيدِ تأملٍ في أسباب هذا التلكُّؤ والتباطؤ.

وقُدِّر لي أن أُكلَّف ببعض المهام الدعوية، وكانت مهمة شاقة وعسيرة، ولم أجد من يُساعدُني في تلك المهمة، فبدأت أفكر مليًا في تلك المهمة كيف يمكن أن تُؤدَّى،

وبقليل من التحليل خَلُصْتُ إلى أنه لابد لهذا العمل من فريق يقوم به، ولابد أن يكون هذا الفريق متفهِّمًا لطبيعة العمل، ولديه الاستعداد للقيام به.

وقد قمت باختيار من توسَّمْت فيهم تلك الصفتين، وقمنا بوضع تصور للعمل، ووضعنا الأهداف الغائية والمرحلية، وكيفية التطبيق والمتابعة، وتعاهدنا على ضرورة الصبر حتى يُؤْتِيَ المشروع أُكُلَهُ، ويَبْدُو صلاحُه.

وبجلدٍ وصبرٍ وأناةٍ قام ذلك الفريق بأداء العمل، حتى بَدَى أثرُه، وشَهِد القاصي والداني بنجاح الإدارة الجديدة في عملها.

وكانت هذه التجربة هي التي ألْهمتني جانبًا مهما من جوانب الفرصة التي أمام أمتي للخروج من أزمتها وورطتها، وأرَتْني خللاً ظاهرًا في نفس الوقت في الآلية التي ارتضى بعض الدعاة أن تسير بها الصحوة الإسلامية المباركة.

ذلك الجانب أن شباب الصحوة قادرون على أداء أي عمل إذا تم تدريبُهم كما ينبغي، شأن أي إنسان يتمتع بقدرات عقلية عادية، وهذا ما أثبتته الدراسات النفسية الحديثة، وأقول: بل هذا ما أَمَرَ به الشرع المطهَّر، حيث قال النبي ﷺ: «استَعِنْ بالله ولا تَعْجِزْ»[1]، وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكَسَل»[2].

وفي أساليب الإدارة الحديثة: يُلَقَّنُ العَاملُ عبارةَ: سأُحاول، بدلا من عبارة: لا أستطيع، ويُعَلَّم أن يستعمل عبارة: هذا تَحَدٍّ، بدل أن يقول: هذا الأمر صعب.

والخلل هو أن تُهْمَلَ تلك النفس البشرية، ويُهْمَلَ تدريبُها، ويَرْضى مَنْ حولَها بمستواها الدُّوْنِ، وإذا ما حاولتْ أمرًا ترقَّب الناس فشلها، كأنه أجل محتوم.

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

(٢) رواه أحمد في «مسنده» بسند صحيح.

إن هذه هي المصيبــة، والرُّزْءُ المُعْضِل، إن رجالَ أمتي كُثُرٌ، وأبطالَهــا موفورون، وكُماتَــها يملأون الأفق، ولكن أحدًا لم يُجرِّبْهم، كـما أن أحدًا لم يُكلِّفهــم، كما أن أحدًا لم يكتشفْهم.

فتوالت الأجيال على هذه الوتيــرة من الإهمال والتناسي، حتى تولَّد في الشعور الجَمْعي تلك البَـلادةُ التي ذكرتُها، وصار اليــأسُ طَبْعًا، والقنوطُ سَجِــيَّةً وخُلُقًا، ولم يُجدِ مع هذا الداء دواء.

واسْتــيقنْت أن شباب الإســلام يجب أن يُولَدوا ولادة جديدة، ويتلقُّوا عـقائدهم الاجتماعــية من جديد، حتى تزْدان نفوسُهم بفطرة سَوِيَّة، قــابلةٍ لتَلقِّي أوامرِ الشرع، بل قادرةٍ على فَهْم ما يدور حولها من كيد ومكر.

وصار دَيْدَني وهِجِّيرَايَ اسْـتنفار شبيبة الإسلام لتكذيب دعوى اليــهود أن محمدًا ﷺ خَلَفَهُ بنات.

وكانت مــحاوراتي مَعَ كُلِّ مَــنْ حَوْلي حَوْلَ ضــرورة تدريب كوادر الدعــوة على الدعوة، وضرورة احتراف خدمة الدين عبر إيجاد الجيل الدعوي الحاذق المحترف المدرَّب على كل المهارات الدعوية، وضرورة بدء المعركة الحضارية الكبرى مع كل الملل الزائفة، والأفكار الأرضيــة الباطلة التي أَضلَّت البــشرية، وهَامَتْ بها في أوديَــة الفناء والعَبَث، إنها المعركةُ التي إذا بدأت فلا حاجزَ يمكن أن يقف أمامها، فجُنُودهَا البَواسِلُ هم شبيبة الصحوة المباركة، وكلُّ صَاحِبِ جَبهَةٍ لم تَسجُدْ إلا لله رب العالمين:

صُــوغُــوا لَنَا مِنْ عِــزِّهِ كَــفَنَا ※ فَلَقَــدْ سَــئِــمْنَا الذُّلَّ والوهَنَا
إنَّا عَــقَــدْنَا في الرِّقَــابِ لِوَاءَنَا ※ إنْ تُوقِــفُــونَا أَوْقِــفُــوا الزَّمَنَا

وبين يديك أيهــا القارئ: محــاولة بَدائيَّة، أُجــاري فيــها آمــالي، وأُناطِح فيــها أحلامي، أَدعُ السرابَ للهــائم في الفَيافي بلا مَقْصِد، وأُيَمِّمُ وجــهي نحو الماء القَرَاح سالكًا الجادَّة السويَّة، والفَجَّ الموصل للمراد.

سمعتُ هَمْـهَمَةَ بعض اليائسين: ألاَّ فائدة من المحـاولة، وأن الإصلاح قد دخل في دائرة المستحيل، وأنَّ كلَّ محاولة تُبْذَلُ مـا هي إلى كَحَجَرٍ يُرمَى في بُحَيرة راكدة، ستحدث تَمَوُّجاتٍ مُؤَقَّتة، ثم تعود البحيرة إلى ركودها.

أَبَيْتُ هذه النظرة الـقاتمة، وذاك القنـوط البائس، وأَحْـيَـيْتُ في نفـسي الأمل، وتَلَفَّتُّ من حولي أَصْرُخُ بوارقَ الأمل لتشْـتَعلَ، فرأيت من إرْهَاصَات الأُفقِ ما أَيْقظَ فِيَّ هِمَّةً مُـتَحَفِّـزَةً، وأَشْعَلَ في فـؤادي عزيمة مُتَّـقِدَةً، فَرُحْتُ أَسْـتَنْصِحُ ذَوِي الوِدادِ والصِّدْق من أهل المَشُـورَة، وممن أَدْمَتْ كلمةُ اليهود مـشاعرَهم مثلي، فَـوَجَدْتُ في قلوبهم ذاتَ الأمل، وذاتَ الهمة، وذاتَ العـزيمة، فقلتُ: أرَى أَنَّ رُؤَانَا قد تَوَاطَأَتْ، فَيَـمَّمْتُ وَجْهِيَ شـطر الواقع أستلهم منه دليـلاً على إمكانية الحل، فأتـتني في الحال نماذج من حَمَلَةِ الدين الغيورين المضحِّين، الذين ذكَّروني بصفات الأماجد من السلف الصالح، وعلمت حينئـذٍ أن المشكلة لا تعدو أن تكون حَيْرَةً في كيفـية خدمة الدين، وحيرة في اختيار الطريقة المُثْلَى لمجاهدة الباطل، ونصرة الحق، فقلت في نفسي: ليس من حل إلا أن نُفَصِّلَ أسـاليبَ خدمةِ الدين تفصـيلاً، ونوضِّحَهَـا توضيحًا، ونُـيَسِّرَ لشبيبـة الإسلام معرفةَ ما يليق بمهاراتهم وإمكانيـاتهم، حتى لا تكون هناك سَاعِدٌ إلا وقد شُمِّرَتْ للبذل، ولا قَلْبٌ إلا وقد عَزَمَ على المـشاركة، فَعَمَدْتُ إلى ثلاثين طريقة لخدمـة الدين، انتقيـتُها لتكون أُنْمـوذَجا للطُّرق الأخرى التي لـم أذكرها، بأن يُسْلَكَ على منْوَالِهَا في الفهم والتقعيد والتطبيق، انتقيتُها لتكون سهلة ميسورة في متناول كل ساعِدٍ، قـريبة مِنْ كُلِّ راغبٍ في البذل، ولِمَا يعرف الطريق إليـه، لتنقطع المعاذيرُ على الكسولين والقَعَدَة الذين رضوا بـأن يكونوا مع الخَوالف، وليَعْلَمَ كل مُنْتَمٍ لهذا الدين أنه من جنود الحق، لا يَسَعُه التَّوَلِّي يوم الزحف إلا مُتَحَرِّفًا لقتال أم مُتَحيِّزًا إلى فئة.

مجـالاتٍ طَرَقْتُها، وفـتحتُ بعض مغـاليقها، أدعـو الدعاة أن يُديموا الدرسَ فيهـا، ويتوسعوا في التنظيـر لها، والتطبيق والتخصُّـص، وأحسب أن كل طريقة تحتاج إلى تخصص مسـتقل، وتحتاج إلى تصنيف مستقل، يستـفيد منه الدعاة في مشارق الأرض ومغاربها.

وإذا كانت العلوم العصرية تَجْنَحُ إلى التخصص الدقيق، وتعتبره دليلاً على الإتقان، فأَجْدِر بدعاتنا أن يكونوا أَتْقَنَ الناس لعملهم، وأكثر الناس استجابة لما تتطلبه دعوتُهم.

فإن قضـايا الدين لم تَعُدْ تحتمل التـعميم والإطلاق، ومشكلات الأمـة ما عادت تصبر على التحليلات الجُزافيَّة، والتقديرات الهُلامية، والمعالجات السطحية، بل تحتاج إلى تفصيل، وتَرنو إلى منهج دقيق للخروج من الأزمة.

وقد انـطبع في الحسِّ الإسلامي اليـوم أنَّ كلَّ ما هو كـبيـرٌ جمـيلٌ، مع أن عصرنا عصر الأشياء الدقيقـة الفعَّالة، ومعاناتنا الأساسية في الكيف لا في الكم، والغُثَاءُ يُغَطِّي وجهَ الماء، لكنه لا وزنَ له ولا تَجَـانُسَ ولا تَرَابُطَ، ولذا فهو عاجز عن تقرير مصيره[١].

وأنا أدعو كلَّ داعـية غيور أن ينبذ الارتجـالية في دعوته، وليَقـصِد هذه الطرق، وليـتخـصص فيـها أو في بـعضـها بل في واحـدة منهـا، وليُضِف أبحـاثا في ذلك التخصص يضعُ فيها خِبْرَتَه، ويعالجُ فيها كل المشكلات التي واجهها، والتي يتوقعها، بل إنني أدعو كل مشـقف مسلم أن يُدلِيَ بدلوه في شئون الدعوة في حـدود تخصصه غير متجـاوز لها، معاونًا إخوانه الدعاة بخبراته واطلاعاته، لعله أن يسـتفيد من علمه مستفيد أو ينجو به ناج.

---

(١) «مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي» د. عبد الكريم بكار (ص٤٨-٥٠).

فها هي ذي مسالك خدمة الدين، فَجَرِّدْ نفسك لها كلها، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت: ٣٥)، أو انْتَقِ منها ما تُتْقِنُه، أو تَخَصص فيما تجدُ نفسك قادرةً عليه مستطيعة إياه، ومَارِسِ التَّضْحية، واسترخص النفس في خدمة الدين.

إن المقصود من هذا الكتاب أن تَتَجَيَّش الأمةُ عن بكرة أبيها لخدمة دينها، وأن تُشَمِّرَ كُلُّ السواعد، وأن تَزْحَفَ الجَحَافلُ المسلمة في كل صَوْبٍ، وأن يقوم كلُّ مسلم بدَوْرٍ، أيِّ دور، وأن نجهر بديننا في كل ميدان، وأنْ يَنْفِرَ المسلمونَ خِفَافًا وثقَالاً، وأنْ يَنْفِرُوا ثُبَاتٍ، وأن يَنْفِرُوا جميعًا، وأن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

واعلم أن ما أوردته هنا من اقتراحات وأفكار مُرْتَهَنٌ تطبيقُها بالاستطاعة والمناسبة، وكلُّ داعيةٍ خبير بواقعه وما يُلائمُه، وكلُّ داعيةٍ بصيرٌ بما يجب المصيرُ إليه من مسالك خدمة الدين.

وما كان من أصول دعوية جامعة فهي مما لا يقبل النسخ والتخصيص، بل يجب أن نُوجِد له الصيغةَ التي يحصل بها الإجماع، وما عاد وقت الدعاة يسمح بالخلافات اللفظية، والمُمَاحَكَات الكلامية، والاعتراضات الفلسفية الفارغة، بل يجب البِدارُ إلى التَّفاهُم، والمُسَارعةُ إلى التعاون، والسَّعيُ الحثيث إلى كلمة سواءٍ تجمع بين المسلمين في كل مكان.

وقد أَطَلْتُ النَّفَسَ في بعض الطرق للاحتياج، ولغموضٍ في فَهْم الناس لتلك الطريقة، وقد أشير إلى كثير من الطرق الأخرى لخدمة الدين عبر شرح طريقة معينة، فليس عدد الثلاثين مقصودًا لذاته، فقد تكون طرق خدمة الدين بالمئات، عَلِمَهَا من عَلِمَهَا، وجَهِلَهَا من جَهِلَها، والسعيد من وَفَّقَهُ الله للعلم والعمل.

ولم أتَأَنَّقْ كثيـرًا كعادتي في ترتيب الطرق، فقد جمـعت مادة هذا الكتاب وألَّفت بين فصوله على عَجَلَة من أمري، وفي غُرْبَة أهلٍ ووطن وخلاّن، ولم تكن جُلُّ المراجع المهمة بين يدي، فَسَامِحْ والتَمِس لي العُذْرَ إن بَدَرَتْ أمامَك هَنَاتٌ أو ظهر لك خلل.

وقد أَعْرضْتُ عن ذكر كثير من الأفكار والطرق والوسائل والابتكارات المشروعة، لأنها في استقصائها تَطْويلٌ من غير طَائِل، فقعَّدتُ لمبْدأي الابتكار والتنوع، ثم تركت المضمار للمتنافسين.

وقد أكرِّرُ المعنى في أكثر من موضع للاحـتياج إليه، فلا تَسْأَمَنَّ من التَّكرار، مع أنني انتقيتُ العبارات بدِقَّة، واخترت من الألفاظ ما حـسِبْتُه أوضَحَها وأَبْلَغَها لوصول مقصودي إلى القـارئ، بل إنني في بعض العبارات بل في كثير منـها أُضَمِّنُ كلماتي خَفيَّ المعاني التي لا أستطيع البَوْحَ بها لسبب يظهر لكل مُتَأَمِّل أو ذي ذكاء ولحَظ:

ففي النَّفس حاجاتٌ وفيك فَطَانَةٌ ✶ سكوتي كـلامٌ عندها وخطابُ

ومع ذلك فأنا أَعزِمُ على كل قارئ ألا يُحَمِّل كـلامي ما لا يَحْتَمِل، وأن يُحسِنَ النية والطوية في فَـهْم الألفاظ، وأنا قَانِعٌ أن ينظر إلى كتـابي هذا بعين النَّقد لا بعين الرضا، أما إن نظر بعين السُّخْط، فلن يَعْدَمَ المساوئ أبدًا.

وفي بعض القضايا احتـجت أن أُؤَصِّل لها من الناحية الشرعية، فـتوسَّعت في سَوْقِ الأدلة وَرَدِّ الاعتراضات، لأن حَسْمَ النزاع في تلك المسألة ينبني عليه عمل عظيم[١].

وصَدَّرْتُ الطرق بقواعدَ مُـهِمَّة مهَّدْتُ بها بين يدي مـوضوع خدمة الدين، رأيت في إيرادها ضرورةً، حتى تَتَأَسَّسَ بعضُ المُعطَيَات قبل أنْ نُبين المطلوب.

وكل ما ورد في هذا الكتاب من أحاديث فهـو من الصحيح أو الحسن، وما كان من ضعيف فهو نادر أو معدوم ـ إن شاء الله ـ، ولازِمٌ أن أُبيِّنَه.

---

(١) كان ذلك بالأخص في مسألتين، هما: الابتكار في الوسائل الدعوية، والعمل الجماعي.

وما كان من خطأ في التأصيل والتقدير والتحليل يراه القارئ في هذا الكتاب، فَحقِّي عليه النصيحة، وحقُّه عليَّ القَبول، والله يحكم بيننا وإليه المصير.

وأنا مُلْتمسٌ من قارئ حازَ من هـذا السِّفرِ نَفْعًا ألا ينساني بدعوة صـالحة خالصة في السَّحَر، وليـعلم أن ما في هذا الكتاب مِن غُنْم فحلالٌ زُلالٌ له ولغـيره، وما كان من غرم فهو عَلى كاهلي وظهري، وأبرأ إلى الله من كل خطأ مقصود، وأستعيذه من كل مَأثَمٍ ومَغْرَم.

فدونك ـ أيها القـارئ ـ هذا الكتاب، اقرأه واعمل بما فـيه، فإن عجـزت فأقرئه غيرك، وادعـه أن يعمل بما فيه، فـإن عجزتَ وما إخَالُكَ بعَـاجزٍ، فاشْتَـرِ منه نسخًا كثيرة، واحتسب توزيعها على الدعاة الذين تظنُّ فيهم الخير، وتَأْمُلُ منهم البذل لدين الله، فالدالُّ على الخير كفاعله، فإنك إن لم تفعل الخير أو لم تدع إليه، فبطن الأرض حينئذٍ خير لك من ظاهرها.

ومن سُوَيْدَاءِ قلبي أسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن ينفعك بما فيه، وأن يقوِّيكَ على العمل بما انتـفعت به، وأن يرزقك الصـبر على ما قـد يلحقك من عَنَتٍ وأذى، وأن يتقبل منك سعيك في خدمة الدين، وعند الله اللقاء، وعندَ الله الجزاء.

وفي الختامِ، فإني أَشْكُرُ كُلَّ سَاعـدٍ، وكُلَّ بَنَان، بَلْ كُلَّ كَلمَةٍ ونصيْحَة، بَلْ كُلَّ قلْب تَمَنَّى لهذا العـمل التَّمَام، وكُلَّ بَذْلٍ قَدَّمَـهُ أخٌ كريم، وصديق حميـم في سبيل خُرُوجِ هذا الكتـاب إلى النور، والحمد لله أولاً وآخـرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصَلَّى اللهُ على نبيِّنَا محمدٍ، وعلى آلهِ وصَحْبِهِ، ومَنْ تبِعَهُ بِإِحْسَانٍ إلى يوم الدين.

وكَتَبَهُ

أبو محمد العنبر بابن رضا بن أحمد صبري

عَفَا اللهُ عنهُ، وعَنْ والديْه ومَشَايخه

ظهيرة الثلاثاء السابع والعشرين من جمادي الأولى ١٤٢٠هـ

الموافق للثامن من سبتمبر ١٩٩٩م

تمهيد

قواعد هامة

القاعدة الأولى

خدمة الدين من ضروريات الدين

نعم .. إنها خدمة تعلو بها درجة العبد عند الله، وليست مِهْنَةً قَسْرية يُهان بها، أو منصبًا تشريفيًا يخيَّر بين القبول به، أو الإعراض عنه، وليست تبرعًا، ولا فرض كفاية، ولا مجرد أداء واجب، وإنما خدمة الدين ركن من أركانه، وضروري من ضرورياته، وأساس من أسسه، ولقد كان هذا المعنى مستقرًا عند السلف الصالح استقرار المعتقد في القلوب، ولم يحتاجوا أن يستدلوا له أو أن يقرِّروه لأنفسهم بشتى وجوه الاستدلال، بل كان يكفي أن يُسْلِمَ الواحد منهم أو يستقر الإسلام في قلبه، ليعتبر نفسه بعد ذلك منذورةً لهذا الدين، ويُجنِّدها في خدمته، ويَصرِفَ مجهوداتِها في نصرته والذَّودِ عن حَوْزته.

إن هذا الدين إذا تأمَّله المتأمِّل عَلِم أنه صِيْغَ ليكون المتمسِّكُ به داعيةً إليه، ودلَّالاً عليه، ومع مزيد تأمل يرى المرء أن من أراد أن يكون مسلمًا دون تبعات ومسئوليات تجاه إسلامه، فإنه رَامَ ضربًا من التدين شبيهًا بتدين الرهبان في الكهوف والصوامع والبِيَع، وقد تقرر أنه لا رهبانية في الإسلام.

إن من أوائل الأوامر الربانية التي نزلت في القرآن: الأمر بالنِّذارة، وتبليغ الوحي للخليقة، يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ (المدثر: ١-٢)، ثم توالى بعد ذلك ما يمكن أن نسميه فقهَ الدعوة، حيث تضمَّن التنزيل أوامرَ عُنِيتْ بالشأن الدعوي، مثل قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَذِهِ

سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (يوسف:١٠٨)، وقــوله: ﴿ ادع إلى سـبيل ربك بالحكمـة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (النحل:١٢٥)، وهي آيات ترسم صورة المسلم الداعية التي يتبع نهج نبيه ﷺ.

بل إن النبي ﷺ كان من أوائل اهـتماماته صِيَاغَةُ الشَّـخصيـة الدعوية، التي تحـمل همَّ الدين وتبـذل له، وكان أولُ من دعـاه النبي ﷺ للإسـلام هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلم يكن ذلك الصديق عـالة على الدعوة وعبئًا عليـها، بل تحرك من أول يوم ينشر هذا الدين حـتى دخل بجهوده الدعوية في أول الأمر سـتة من سادات قريش الشبان، إضافة إلى سعايته في فكاك العبيد الذين أسلموا من أَسْر الرِّق.

وإنَّ تحـرُّك صـحابة النـبي ﷺ بعـد وفاته في أقـطار الأرض، لدليل على أن الشخصية التي صاغها النبي ﷺ ورباهم عليها، هي الشخصية المتحركة للدين التي لا تعرف السكون ولا الكمون.

وفي تفسيـر قوله تعالى: ﴿ يا أيها المدثر (١) قم فأنذر ﴾.. يقول شيخ الإسلام ابن تيـميـة ـ رحمـه الله ـ: فواجب على الأمـة أن يبلغـوا ما أُنزل إليـه (أي: النبي ﷺ)، ويُنذروا كما أَنذر، قال الله تعالى: ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين [illegible] إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (التوبة:١٢٢)، والجن لما سمـعوا القرآن: ﴿ [illegible] ﴾ (الأحقاف:٢٩)[1].

ويقول ابن القـيم ـ رحمـه الله ـ: «وتبليغ سنته ﷺ إلى الأمـة أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو، لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس، وأما تبليغ السنن فلا يقوم به إلا ورثة الأنبياء، وخلفاؤهم في أممهم، جعلنا الله تعالى منهم، بمنه وكرمه»[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٣٢٧).
(٢) «التفسير القيم» (ص٤٣١).

ويقول الغـزالي ـ رحمـه الله ـ: «اعلم أن كل قاعد في بيـته أينمـا كان فليس خاليـًا فـي هذا الزمان عن منكر، من حيـث التَّقاعـد عن إرشاد الناس وتعليـمهم وحملهم على المعروف، فأكثر الناس جاهلون بالشرع في شروط الصلاة في البلاد، فكيف في القـرى والبـوادي، ومنهم: الأعراب والأكـراد، والتُّـركُمـانية، وسـائر أصناف الخلق، وواجب أن يكون في كل مسجد ومَـحِلَّةٍ من البلد فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا فـي كل قرية، وواجب على كل فـقيه، فـرغ من فرض عيـنه لفرض الكفـاية، أن يخرج إلـى ما يجـاور بلده من أهل السـواد، ومن العرب والأكـراد وغيرهم، ويعلِّمَهم دينهم وفرائض شرعهم»[1].

وعن جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار يقول: «لو استطعت ألا أنام لم أنم، مخافة أن ينزل العذاب وأنا نائم، ولو وجدتُ أعوانًا لفرَّقتهم ينادون في سائر الدنيا: يا أيها الناس . . النارَ النارَ»

وقال إبراهيم بن الأشعث: «كنا إذا خرجنا مع الفُـضيل بن عياض في جنازة، لا يزال يعظ ويذكِّـر ويبكي، حـتى لكأنَّه يودع أصـحابه ذاهبٌ إلى الآخـرة حـتى يبلغ المقابر، فـيجلس فكأنه بين الموتى، جلس من الحزن والبكاء حـتى يقوم، ولكأنَّه رجع من الآخرة يُخبرُ عنها».

وعن شجاع بن الوليد قال: «كنت أخرج مع سفيان الثوري، فما يكاد لسانه يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذاهبًا وراجعًا».

والإمام الزهري لم يكْتَفِ بتـربية الأجيال، وتخريج أئمـة الحديث، بل كان ينزل إلى الأعراب يعلمهم.

---

(١) «الإحياء» (٢/ ٣٤٢).

وكان الفقيه الواعظ أحمد الغزالي - شقيق أبي حامد الغزالي - رحمهما الله - كان يدخل القرى والضِّياع ويعظ لأهل البوادي تقربًا إلى الله.

يقول الراشد - حفظه الله -: «ولا ينبغي للداعية أن يَبْتَئِس إن لم يجد فضل وقت لقيام الليل يوميًا، والإكثار من ختمات القرآن، فإن ما هو فيه من الدعوة وتعليم الناس، وتربية الشباب خيرٌ وأجْزَلُ أجرًا، وقدوته في ذلك، ورائده أئمة الدعاة من السلف الصالح، الذين كانوا يسيحون لنشر الدعوة وتبليغها، ويبادئون الناس بالكلام، ويحتكون بهم احتكاكًا هادفًا، ولا ينتظرون مجيء الناس لهم ليسألوهم»، ثم ذكر قصة الأعرابي الذي جاء النبي ﷺ وسأله قائلاً: «يا محمد أتانا رسولُك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أَرْسلَك؟»[١].

قال الراشد: «أتاهم رسولُ رسولِ الله داعيًا، وكذلك الناس تُؤتى، ومن انتظر أن يأتيه الناس فليس بداعية، ولو فصَّلت كلمة الأعرابي لَتَبَيَّن لك كيف فارق ذلك الصحابي الداعية المدينة لما أرسله النبي ﷺ لقومِ هذا، وكيف فَارَقَ أهله وبيته وأولاده، وكيف اجتازَ المَفَاوِزَ وصحراء من بعد صحراء، وكيف تعرض للمخاطر والحر أو البرد، ليبلِّغ دعوة الإسلام، وهذا شأن الدعوة التي تريد أن تصل إلى أهدافها، لابد من تحرك ومُبادأة وغُدُوٍّ ورَوَاحٍ، وتَكَلُّم وزعْمٍ، ليس القعود والتمني من الطرق الموصلة، فافقه سيرة سلفك وقلدهم تصل، وإلا فراوِح مكانك فإنك لن تبرحه» اهـ[٢].

إن التحرك في الدين، وبذل المجهود في الدعوة إلى الله، والتمكين لشرع الله، وإعلاء كلمته في الأرض يجب أن يكون عنصرًا أصيلاً في النسيج الإيماني لكل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) نقلاً عن «علو الهمة» لمحمد بن إسماعيل المقدم - حفظه الله - (ص٢٦٤)، فما بعدها.

مسلم، فلا يَفْتأُ يحاسب نفسه في كل زمان: ماذا قدم لدين الله؟ يَتَقَلَّبُ في مَضْجعه قَلقًا، لا يَهْنَأُ بنومة، ولا يطيب له وَسَن، ترتاده أخبار المسلمين، فيهتم ويغتم، يفكر في سبل إيصال الحق إلى الخلق، فيخاف أن يقصر، يقلق من تنامي الكفر والفسق، يجزع من قلة الناصرين لدين الله، إنه لا يفكر في جاره فقط، أو صديقه كيف يدعوه، إنه يفكر في سكان الكرة الأرضية، كيف يُدخلهم في دين الله أفواجًا، يا لها من همة لو وجدت لها فؤادًا، وأحسِب أن مثل هذه النفس، لو تَلِفت همًا على حال الدين لما كان ذلك كثيرًا جَلَلاً.

ومن أعظم من نرفعهم قدوة ومثالاً في التحرك للدين جماعة التبليغ العالمية، التي ما فتئت تضرب لنا أروع الأمثلة في الحركة والتضحية، وبذل الغالي والرخيص في خدمة الدين.

يقول الشيخ محمد بن إسماعيل في كتابه (علو الهمة)[1]: «بالرغم من التحفظات على فكر ومنهج جماعة التبليغ، إلا أننا نُقرُّ بأنها أوفر الجماعات حظًا من علو الهمة في الحركة الواسعة الدَّءوب، ولهم في ذلك إنجازات رائعة أثمرت إسلام كثير من المشركين وهداية كثير من الفاسقين، وتبليغ دين الله في آفاق المعمورة».

حكى من شَهِدَ مجلسًا لهم قال: جلسنا يومًا في المسجد للتعارف، فقام شيخ وقور يعرِّف نفسه، وقد جاوز السبعين من عمره: اسمي الحاج وحيد الدين، أعمل في التجارة، وعمري الآن تسع سنوات، فاستغربنا وقلنا في دهشة: تسع سنوات؟!، قال: نعم، لأنني أحسب عمري من تاريخ دخولي في هذه الدعوة، أما قبل ذلك فإني أعتبر عمري ضائعًا، وكان هذا الرجل إذا وعظ قال: لا تضيعوا أعماركم مثلي، واشتغلوا بالدعوة إلى الله تعالى.

---

(١) (ص٢٨١) وما بعدها، نقلاً عن «لطائف من سيرة الرسول ﷺ والسلف الصالح» (ص١٨٨).

وقد حدث أن سألنا أميرهم: لماذا تذهبون إلى المقاهي لدعوة الناس؟ . . قال: أرأيتم إن كان عندكم مريض ماذا تفعلون له؟، قلنا: إن كان مرضه ثقيلاً نحضر له الطبيب في المنزل، وأما إذا كان مرضه خفيفًا فإنه يذهب بنفسه إلى الطبيب، قال: فكذلك الذين لم يعرفوا طريق المسجد، مرضهم الإيماني ثقيل، فنحن نذهب إليهم.

وسمعت بعض مشايخهم يروي موقفًا تعرض له، إذْ خرج للدعوة في حانة خمر في مدينة أوروبية، واستهدف رجلاً مسلمًا كان يُجالس امرأة وهو يشرب الخمر، فوعظه ونصحه وذكَّره بالله، حتى لان قلبه ودمعت عيناه، فأخذ بذراعه ليقوده إلى المسجد، وأخذت المرأة بذراعه الآخر تنازعه فيه، وكانت الغلبة له بعد تجاذب شديد من الطرفين، وأتى به إلى المسجد وعلَّمه كيف يتطهر ويصلي، ثم تاب، وحَسُنَت توبته.

وهم يجتهدون في ابتكار الحيل الخيرية لجذب الناس إلى الدين، كذلك التبليغي الذي أراد دعوة طبيب مشهور، فدفع قيمة الفحص، ولما جاءت نوبته دخل عليه، فتهيأ الطبيب لفحصه، فإذا به يخبره أنه ليس بمريض، وإنما رغب أن يذكره بالله، وينصحه في الدين، وراح يفعل ذلك، حتى رق قلب الطبيب، وتأثر بموعظته، وأراد أن يرد عليه قيمة الكشف، فأبى قائلاً: هذه قيمة ما استغرقته من وقتك.

ومن ذلك أنه لما صعد الإنسان إلى القمر، قال أحدهم: ولو صعد الناس إلى القمر، وتحول بعض منهم عن الأرض لنُرسِلَنَّ وراءهم قافلة تخرج في سبيل الله، وتَصْعَد إلى القمر لتدعوهم.

يقول الأستاذ الراشد - حفظه الله -: حركة التبليغ أجادت غرس الثقة في دعاتها، وبخطبة واحدة يتعلمونها، يجوبون الآفاق، ويواجهون المجتمع، وآخرون يأمرون إخوانهم بضم الرأس، ويقولون لفتى الصحوة: أنت في خندق، احترس وأتقن الاختباء!![1].

(١) «صناعة الحياة» (ص٦٠).

وهذا أخ مؤذن يأسف ويحزن حزنًا شديدًا، إذ بـلغه أن بُرج (بِج بِن) الشهير في لندن قد مـال، وأنه مُهدد بالانهيـار، فلما سُئل عن سـر أسفه وحزنه قـال: ما زلت أُؤَمِّل أن يُعزَّ الله المسلمين، ويفتحوا بريطانيا، وأصعد على هذا البرج كي أُؤَذِّنَ فوقه.

وأعرف (والكلام مـا زال للشيخ محـمد بن إسمـاعيل) أخـًا أمـريكيًا من أصل أسباني ممن أسلم لله، وحسن إسلامه، يعيش مع زوجته الأمريكية التي أسلمت أيضًا في مدينة (نيويورك)، وقد انتدب نفسه للدعوة إلى الله، فيخرج هو وزوجته، ويقفان أمام الكنيسة ليلتقط روادها من الرجال، ويدعوهم إلى الإسلام، وكذلك تفعل زوجته مع النساء، وذلك كل يوم أحد.

وأعرف (والكلام ما زال للشـيخ محمد إسماعـيل ـ حفظه الله ـ) أخـًا يعيش في ألمانيا أحسبه ـ والله حسيبه ـ، مجتهدًا في الدعوة إلى الله غاية الاجتهاد، حتى لا يكاد يذوق طعمًا للراحة، وقد استَحْوَذَت الدعوة على كل كيانه، حتى أَرْهَقَ نفسه، وشُغل عن بيته وأهله وولده، فـرأى إخوانه أن يُمنح عطلة إجبارية، وذهبوا به صـحبة أسرته إلى مُنْتَـجَع ناءٍ لا يعرفـه فيـه أحد، ولا يعـرف فـيه أحـدًا كي يهْنَأ ببعض الراحـة، وواعدوه أن يعـودوا لإرجاعـه بعد أيام، ولما رجـعوا إليه وجـدوه قد أسس جـمعـية إسلامـية في هذا المكان قـوامها بعض العـمال المغـاربة وغيرهم ممن انقطعـت صلتهم بالدين، ففتش عنهم في مظان وجودهم ودعاهم إلى طاعة الله، وألف بينهم، وأقاموا مسـجدًا كان فيـما بعد منطلقًـا للدعوة إلى الله في تلك البلدة، ثم ينقل عن الأسـتاذ الراشد قوله: وقد كنت في الأيام الخوالي ألاطف إخواني، فأفتش عن أحذيتهم، ليس على نظافتهـا وصبغها ورونقـها كالتفتيش العـسكري، بل على استهلاكهـا وتقطعها، والغبـار الذي عليها، وأقلبـها فأرى النَّعل، فمن كـان أسفل حذائه مُـتَهَرِّئًا تالفًا فـهو الناجح، وأقول له: شاهدُك مـعك، حذاؤك يشهد لك أنك تعمل وتغـدو في مصالح

الدعوة وتروح، وتطبق قاعدة: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (يس: ٢٠)، وبكثرة حركتك تلف حذاؤك، فأنت المُجتَازُ المرْضيُّ عندي.

قال صباح (من تلاميذ الأستاذ): «قد - والله - بعد عشرين سنة يأخذني تأنيب الضمير كلما رأيت حذائي لا غبار عليه، وأتذكر ذاك التفتيش»[١] اهـ[٢].

وإذا تأملنا بعض النصوص الشرعية التي عالجت الوضع الاجتماعي للمسلم.. نجد أنها تركز على الإصلاح كجانب أساسي في قيام الدين، وكما أنه لا إصلاح بدون صلاح، فلا صلاح بدون إصلاح، وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، ويقول ﷺ: «الدين النصيحة»[٣].

فتأمَّل - يرعاك الله - كيف أن خيرية الأمة مبنية على القيام بواجب الإصلاح وأن الدين مشتمل على أسس من أهمها النصيحة، وعلى هذا بايع النبيُّ ﷺ بعضُ الصحابة: أن ينصح لكل مسلم[٤].

وقد قرر علماء الأصول: أنّ الحكمة التي لأجلها شرع الله الأحكام منها ما هو ضروري، ومنها ما هو حاجيٌّ، ومنها ما هو تحسيني[٥].

فأما الضروري فهو أصول المصالح التي لا تقوم الحياة إلا بها، ولو تُصور زوالها لأدى إلى فوات حياة الناس، ويصبح عيشهم تَهَارُجًا وفوضى.

---

(١) «صناعة الحياة» (ص١١٢).
(٢) «علو الهمة» (ص٢٨٤).
(٣) رواه مسلم في «صحيحه».
(٤) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم. رواه البخاري في «صحيحه».
(٥) أما الحاجي: فهو من مهمات المصالح التي لو تصور زوالها لكانت معيشة الخلق قائمة على مشقة غير محتملة، ولكنها لا تؤدي إلى فوت تلك الحياة وزوالها بالكلية، وأما التحسيني فهو من ملح المصالح، بحيث لو تصور زوالها لما حصل فوات الحياة، ولا حصول المشقة الشديدة، وإنما هي من قبيل الزينة التي توفر حياة رغدة هنيئة سوية (راجع كتاب «الموافقات» للشاطبي - رحمه الله -).

وأصول الضروريات ترجع إلى حفظ خمسة أمور، هي: الدين، والنفس، والعقل، والنسب، والمال، وبدون حفظ هذه الأمور يعيش الناس عيشة البهائم الرتع، وتفوت حياتهم الكريمة التي أرادها الله لهم.

وجعل العلماء حفظ الدين من أولى الضروريات التي اهتم بها الشرع، فإن مدار الأحكام الشرعية على هذا الضروري مثل وجوب لزوم الاعتقاد الصحيح، الذي هو أُسُّ الديانة، ومرورًا بالأركان الخمسة التي عليها يقوم بناء الدين، وأركان الإيمان التي بها يصح العمل والإحسان الذي به يقبل العمل، وكذلك الجهاد الذي هو ذِروة سَنَام الدين، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر الذي هو روح الشرع، والنصيحة التي هي الدين كما قال ﷺ.

كل تلك التكاليف الشرعية مقصودها حفظ الدين، وفي سياق ذلك يُفهم أن أعمال المكلف لابد أن تدور حول هذا الضروري (حفظ الدين)، والذي يتخيل حياة حافلة بالأعمال الصالحة دون أن يستحضر هذه النية فيخشى عليه أن يكون داخلاً في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (النساء: ٧٧).

بل إنني أزعم أن من سمات العلمانية الواضحة أنها تريد من المسلم أن يعيش إسلامه كطقوس منزوعة المعنى، بعيدة عن هذا المقصد الذي نحن بصدده، فيصير الإسلام مجرد فكرة جميلة المبادئ، يعيشها المسلم دون التزام بنصرة هذه الفكرة التي يحياها كعاشق حالم، وإذا بنا نبصر هذه الشخصيات المسلمة الممسوخة التي ليس عندها أدنى استعداد لتقديم أي شيء في سبيل نصرة قضايا دينها وأمتها.

وليس خافيًا أن مجهودات وسائل الإعلام المعادية للدين تركز على جانب خبيث في الفكر الإعلامي يعرف بمصطلح: (حشد اهتمام الرأي العام)، ولو تتبع أيُّ أحد

اتجاهات الإعلام (لا أقول في دول الكفر بل في الدول التي تستظل بمظلة الإسلام) سيجدها في أقل أحوالها مُنصبَّة في تخدير الشعور الديني، وإذا زاد الخُبث قليلاً، فإنهم يعملون على إثارة الغرائز وإغراق النفوس بالشهوات الحيوانية، وإذا تعاظم الخبث، فإنهم يعملون حينئذٍ على تشويه معالم الدين وقلب الحقائق، وهذا لَعَمْري أعظم الأثافي.

وكما يحكي بعض الدعاة: أن البرامج الإعلامية غدت ذات تناقضات من قبيل المضحك المبكي، فلا غضاضة عند القوم أن يكون بعد الحديث الديني فيلم أمريكي داعر، ولا ملامة على مُقدمة البرامج المتبرِّجة أن تُجري حديثًا تلفزيونيًا مع شيخ مُعَمم، ثم تستطيع أن تسمع مذهولاً عن مسلسلات تسمى دينية، يظهر فيها الأئمة عُشاقًا وأصحاب مزاج موسيقي، وتذوق عال لجمال النساء والفن.

إن هذه التناقضات المقصودة يراد منها أن يتجرع المسلم دواء يزيل عنه الجانب التطبيقي من تديُّنه، فيصبح مسلمًا مصليًا صائمًا حاجًا لكنه لا يجد تعارضًا بين ذلك وبين موالاة الكافرين، ومصاحبة الفاسقين، وأكل الربا وغشيان الفجور، والتحاكم لغير شرع الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ[1]، وأصبح من العادي أن أسمع عن كثير من الشباب يلبس ملابس لا تَنُمُّ عن دين وحياء، وبجانبه اصطَفَّ فريق النساء المترجلات، أو الرجال المتخنثين، يمسك بسيجارة عفراء، أو يمضغ علكًا بطريقة أنثوية، ثم يقول: الحمد لله أنا لا أعمل شيئًا يغضب الله!

(١) ومن مرجئة العصر من يقول: مادام القلب سليمًا أبيض، لا يكنُّ عداوة إلى أحد، فليس من بأس إن ترك الصلاة والزكاة والصوم أيضًا، فإذا خوصم إلى أدلة الشرع، قال: إن هذه الأمور بينه وبين الله، فلماذا يتدخل الناس فيما لا يعنيهم، وإنك لن تعدم في هذا الزمان من يظن نفسه في مرتبة الصديقين لا لشيء إلا أنه يمسك سبحة يلهو بها، بينما هو من مضمون الإسلام فارغ، فإلى الله المشتكى من غربة الزمان.

إن هذا الجيل قد تعرض لحملة من التشويه الإعلامي تضارع في شراستها حملة محاكم التفتيش في العصور الوسطى، لإثناء الناس عن الإسلام إلى النصرانية، ولكنها تغلفت في القرن العشرين بميكيافيلية خبيثة، إذ صار الفجور عصرنة وتطورًا، والالتزام تحجرًا ورجعية، وصار حجاب المرأة المسلمة تخلفًا، والسفور تقدمًا، والأدهى والأمَرُّ أن الإعلام قد علم قوة الدين في قلوب الناس، وسرعة استجابتهم لنداء الحق إذا سمعوه، فأطفئوا ذاك النور الباقي، ولقحوا عقول الناس بمصل يقي من التدين، فما أن يتعرض الواحد منهم إلى شعاع بسيط من نور الحق إلا ويبادره هواه بالردود المعلَّبة: الدين يُسر، وإياك والغلو في الدين، والتطرف عاقبته كذا وكذا .. هذا عدا من جعل بينه وبين التدين ستارًا واقيًا بزعم أن التدين يقود إلى السجون والمعتقلات.

والأعجب من هذا إذا لم تتعجب مما مضى أن كثيرًا من الأكاديميات الإسلامية العريقة، تمارس ذات الدور الذي تمارسه وسائل الإعلام، بل أنها قد تفوق بما تبثه في قلوب الشبيبة من احتكار المتخصصين في الشرع للدعوة، وضرورة أن يحصل على إذن الدعوة من الجهات التي تُخَوِّلُ للناس أن يدعوا إلى الله، ناهيك عن الدور التربوي القاصر الذي تقوم به تلك الأكاديميات مع الطلاب الذين يُتوقع منهم أن يكونوا دعاة الغد.

وفي بعض المخيمات الصيفية الشبابية التي تقيمها بعض تلك الأكاديميات تحدث المهازل والطوام التي يشيب لها الولدان، فإذا ما سألت عن القوم، وجدت منهم خريجي الشريعة والدعوة ونحوهما.

ولقد سمعت بنفسي في الكلية الشرعية التي درست فيها من طلبتها من يسب دين الله، أما المتخنثين وتاركي الصلاة والمدخنين، فحدِّث عن ذا ولا حرج، فليس غريبًا إذن أن نرى تلك الألوف من خريجي الكليات الشرعية هي أول من يحارب الدين ويعاديه، وليس غريبًا إذن أن نرى العمائم هي التي تحارب صحوة الشباب المسلم.

لقد ضبط في بعض البلاد الإسلامية تنظيمًا لعبدة الشيطان، وقد ظهر من التحقيقات أن هذا التنظيم يمارس بالفعل عبادة الشيطان، وتقديم القرابين له، وفعل المنكرات الشنيعة التي يأمرهم بها شيطانهم، ولم تكن مفاجأة كبيرة أن يفتي بعض المعممين بأن هؤلاء الشباب الطائش لا يقصد - حقيقة - عبادة غير الله، وأن مثل هؤلاء لا يُقام عليهم حدُّ الرِّدَّة، فقد كان معظم التنظيم من الشباب الصغير الذي عانى من الثراء الفاحش والتفكك الأسري، وتعرض لغسيل مخ من قبل بعض الأفراد في الخارج والداخل.

ولكن الغريب المسْتَهْجَن، والذي ليس له تفسير: أنْ يُفْتِيَ نَفْسُ ذلك المعمم في حق بعض الشباب المسلم المتهور في تغيير المنكر، بأنهم من المحاربين الذين يجب أن يُقتلوا أو يُصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف!!.

وهكذا تُخْتَزَلُ الحقائق، ويطيشُ الميزان، ويتبين لكل ذي لبٍّ أن طريق خدمة الدين مآله تقطيع الرقاب، وأما عبادة الشياطين، فهو أمر يمكن للمجتمع أن يَغُضَّ عنه الطَّرف.

أوَليس كل ذلك مما يزهِّد الناس في خدمة دين ربهم وينأى بهم عن القيام بما يُمليه عليهم واجب وجودهم في هذه الحياة أصلاً؟، وليس يخفى أن هناك أدوارًا أخرى خبيثة غرضها التأثير في أخلاق المسلمين، بزرع الجُبن والهَلَع والرضا بالضَّيم، ونزع المكارم والمُثُل: كالشجاعة، والنَّجدة، والحميَّة للدين ونحو ذلك، مما استتبع وجود شخصيات قابلة للمسخ والتشويه.

تبقى الإشكالية التي تحتاج إلى مجهودات ضخمة لعلاجها: وهو كيفية بث هذه العقيدة (أعني عقيدة خدمة الدين) في قلوب كل المسلمين فضلاً عن الدعاة والغيورين على دين الله تعالى.

إن مثل هذا الأمر لو حدث، فإن الدعوة ستقطع شوطًا واسعًا في إعلاء كلمة الله تبارك وتعالى، إذ لا يزال من أهم العوائق التي تحول بين الدين وبين انتشاره في

قلوب الناس، أنهم يظنون الدعوة مهمة ذوي العمائم واللحى، وأن الواحد ما دام محافظًا على شعائر الدين فإنه غير مسئول بعد ذلك عن أية قضية تلمُّ بالمسلمين، وقد قرأنا وجهة النظر هذه بقلم كبار الكتاب، والصحفيين يستعلنون بين الناس بأن قضية مثل قضية البوسنة، لا يجب أن تشغلنا عن مشاكلنا الداخلية، بينما نجد دولاً مثل النرويج تعتني بمثل هذه القضية، لتأثيرها عليها من ناحية نزوح اللاجئين، فكيف لا تكون هذه القضية ذات أثر علينا ـ نحن المسلمين ـ وهم شركاؤنا في الدين؟.

لقد رأينا البرتغال تدخل أنفها في قضية تيمور الشرقية (وهو إقليم ذو أكثرية نصرانية في إندونيسيا يطالب بالاستقلال) لا لشيء إلا أن هذا الإقليم إرث استعماري يربطه بالدولة الأم آصرة الديانة الكاثوليكية.

إن الاهتمام بقضية الدين وبقضايا المسلمين لا تزال تشكل في مجتمعاتنا الإسلامية حسًا ثانويًا يتوارى وراء الاهتمامات التافهة لشرائح المجتمع، وكم رأينا أمتنا تحشد شبابها عن بكرة أبيهم لتنظيم دورة ألعاب، أو استقبال مُطرب عالمي، أو تنظيم مهرجان سينمائي أو غنائي، ولكن عندما يُمس جناب الدين، فإن الجمل يَسْتَنوِق، وترى الهرَّ يحكي انتفاشًا صولة الأسد[1].

---

(١) لقد رسمت فتاة يهودية صورة لخنزير يلعق كتابًا، وكتبت على الخنزير ـ قطع الله يدها ودابرها ـ اسم نبينا محمد ﷺ، وكتبت على الكتاب اسم القرآن، وقد قدمت هذه الفتاة إلى المحاكمة، وسط استنكار عالمي ـ من المسلمين وغير المسلمين ـ، ثم أفرج عنها بعد حين، وهدأت الرياح، وتكررت المأساة في أكثر من بلد إسلامي وغير إسلامي، والفائدة التي خرجنا بها من تلك المآسي المتكررة أن حبنا للدين وتعظيمنا له لا يعدو أن يكون عاطفة عادية جُبلنا عليها، ولكن التفاعل مع هذه العاطفة، فهو مفقود بحكم برودة العادة ـ كالعادة ـ، ولو حدث شيء مما يحدث الآن في عهد الصحابة والتابعين، بل في عهد من عهود الضعف لانبرى لأولئك الموتورين من ينسف عليهم السقف من فوقهم، فقد قال القديم:

لا يَسْلَمُ الشَّرَفُ الرَّفيع من الأذى ... حتى يُرَاق على جوانبه الدَّمُ

وقد نسي قطاع كبير من أولئك الذين يهتمون بشعائر الإسلام الظاهرة (كالصلاة والصيام والحج) أن من أعظم شعائر الدين الاهتمام بأمر المسلمين، حتى توعد الله - تبارك وتعالى - المتقاعسين عن خدمة الدين بالخزي في الحياة الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التوبة: ٣٨-٣٩).

إن خدمة الدين ليست قضية أصحاب العمائم واللحى، - كما استقر في ضمير البعض خطأ - بل هي قضية كل مسلم ينتمي للإسلام لمحض كونه مسلمًا، وتركيبته كمسلم لن تستقيم إلا بتبني هذه القضية بحيث تضحى حياة المسلم ممزوجة بهذا الهم، إذا سأل عن طعامه وشرابه، فلن ينسى أن يسأل نفسه: ماذا قدم لدين الله - تبارك وتعالى -؟

وسيبقى المسلمون يعانون ظلم الغير وبغيه، ما لم يوجد هذا الحسُّ في ضمائرهم طبعًا، يُستَنفر عند كل مُلِمَّة، ويَتَعَاظَم عند كل دائرة تدور على المسلمين.

وليس للأمة ولا لأي مسلم من قيمة، إن هو جلس يتفرج على مهرجان ذبح الأمة الإسلامية ظانا أنه لن يُذبح مع المذبوحين.

فما المعنى بأن نَحْيَا *** فلا نُحْيي بنا الدينا
وما المعنى بأن نجتَرَّ *** مجداً ماضيًا حينا
وحينا نطلق الآهات *** ترويحا وتسكينا

(إن الأمر لم يعد مجرد فساد خلقي وفجور وخمور يمكن أن ينحصر وعظ الواعظين إزاءها - كما يقول الراشد[1] - بل صراع سياسي حزبي منظم لإقامة الدولة الجاهلية، ولقد أقاموها، وصراعهم مستمر لإدامتها، وترسيخها وتربية الأجيال الجديدة على الكفر، وفي هذا ما يوجب على أصحاب الغيرة الإسلامية والعقيدة

(١) «المسار» (ص١٨) بتصرف.

الإيمانية في كل مكان أشياء من التعاون والانتظام والتخطيط، وتكميل النقص التربوي والتوسع العددي، في عملية استدراكية من خلال ممارسة جهادية سياسية غير متهورة، تُقام بها دولة إسلامية رجالُها دعاة حركيون.

وكل مسلم مطالب بإبداء أثر في هذا الاستدراك، والمشاركة فيه بنوع من الخير، حسب استطاعته، ولا معنى لحياة امرئ سلبي يرتع في هذه الدنيا أكلاً وشربًا وتلذذًا بالنساء والمفكرون من حوله لا يحاول أن يبدي موقفه منهم، والسياسيون عن يمينه وشماله بين صالح وطالح يصطرعون وهو يتفرج.

إنَّ السلبية والانعزالية والتفرج ما هي إلا تعابير مخفَّفة مجازية يأباها الصادقون المحترقون على الأمة بل يعدون ذلك موتًا، فالمرء والسيف ما لم يُبديا أثرًا: حَيٌّ كَمَيِّتٍ، مَسْلُولٌ كَمَغْمُود.

وبلغ الرافعي مبلغا أقصى، فرأى وجود السلبي غير مُبَرَّر، وأنْذَرَكَ بوجوب الجلاء، وأنك: «إن لم تُزِد شيئًا على الدنيا كنت أنت زائدًا على الدنيا» اهـ.

أين الخلل؟!

وفي ظني أن العصبية للدين[1] توارت وراء العصبيات الأخرى التي تَرَبَّى عليها المسلمون، كعصبيات الجاهلية الحديثة، من: قوميَّة، وشعُوبيَّة، وقُطْرِيَّة، بل وحزبيات

---

(١) وهي عصبية مشروعة، ومعناها: إنكار أي ولاء مطلق إلا الولاء للدين، ودليله قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقال ﷺ: «**الإسلام يعلو ولا يُعلى**» رواه البخاري تعليقًا بصيغة الجزم، وقال ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٢٢٠): قوله: وقال: «**الإسلام يعلو ولا يعلى**» كذا في جميع نسخ البخاري، لم يعين القائل، وكنت أظن أنه معطوف على قول ابن عباس، فيكون من كلامه ثم لم أجده من كلامه بعد التتبع الكثير، ورأيته موصولاً مرفوعًا من حديث غيره، أخرجه الدارقطني، ومحمد بن هارون الروياني في «مسنده» من حديث عائذ بن عمرو المزني بسند حسن، ورويناه في فوائد أبي يَعلى الخليلي من هذا الوجه، وزاد في أوله قصة .. ثم ذكرها. اهـ.

ضيقة، حتى تضاءلت مساحة الإسلام في بؤرة الشعور، ورد الفعل التِّلقائي عن أي أزمة تنزل بالإنسان يكون قويًا بقدر المساحة التي تحتلها تلك الأزمة من بؤرة شعوره، ولاشك أن مشاعر المسلمين تحتلها أولويات أخرى غير دين الله تعالى، هذا ينبغي ألا نماري فيه ـ حتى على صعيد الملتزمين والغيورين على الدين ـ، كنقطة انطلاق لعلاج هذا الخلل، أما إذا توارينا زورًا وراء الادعاءات الكاذبة، فإنها لن تخدع رب العباد، ولن تغني عن واقع الأمر فتيلا.

وأعياني أن أبحث في علاج هذا الداء العُضال الذي تعانيه الأمة الإسلامية، حيث لا أستثني نفسي منه، ولكنني من استقراء كثير من النصوص الشرعية، ومن سيرة السلف، ومراجعة حال النفس وأحوال كثير ممن حولي وجدت أن أساس تراجع الدين في سلم أولويات المسلمين يرجع إلى مزاحمة الدنيا للدين[1]، وهو ما يفهم من قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ﴾ (التوبة: ٣٨)، في معرض لوم المتأخرين عن الجهاد في سبيل الله، ولعمري إنها آفة الأولين والآخرين، وفي حُبِّها تَجَنْدل الصَّناديد صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية، وما حذرها امرؤ إلا كان أول فوز يحوزه تَفَرُّغُ قلبه للاهتمام بما أمره الله به.

والعجيب أيضًا أن الخلل في مسألة تفضيل الدنيا على الآخرة لا يرجع إلى عدم فهم النصوص أو عدم الاقتناع بها، ولكنه يرجع إلى التركيبة النفسية والاجتماعية التي ينشأ عليها الإنسان.

ولقد رأيت أفرادًا من أُسر واسعة الثَّراء لكنهم تربوا على يد آباء ذوي حصافة ودراية بمكائد الدنيا، فنشأوا على البساطة وعدم التكلف، بل إنهم إذا تعرضوا لبلاء من بلاءات الدنيا لم نر لهم جزعًا كجزع عبدة الدرهم والدينار.

---

(١) ولن ننسى أن نذكر بأثر الصوفية ومناهجهم في تشويه معالم الدين عبر الإرجاء والجبر الذي لزم كل عقائدهم وانسحب إلى منهجهم العملي في الحياة، والتعامل مع مجريات الأمور.

وآخرون من ذوي الإملاق، لكنهم تَنَشَّأوا على حب هذه الفانية والتعلق بملذاتها وتمني الحصول على كل شهواتها، فإذا ما ألَمَّت بهم ملمة - وإن دقت - رأيت السَّخط يعلن نفسه بعبارات كفرية جريئة لا يلْفظُها إلا من خلا قلبه من الإيمان والرضا بالقضاء والقدر.

إن هذه التركيبة النفسية هي التي تسهل وجود الخونة بين أفراد الأمة، كما أن هذه التركيبة النفسية كفيلة بأن تجعل صاحبها يتخذُ من الدنيا كعبة يستقبلها، فيتعبد في محراب شهواتها مخلصًا، لا يخطر له الدين على بال فضلاً عن أن يبذل له أو يجاهد في سبيله.

وكذلك التركيبة الاجتماعية التي وضعت مفاهيم في الرَّفاهية، ومستوى المعيشة لا يعرفها شرع ولا عرف[1]، فأضحى كل الناس يتسابقون ويتراكضون في حلبة السَّبق لتحقيق هذا المستوى، فإذا ما عرض لهم من أزمات المسلمين عارض، تحججوا بأن ضروريات حياتهم لما يستْكملوها وأن للدين رب يحميه، ولن تعدم أن تسمع أمثالاً تُصاغ من قبيل: ما يحتاجه بيتك يكون حرامًا على المسجد، وجُحا أولى بلحمِ ثوره، في خساسة لا تُعهد إلا عند بني إسرائيل.

وحتى نصلح هذا العوج، فإننا لابد أن نمارس دورا تربويًا واسع المدى على نطاق الأفراد والمجتمعات، لإصلاح هذه التركيبة الخاطئة، ومقاومة زحف الشهوات المهلك الذي هو عرض من أعراض حب الدنيا وداء عضال في نفس الوقت.

ومن أساسيات الدور التربوي الذي يجب أن يمارس على نطاق الأفراد والجماعات لإصلاح التركيبة النفسية والاجتماعية ما يلي:

---

(١) وصار من أهل الديانة من يعتبر المكيف والمُبَرِّد والسجاجيد التي تملأ جنبات البيت من ضروريات الحياة، وصارت هذه الضروريات - زعموا - مقدمة على كثير من فرائض الدين، بل قد رأيت من الأسر المسلمة من يدخر من قوته لأجل أن يشتري سيارة فارهة، لا لشيء إلا لأن سيارته صارت من ذوات العهد العتيق، وقد صدق رسول الله ﷺ القائل: **«إذا كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى الثاني، وإذا كان له الثاني لتمنى الثالث، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»** رواه بنحوه مسلم في «صحيحه».

١ ـ تربية النشء الصغير على مثل التضحية في سبيل الدين والبذل له، والجهاد في سبيله، ويكون ذلك بالأساليب الآتية:

- تضمين المناهج العلمية والأدبية هذا المنحى التربوي، سواء على نطاق التعليم الرسمي أو الأهلي.
- وجود جُهد أدبي قصصي للأطفال يعالج هذا الجانب في الإصدارات الأدبية.
- تفعيل دور الناشئة عبر تشريكهم في قضايا المسلمين ومطالبتهم بالبذل ولو بالقليل، ومما أبهجني أن أطفال النرويج استطاعوا جميع الملايين من الدولارات لأطفال البوسنة في حملة تبرعات مرعية من وزارة التعليم أثبتت أن توجيه الناشئة كفيل بزرع نوازع الخير في قلوبهم، وأدمى قلبي أن لم يكن من بين بلاد المسلمين من يوجه أطفالنا هذه الوجهة، وأنى لهم ذلك والكبار في سُبات؟!.
- تكثيف دور الأسرة في غرس قيم التضحية والبذل والعطاء للدين، ولاشك أن أُولى المبادئ التي يتعلمها الطفل، إنما هي التي يرضعها من والديه ارتضاعًا[(١)].

٢ ـ ممارسة دور مماثل لهذا الدور الذي يمارس مع النشء الصغير مع الشباب، وخاصة ذوي الميول الدينية، لأن هؤلاء بطبعهم يميلون إلى تبني قضايا الدين.

٣ ـ تكثيف الدور الإعلامي الإسلامي في عرض قضايا المسلمين، بحيث يتواجد الصوت الإسلامي الذي يشرح القضية من وجهة نظر المسلمين لا على هوى (رُويْتَرْ) و(أسْوشيتِدبرسْ)، ولنا مع هذا الدور عوْد في وسائل الدعوة.

٤ ـ تكثيف الأدبيات الراقية التي تخاطب كل المستويات، فمن شأن هذه المؤلفات ـ من نثر وشعر ـ أن تستنفر الضمير وتحفز الهمم.

---

(١) ذكر الشيخ إبراهيم الدويش ـ حفظه الله ـ نماذج رائعة لبذل الأطفال، منها: تبرع طفل بما جمعه في حصالته من مال لصالح المسلمين في كوسوفا، والأمثلة كثيرة تؤكد أهمية ما قلناه هنا من غرس حب البذل والعطاء والانتماء في نفوس الأطفال.

٥ ـ رعاية المؤتمرات التي تُعقد لمناقشة أو مناصرة قضايا المسلمين، لأن مثل ذلك له دور في تحريك الهمم ورفع مستوى الإحساس بالقضايا المعالجة.

٦ ـ تحريك دور الهيئات والجمعيات الإسلامية وتطوير أدائها ومعالجة العقبات التي تعترض دورها التربوي في تناول قضايا المسلمين.

٧ ـ ضرورة مراجعة مفردات الخطاب الديني المتمثل في الخطبة والدرس، وتقويم الاتجاه الإصلاحي الذي يركز على مسائل أساسية في الدين مع عدم الإحاطة به، وضرورة أن يستشعر المستمع العادي ثقل الهمِّ عبر الخطبة والدرس ليبدأ التَّشارك في قضايا المسلمين.

٨ ـ على صعيد الموضوعات التي يجب تكثيف طرحها على الناس، الزهد في الدنيا وملذاتها، ولعمري إن هذه القضية من أساسيات الدين، ولم تكن مواعظ القرآن والسنة إلا مُدَنْدنة حولها، ومع وجود المواعظ الزهدية لابد أن توجد النماذج الزاهدة التي تذكر الناس بالله والدار الآخرة، ويجب استغلال المناسبات التي تحضر فيها القلوب، كمناسبات: احتضار المرضى، وعند الموت، والدفن، في التزهيد في الدنيا، والترغيب فيما عند الله ـ تبارك وتعالى ـ.

٩ ـ تنشيط دور الكتيب والشريط الإسلامي، وأن تكون الموضوعات التي تتناولها تلك الوسيلتان ذات قسط من قضايا المسلمين، وكذلك في علاج التركيبة النفسية والاجتماعية الخاطئة في المجتمع المسلم.

١٠ ـ استغلال المناسبات الاجتماعية ـ كعقود الزواج والزيارات ونحوه ـ في طرح الموضوعات ذات الصلة.

وكما نرى من تلك المقترحات أنها رهينة الظرف، فاجتهاد الداعية في استغلال الأفكار له دور في توليد كثير من الحلول والعلاجات التي من شأنها أن تؤثر تأثيراً شديداً في تلافي الخطأ التربوي الذي أفرز هذا الجيل الذي لا يعبأ إلا بشهواته.

القاعدة الثانية

﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

مما لاشك فيه: أن الساحة تشهد زخمًا في التحركات الدعوية النشطة، ومنافسة في وجوه البر والخير، ومسابقة إلى صبغ المجتمع بالصبغة الإسلامية، وخلع سربال الجاهلية عنه.

ولن تخطئ عينك - أيها القارئ الكريم - رؤية اختلافات في موضوعات الخطاب الدعوي التي تسمعها من الدعاة على اختلاف مشاربهم، مما قد يظنه البعض تناقضًا أو خللاً في مناهج تلك الحركات الإسلامية، فيَعْمد إلى التَّشغيب ووصف الحركات الإسلامية بصفات الأحزاب السياسية التي تسعى إلى الزعامة والكرسي وغير ذلك من الكلام المريض الذي لا يصدر إلا عن قلب مريض خلا عن الغيرة على دين الله - تبارك وتعالى -.

ولاشك أن بعض الحركات تصرُّ على مسالك في الدعوة تتناقض مع توجهاتها الدعوية مما يُفقدُها المصْدَاقيَّة على مرِّ الأيام، ولكنه ليس بمسلك عام، ولا قاعدة مطَّردة، فالحقُّ أن مناهج الحركات الإسلامية العاملة على صعيد الساحة الدعوية - ممن ينتسب إلى أهل السنة والجماعة[١] - لا تتعارض في الخطوط العامة مع أصول أهل

(١) هذا الحكم في الجملة، وباعتبار التوجهات العامة التي تقرها تلك الحركات الإسلامية بصفة رسمية، أما ما هو من قبيل الرأي الشخصي الشاذ أو التوجه الفردي المخالف لمنهج أهل السنة لا التوجه الجماعي، فلا نقيم له في اعتبارنا وزنًا، وإن كان صدوره من الشخصيات الدعوية المرموقة قد يؤثر على النسيج الوحدوي للصحوة الإسلامية، كما أن احترامنا للحركات الإسلامية على اختلاف توجهاتها لا يمنعنا من توجيه النصيحة إليها، أو إلى فرد من أفرادها أخطأ وزل، وأن نبين عوار الرأي الذي انتحله إذا كان ذاك الرأي مخالفًا لإجماع السلف الصالح أو يعارض نصًا واضح الدلالة، ولكن يجب أن يسود جو الود، والتفاهم والتغافر والتحاب، وأن يتأكد حرص الجميع على الروح الجماعية المفقودة.

السنة والجماعة، وغاية ما في الأمر أن الحركات الإسلامية تختلف فيما بينها حول الأَوْلى بالاهتمام والصَّدارة في الخطاب الدعوي.

ونود هنا أن نؤصل للخطاب الدعوي وآليته الذي بها تستقر اهتمامات الدعاة، وتتوازى مُفردات خطابهم بما لا يؤدي إلى خلل مُرْبك، أو تصادم مُؤَخِّر (١).

وما سنتحدث عنه ليس خطًا نلزم به كل الحركات الدعوية بقدر ما هي رُؤى أرى أنها محل إجماع، أو ينبغي أن تكون محل إجماع، أدعو الأفراد (أولاً بحكم كون هذا الكتاب يخاطبهم بالدرجة الأولى) والجماعات أن تتجاوب معه، أو تَتَبنَّى بحثه والتشاور في شأنه، لعله أن يثري استقامة وتعاونًا على جادَّة وكلمة سواء.

إن دين الإسلام واضح الأركان، بيِّن المعالم، وما جاء به الرسول ﷺ، لا يجهله أي داعية إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وما إخالُ داعية يماري أن النبي ﷺ دارت دعوته على التوحيد، وكان قُطْبُ رحاها تمحيص التوجه إلى الله تعالى في العبادة والطاعة، وعدم الحيْد عن الإخلاص للمولى، تجاه أي طاغوت يستحوذُ على ضمير الإنسان، وينال من تعظيمه المطلق لله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، كما لا أحسب أن هناك من ينازع أن حاكِميَّة الله ـ تبارك وتعالى ـ على الخلق، وانضواء الخليقة تحت حُكمِ شريعته من آكد ما أصَّله القرآن والحديث النبوي، ولِنُطلق على هذا الخط أو الأصل (أصل التوحيد).

ولا يمكن أن يدور بخلد أي مُنتَمٍ لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يتَّخذَ أسوةً وقدوةً حياتيَّة في هذه الدنيا غير النبي ﷺ، أو أن يتلقَّى عن أحد شرعًا أو طريقة حياة أو منهج اتباع خلا نبيَّ الهدى ﷺ، ولنُطلق على هذا الأصل (أصل الاتباع).

---

(١) ما نَنْظُرُهُ هنا: إنما هو لأجل توحيد مفردات الخطاب الدعوي لكل الحركات والجماعات الإسلامية العاملة، وسنتحدث عن الطريقة العملية التطبيقية لتوحيد الجُهد الدعوي نفسه في طريقة (إصلاح ذات البين).

كما أن الجميع مجمع أن الأنبياء والرسل لم يأتوا بالشرائع لأجل أن تتزين بها الكتب ودور العبادة، بل لأجل أن يوجد لها واقع ملموس في دنيا الناس، ولأجل أن توجد النماذج البشرية الكاملة التي اصطَبَغَت بمنهج التزكية الشرعي مُتَأَسِّيَة بالأسوة العليا نبينا محمد ﷺ، ومن أوصانا (أعني: النبي ﷺ) باتباعهم والتأسي بهم، وهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين من أهل القرون الخيريَّة المباركة، ولنطلق على هذا الأصل (أصل التزكية)[١].

إن هذه الأولَوِيَّات ليست من قبيل الأولويات المتغيرة، أي: التي تقبل النقل والتبديل عند حصول الغايات والأهداف، بل هي من الأولويات المطلقة التي يسميها خبراء الاجتماع والسياسة بالاستراتيجيات الكبرى، مثل أمن الدولة والأمان الاجتماعي والأمن الغذائي، أو ما يسميه الفلاسفة بالثَّوابت المطلقة أو البَدَهِيَّات أو المُسَلَّمات أو ما يمكن أن نستعير له اصطلاح الفقهاء: الضروريات الأصيلة، وعليه فإن الدعوة يجب أن تتبنى مثل هذه الخطوط، وإن رزقت التمكين، لأنها من أصول الدين وثوابت الشرع المطهر.

وبإزاء هذه الخطوط العريضة يمكننا أن نتصفَّح الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية بل البشرية على نهج سواء: فتوحيد الله مُخْتَلٌّ في القلوب، والإخلاص في التوجه

---

(١) راجع في هذا الصدد (الأصول العلمية للدعوة السلفية) للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق، (واقعنا المعاصر) للأستاذ محمد قطب (مع بعض التحفظات على مسائل في الكتاب الأخير)، وكل ما تعتبره الجماعات العاملة في الساحة من أصولها، فيمكن تخريجه على تلك الأصول لا محالة، فمن اعتبر الحاكمية أصلاً أصيلاً، فهو راجع إلى القول بالتوحيد الذي هو إفراد الله تعالى في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، والحاكمية يمكن أن تخرج باعتبارها من مقتضيات الربوبية، أو أنها من قبيل توحيد الأسماء والصفات من حيث التصديق بأن من أسماء الله الحكم العدل، ومن قال إن المشكل الذي تعانيه الأمة في أزمة الأخلاق والسلوك، فقائل: لا محالة بأصل التزكية، وعلى هذا فقس.

إلى الرب - تبارك وتعالى - غير متأصل في النفوس كمنهج حياة[1]، وحاكمية الله مهزوزة في نفوس الكثير من المسلمين أو قل: إنها غير واضحة المعالم، ومَرْجعيَّة النبي ﷺ أو الشرع بمجمله أمر محتمل عند طائفة متكاثرة من المثقفين، وغالبية المسلمين لا يقومون بأي مجهود جاد في تطهير نفوسهم وتزكيتها بتطبيق أحكام الشرع المطهر، والقيام بما أمر الوحي ونهى، بل يهيمون في أودية الدنيا سعيًا وراء المادة والشهوة.

وكل ما نراه من ظواهر أخرى مختلة في المجتمع فما هي إلا نتاج لاختلال تلك الأصول، واهتزاز تلك الثوابت في قلوب الناس، أو لِنقل: في ضمير المجتمع المسلم.

وبعض هذه الظواهر آخذ بِحُجَزِ بعض، ورابطة العِقد إنما هي تلك الأصول والثوابت، فمتى انقطع منها شيء انفرط العقد أيَّما انفراط.

وعلى أساس هذا التَّنظير الذي استعرضنا فيه الواقع الإسلامي يجب أن يرتب الدعاة أولويات اهتماماتهم في الخطاب الدعوي العام، أما الخطاب الدعوي الخاص، والذين يتضمن الدور التربوي الدقيق، الذي يمارسه الدعاة في تهيئة وتنشئة أجناد الحق، فله إستراتيجية خاصة تناسبه، وسنتحدث عنه بالتفصيل - إن شاء الله - في الطريقة الحادية والعشرين (العناية بالشباب).

---

(١) إن كثيرًا من الناس يظن الإخلاص مُجرَّد درجة عالية، ومرتبة سامية من مراتب الصلاح والولاية، وأن الإخلاص ليس أصلاً من أصول العبادة وركنًا من أركانها، فالمرء في مجتمع المسلمين اليوم لا يبالي إن تعلم لأجل دنيا، أو توظَّف في سبيل حياة زوجية سعيدة، أو تزوج لأجل وجاهة اجتماعية، أو أنجب لأجل عزة يتقوى بها ويستند إليها، وإذا ما صارح نفسه وتبين له بجلاء أن أعماله لم يبتغ بها وجه الله لم يعدم هواه أعذارًا جاهزة يقنع بها غروره وغفلته، فقليل ما هم الذين يُفَتِّشون في أعمالهم عن خفيِّ الشرك وجليِّه.

ومعنى اهتمام الدعاة بهذه الأصول التي ذكرناها: (التوحيد، الاتباع، التزكية) أن يكون خطابهم الدعوي مـلاحظًا لها مُتَـبَنِّيًا إياها في كل مُدَاولة، مُـعتدًا بمضمـونها، منافحًا عن سمات هذه الأصول ومظاهرها، رابطًا كل فروع الدين بِآخِيَّتِها[١].

وأهداف الحركة الإسلامية ووسائلها يجب أن تتسق مع هذه الأصول الجامعة ولا تصطدم مع ثوابتهـا، فالتمكـين الذي ينشده كل مسلم وعـاقبة النصـر وظهور الدين وهيـمنة أحكامه، وتعـبـيد الخلق لرب الخلق، كل هـذه الأهداف مسـتقـاة من تلك الأصول، دائرة في فلكها، مُهْتَدية بنورها.

كما ينبغي أن تتـبنى الحركات الإسلامية هذه الأصول دسـتورًا عمليًا تراقب على ضوئه الخطوط العامة التي ترسمها لكوادرها في أي مشروع إسلامي[٢].

وإذا كان الفقـهاء يستخدمـون عبارة: «هذا الفرع مـخالف للأصول» أي: الأدلة والقواعـد العامـة والنظريات الكليـة، فبإمكـان الدعاة أن يستـخدمـوها بذات النسق قائلين: هذا التَّـصرُّف الدعوي مخالف لـلأصول الدعوية، أي: القواعد الـعامة التي تقوم عليها الدعوة الإسلامية.

---

(١) الآخِيَّة: بالمد والتشديد واحدة الأواخي، وهو مثل عروة تشـد إليها الدابة، وهي أيضًا الحرمة والذمة. «مختار الصحاح».

(٢) ونربأ بكل منصف أن يتكئ على كلامنا هذا، فيتهـمنا بالابتداع، واستحداث أركان في الدين لم يأذن بها الله، كمثل أشعري مـعاصر أنكر على شيخ الإسلام ابن تيمية تقسيمـه التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد ربوبية، وتوحيـد ألوهية، وأسماء وصفات، وقال: إن هذا التقسـيم مُحدث لا دليل عليه من الكتاب والسنة، وإذا به يقرر عقيدة الأشاعرة التي تقسم علم التوحيد إلى إلهيات ونبوات وسمعيات، وذات هذا التقسيم فوق كونه لا دليل عليه، فهو مشابه لتقـسيم الفلاسفة قضاياهم السلفية، فما توجَّه على شيخ الإسلام توجه عليـه بالضرورة، ولكن الاعتراض غير متَّـجه أصلاً، إذ إنه من المعلوم عند ذوي الشأن أن الاصطلاح لا مُـشَاحـة فيه، وشـيخ الإسلام نفـسه يقرر قـاعدة جليلة في فـهم كلام العلماء، وفحواها أن أي كلام مجمل لابد من طلب تفسيره من قائله، ولا نحكم على الكلام المجمل بإجماله حـتى يتبين لنا المراد، وعلى ذلك فتقـسيمنا الأصول الدعوية علـى هذا النحو اصطلاح، فلا مُشاحة فيه، فإن لم يـفهمه أحد، فليعتبره مجملاً، وليُـمسك عن القدح والنقد حتى يتبين له الحق، والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

فإذا تناصح الدعاة مثلاً، فما أحراهم أن يجعلوا هذه الأصول مادَّة نصحهم، فلو انتهج داعية منهجًا مبتدعًا في الدعوة، كالدعوة إلى الذكر الجماعي، فيُذكَّر بأن هذا المسلك يخالف أصل الاتباع الذي جعلناه خطًا أصيلاً نتمسك به لضمان نقاوة الخط الدعوي وثبات مصداقيته.

وليس معنى ما سبق أن نجحد إمكان الاختلاف بين صفوف الحركة الإسلامية فيما يَسُوغ فيه الاختلاف، وأن نحْلم بواقع دعوي خال من أية اختلافات أو تباينات في الأفكار والرؤى، فذلك فوق كونه غير واقع قدرًا، فهو غير مأمور شرعًا[١].

بل المأمور شرعًا أن يُردَّ الخلاف إلى الله ورسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ **فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** ﴾ (النساء: ٥٩)، وأن يبذل كل مجتهد الوسع في البحث عن الحق وسلوك دربه وسبيله، قال الله تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ (التغابن: ١٦)، وما عليه من جُناح بعد ذلك إن أصاب الحق الذي عند الله أو أخطأه، بل هو في كلتا الحالين مأجور غير مأزور مصداقًا لقوله ﷺ: **«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد»**[٢].

والواجب أيضًا .. أن يتغافر الدعاة فيما بينهم، وأن يتخلَّقوا بآداب الإسلام، وفضائل الأخوة الإيمانية، ويسيروا على مهيع السلف الصالح في الخلاف الرشيد[٣].

---

(١) أي: أنه لا يوجد في الشرع أمر بضرورة التوحد في الآراء وعدم الاختلاف في الأفكار، إذ هو من المستحيل اعتيادًا لتباين العقول وتمايزها، والأمر بالمستحيل لا يقع في الشرع كما تقرر في أصول الدين والفقه.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه».

(٣) وما أحسن أن يتفقه الدعاة في علم الخلاف وأدبه وأن يستنيروا بهدي الإسلام عند وجود الاشتباه، ومن خير ما صنف في هذا الباب كتاب شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ المسمَّى «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، فإنه فريد في بابه، وحيد في طرازه، لم يُصنف أحد على منواله، حاشا كتاب «فقه الخلاف بين المسلمين ـ دعوة إلى علاقة أفضل بين الاتجاهات الإسلامية المعاصرة ـ» للشيخ ياسر برهامي ـ حفظه الله ـ، فإنه عالج مسائل شائكة وتخطى حدودًا مُربكة لا يخوض غمارها إلا الراسخون.

وأنا أظن أن الصحوة الإسلامية في واقعنا الراهن قد تداركت كثيرًا من مظاهر التعصب المقيت الذي هو من ميراث عصبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، وصار ورود الحق والصدور عنه جادَّة يتواصى عليها جُلُّ الدعاة، شَفَقَة منهم على حال الإسلام والمسلمين، وغيرة على ما آل إليه أمرهم بسبب الاختلاف المذموم.

ولكن ينقصهم أن يزيدوا من التواصي بالحق في هذا الباب، وأن يجعلوا من مقاصد اهتماماتهم في المرحلة الراهنة والقادمة، توحيد الصف وتصفية المناهج الفكرية والدعوية من رواسب الجاهلية الممقوتة وآثار المخالفات الشرعية وبقايا الحزبيَّة الضيقة.

ولَعَمْري إن ذلك إن لم يكن واجبًا شرعيًا، فهو ضرورة دعوية يمليها الواقع الذي انتهز فيه أعداء الإسلام تشرْذم الدعاة وتفرُّقَ الحركات الإسلامية فرصة للكيد الخبيث والمكر السَّيِّء.

ولَئِن لم يتدارك الدعاة فرصتهم في نبذ الجاهلية المُنتنة المُتمثِّلة في الأهواء الدفينة، وشهوات النفس المسيطرة على إرادات العقل، فليس لهم من أمل في كسر قوة الكفر والظلم، ودحر جحافل الشر التي تمالأت على عداوتهم وحربهم.

◆◆◆

القاعدة الثالثة

حكم ابتكار الوسائل الدعوية

إنَّ الشريعة الإسلاميــة الغرَّاء قد حوت من مقتضيات الحـفظ والصيانة ما يضمن لهـا الاستـمرار والخلود ودوام البـهاء والنَّضــارة، ومن هذه المقتـضيـات: النَّهي عن الابتداع في الديــن، والأمر بلزوم حدود مـا شرع الله على لســان رسوله ﷺ دون زيادة أو نقصــان، قال رسول الله ﷺ: «إذا حَدَّثْتُكُمْ حديثًا فلا تَزيدُنَّ عَلَيَّ»[(١)]، وقال ﷺ: «وإياكم ومُحْدَثَاتِ الأمور، فإنَّ كلَّ مُحْدَثَة بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة»[(٢)]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**اتَّبعوا ولا تَبْتَدِعوا، فَقَد كُفِيتُم**»[(٣)].

وبإزاء هذه النصوص يزداد حرص أهل السنة على لزومها وعدم تعدِّيها خشية الوقوع في مـذمَّة الابتداع، وقد تداعى الدعـاة في هذا العصر على ضـرورة نقاء الصحوة من كل شـائبة بدعة، أو تُهمـة إحداث في الدين، لأن من شأن ذلك أن يعود باللائمة على مصداقـية الصحوة الإسلامية نفسهـا، وبالتالي على أهليتها أن تكون حجة لله على الخلق.

والذي لاشك فيه أن رسول الله ﷺ لم ينص على بدعـية كل البدع بأن عيَّنها أو بيَّنها، لاسـتحالة ذلك مع تمادي الـزمان، وتولد المحدثات الكثـيرة، فكان تنبيـهه ﷺ على كُليات القضية، وأصول الابتداع، ليقيس السُّنيُّ بعد ذلك ويتحرى الاتباع كيفما تَيَسَّر.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٤٦).

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح.

والذي لاشك فيه أيضًا أن جانب الابتداع مبني على الاحتياط لا التساهل، فإذا تفاوت القول في قضية بين تبديعها وعدم تبديعها، فالأحوط في جنب المتحري للسنة أن يزهد فيها وأن يلتمس البراءة من الابتداع ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

لكنَّ سمات الفعل المُبتدَع وملامحه قد تختلط بملامح وسمات الفعل المشروع، ويتجاوز ذلك مع عدم وجود دليل خاص على التبديع، بل قد يتضافر مع ذلك اجتماع جمهرة من أهل العلم على اعتبار مشروعية ذلك الفعل في ظل تبديع الآخرين، فوجب عندئذٍ أن يأخذ الدعاة حذرهم، ويسلكوا سبيل الأناة في تناول هذا الفعل، ولا تأخذهم العزة بالإثم في سماع الهدى وتفيؤ ظل الشريعة.

وفي المقابل لابد أن يتهادن الدعاة فيما اختلفوا فيه من الحق، وأن يتركوا التهاجر عند كل نازلة تنزل بالمسلمين، وألا يفزعوا إلى التبديع سلاحًا يشهرونه عندما يُعييهم الدليل، فإنَّ شأن العلماء التَّريُّث فيما لم يستبن لهم حتى يستجلوا غامضه، فيكون الإنكار على بصيرة من الهدى والبينات.

وإذ نحضُّ على التَّثبُّت ـ علمًا وعملاً ـ فيما نأتي وما نذر من أمور الدعوة قبل اللجوء لسلاح التبديع، فإننا نُحذِّر ـ وبصرامة ـ أن يتخذ الدعاة من منهج التغافر في المختلف فيه تُكأة للتوسع في استعمال الوسائل بزعم أنه لم يرد دليل بحظرها، وقد ابتليت الدعوة بزمرة من الناس تمالأت على هذا المهيع حتى وصل بها التساهل إلى الوقوع في المحرم الصريح بزعم أنه البديل عن جاهليات المجتمع المعاصر، ولمثلهم يُقال:

أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ ٭ مَا هَكَذَا تُوْرَدُ يَا سَعْدُ الإِبِلْ؟!

وقد تعرضت اهتمامات دعاة الصحوة الإسلامية لاستقطاب حاد حول قضية الوسائل الدعوية، وهل يجب أن تكون توقيفية، أم أنه يجوز اختراعها وابتكارها دون

خوف من مـذمَّة الابتداع؟، والحقُّ الذي لا مـرية فيه أن هذه المسـألة من المسائل التي ينبغي ردُّها للكتـاب والسنة، واستقراء عمل السلف وسـبيلهم مع اعتبـار كلام الأئمة المعتبرين من أهل السنة والجماعة.

وفي ثنايا البحث لابد أن نفـرق بين ما هو من قبيل تخـريج المناط، وبين ما هو من تحقيقه، فالأول بحث في دلالة الدليل (اسـتخراج العلة)، والثاني بحث في تحقُّق وقوع الدليل على الفرد الخارجي (أي: على المسألة الواقعة بالفعل).

وكثيرًا ما يَكْثُرُ اللَّغط في مسألةٍ لعدم التفريق بين هذين الأمرين، فيكون الفريقان كمثل قوم عُمـي أمسك كل منهم بعضو من الفيل، وأخذ يصف ما أمسـك به متهمًا صاحبه بالجهل بما يصف[1].

فمن المعلوم أن من أهم أمارات الـبدعة عدم ورد الدليل الشرعي على اعـتبار أصلها أو وصفها فيظن المبتدع أنه بنيته الحـسنة في اختراعها قد استزاد بابًا للخير، وانفرد بطريق إلى الله قد هجـرها السالكون، فهذه هي البـدعة الأصلية، التي لم يعتبـرها الشرع بأي وجه من الوجـوه، فإذا ما اعتـبر الشرع أصلها دون وصـفها (كالذكر الجـماعي دبر كل صلاةِ فرض)، فهـذه البدعة الإضافيـة وهي التي شهد

---

(١) إن البحث حـول تخريج المناط وتحقيـقه من أهم المسائل التي يَجدر بطلبـة العلم والدعاة فهمـها على الوجه المطلوب، إذ أن فهم هذه المـسألة الأصولية كفـيل بحل إشكالات كثيرة يحصل بهـا الاختلاف والتهاجر، وكثـيرًا ما نجد بعض الدعاة يتبنى في مسألـة (عقدية أو فقهية) رأيًا معينًا، ويتـبنى مُخالفه نفس الرأي، بيد أنه يرى أن حكم المسألة لا ينطبق على بعض أفرادها (كمثل مسألة كفر الحاكم المبدل لشرع الله)، إذ لا يتمارى اثنان أنه كـافر كفرًا أكبر مخرجًا من ملة الإسـلام، لكن المخالف في تحقيق المناط (وهو من يرى فـلانًا الحاكم ليـس مبـدلاً)، لا يجوز تجـهيله أو تضلـيله أو تبديعـه، والعكس صحيح أيضًا، لأن كل خـلاف سائغ (وهو ما احتمله الدليل الشرعي المعـتبر)، يمنع الإنكار الجافي، ولكن يستحب النصح الجميل والجدال بالتي هي أحسن.

الدليل على جواز حقيقتها كمُطلق الذِّكر ولكنه لم يشهد على اعتبار وصفها ككون هذا الذكر جماعيًا ودبر كل صلاة فرض، فجمهور أهل العلم على أن مذمَّة الابتداع تلحقها أيضًا، ويُفهم من نقل الشاطبي ـ رحمه الله ـ لآثار السلف في هذا الباب عدم اختلافهم في ذم البدعة الإضافية أيضًا، ولولا الاحتياط في نقل الإجماع لاعتبرته إجماعًا عن السلف[1].

وعُلِمَ بالاستقراء أن الأوصاف التي بابتداعها تكون البدعة إضافية هي الأوصاف التي توجد بها العبادة، وهي:

١ ـ المقدار. **٢** ـ الكيف.

٣ ـ الزمان. **٤** ـ المكان.

٥ ـ السبب (الوسيلة). **٦** ـ الغاية (أي: النية).

٧ ـ الجنس (الماهية).

والمعنى أن هذه الأوصاف متى لم يرد باعتبارها دليل شرعي تكون العبادة بذلك بدعة إضافية، وما يعنينا في هذا المقام هو الوسيلة[2]، إذ تقرر في علم

---

(١) انظر «الاعتصام» لأبي إسحاق الشاطبي ـ رحمه الله ـ (٢/ ٣٦٧ فما بعدها).

(٢) الوسيلة: ما يتوصل به إلى الشيء، فيشمل السبب، وهو ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم، سواء كان ذلك السبب عاديًا مثل شرب الدواء للاستشفاء، أو عقليًا ككون الجمع سببًا في الزيادة والطرح سببًا في النقصان، أو كان السبب شرعيًا كبلوغ النصاب لوجوب الزكاة، ويشمل تعريف الوسيلة الشرط، وهو ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم، سواء كان الشرط عاديًا مثل نصب السلم للصعود أو عقليًا مثل كون العلم بالشيء شرطًا للعمل به (إذ لا يتحقق العمل بدون العلم، ولكن قد يوجد العلم ولا يوجد العمل أيضًا)، أو كان الشرط شرعيًا مثل الوضوء، وسيتبين من البحث أن المقصود بالوسائل هاهنا الوسائل الشرعية، أي: السبب الشرعي والشرط الشرعي فقط.

أصول الفقه أن الوسائل لها أحكام المقاصد، والمراد: دخول الوسائل في إطار شرعية المقاصد، وفرَّعوا على هذا الأصل أن ما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، وأن ما لا يتم الحرام إلا به فهو حرام.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: هل هناك تعارض بين هذا الأصل (الوسائل لها أحكام المقاصد)، وبين كون الإحداث في وسيلة العبادة يجعل العبادة داخلة في إطار البدعة؟

إن الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى تقرير أمرين:

- أن هناك فرقًا بين البدعة وبين المصلحة المُرسَلَة والاستحسان عند من يقول بهما، يقول الشاطبي - رحمه الله -: فإن كثيرًا من الناس عدُّوا أكثر المصالح المرسلة بدعًا، ونسبوها إلى الصحابة والتابعين، وجعلوها حجة فيما ذهبوا إليه من اختراع العبادات، ثم أخذ الشاطبي - رحمه الله - يبين أصل المصلحة المرسلة، وأن الاعتداد بها يرجع إلى اعتبار المناسب[1]، الذي لم يشهد له أصل معين، ثم ساق عشرة أمثلة جرت في عهد الصحابة، خرجت على جهة المصلحة المرسلة، ولم تعتبر من البدع المحدثة ككتابة المصحف، وتضمين الصناع ونحو ذلك، وبين أن ضابط المصلحة المرسلة أنها لا تنافي أصلاً من أصوله، ولا دليلاً من دلائله، وأن عامة النظر فيها

---

(١) المراد بالمناسب هنا: الوصف الذي يناط به الحكم، وهو العلة التي يوجد لوجودها الحكم الشرعي وينتفي بانتفائها، وينقسم المناسب إلى ثلاثة أقسام:

١ - مناسب مؤثر: لظهور تأثيره بما اعتبره الشرع به، ويدخل فيه ضمنا الملائم.

٢ - مناسب غير مؤثر: وهو المسمَّى بالغريب الذي ألغى الشارع اعتباره.

٣ - مناسب مرسل: وهو ما جُهل اعتبار الشارع له، بأن لم يدل دليل معين على اعتباره أو إلغائه، ويسمى بالاستصلاح وبالمرسل وبالمصالح المرسلة، سمي بالاستصلاح لما فيه من مطلق المصلحة للناس، وبالمرسل لإرساله، أي: لإهماله عما يدل على اعتباره وإلغائه.

(المصلحة المرسلة)، إنما هو فيما عُقل معناه، وجرى على ذوق المناسبات المعقولة، التي إذا عرضت على العقول تَلَقَّتها بالقبول، فلا مدخل لها في التعبُّدات، ولا ما جرى مجراها من الأمور الشرعية، لأن عامة التعبدات لا يُعقل لها معنى على التفصيل كالوضوء والصلاة والصيام.

الثاني ـ أنَّ حاصل المصلحة المرسلة ـ كما قال الشَّاطِبِيُّ ـ يرجع إلى حِفْظ أمر ضروري ورَفْع حَرَجٍ لازم في الدين، وأيضًا مَرْجِعُهَا إلى حفظ الضروري من باب ما لم يَتِمُّ الواجب إلا به . . فهي إذن من الوسائل لا من المقاصد، ثم قال: وأمَّا كونها في الضروري من قبيل الوسائل، وما لا يتم الواجب إلا به إن نُصَّ على اشتراطه فهو شَرْطٌ شرعي، فلا مَدْخَلَ له في هذا الباب؛ لأنَّ نَصَّ الشارع فيه قد كفانا مَئُونَةَ النَّظَرِ فيه.

وإن لم يَنُصَّ الشارع على اشتراطه، فهو إما عقلي أو عادي، فلا يَلْزَمُ أن يكون شرعيًا، كما أنه لا يلزم أن يكون على كَيْفِيَّة معلومة، فإنا لو فَرَضْنَا حِفْظَ القرآن والعِلم بغير كتب عاديًا مُطَّردًا لَصَحَّ ذلك[1]، وكذلك سائر المصالح الضرورية يَصِحُّ لنا حِفظُها، كما أنَّا لو فَرَضنا حصول مَصلَحةِ الإمامة الكبرى بغير إمام ـ على تقدير عدم النص بها ـ لَصَحَّ ذلك، . . ثم قال: إذا تَقَرَّرَتْ هذه الشروط[2] عُلِمَ أن البدع كالمُضَادَّة للمصالح المرسلة.

ثم أَخَذَ الشاطبي يُفَرِّق بين الاستحسان وبين الابتداع، فقال: فإن الاستحسان لا يكون إلا بِمُسْتَحسِنٍ، وهو إما العَقلُ أو الشرع، أما الشرع فاستِحسانُه واستِقْبَاحُه قد

(١) مثل حفظ القرآن عن طريق التسجيلات الصوتية، وبالنسبة للأعمى عن طريق كتابة (برايل) البارزة.

(٢) يعني ألا ينافي المناسب المقصود أصلاً من أصول الشرع، وألا يكون في مجال التعبدات، وأن يرجع إلى حفظ ضروري، أو رفع حرج لازم في الدين فيكون من باب ما لا يتم الواجب إلا به.

فُرِغَ منهما (يعني أنهما هما المعتبران دون غيرهما)، لأن الأدلة اقتضت ذلك، فلا فائدة لتسميته استحسانًا، ولا لِوَضْعِ ترجمةٍ له زائدة على الكتاب والسنة والإجماع، وما ينشأ عنها من القياس والاستدلال، فلم يَبْقَ إلا العقل هو المستحسِن: فإن كان بدليل، فلا فائدة لهذه التسمية، لرجوعه إلى الأدلة لا إلى غيرها، وإن كان بغير دليل فذلك هو البدعة التي تُسْتَحسَن، ثم ساق كلامًا طويلاً مفيدًا في تعريفات الاستحسان عند العلماء، واختار أن الاستحسان المعتَبَر هو ما اسْتَنَدَ إلى أصول شرعية وثوابت دينية، وأن الحكم بمجرد الهوى ومَيْل الطبع هو عين الابتداع(١).

■ مما سبق يمكننا تحرير المسألة كالآتي:

١ ـ إن الوسيلة (إذا كانت شرعية) من جهات الابتداع التي إذا أُحدث فيها كانت البدعة إضافية، وقاعدة: الوسائل لها أحكام المقاصد صحيحة مُطَّرِدة.

٢ ـ إن قاعدة الوسائل لها أحكام المقاصد إنما هو في الوسائل الشرعية (كالشرط الشرعي والسبب الشرعي)، أما الوسائل العقلية والعادية، فلا تدخل في تلك القاعدة، بل قد يكون لها حكمًا مستقلاً يخالف حكم مقصدها.

ويمكننا صوغ القاعدة كالآتي: الوسيلةُ إذا لم يتحقَّقْ المَقْصِد إلا بها شرعًا، فالإحداثُ فيها ابتداعٌ مذمومٌ، وإذا تحققَ المقصد بها أو بغيرها ولم يدلَّ دليلٌ على اعتبارِها أو عدمِ اعتبارِها، فالإحداثُ فيها لَيسَ من الابتداعِ المذموم.

وبهذا تلتقي القاعدتان ولا تتعارضان.

---

(١) راجع الباب الثامن من «الاعتصام»، فإنني اختصرت منه المقصود، وقد ناقش الشاطبي ـ رحمه الله ـ شبهات المتمسكين بالاستحسان والمصلحة المرسلة في باب الابتداع بما يقطع الطريق على المتساهلين في الابتداع وعلى المتوسعين في التبديع.

وبذلك نعلم أن الوسـائل الدعوية يجب أن تخـضع لهذا التقـدير العلمي، وألا تكون خـاضعـة في منهج الدعـاة إلى الهوى أو الطبع، أو مـا اسـتقـر في أعرافـهم الدعوية، فلا حاكم بينهم إلا شرع الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ولكن قد يختلف العلمـاء في تبديع مسألة، فماذا يكون مـوقف الداعية من هذه المسألة؟، والجواب . . أنه لابد من التفريق بين ما هو بدعة في أصول الدين وفروعه، فالابتداع في أصـول الدين دائر بين الفسق والكفر والضَّلالة المَحْضَـة، أما الابتداع في فروع الدين إن كـان في أصول المسائل (أي المقـاصد) كأصـول العبادات مـثل الصلاة والذكر ونحو ذلك، فهي حَرِيَّة بوصف الضلال الذي أَلْصَقَه الرسول ﷺ بالبدعة، أما إذا كانت فيما دون ذلك فليس الخطب فيها كغيرها.

وقد قرر الإمام الشَّاطِبِيُّ ـ رحمـه الله ـ أن أحكام البدع ليست على رُتْبَة واحدة، وأن منها البـدع المحرمة، ومنهـا البدع المكروهة، وأن المحرم منهـا ينقسم إلى صغـير وكبـير، وإذا تقرر ذلك كـان تصرف الداعيـة مع تلك المسألة المخـتلف فيهـا بِحَسَبِ مكانتها وجلالة أمرها[١].

■ ثم إن البدعة تنشأ على أربعة أوجه ـ كما قال الشاطبي ـ:

أحدها ـ وهو أظهر الأقسام أن يخترعها المبتدِع.

والثاني ـ أن يعمل بها العالِم على وجه المخالفة فيفهمها الجاهلُ مشروعة.

الثالث ـ أن يعمل بـها الجاهل مع سكوت الـعالم عن الإنكار وهو قـادِر عليه، فيَفْهَمَ الجاهل أنها ليست بمخالفة.

الرابع ـ من باب الذرائع، وهي أن يكون العمـل في أصله معروفًا إلا أنه يتـبدل الاعتقـاد فيه مع طول العهـد. ثم يقول الشاطبي ـ رحمـه الله ـ: إلا أن هذه الأقسام

(١) راجع الباب السادس من «الاعتصام».

ليست على وزنٍ واحد، ولا يقع اسم البدعة عليها بالتَّوَاطُؤ، بل هي في القُرْب والبُعد على تَفَاوُت. فالأول هو الحَقِيقُ باسم البدعة، فإنها تُؤخَذُ عِلَّةً بالنص عليها، ويليه القسم الثاني ثم الثالث فالرابع. قال: وأما القسم الثاني والثالث فالمخالفة فيه بالذات والبدعة من خارج، إلا أنها لازمة لها لزومًا عاديًا، ولزوم الثاني أقوى من لزوم الأول[(١)].

وقد ظَهَر لي في بعض المسائل أنها من البدع التي لا يجوز إقرارها، مثل: إمْسَاكِ ورقة فيها أسماء أشخاص عند ذَبْحِ الأُضْحِيَة، وذِكْرِ هذه الأسماء عند الذبح، فلما راجَعْتُ فيها الشيخ العلامة ابن باز - رحمه الله - رَدَّ في فتوى مكتوبةٍ لَدَيَّ أن هذا ليس ببدعة، وأنه يَشْهَدُ له أصل مثل قوله ﷺ عند ذبح أضحيته: «**اللهم هذا عن محمد وآل محمد**»[(٢)].

فعلمتُ حينها أن أمر التبديع ينبغي عدم التسرُّع فيه، والهجوم على أحكامه، وقد استبان لنا مما سبق أن الداعية ينبغي أن يتصف بما يلي:

أولاً - الإلمام بالقواعد الأصولية التي تحكم مسائل البدعة والتبديع.

ثانيًا - أن يأخذ في الاعتبار تفاوت البدعة في مراتبها.

ثالثًا - ألا يَتَسَرَّعَ في تبديع مسألة إلا بعد البحث التام لجوانبها ومراجعة أهل العلم بها.

رابعًا - أن يَتَّسِمَ بالحكمة في التعامل مع المخالف (المبتدع).

---

(١) راجع آخر الباب السابع من «الاعتصام».
ولا ينبغي أن يفهم من كلامنا أو كلام الشاطبي التهوين من أمر البدعة، ولكن لما كان يترتب على فهم مراتب البدعة في الدين عمل مهم كالبراء والإنكار والتعاون مع المخالف في أمور أخرى، لزم بيان هذه المراتب، وأنه لا يجوز التسوية بين كل أنواع البدع، لما يترتب على ذلك من مفاسد دعوية وحركية.

(٢) رواه البيهقي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

وقد حَرِصْتُ أن أضع هذه القـواعد وأن أُحَرِّرهَا مُجَافـيًا التَّحَيُّزَ لأحد، مُـفَضِّلاً عدم التفـصيل، وضربِ الأمثلة حتى لا يتكِئَ عـلى هذه التفاصيل مُتَّكِئ، فـيَحْسبَ نفسه أولى بـكلامي من غيره، وكان هدفي (الذي يجب أن يُعلم) أن ينضـبط الدعاة بالقسطاسِ المستقيم، وألا يُشَوِّهوا الدين بالتوسُّع في ابتكار الوسائل الدعوية المبتدعة، وألا يجوروا على بعضهم إذا حصل الخلاف في بعض المسائل، والله ـ تبارك وتعالى ـ هو المسئول أن يصلح أحوال المسلمين.

القاعدة الرابعة

احتراف خدمة الدين

تتواتر النصوص الشرعية الآمرة بإتقان العمل وإحسانه بقَدر نفس النصوص الآمرة بالعمل نفسه، يقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٥)، وقال: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ (الحج: ٧٨)، وقال: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت: ٩٩)، وقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الملك: ٢).

وقال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قَتَلْتُم فأَحْسِنُوا القِتْلَة، وإذا ذَبَحْتُم فأحسِنوا الذِّبحَةَ**»[1].

ومن شأن الأذكياء ذوي الهمم العالية الراقية، أن يحرصوا على إتقان أعمالهم، وأدائها على الوجه الذي يُحسُّون معه ببذل كل الوسع وعدم القدرة على التدارك، وفوق كون ذلك مأمورًا شرعيًا، فهو من كمال مروءة الإنسان أن يكون العمل عنوانًا على جلالة الهمة وصفائه:

على قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تَأتي العَزَائِمُ ٭ وتَأتِي على قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ
وتَعْظُمُ في عَيْنِ الصَّغِيرِ صِغَارُها ٭ وتَصْغُرُ في عَيْنِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

وقد استَقَرَّ في ضمير كل مسلم ضرورة إتقان عباداته كالصلاة والصوم والحج، ولاشك أن هذا مُطَّرِدٌ في كل مناحي الشريعة، بل إننا نجد في القرآن أمرًا لو أعطيناه حَقَّه من الفهم لاستطعنا أن ندرك حقيقة ما نتكلم عنه، ألا وهو **قوله تعالى**: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال: ٦٠)،

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

والاستطاعة لاشك مـتفاوتة بين المكلفين، لكن المتيقـن أن في استطاعة كل مكلف أن يبذل لدينه على الأقل مثل ما يبذل لدنياه.

وإن إتقان العمل يتـوازى بدرجة عالية مع حجم العوائق والتحـديات التي تُفْسِدُ العمل، بل وإن الاهتمام بالعمل يتعاظم بقدر مكانة العمل نفسه، فاستحضار الخشوع في الصلاة يتعاظم إذا علم العبد قَدْرَ الوَسَاوِس التي تحول بينه وبين الخشوع، وقدر ما يبذله الشيطان اللعين في الحـئول بينه وبين ثمرة الصلاة، وليس الاهتمـام بإتقان ذكاة (ذبح) البهائم كمثل الاهتمام بإتقان مجاهدة العدو المستعِد بأعلى الاستعدادات؛ لإفناء القيم والمثل الإسلامية.

وإنه ليس من الاستعداد والبذل القويم للدين أن نرى ملل الكفر تسخر كل طاقاتها في خدمة دينها، بينما نرى أهل الحق يجعلون حقهم آخر ما يُفَكِّرون فيه، بل أن يبذلوا له.

إن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يحابي في سننه أحدًا، وجعل في سيرة الأنبياء مُدَّكَرًا لكل ذي لُبٍّ، فلم يشفع لهم كونهم رسلاً من عند الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولم يشفع لهم نَقَاءُ الحق الذي يحـملونه، فكُذِّبوا وأُوذوا وطُرِدوا وحُورِبوا بل وجُرِحُـوا وقُتِلُوا، ومع ذلك فقد بَذَلوا الوسع في القـيام بالدعوة، فدَعوا إلى الله سرًا وجهـرًا، وجَيَّشُوا الجيوش، واشتروا السلاح واستعاروه، وحفروا الخنادق، وابتكروا وسائل الكرِّ والفرِّ، ولم تَلِن لهم قناة في أمر الدين.

وهكذا ينبغي أن يكون دعـاة اليوم، في هذا العصر الذي صـار المَحَكُّ في الغلبة للأخذ بالمتطوِّر من مُسْتَجَدَّات العصر، كـأجهزة اتصالات وتَقْنية إدارة الأعمال، وغير ذلك مما يحتاج إلى ملاحقة وبحث، لا أن ننتظر استعمال الخلق لها، حتى إذا اهْتَرَأَتْ فكرنا أن نخدم الدين بها بينما سُوحُ الكفر تهنأ بأحدث وسائل الخدمة والمواجهة.

وإذا كنا قد تجاوزنا إشكالية الوسائل الدعوية فإن أول بَدَهيَّة يجب أن تحتل مساحتها اللائقة في عقولنا أن العلوم العصرية بكل أصنافها لها دور فعال في تسخير قوانين الكون لخدمة الإنسان.

وفي الصِّحاح قال ﷺ: «ما أنزل الله من داء إلا وأنزل له دواء، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ، وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَه»[١]، فتأمل قوله: «علمه من علمه، وجهله من جهله»، وأنه لا يحول بين المكلف وبين الاستفادة مما بَثَّهُ الله من منافع وطيبات في الكون، إلا ببحث المكلف وسعيه في تحصيل ما ينفعه.

وهكذا في مواجهة أهل الإيمان لعروش الكفر، فإنه لن يحول بينهم وبين النصر إلا عجزهم عن السعي الحثيث في بذل المستطاع، وإذا تقرر أن نصر الله يتلو نصر العبد لدينه، فإن تقصير المجاهدين في بذل المستطاع، يُعَدُّ سببًا وَجيهًا لتأخُّر نصر الله.

إن قناعة الدعاة إلى الله بضرورة احتراف الدعوة سببٌ رَئيسٌ من أسباب النصر، فلا تُجدي في هذه العصور محاولات الهواة لمزاحمة المحترفين في مجالاتهم، وقد تصاعدت اهتمامات دعاة الكفر، بما يدعون إليه حتى إنه في سبيل ذلك سخروا كل العلوم العصرية لخدمة كفرهم.

وإذا أردنا أن نؤرِّخ لابتداء[٢] احتراف جهْدِ الدعوة إلى أيَّة فكرة، فنستطيع أن نذكر محاولات التنصير الحاذقة التي ابتدأت في قارة آسيا مع مطلع القرن السابع

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) ليس المقصود ـ أيها القارئ الكريم ـ أن الرعيل الأول لم يحترف الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، بل المقطوع به أنه ما من جيل بذل وضحى في سبيل دينه مثل جيل الصحابة والتابعين، ولكنني ضربت المثال بحركات التنصير لأمرين: =

عشر، حيث تَزامَنَ مع الحركة الاستعمارية الاقتصادية الأولى - على يد الشركات الشرقية - زحفُ المنصرين من كل المذاهب على تلك البلاد البكر (كالهند وما جاورها)، فنشأت أولى الحركات التنصيرية المحترفة التي كانت تُمَوَّلُ بأموال الشركات الاقتصادية الاستعمارية، وتُدَارُ بجمعيات علمية (جغرافية، وطبية اجتماعة) تحت رعاية التاج البريطاني رأسًا، حيث كانت الملكة (إيلزَابيث الأولى) ملكةَ التاج البريطاني، وراعية الكنيسة الإنجيلية.

ثم تطورت جهود المنصِّرين العالمية في توسيع رُقْعة نشاطاتهم حتى غدت جُهدًا دوليًا مكثَّفًا تتوجه لخدمته كلُّ الإمكانات المتاحة، وبإدارة مجلس الكنائس العالمي الذي تأسَّسَ للتنسيق بين مِلَلِ النصرانية المتناحرة.

وفي إحصائية متأخِّرة ذكر بعض الباحثين أن ميزانية جمعيات التنصير لعام (١٩٩٩م) قد فاقت (٢٠٠) مليار دولار، ولاشك أن هذا المبلغ متواضع جدًا مقارنة بالمبلغ الحقيقي الذي تنفقه الدول النصرانية في تسيير سياسات العالم بما يصب في مصلحة المنصرين لا محالة.

أمام هذا البذل الذي يبذله أهل الكفر، فإن أول ما يتبادر إلى الذهن من أسئلة: ماذا أعد الدعاة أمام هذا الإتقان في العداء للدين؟، إن الجواب الذي يرضي كل منصف أن دين الله - تبارك وتعالى - يأخذ مجراه في قلوب الناس، ويغزو كل الأقطار بتقدير الله وحَسْب، ولم يأخذ حقه من جهد الدعاة بل المسلمين.

= **الأول** - أن جهودهم تتزامن مع بدء إرهاصات الصحوة الإسلامية في أواخر القرن الثامن عشر، حيث ظهرت الحركات الإصلاحية العملاقة، مثل: حركة محمد بن عبد الوهاب السلفية في جزيرة العرب، والحركة الإصلاحية العلمية في الشام والهند واليمن ومصر.
الثاني - أن في ذلك تحفيزًا لغيرة المؤمنين على دينهم.

حتى المجهودات التي تبذلها الهيئات الإسلامية العالمية نجدها ـ مع كثرتها وتشعُّب أنشطتها ـ تدار بطرق بدائية، ولا يعتمد في إدارتها على المتخصصين، كما أن تلك الهيئات لا تملك تصورات محددة لأنشطتها المستقبلية، وغدت أعمال الدعاة ـ كما قال بعض الغيورين ـ مجرد ردود أفعال للمآسي التي تحيق بالمسلمين بين الحين والحين.

إن الفاتيكان قد أعلن في خطط واضحة وصريحة جعل عام (٢٠٠٠) من الميلاد هو عام تنصير أفريقيا، وبينما كان كرادلة الفاتيكان يمدون إلى وزارات الأوقاف في العالم الإسلامي يدًا حانية، زاعمين رغبتهم في الحوار بين الأديان، كانت يدهم الثانية الملوثة بنجاسة الكفر تمتد إلى أدغال أفريقيا، وغابات إندونيسيا، بل إن إرساليات التنصير التي تعتمد على المدارس الراقية، والمستشفيات المتقدمة ما فتئت تجوس خلال ديار الإسلام، بل وديار الكفر على السواء، تمارس دورها التنصيري في كل أرجاء العالم دون حياء أو خَفْرٍ.

وبينما نرى الكَاتَدْرَائِيَّات النصرانية والكليات اللاهُوتِيَّة تُخَرِّج من بين جدرانها منصِّرين على مستوى عال من المهارة والإتقان في دعوة الناس، فإننا نرى مناهج الكليات الإسلامية والدعوية في كل جامعات العالم الإسلامي (لا نستثني والله شيئًا منها) لا تلبي في قليل أو كثير طموح الزحف الإسلامي الذي بدأت جَحَافِلُهُ تَطْرُقُ أبواب الفاتيكان دون إِرَاقَةِ قَطْرَةَ دمٍ تحقيقًا لبِشَارَةِ الرسول ﷺ.

وقد عُقِدَ في السبعينيات من هذا القرن (العشرين) في إحدى الولايات الأمريكية ـ لاحِظْ ـ مؤتمرًا تنصيريًا عالميًا كان الهدف منه دراسة أوضاع البعثات التنصيرية في جميع أنحاء العالم، وقد اطَّلَعْتُ على كل أبحاث هذا المؤتمر التي طبعت في مجلَّدٍ ضخم، ولَشَدَّ ما تَعَجَّبْتُ حينما وقعت عيني على تلك الأبحاث، لقد كانوا يطرحون كل المشكلات التي تواجه البعثات التنصيرية في كل بلاد العالم، وكم كانت المسائل

التي يعالجونهـا دقيقة، تعتمد علـى دراسات أنثربولوجية راقية، وكـان يتبع الأبحاث مناقشات دقيـقة واعية لما يطرح، وعلى سبيل المثال فقـد كان من ضمن الأبحاث التي طرحت: مدى تأثير الروحانيات: (السحر، والاعتقاد الغالي في الحسد)، على العوامِّ من المسلمين، ولم أُدرِك حينها مع الـتمعُّن فائدة دراسة عادات المسلمين واعـتقاداتهم الاجتماعيـة، ولو كانت باطلة أو خرافية[١]، ثم تَرَاءَى لي أن القوم من الذكاء بمكان، فهم يعملون كما تـعمل أجهزة المخابرات التي تستقصي كل معـلومة عن عملائها في كل أنحاء العالم، لـعله أن تكون المعلومة الواحدة ـ وإن كانت تافـهة في ذاتها ـ ذات أثر في يوم من الأيام.

وهكذا يتـحرك التنصيـر في أنحاء العـالم، وفي بلد مثل تايلاند حـدثني بعض المسلمين أن هناك مجموعة من المنصرين الشـباب ذوي السَّحنَة الأوروبية، طرقوا عليه الباب، وأخـذوا يكلمونه عن النصرانيـة بلغة تايلندية[٢] طليقـة تنبئ عن أن القوم إذا أعدوا لشيء أعدوه على الوجه الذي يُظَنُّ بِهِ بلوغ الأرَب.

ولقد رُزئت الأمة الإسلامية في العَقد الأخـير بنكبَات مُدوِّية هزت أركان عزيمتها وأَثْخَنَتْهَا بِجِراحٍ غائرة في عِزَّتِها وكِبْرِيَائِهَا ما زالت تعاني نزيفها المتوالي.

---

(١) لا نقصـد بالبطلان والخُرافة السحـر والحسد، فهـما ثابتان شرعًـا وعقلاً وعادة، ولكننا نقـصد تناول العامة لموروثات هاتين المسألتين (أعني: السحر والحسد)، وكيـفية علاجها بالطرق الخرافية الباطلة التي لا يقرها دين ولا عقل.

(٢) **اللغة التايلندية**: من اللغات الآسيوية الحية المتفرعة عـن السَّنْسكرِيتيَّة (الهندية القديمة) وهي لغة صعبة جدًا، ويتحدث بها قرابة ستون مليون شخص أو يزيد، وهـي ليست لغة عالمية، كما أن حروفها تبلغ أربعة وأربعين حرفًا، وتعتمد على حركات المدود ولهجات الحروف، والمُتعَجَّبُ منه: كيف أنه استطاع أولئك المنصِّرون تعلم هذه اللغة الصعبة ودعـوة الناس بها، وفي المقابل كان هناك بعض الدعاة العرب الذين احتاجوا لأكثر من عشر سنين ليتعلموا هذه اللغة، ويدعوا الناس بها.

ولقد كانت التحـديات التي واجهت الأمة الإسلامية في البـوسنة، وكوسوفا بمثابة امتحان حقيقي لإمكاناتها البشـرية والاقتصادية والسياسية، فَسَقَطَتْ بِجَدَارَةٍ في الجميع.

وقد رأينا كيف كانت (C.I.A) (المخابرات الأمريكية) والـبِنْتَاجون (وزارة الدفاع الأمريكية)، والنَّاتُو (حِلف شمال الأطلسي)، والاتحاد الأوروبي يديرون الأزمة وسط هَمَسَاتِ الدول الإسلامية، وهَمْهَمَاتِ أصحاب القضية بحجم المؤامرة الكبير.

ووسط مرارات وصلت إلى الحلقوم، رأينا كيف استقبلت إسرائيل عشرات الأسر المسلمة من كوسوفـا في استعراض سياسي مدروس الأبعـاد، بينما لم تتقدم أية دولة إسلامية باستعراض مماثل.

إن مثل ردود الأفـعال هذه هي التي تنـبيك - أيها المسـلم - بحجم التَّـخَبُّط الذي يَعْتَـرِي جهـودَنا في خدمـة الدين، ولسْتُ بلائمٍ أفرادًا بأخطاء دُول، كـما أن اعـتذار البـعض بأن أوزار الحكام في تَشَرْذُمِ الأمـة لا يجـوز أن يَتَحـمَّلها المحكومـون اعتـذار صحـيح، وتَخَلُّص وجيه، ولكنني أزعم أن الهـيئات والجمـاعات الإسلاميـة ما زالت تَخْنَسُ عن دورها الأصيل في تبني القضايا الكبـرى، وما زالت تتوارى وراء طُرُقٍ بالية في إدارة الدعوة حـتى أضحت رهينة العادة والـهوى والآلية الصَّـمَّاء التي لا تغني عن نصرة الدين فتيلاً.

وبإزاء قناعـة الأفراد بأهمـية احـتراف خـدمة الدين لابد أن تتـولَّد في ضمـائر القيادات الدعـوية مثل هذه القناعة حتى تَهُبَّ الهِمَمُ لمـشروع حضاري كبيـر، يَسْتَنقذُ الأمة من نكباتها وهزائمها.

حقًا .. إن التحديات التي تواجههـا الصحوة في كل الأصعدة شديدة وخطيرة، وتربص أعدائهـا بها على كل المستويات، وفـي كل زمان ومكان، لكنَّ ذلك كُلَّه في

نظري سَيَـضْمَحِلُّ أمـام الإمكانات الحقـيقيـة لقطاعات الصحـوة المتكاثرة، وظني أن الصحوة تفـتقر بشدة إلى شخصـيات إدارية عالية المهارة، تعـمل على تفعيل الكوادر الموجودة بالفعل، والرقي بإمكانياتها، والنهوض بمسـتوياتها ورفع درجة الاستفادة من الخبرات التي تمارس عملها بالفعل، ولنا مع هذا الموضوع عَودٌ.

لم يعد من المجدي أن يمارس الداعية في أي ميـدان نشاطه، بارْتجَالِيَّة، ولم يعد مقبولاً أن نترك دعاتَنا فريسة للتجارب الدعوية التي تستقطع وقتًا ومجهودًا أولى بنا أن نسخره في التدريب وصقل الخبرات.

إننا نرى بوضوح كيف أن الغيورين من شباب الأمة يبذلون الغالي والرخيص في سبيل رِفْعـة شأن الأمة، وكيف أنهم يضحون بأوقـاتهم وأموالهم وبكل ما يظنون أن الدعوة تحـتاج إليه، لكـنهم يفاجئـون أن محاولاتهم الدعـوية تذهب أدْرَاجَ الرياح، ومجهوداتهم تصير رهينة أماكنها، لا لشيء إلا أنهم واجهوا واقعًا دعويًا صعبًا بآلات بدائية وبدون خبرة أو ممارسة سابقة.

تأمل (مثلاً) الجهد التربوي الذي يقوم به الدعاة، إن جميعهم - إلا من رَحِمَ ربي - يشكو كثرة مشكلات الشباب وتعقيـدها وصعوبة فهم شخصيات المراهقين، ولاشك أن هؤلاء الدعاة سيعانون أكثر عنـدما يلتزم الشباب بالدين دون أن تُحَلَّ مشكلاتُهم التي تَنَشَّئوا عليهـا في الجاهلية، وقد رأينا كيف أن رواسب التربيـة الخاطئة التي بدأ التزام هؤلاء الشباب عليـها تَطْفُو سريعًا عندمـا تتعرض تلك الشخصـيات لأول مَحَكٍّ في حياتها الجديدة، بل إن علماءنا قد نصوا على أن فساد الانتهاء من فساد الابتداء.

إن مثل هذه الإشكالية في نظري مأتاها من تقصيـر الدعاة في العلوم الاجتماعية والتربوية، وقلـة مطالعاتهم لكتابات ذوي الخـبرة والديانة في هذا المجـال، وأنا أجزم غير شاك أن قطاعًا كبيرًا ممن يمارسون دعوة الشباب جاهلون بأساسيات العلوم التربوية مما يتعلق بنفسية المراهق ونحو ذلك.

ومما لاشك فيه أن هذه العلوم فيها الغث والسمين، وأن واضعيها بعضهم ممن لا خَلاق له في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولاشك أيضًا أننا لا نقصد بالاستفادة من هذه العلوم أن نعتمد قوانينَها واكتشافاتها وتَجَارِبَها الغَضَّةَ، بل المقصود أن يستفيد الداعية والمربي من تلك الدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية في فهم النفسية البشرية، ولاشك أيضًا أن الممارسة التربوية قائمة بالدرجة الأولى على براعة فهم الشخصية التي يُراد تربيتها واختيار المنهج التربوي الملائم، وكل ذلك راجع إلى ذكاء المربي في فهم الشخصية التي يربيها، وهذا الفهم يرجع جزء كبير منه للفراسة التي بعضها كسبي يُجْتَنَى بالخبرة والبعض الآخر فِطري يُمْنَحُ من الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وليس على الدعاة من بأسٍ إن هم حاولوا صَقْل تجاربهم بمثل هذه العلوم والقراءات التي وإن لم يستفيدوا منها في دعوتهم، فلاشك أنها ستفيدهم في أمور دنياهم لا محالة.

بل إنه يمكننا أن نمثل لإشكاليتنا بأمثلة أعمق في آلامها ونتائجها، ألا وهي قضية خُلُقِ الداعية، فإنه مما لاشك فيه أن ثمة تقصيرًا حادًّا على مستوى الأفراد والجماعات في تلقين الدعاة المُثُلَ الأخلاقيةَ العليا التي تليق بدعاة الإسلام والمتحدثين باسمه بين الناس.

وإنه لَمِنَ الطَّبَعيِّ أن نجد بعض الدعاة يأتي أفعالاً هي في عرف الشرع من المباح الذي لا إثم فيه ولكنها في بعض الأعراف من المُستَشْنَعَات، والعادَةُ مُحكَمَةٌ، وسيحتاج الداعية حتما حينئذ إلى تهذيب بعض عاداته حتى يَدْرأ المطاعن عن نفسه وعن الدين، فالجهلاء أعداء أنفسهم، وهؤلاء وغيرهم من أعداء الدين متربصون بالدعاة يعدُّون عليهم هَنَاتِهِمْ، فما أَحْرَانَا أن نقطع على هؤلاء محاولاتهم ونقدم لهم نماذج دعوية تُبْهِرُ العقول والألباب.

والعجيب أن مثل هذا التلقين - أعني تلقين الأخلاق - كان سلفُنا وعلماؤنا يجعلونه علمًا مستقلاً يُدَرَّسُ في حلقاتهم، وكانت لهم مؤلفات حافلة في علم الآداب حوت المنظومات الألفية وشروحها، وتناولت أدق تفاصيل الآداب، حتى إنهم تعرضوا لآداب استعارة الكتب، وآداب المسلم في السُّوق وفي الشارع على نحو ما تراه في كتاب الجامع في الآداب للشيخ جمال الدين القاسمي - رحمه الله -، وقد رأيت متنًا مشروحًا في آداب النكاح والزواج لأحد المالكية ينبئ أن تراثنا جَمَعَ فَأَوْعَى[1].

وفي قضية احتراف خدمة الدين: لا أريد أن أُعَقِّد المشاكل أو أن أُلْزِمَ الدعاة بما لا يَلْزَمُهُمْ شرعًا، فإنني لا أماري أنَّ في شرع الله غُنْيَةً عن كل شيء، ولكن شرع الله نفسه قد حض على المعرفة، وبارك أهل التخصص وألزم الناس بالرجوع إليهم والاعتداد برأيهم ومشورتهم[2].

والمنصف لا يمكن أن يتخيل مفتيًا في مسائل الاقتصاد والتجارة لا يعرف في عرف التجار والاقتصاديين نقيرًا، كما لا يمكن أن نأخذ بقول من يفتي الناس في الفرائض حال كونه لا يحسن حساب الكسور.

ولو تجاوزنا القضايا الجزئية في جانب احتراف الدين إلى القضايا الكبرى العامة، كقضية الصراع الحضاري بين الإسلام والأيديولجيات الأرضية، فإننا سنبصر هوة سحيقة تفصل بين الحركات التي تتبنى موقف الإسلام وبين خصومها المختلفين.

---

(١) وأكثر من حفل بهذا العلم (علم الآداب) هم الحنابلة، فلقد كان علماؤهم أكثر الناس تصنيفًا في هذا العلم، ويمكنك مطالعة جهدهم هذا في الكتاب (المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل) لعبد القادر بَدْرَان، ونذكر من كتب الحنابلة في «علم الآداب»، كتاب «الآداب الشرعية» لابن مُفْلِح، و«غذاء اللباب في شرح منظومة الآداب» للنَّابلسي.

(٢) راجع الطريقة الثلاثين لخدمة الدين (المؤتمرات).

إن اليهود عندما فكروا في إقـامة دولتهم، وحددوا موقعهـا على خريطة العالم، بل وحددوا موعـد إعلان تلك الدولة، لم يعيشوا بـعدها معيشـة الحالِمِ المُتَمَنِّي، بل تَناسَبَ البَذْلُ مع ضـخامة المهـمة، ولا أعتقـد أن وعد بِلْفور هو الذي أفـرز الكيان وأوجده على وجه الأرض، بل **تحديد الأهداف والتخطيط السليم والتنفيذ الدقيق والمتابعة المستمرة** هي التي أعطت اليهود حق الوجود، وتأمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ (الإسراء: ٧)، إن إسرائيل لم تنتظر من الأمريكان أن يدافعـوا عنها، بل ولم تعتمد على أسلحتـهم أبد الدهر، فقد كونت جـيشها من خُلَّص اليـهود، وتَبَنَّتْ عقيـدة عسكرية واضحة المعـالم، وسعت لتطوير تقنية صناعـتها العسكرية، وجـعلت الرافد الذي يغذي كل ذلك اقتـصاد قوي مرموق، حـتى أضحت تلك الدولة اللقيطة في خـمسين عامًا أقـوى دولة في المنطقة اقتصاديًا وعسكريًا، وأصبح متوسط الدخل في هذا الكيان من أعلى المستويات.

وأنا أهْمِسُ إلى كل المسلمين بمـزايا أخرى أقـامت هذه الدولة على ساق قـوية، ألا وهو تبنيها لمبادئ في الحرية والعدل، وصيانة حقوق الإنسان لا يوجد في غيرها من بلدان المنطقة. وقد قـال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمـه الله -: إن الله يقيم دولة العدل، وإن كانت كافرة، ويديل دولة الظلم وإن كانت مسلمة. معنى كلامه - رحمه الله -.

ولا أظن دعاة الإسلام يرضـون أن يواجهوا هذا المعْتَرَكَ الـعالمي والخَضَمَّ الدولي بكَيَـانَات هَشَّة، وإمكانيـات متـواضعـة، فكانَ لزَامًـا قبل كل شيء أن تُبَثَّ عـقيـدة الاحترافِ في صفوف الدعاة جماعة وأفرادًا، بحيث نصل إلى المستوى الذي يستنكف معه الداعية أن يؤدي عملاً دون أن يُعدَّ له العُدَّةَ المطلوبة، فيكون بذلك مُعَظِّمًا لشعائر الله صَادِقَ الغَيْرَةِ على دينه.

◆◆◆

الطريقة الخامسة

نَحْوَ عَالَمِيَّةِ الدَّعْوَة

ليست شخصية حالمة تلك التي تتطلع في بذلها للدين أن يصل مجهودها إلى المستوى العالمي، وليست من الأماني الكاذبة أن يتمادى الدعاة في تمني اليوم الذي تصبح دعوتهم الإسلامية شأنًا عالميًا يُحْسَبُ له ألفُ حساب.

ونحن في حديثنا عن قضية خدمة الدين نحاول أن نجمع بين الواقعية والطموح العالي، ونَجْنَح عن الدَّعة والخُطَطِ الساذجة، بقدر جنوحنا عن التهور والخيال المستحيل، وفرق بين يقين النصر الذي يمثل دِعَامَةً أساسية في عقيدة الداعية، وبين مصادمة السنن الكونية بل والشرعية بزعم أن الله سينصر عباده المؤمنين.

تلك الكلمات السابقة وإن كانت صارمة فهي ضرورية قبل أن نَشْرَعَ في تفصيل العنوان، ذلكم أن من بدهيات العقول أن النتائج رهينة الإمكانيات، والنجاحُ قرينُ البذل المتاح، وتحقُّقُ الغاية مرتبطٌ بتحقُّق الوسيلة، وكل ذلك لا يقدح في كرامة الله لأوليائه بالنصر مع الذِّلَّة والقلَّة، فحديثنا عما يجب أن يَعْتَمِلَ في صدر الداعية من حرص على اتخاذ الأسباب.

إن عالميةَ الدعوة الإسلامية هاجِسٌ ينبغي أن يُلِحَّ في طموح كل داعية إلى دين الله - تبارك وتعالى -، ومشروع ينبغي ألا يغيب عن أذهان الغيورين على دين الإسلام.

فهي حقيقة شرعية بلا امْتِرَاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ (آل عمران: ١٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ (الأنفال: ٣٩)، وقال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله زَوى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أمَّتي سيبلغ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها»[١].

وقال ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهارُ، ولا يترك الله بَيْتَ مَدَرٍ، ولا وَبَرٍ إلا أدْخَلَهُ الله هذا الدين، بِعِزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عِزًا يُعِزُّ به الإسلام، وذُلاً يُذِلُّ به الكفر»[٢].

وفوق كونها حقيقة شرعية هي ضرورة إنسانية تَسْتَنْهِضُ هِمَّةَ كل مُشفِقٍ على حال البشر وسكان الكرة الأرضية، فالكفر يَلُفُّ أرجاء الأرض، والفجور يستعلن على حين غفلة من القيم والمُثُل، وأضحى للكفر والفجور دولةٌ وسلطان، وصارت ممارسات الفسقة تَتَحَلَّى بغطاء الشرعية، فالكفر يَتَزَيَّا بحُلَّة حرية الفكر، والشذوذ الجنسي ينافح عن حقوقه تحت غطاء الحرية الشخصية، والمرأة تريد أن تتبرأ من الحياء بزعم التحرر من القيود الجائرة، بل إن براءة الأطفال تغتال بالخطف والاستغلال الجنسي تحت أضواء المدنية الكاذبة.

كل ذلك ألا يُنَادِي على النفوس الأَبِيَّة أن تسعى لخلاص تلك البشرية المغلولة، أو تنافح عن القيم والمثل الضائعة في غابة الشهوات والغرائز البهيمية.

لم تَعُدْ مسئوليةُ الدعاة محصورة في نطاق المسجد الذي يخطبون فيه أو يلقون محاضراتهم، وفي حدود قاطني الحي الذي يسكنون فيه، إن حزام المسئولية يتمادى في الاتساع ليصل إلى كل نفس منفوسة تَدِبُّ على هذه الأرض.

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

(٢) رواه أحمد والحاكم بسند صحيح.

يقول النبي ﷺ : **«وإنَّ العالم يستغفرُ له من في السموات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء»**[١] .

قال العلماء في تفسير هذا الحديث: إن العلماء لهم دور في الوصية بالكائنات الحية، حتى إنهم يوصون الناس بإحسان الذِّبحة[٢]، كما أوصى الرسول ﷺ ، فنَفْعُهُم عام على كل الخلائق، ولذلك تتذكرهم بالخير والدعاء.

وإذا كان هذا حال الحيتان، فما بال البشرية التائهة في سرداب شهواتها، إنها أحرى بأن تحتل مساحة من اهتمامنا معاشر الدعاة، وقد كاد النبي ﷺ أن يُهلكَ نفسه حزنًا على الناس ألا يكونوا مؤمنين، وسهر الليالي ساجدًا يدعو ربه متضرعًا: «أمتي .. أمتي»، فصلى الله وسلم على ذلك النبي الشفيق الذي حمل هم توصيل الدين إلى كل البشرية.

وإذا كانت هذه الهمة العالية تمثل نسيج طموح كل داعية إلى الله تعالى، فإنه إزاء تعظيمه لشعائر الله وفرائضه، يأبى أن يكون مجرد مراهق ينشغل بالأحلام والأماني الخادعة، ويَجْمَحَ وراء خيال هاوٍ، وسراب كاذب.

إنه يمزج هذا الطموح بتخطيط واقعي، ويبني آمالاً صادقة على جهود مخلصة، ثم يكلُ النتائج إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، هو لا ينظر إلى كَرَاسيٍّ الحكم والسلطة بقدر ما يتمنى أن يحوز كرسيًا واحدًا في جنة الخلد، يحدوه الطمع في رضا الله، فيبذل حق البذل، ليحوز السلعة الغالية: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (التوبة: ١١١).

إنه قليل الكلام، كثيرُ العمل، سريعُ التأثر بواقع المسلمين، والاستجابة لنداء البذل، إذا ما أقبل على عمل دعوي تسامى في العطاء له، وإذا فكَّر في مشروع أعد

---

(١) رواه الترمذي بإسناد حسن.

(٢) كما تقدم (ص٥٨).

له العـدة الكاملة، يتـخذ الأسـباب التـامـة محـاطة بتوكـل على الله وثيق، يحتـرم التخصُّصـات، ويأبى الفوضى والارتجالية، إنه مثال الداعية الذي يحـمل هما عالميًا، ويغذيه طموح عال، ومثل هذا تفتقر إليه الدعوات العالمية، ويعد طاقة دفاقة لكل من حوله من العاملين.

إن نصف مساحة العالم الإسلامي دخلت في الإسـلام صلحًا ودعوة ومعاشرة لا عَنْوَةً وحربًا، مما يثبت أن عـالمية الإسلام في عالمية الداعـية، وأن السيف لم يُرْفع إلا على الظالمين والغاصبين لحق البشرية أن تؤمن بربها وإلـهها[1].

وإنَّ تَغَلْغُلَ الإسـلام في أوربا والأمـريكتين بل وفي روسـيـا والصين وإفريـقيـا وإسـتراليـا مع قلة الدعاة، وضـعف الإمكانيات لـدليلٌ على أن هذا الدين الحق، لو قُيِّضَ له من الحَمَلَةِ من يجهرون به في كل ميدان، ويطوفون به في كل صَقَع لتغيرت خريطة العالم في سنوات معدودة.

إن طرق خدمة الدين كثيرة، وأساليب نشره بين الناس وفيرة، وميادين النداء إليه شاسعـة، وما سطرناه في هذه الأوراق مسـاهمة متواضعـة نحو عالمية الـدعوة، فمن أمانينا أن تَتَجَيَّشَ كل الطاقات في خـدمة الدين فنُفَاجِئُ الباطلَ بجندي للحق في كل شبر عـلى وجه الأرض، ونُجَابِهُ الظلم والطغيـان، ونواجه الكفر والفجـور، ونُضَيِّقُ الخِنَاقَ على إبليس وجنوده، ونُحكِمُ الحِصَارَ على إِغْوَاءَات الشياطين.

إن عالمية الدعوة سـتتحقق بجلاء ويقين يوم نرى كل مسلم يُـسَاهِمُ بأي جُهد في سبيل دينه وأمته، يوم نرى كل مسلم يحاسب نفسه: ماذا قدم لدينه وأمته؟، يوم نرى

---

(١) ولا نقصد جحـود جهاد الطلب الذي أجمع عليه كل من صَنَّف في فقه الجـهاد، وهو أن يخرج إمام المسلمين كل زمان ليجـاهد الكفار ويرفع راية الدين، ولكن قصدنا بكلامنا هذا إثبـات أن الإسلام قد يكون مآله إلى قلوب العالمين في هذه الأيام ـ حيث المسلمون مسـتضعفون ـ بالدعوة والقدوة وإصلاح الخلل والمشكلات التي تورطت فيها البشرية عبر هجر أحكام الشرع المطهر.

حديث الناس في المقاهي والطرقات والبيوتات ومجالس السمر يدور حول هم الدين وشأن المسلمين، يوم نرى الأسرة تَدَّخِـرُ من قوتها رغيفًا تبذله لجائع أو محتاج، يوم نرى الأغنياء يتبارون في أَرْيَحِيَّة صِدِّيقيَّة نحو الإنفاق في سبيل الدين، يوم نرى الدعاة قدوة لغيرهم في حمل أمانة الدعوة وتبليغها للناس.

■ وفي سبيل بث هذه الروح العالية العالمية في نفوس الدعاة، بل في نفس كل مسلم نقترح الاقتراحات الآتية:

١ ـ ينبغي أن يعلو في خطاب الدعاة إلى الناس: الشعور بالمسئولية العالمية للإسلام، ومسئولية الأمة بأسرها عن حمل رسالة الدين: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وأن يستشعر كل من يستمع إلى صوت الصحوة أنها تحمل دورًا رِسَاليًا ساميًا، وأنها تنادي على الناس أن يَهُبُّوا لِتَحَمُّلِ هذا الدور معهم لِمَحضِ كونهم ينتمون لهذا الدين الرسالي الشامخ.

٢ ـ من اللازم أن تتناول الأدبيات الإسلامية هذه القضية في كل المناسبات حتى تُضْحِي عالمية الإسلام همًا مشتركًا يحيا في قلوب كل الناس.

ولابد أن تتنوع تلك الأدبيات في عرض هذه الفكرة، ما بين شِعْرٍ رَاقٍ، ونثر بليغ، وقصة هادفة، ومقال مؤثِّر، أو نشيد حماسي مُحَفِّز أو نحو ذلك من الأساليب المعروفة، والتي سنتناولها بالتفصيل عند الكلام عن طرق خدمة الدين.

٣ ـ يجب أن تقام المؤتمرات العالمية التي تذكر الناس بهذه القضية (عالمية الدين)، ويتم اتخاذ قرارات وتوصيات تَصُبُّ في هذا الصدد.

٤ ـ إرسال برقيات ورسائل نصح إلى ملوك ورؤساء الدول الإسلامية، وأصحاب المناصب الرفيعة النافذة في الحكومات الإسلامية والمنظمات الإسلامية العالمية، والهيئات

الإسلامية الخيرية العالمية وتحميلهم أمانة هذا الدين وتوجيه النصيحة الصادقة إليهم، ورفع كل ظلامة وتصرف يتصادم مع واجبهم في القيام بحماية حوزة الدين، والذود عن حياضه، وقد يظن البعض في هذا المسلك نوعًا من الحماقة والأماني الحالمة، وأنا أؤكد أن هذه الوسيلة إن لم تكن من الواجبات الشرعية، والفروض الكفائية، فإنها على أقل تقدير من الوسائل الجديرة بالمحاولة والتجربة، وكم رأينا في التاريخ من حركات إصلاحية تمت بسبب خطوة خطاها أصحابها لم تكن في الحسبان.

٥ ـ تكوين رابطة حكماء من العلماء المشهورين والدعاة البارزين تكون مهمتُها رأبَ الصدع بين الحركات الإسلامية والهيئات الدينية، ومراقبة مسارِ الدعوة على المستوى العالمي، وتوجيهَ النصح والاستشارة إلى كل أولئك، مع تقديم يد العون والمساعدة لكل مجهود يبذل لخدمة الدين، ويمكن أن يبدأ عمل هذه الرابطة على مستويات دنيا لتكوين جبهة دعوية قوية من طلبة العلم، والدعاة التنفيذيين، يكون نواة لحركة ضغط وشعور شعبي مُوَجِّه لإرادات الأمة، وقرارات القادة، ومنذ زمان بعيد وأنا على يقين أن حركة الإصلاح التي يجب أن تحدث للصحوة الإسلامية جمعاء، ينبغي أن يقوم بها طلبة العلم الصغار الذين لهم دور في إشعار القيادات الروحية للصحوة بضرورة الإصلاح، وضرورة المصارحة والمكاشفة، وهذه القضية ليس لها محل هنا، ولكنني ذكرتها من باب الذكرى لعل الفرصة تواتي في تأصيلها وتنظيرها في القريب العاجل ـ إن شاء الله ـ.

وبَعْدُ . . أيها القارئ الكريم . . لعلي لا أكون ممن يَهْرَبُ من واقعه بالتَّلَهِّي، كمن يبني قصر الرمال لينسى أنه يسكن في كوخ من صفيح، بل إنني على يقين أن جوانحك تحوي مثل هذه الآمال العظام، وأنا على يقين أنك على يقين من هذه الآمال، وأنها ليست من أحلام الكَرَى، وأحتاج أنا وأنت وكل غيور أن نتواصى بالحق ونتناصح، وأنْ نُغَذِّيَ الحزن والقلق بين الفَيْنَة والفَيْنَة بروافد الأمل الناصع، ليَتَبَدَّدَ ظلامُ الانهزاميَّة عن فجر المستقبل الصادق، وتَتَقَشَّعَ غيومُ القُنُوطِ عن شمس النصر الأكيد.

الطريقة الأولى

إِخْلاصُ النِّيَّاتِ وإِصْلاحُ السَّرائِر

إنَّ إِشْكَالية كثير من الناس في شأن علاقتهم بالله ـ تبارك وتعالى ـ أنهم لا يَعُونَ شَفَافِيَةَ الطاعة، ولا يدركون أن الله ـ تبارك وتعالى ـ قد وضع لكل شيء في هذا الكون قانونًا ونظامًا للإثمار والإنتاج، فكما جعل النار محرقة والماء الزُّلالَ مُرويًا، والهواء النَّقِيَّ مُنْعِشًا، فكذلك ما جعله الله ـ تبارك وتعالى ـ قُرْبَةً لذاته، ووسيلة لمرضاته، فإن له قانونًا في حصول الثمرة لا يقل صرامة عن قوانين الكون الأخرى.

والأعمق من ذلك أن الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ جعل من بعض الأشياء ـ على ضآلة شأنها فيما يعتقد الناس بَادِيَ الرَّأْيِ ـ سببًا لنَوَالِ الفُتوح، وحصول البركة والنَّماء بما لا يتفق والقوانين العادية.

ومن تلك الأشياء: النية الصالحة للعمل الصالح، فَغَنِيٌّ عن القول أنَّ عملَ العبد مشروطٌ قَبولُه بإخلاص النية، وبمتابعة الرسول ﷺ، فَذَانِكَ هما ـ النية الصالحة والعمل الصالح ـ المقصودان بقول الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ١١٠).

وقضية الإخلاص بالنسبة للدعاة وحَمَلَةِ الدين تأخذ غَوْرًا لا تُسْعِفُهُ العبارات الساذجة، أو الإيضاحات العادية، فهو يحتاج إلى شَفَافِيَةٍ روحية، تُوقِنُ بكرامة الله لأوليائه، وتعتقد أن القلب هو محلُّ نظر الإله من العبد.

فإذا ما توارد على قلب الداعية المخلص شيءٌ من كَدَرِ الحياة لجأ إلى تصفية شوائب المقاصد، لِيَقِينِهِ أن ثمة علاقة طَرْدِيَّة بين التوفيق الإلهي وبين سلامة النية

وحسن الطوية، قال رسـول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «إنك لن تُخَلَّف فتعمل عملاً تبتغي به وجه الله إلا ازددت به درجة ورفعة، ولعلك أن تُخَلَّف[١] حتى ينتفع بك أقوامٌ ويضرَّ بك آخرون»[٢].

لا جَرَمَ أن الآيات القـرآنية ـ مكيِّهـا ومدنيِّها ـ تواطأت على تـأكيد أهميـة النية وجلالة شـأنها، قـال تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر: ٢)، وقال عزَّ من قائل: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾ (الزمر: ١١)، وقال: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ (الزمر: ١٤)، وقال: ﴿ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (الأعراف: ٢٩)، وقال: ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (غافر: ١٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥)، ذلك الدين القويم أن نطيع الله مـخلصين ونعبده مُصَحِّحِينَ للقصد والإرادة.

بل إن في الإخلاص من البركـة العائدة على محيط الدعاة مِنْ صَـفَاءِ الوُدِّ ونَقَاءِ السيرة بينهم ما يدعـو إلى العَجَب، ومِصْدَاقُ ذلك قوله ﷺ: «ثلاث لا يُغلُّ عليهن قلبُ مسلم: إخلاصُ العمل لله، ومناصحة ولاةِ الأمر، ولزومُ جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط بهم من ورائهم»[٣].

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أي: لا يبـقى فيه غِلٌّ، ولا يَحْمِلُ الغِلَّ مع هذه الثلاثة بل تَنْفي عنه غِلَّه وتُنَقِّيه منه، وتُخْرِجُهُ عنه، فإن القلبَ يُغَلُّ على الشرك أعظمَ

---

(١) أي: تبقى في مكة، وكانت هذه الحادثة بعد فتح مكة، ومرض سعد وخشي أن يبقى بمكة، ويتخلف عن اللحاق برسول الله ﷺ، فبشره الرسول ﷺ أن التخلف ليس بمُقْعد إياه عن العمل النافع المقارن للنية الصالحة، فيحصل له السبق، وإن لم يرجع إلى دار الهجرة مع النبي ﷺ.

(٢) متفق عليه. (٣) رواه أحمد والترمذي، وهو حسن بشواهده.

غلٍّ، وكـذلك يُغَلُّ على الغشِّ، وعـلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودَغَلاً، ودواءُ هذا الدَّغَلِ واستخراجُ أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح، ومتابعة السنة».

ثم يقول ابن القيم في مَعْرِضِ كلامه عن تعريف الإخلاص: «وقد تنوعت عباراتُهم في الإخلاص والصِّدق والقصد، فقيل: هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وقيل: التَّوَقِّي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، والصدق: التَّنقِّي عن مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له، ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يَتِمَّانِ إلا بالصبر، وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء: أن يكون ظاهرُهُ خيرًا من باطنه، والصدق في الإخلاص أن يكون باطنُهُ أعْمَرَ من ظاهره، وقيل: الإخلاصُ نِسْيانُ رؤيةِ الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تَزَيَّنَ للناس بما ليس فيه سَقَطَ من عين الله».

ومن كلام الفُضَيل: «تركُ العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما»، قال الجنيد: «الإخلاص سرٌّ بين الله وبين العبد، لا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ، ولا شيطان فيُفْسِدَهُ، ولا هوى فَيُمِيلَهُ».

وقيل لِسَهْلٍ: «أيُّ شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص، لأنه ليس لها فيه نصيب»، وقال بعضهم: «الإخلاص ألا تطلب على عملك شاهدًا غير الله، ولا مُجازيًا سواه»، وقال مكحول: «ما أَخْلَصَ عَبْدٌ قط أربعينَ يومًا إلا ظَهَرَتْ ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»، وقال أبو سليمان الداراني: «إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرةُ الوساوسِ والرياء».

أما الهَرَوِيُّ فجعل الإخلاص تصْفِـيَةَ العمل من كل شَوْبٍ، أي: لا يُمازجُ عملَه ما يَشُـوبُهُ من شوائب إرادات النفس، إما طلبُ التـزين في قلوب الخلق، وإما طلب مـدحهم والهَـرَبُ من ذمِّـهم، أو طلبُ تعظيـمهم، أو طلبُ أمـوالهم أو خـدمتـهم ومحبتهم وقضاء حوائجه، أو غير ذلك من العِلَلِ والشوائب، التي عِقْدُ مُتَفَرِّقَاتِهَا هو إرادةُ ما سوى اللهِ بعمله، كَائنًا ما كَان.

وأولُ درجاته عنده: إخراجُ رؤيةِ العملِ عن العمل، والخلاصُ من طَلَبِ العِوَضِ على العمل، والنُّزُولِ عن الرِّضا بالعمل.

■ يَعْرِضُ للعامل في عمله ثلاثُ آفات:

١ ـ رؤيتُه وملاحظتُه. ٢ ـ وطلبُ العوض عليه.

٣ ـ ورضاهُ به وسكونُه إليه، ففي هذه الدرجة يَتَخَلَّصُ من هذه البَلِيَّة.

فالذي يُخَلِّصُهُ من رؤية عمله مشاهدتُه لِمَنَّة الله عليه وفضله وتوفيقِهِ له، وأَنَّهُ باللهِ لا بنفسـه، وأنه إنما أَوْجَبَ عَمَلَه مشيـئةُ الله لا مشيـئتُهُ هُوَ، كما قـال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير: ٢٦).

ثم قال ـ رحمه الله ـ: «والذي يُخَلِّصُهُ من رضاه بعمله وسكونه إليه أمران:

أحدهما ـ مطالعةُ عيوبه وآفاته وتقصيره فيه (أي: في العمل)، وما فيه من حظٍّ النفس ونصيب الشيطان، فَقَلَّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فـيه نصيب وإِنْ قَلَّ، وللنفس فـيه حظ. سُئِل النبي ﷺ عن الْتِـفَاتِ الرجل في صـلاته، فقـال: «**هو اخْتلاسٌ يختَلِسُهُ الشيطان من صلاة العبد**»، فإذا كان هذا التـفات طَرْفِهِ أو لَحْظِهِ، فكيف التفاتُ قلبِـه إلى ما سوى الله؟، هذا أعظم نصيب الشيطان من العـبودية. قال [illegible]ـود: لا يجعل أحـدكم للشيطـان حظًا من صلاته، يرى أن حـقًا عليـه ألا

ينصرف إلا عن يمينه، فجعل هذا القـدر اليسير حظًا ونصيبًا للشيطـان من العبد، فما الظنُّ بما فوقَه؟، وأما حظُّ النفس من العمل فلا يعرفه إلا أهلُ البصائر الصادقون.

الثاني - عِلْمُهُ لما يستحقه الرب - جَلَّ جلاله - من حـقوق العبـودية، وآدابها الظاهرة والباطنة، وشروطها، وأن العبد أضعفُ وأعجزُ وأقلُّ من أن يُوَفِّيها حقًا، وأن يَرْضى بها لربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عـمله لربه، ولا يرضى نَفْسَهُ لله طرفة عين، ويستَحـيي من مقابلة الله بعمله، فَسُوْءُ ظـنه بنفسه وعمله وبغضه لهـا وكراهته لأنفاسه وصعودها لله يحول بينه وبين الرضا بعمله والرضا عن نفسه، وقال بعضهم: آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور، وقيل: لابد من الخجل من العمل، مع بذل المجهود، فـمن إخلاص العابد خَجَلُه من عمله، وهو شدة حيائه من الله إذ لم ير ذلك العمل صالحًا له مع بذل مجهوده، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، قـال النبي ﷺ: «هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يُقْبَل منه»[1] اهـ.

▪ وأنت ترى مما نقلته عن ابن القيم أنَّ فِقْهَ رياضة النفس في:

١ - تَحْضِيرِ الإخلاص وتَقْوِيَتِه في القلب.

٢ - ودَرْءِ الشرك والرياء والسُّمعـة والعُجبِ، ولا ريب أن الدعاة إلى الله - تبارك وتعالى - أقوى الخلق قلوبًا وأَنْقَاهُم أفئـدة وأَصفَاهُم سَرِيرةً، لأنهم موصولون بالوحي المطهَّر في نذَارَتهم الخَلْقَ وتَعَبُّدهم لربهم به.

وقد تَيَقَّنْتُ من تجربتـي في الدعوة أن الدعـاة من أَحْـوجِ الناس وأقربهـم إلى الله - تبارك وتعـالى -، فقلوبهم مملوءة بالشـفقـة على المسلمين والأمل في هداية الخلق،

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ٥١٥) فما بعده.

وقد علموا بالاضطرار أيضًا أن الهـداية في يد الله تعالى، فتكامل اضطرارهم إلى الله تعالى أن يجعل الهداية متحققة بسببهم، ولن يجدوا صعوبة - إن شاء الله - في تطهير قلوبهم من عوالق الرياء، وعوائق الشرك.

وحَرِي بالدعاة أن يَتَعَهَّدوا قلوبَهُم على الدوام مُفَتِّشينَ عن رواسب الهوى، وبقايا الدَّغلِ الذي يَتَخَلَّلُ ثَنَايا النِّيَّات القلبية، وأَخْطَرُها الذي يَتَغَلَّفُ بِقَصْدٍ سَوِيٍّ مُعْتَبَرٍ زَيَّنَهُ له هَوَاهُ فاتَّبَعَه، فإنها والله القاصمة، قال تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴾ (الفرقان: ٤٣)، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ (فاطر: ٨).

ويتعاظم دور إبـليس اللعين في تَزْيين المقاصد الخبـيثة، وإلبَاسِهَـا خِلْعَةَ الولاية، وزينة الإخلاص، ونَزَاهَةَ الضَّمير، فَيُحِسُّ الداعيـة بالطهارة والبراءة حال كونه متلبسًا بأعظم زور وأشنع بُهتان، ومـا أتعسَ الذي يدعو إلى نفسه زعـمًا أنه يدعو إلى الله، يَدُلُّ الخلقَ إلى ذاته مُتَزَلِّفًا إليهم بصـورة الداعية المخلص، إن مثل هذا النوع قليل بين الدعـاة، ووالله ليـسوا من الدعـاة، ولكن داءَهم (أعني الريـاء)، لم ينج منه داعٍ بَلْهَ مسلم ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (الصافات: ٤٠).

وأي نفس تلك التي لا ترجـو لنفسهـا عزًا وَجَاهًا وسُلطانًا، كـلُّ النفوس الخلق تطلبـه، ولكن ما أعظم تـلك النفس التي تَتَصَـدَّرُ عند البَـذْلِ، وتَتَوَارَى عند المغـانم وتَعفُّ، إنها النفس المخلصة التي تَمَحَّض بَذلُهَا لربِّـها، فلسان حالها يقول: ﴿ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ (الإنسان: ٩-١٠).

لقد كان السلف الصـالح لا يَسْتَحْيُونَ من مواجـهة أنفسهم بنياتهم السـيئة، وما أكثـر ما رأيناهم يكلِّمون ويُحَـذِّرونَ أنفسهم من نِيَّة خـبيثـة تَسَلَّلَتْ على حين غِرَّةٍ، وَوَلَجَتْ في سَانحَة غَفْلَة، ولم يَتَحَرَّجُوا - رحـمهم الله - من التصريح بهذه النية التي تسللت لِيُعَلِّمُوا الأجيال كيف يكون الإخلاص والتجرد، فجزاهم الله عن الأمة خيرًا.

ومن أهم ما يجب أن ننبه له الدعاة على كل مستوياتهم أن قضية الإخلاص على خطورتها ليس من جنس ما لا يُطاق أو من قبيل ما يَعْسُرُ على المكلفين إتيانُه، وإلا ما كَلَّفَهُمُ الله به، وجعله ركنًا في قبول الأعمال، إذ لا يكلِّف الله، ولا يأمر إلا بما هو داخل في حَيِّز استطَاعةِ المكلَّفين كما هو معلوم في مَحَلِّه، وما ورد عن بعض السلف من صعوبة الإخلاص، وأنه عزيز وعسير فمحمول على استحضار الإخلاص مع وجود والجِات الهوى، ونوازع الإرادة الخبيثة، أو أنه محمول على التبرؤ من الإخلاص لأن ادِّعَاءَه دَلِيلُ عَدَمِه، وإلا فإن مُتَوَاتِرَ سيرة الصحابة ـ وهم أقل الناس تكلفًا ـ يُثْبِتُ أنهم كانوا يعالجون قلوبهم هَوْنًا، ولم يَتَجَشَّمُوا مَعَارِكَ وَهْمِيَّة مع النفس والهوى، فينصرف الهم حينئذٍ للتفتيش عن عدو داخلي خيالي وينسى معركته الأساسية مع الأعداء الخارجيين، وقد كان مما ذُم به الحارث المُحَاسِبِيُّ ـ يرحمه الله ـ كثرةُ كلامه في النيات على غير طريقة السلف، ففي (سير أعلام النبلاء) للذهبي (١٣/ ١١٢)، قال: قال سعيد بن عمرو البَرذَعِيُّ: شهدت أبا زُرْعَةَ الرَّازِيَّ، وسُئِل عن المُحَاسِبِي وكُتُبِه، فقال: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر تَجِدْ غُنيةً، هلْ بَلَغَكُمْ أنَّ مالكًا والثوري والأوزاعي صَنَّفُوا في الخَطَرَاتِ والوَسَاوِسِ؟! .. ما أَسْرَعَ الناس إلى البدع! اهـ، ولا أَسْتَرِيبُ أن في كلام أبي زرعة شدَّة بَيْدَ أن المفهوم من كلامه أن السلف لم يكونوا يعالجون نياتهم على نحو ما ورد في (الرِّعَايَة)، ونحوها من كُتُبِ المحاسبي، ولابن القيم وابن كثير كلام مشابه لا يحضرني ذكره.

وقد نَبَّهتُ على هذا الأمر لأنه كَثُرَ بين شباب الصحوة من يَتَنَصَّلُ من العمل للدين بزعم خوف الرياء والسمعة، وعزة الإخلاص ونحو ذلك من المعاذير الساذجة التي يمليها عليهم شيطان مريد أو نفس عاجزة كسول، فيضيع الدين بين وَرَعٍ كَاذِبٍ وكَسَلٍ مُقَنَّع.

ولولا هذا الداء الذي اسْتَشْرَى وتَوَلَّى كِبرَهُ زُمرَة من الناس، زعموه الدين الخالص فحذروا الشباب من التصدر دفعًا للرياء، ومنعوا المبتدئين من الدعوة بزعم ضرورة التَّحَصْرُمِ قَبلَ التَّزَبُّبِ، أقول: لولا استشراء هذا الداء لما أَوْلَيْتُ هذا الشأن اهتمامًا، ولما أَلْقَيْتُ إليه بالاً، لأن الأصل اتهام النية، ومحاسبة والجات الهوى، وعدم تزكية النفس، ولكنني رأيتُ الأمر أمرًا منكرًا، وأَبْصَرْتُ طاقات هائلة من شَبِيبَةِ الدين تَتَخَاذَلُ عن البذل وتتوارى عن المُصافَّة في كتائب الحق، وتَنْزَوِي في صَوَامِعِ التزكية (زعموا)، وتترك مُنَاجَزَةَ الباطل وأهله بِدعْوَى إصلاح النية والخوف من فساد القلب بالتَّصَدُّرِ، حتى خلا الجوُّ لأهل البدعة والكفر، وصدق فيهم قول القديم:

خَلا لَكِ الجَوُّ فَبِيْضِي واصْفِرِي ❊ وَنَقِّرِي مَا شِئْتِ أَنْ تُنَقِّرِي

وبينما نرى هذا النكوص يُقَنَّنُ في صفوف شباب الصحوة نرى نَبْتَةَ الكفر تَتَرَعْرَعُ على أكتاف شبيبة يُعَدُّونَ إعدادًا جيدًا ويتصدرون في المحافل داعين إلى كفرهم مدافعين عن باطلهم، وأَخسِر بها من صفقة أن تُعَمَّرَ دور العبادة بالرُّكَّع السجد، بينما الباطل يجول جولته ويصول صولته في ميادين الثقافة والاقتصاد والسياسة، وقد نادى القرآن أهل الإيمان نداء صارمًا وأوضح حقيقة الصَّفقة بين العباد وربهم، فقال تعالى: ﴿ انفرُوا خفَافًا وَثقَالاً وَجَاهدُوا بأَمْوَالكُمْ وَأَنفُسكُمْ في سَبيل اللَّه ﴾ (التوبة: ٤١)، وقال: ﴿ إنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ منَ الْمُؤْمنينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتلُونَ في سَبيل اللَّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْه حَقًّا في التَّوْرَاة وَالإنجيل وَالْقُرْآن ﴾ (التوبة: ١١١)

وقد نص أئمتنا على ضرورة التصدر في زمان الفتن وعند غَلَبَةِ الأهواء، وفي أبواب القضاء من كتب الفقه تجد نصًا صريحًا بلزوم السعي لمنصب القضاء، إذا تَعَيَّنَ أو رأى من تعين عليه القضاء تصدُّرَ المفسدين وتطاولهم للحصول عليه[1]، بل تجد أن

(١) قال النووي في «روضة الطالبين» (١١/ ٩٤): فرع: ما ذكرناه هو حكم الطلب بلا بذل، فلو بذل مالاً، قال ابن القاص وآخرون: إنه حرام، وقضاؤه مردود، والصحيح تفصيل ذكره الروياني: وهو =

بعض الفقهاء رَخَّصَ في دفع البرطيل (الرِّشوة) لنوال منصب القضاء إذا تعين، وعَلَّلوا ذلك بأن في تَسَنُّمِ القضاء رَجُلٌ جاهل أو مبتدع أو فاسق مفسدةً تربو على مفسدة الرشوة، وفي حصولها لمن هو أحق بها، وأهلها مصالح تربو على مصلحة الزهادة في هذا المنصب كما هو شأن السلف (أعني: زهادتهم في مناصب الدولة).

ولنا في مسلك النبي يوسف ﷺ ـ حين عَلِمَ تَأَهُّله لعلاج الخطر المحْدِق بالبلاد، ـ مُدَّكَرٌ وأسوة، فقالها غَيْر وَجِلٍ: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٥٥)، وأولئكم فتية أهل الكهف: ﴿قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ من دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف: ١٤)، وإبراهيم ﷺ كَسَّر الأصنام وواجه انْتِفَاشَةَ الكفر، وهو بعدُ غَضٌّ الإهاب فكان يُسَفِّهُ الأصنام ويُبَيِّن عُوار مسلك من يعبدها حتى تَسَامَعَ الناس بدعوته، فقالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٠)، ولم يخش الرسول ﷺ على عليٍّ بن أبي طالب من زهو الأبطال وخُيَلاءِ الشجعان غَدَاةَ قَتَل عَمرو بن وُدٍّ في غزوة الخندق، وقد عجز عن ذلك العُتُلِّ خِيَرَةُ الكُمَاةِ من الصحابة.

= أنه إن تَعَيَّنَ عليه القضاء، أو كان ممن يُستحب له فله بذل المال، ولكن الآخذ ظالم بالأخذ، وهذا كما إذا تَعَذَّرَ الأمر بالمعروف إلا ببذل مال وإن لم يتعين ولم يكن مستحبًا جاز له بذل المال ليتولى، ويجوز له البذل بعد التَّولِيَة لئلا يُعْزَلَ، والآخذ ظالم بالأخذ، وأما بذل المال لعزل قاض، فإن لم يكن بصفة القضاة (أي: لم يكن أهلاً للقضاء)، فمستحب لما فيه من تخليص الناس منه، ولكن أخذه حرام على الآخذ، وإن كان بصفتهم (أي: أهلاً للقضاء) فحرام، فإن فعل وعُزل الأوَّلُ ووَلِيَ الباذلُ، قال ابن القاص: توليته باطلة، والمعزول على قضائه (أي: مُثَبَّتٌ على منصب القضاء)، لأن العزل بالرشوة حرام، وتولية المرشي (كذا، ولعلها المرتشي)، والراشي حرام، وليكن هذا عند تَمَهُّد الأصول الشرعية، فأما عند الضرورات وظهور الفتن، فلابد من تنفيذ العزل، والتولية جميعًا كتولية البغاة. اهـ.

نعم .. ينبغي التَّحَرُّزُ من تصدير من عُرِفَ بَطَرُه وكِبره، وحُبُّه للوَجَاهَة والمنصب، لأن الولايات الشرعية لا تُقَلَّدُ لِمَنْ طَلَبَها كما تقرر في السياسة الشرعية، ولأن المفسدة التي قد يُحْدِثُها صاحب العُجْبِ والكِبْرِ بالناس أعظمُ من مصلحة تَوَلِّيه، وإن كان ذا كَفَاءة ودِراية.

ولا جُنَاحَ أن نُوَلِّيَ ونُصَدِّرَ من يُخشى عليه العُجب والكبر - ومن الذي لا يُخشى عليه ذلك؟ - إذا كان هناك منهج رشيد في تَلافي وُلوج تِلكُمُ الأمراض إليه، أو كانت المصلحة في تولِّيه تربو على مفسدةِ مرضِ نفسه.

وقد جعل الرسول ﷺ لأبي سفيان بن حرب غَدَاةَ فَتْحِ مكة شَيئًا لأنه يحب الذِّكْرَ (أي: الفخر)، ولم يَقُل: بل نَحْمِيه من الكبر والعجب ونحو ذلك، وَوَلَّى أسامة بن زيد قبل وفاته وأَنْفَذَهُ إلى الشام في رَكْبٍ حَوَى كبار البَدْرِيِّين من المهاجرين والأنصار.

ولقد أُذِنَ للشافعي في الإفتاء وهو ابنُ خَمْسَ عشرة سنة، وحَدَّثَ أبو زُرْعَةَ الرازي في الثانية والثلاثين، وأُخِذَ عن البخاري الحديث ولما يَخْضَرَّ شاربُه، وأفتى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وَجَلَسَ للإفادة والتدريس ولما يبلغ الخامسة والعشرين.

وقد تقرر أن اليقين لا يزول بالشك، واليقين الذي يجب وجوده لتولية المستورين أو الأغمار أو من يخشى عليهم أمراض القلوب من صغار السن، أو التجربة: أن تَحْتَدِمَ المعركة بين أهل الإسلام وملة الكفر، وتتعاظم الفروض والتكاليف ويَقِلَّ الناصر والمعين، وأن يكون في المولَّى من الكفاءة والأهلية والاحتياج إليه ما ينفي الغَضَاضَةَ من تَوَلِّيه.

وقد احتج القائلون بضرورة رعاية أحوال القلوب عند تولية الولايات الشرعية بعزل عمر بن الخطاب لخالد بن الوليد رضي الله عنهما عن إِمْرَةِ الجيوش الإسلامية، وتولية أبي عبيدة مكانه.

والجواب عن ذلك . . أنه لاشك أن رعاية أحـوال القلوب من أَجَلِّ ما يعتني به السالكون إلى الله، ومن أهم ما ينبغي أن يُولَى من الاهتـمام عند الدعاة والمربين، بَيْدَ أن عَزْلَ عُمَرَ لخالد أَمْلَتْـهُ مصالحُ شرعية أخرى، واقتضـته مجريات الحوادث، ونظرة عمر بن الخطاب إلى مستقبل الجيوش الإسلاميـة، ومستقبل الفتوح أيضًا، وقد أثبتت العسكريـة الحديثة أن القـيادة لابد أن تَتَـجَدَّدَ دَرْءًا للرَّجْعِـيَّةِ التي تُفْـسدُ مشـروعات التطوير، ومنعًا لاستقـطَاب قيَاديٍّ داخل المؤسَّسة العسكرية، ودفعًـا لأطماع القيادات في الاستـحواذ بتدبير أمـور الجيش، إذْ تَجْنَحُ نَفْسِـيَّةُ القائد العـسكري للديكتاتورية، وتَشْمَئِزُّ من الشُّورى كما عُلِمَ من تجارب الأمم.

ولاشك أن كلامي لا يُفْـهَمُ منه قَدْحٌ في عمـر أو خالد، فَهُمَـا مَنْ هُمَا، ولكن قراءة مُتَأنيةً في مـلف القضية تنبيك بأن العـزل اقتضتـه أمور جليلة ارتآها عمر، ولا يمكن أن نستدل بالحادثة على ما نحن فـيه من منع تصدر المتأهلين في مناصب الدعوة خوفًا عليهم من الرياء والسمعة والعجب.

ومن قبـيل ما نحن فيه: دَفْنُ العـبقريات ومُـوَارَاةُ الأَفْذَاذ خَلْفَ الكَوَاليس بدافع الحسد والخوف على الجاه، وكم رأينا من عناصر شـابة صاعدة رُزِقَت البَرَكَةَ والتوفيق في العلم والعمل، فَحِيْلَ بينها وبين التنامي، لأن جلالة المناصب التي كانوا سيتأهلون لها - في نظر كبرائهم - لا تناسب أسنانهم.

وقد شكا إليَّ أحد طلبـة العلم أن أستاذه الذي يشرف على رسالته في الماجـستير يأمره بالتَّمَهُّل لأن سنه - خـمسة وعشرون آنذاك - صغيـرة على هذه الدرجة العلمية، وأنه لم يَنَلْهَا أحَدٌ في كليته في هذا العُمُر.

أعود للتـأكيد أنني لا أمـاري في خطورة أمر النيات وأحـوال القلوب، وضرورة تزكيتها وحـمايتها من حَمْأَةِ الأمراض والآفات وفَـوْرَةِ حُبِّ الرياسة والتصدر، ولكننا نعالج ذات المرض فيمن يَمْنَـعُون الشبيبة من خدمة الـدين والبذل له، حَسَدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم أن في تصدرهم خطورة على وجاهتهم.

والسؤال الذي لابد أن أَسْمَعَهُ، كما لابد أن أجيب عليه: هل تريد إذن أن نُوَلِّي الأَحْداث وصِغَارَ السن مناصب تحتاج إلى الحِنْكَةِ والخِبْرةِ، وطولِ التجربة؟، وهل تريد أن نترك المجال فسيحًا لكل ذي هَوَى مغرض أن يتسنم مناصب الدعوة فيحدث من الفتنة - بما في قلبه من الفتنة - ما تُصطلم معه الروح الجماعية بين الدعاة؟ - وقد علمنا كم جر أولئك الأغمار على الدعوة من ويلات بسبب فتاواهم الجريئة المتسرعة، وخطواتهم الدعوية غير المحسوبة، وافتقادهم لآداب العلماء وخصال الأئمة، وبعدهم عن الروية والأناة.

والجواب . . أن المرض يعالج، والأضرار الدعوية نتلافاها، ولا تُبْتَرُ الأعضاء النافعة بزعم الخوف عليها من التلف إذا عملت، ولا تُوْءَد الطاقات بزعم حمايتها من فورتها ونشاطها.

إن العلم النافع والعمل الصالح والدعوة المخلصة أمور كفيلة بتنقية القلوب من كل دغل، وقد نص القرآن على أن الدعوة من أحسن القول: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت:٣٣)، ورقابة القادة والعلماء وتربيتهم لصغار السن ضامن من ولوج الهوى إلى نفوسهم، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وقد مرَّ معنا حديث النبي ﷺ: «ثلاث لا يُغَلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط بهم من ورائهم».

ولم يقل أحد من أهل العلم أن علاج الرياء وآفات العمل بترك العمل، بل المنقول عن السلف أن ترك العمل لأجل الناس رياء، ومَثَلُ الذي يَهْجُرُ العمل، أو يمنع الناس منه خَشْيَةً على القلوب من آفاتها كَمَثَلِ من ترك الطعام والشراب خوفًا من الجراثيم الكامنة فيها، أو كمثلِ من هجر الناس ولم يلامسهم خوفًا من عدوى الأمراض، وانتقال الحُمَّى.

ومن رَامَ عملاً خاليًا من الشوائب نَقِيًّا من المعايب، فقد ركبَ مَتْنَ الشَّطَط، وأَعْظَمَ على نفسه الفِرْيَةَ، وأنَّى السبيل إلى عمل خالص صاف والله تعالى يقول: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠-٦١).

عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، قول الله: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو مع ذلك يخاف الله؟، قال: «لا .. ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه»[1]، وعن ابن عباس في قوله: ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾، قال: يعملون خائفين[2]، وعن عائشة: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا ﴾ قالت: هم الذين يخشون الله ويطيعونه[3].

وأنت ترى بجلاء أن الآية نَصَّتْ على أن أولئك المؤمنين يعملون، مع الخوف والوجل من عدم قبول العمل، ولم يصرفهم هذا الوجل عن تَجَشُّمِ عناء العمل، ومجاهدة الرياء وآفات النفس.

إن المقصود من هذه الطريقة تطهيرُ الضمير الدعوي، وتَنْقِيَةُ المقاصد من الخَبَث الذي يَعْتورُ المتنافسين على الدنيا، وتَمْحِيصُ الخَطْوِ الحَرَكِيِّ للدعاة من عَرْجَةِ الرياء، وعَثْرَةِ الشِّرْكِ الخَفِيِّ.

إن مرادَنا أن نحقق في دعاتنا النَّزاهَة المطلقة في إراداتهم، وأن نصرف أبصارهم عن رؤية أعمالهم، وأن يتجافى كل داعية عن بَطَرٍ مُرْدٍ أو غرور مُطْغٍ.

وليس عسيرًا على كل فرد ينتمي إلى هذه الصحوة المباركة أن يُبَادرَ إلى نيَّاته، فَيُنْشأ منها ما يصلُحُ للعرض على الله - تبارك وتعالى -، أو يسارع إلى الفاسد منها، فيتداركه بالإصلاح والتنقية، ويضرع إلى الله - تبارك وتعالى - أن يرزقه النية الخالصة والعمل الصالح.

---

(١) رواه أحمد والترمذي، وسنده صحيح.
(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره».
(٣) انظر «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٤٩).

الطريقة الثانية

إيْجَادُ نَمَاذجَ كَامِلَةٍ فِي الصَّلاحِ

إنَّ نفوسَ البشـر تَتَباين، وطباعُهم لا تتـفق، فما كان عَسُـراً على قوم قد يكون يسيرا على آخرين، وما استَصْعَبَه نَاسٌ كان سهلاً ذَلُولاً عند جمع آخرين، ومن الخلق ذوو أفئدة نَاشِزَةٍ وقلوب نَافِرَةٍ، ومنهم: من بلغ في اليقين والإيمان الرتبة العليا منهم: البخـيل الشحيح، ومنهم الكريم الأرْيَحِـي البَذول، منهم: الجبـان الرِّعديد، ومنهم: الهَصور المِقْـدَام، نُفُوسٌ أَبِيَّة، وذوو خصال دَنِيَّـة، منهم: الشَّكور، ومنهم: الكفور، عيون فاجـرة ومُقَلٌ من خشية الله دامعـة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (الليل:٤)، وقال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ (التغابن:٢)، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ (البقرة:٢٠٤)، وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (البقرة:٢٠٧)، وقال تعالى: ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (البقرة:٢٠٠-٢٠١).

ولكن الله ـ تبارك وتعالى ـ يَسَّر للإنسان اختيارَ المعالي ونَبْذَ الدَّنَايَا، فقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد:١٠)، وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (الليل:٥-١٠)، وقال تعـالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان:٣)، وقـال ـ تبـارك وتعـالى ـ: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (محمد:١٧)، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم

مَشْكُوراً ﴾ (الإسراء: ١٩)، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٥).

وقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكل مُيَسَّر لما خلق له»[١]، وقال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[٢].

إنَّ همَّة الإنسان هي التي تقودُه إلى المعالي وخَسَاسَتُه تُرديه في الدنايا، وعلى قَدْر أهل العزم تأتي العزائم، فمن ألزم نفسَه لأوَاءَ السَّعي علا، ومن ارتضى الرَّخَاوَةَ والدَّعَةَ فَلا.

وَلَوْلا تَكَالِيفُ السِّيَادَةِ لَمْ يَخِبْ ٭٭ جَبَانٌ وَلَمْ يَحْوِ الفَضِيلَةَ تَائِرُ

وأبواب الفضائل كثيرة جَمَّة، ومَنَاحي السَّبَق في الخير موفورة، وإذا اختار المرء منها بابًا، وأتقن منها ميدانًا فقد أقام للإسلام صرحًا من القِيَم شاخِصًا، وأبدى للناس أُنْمُوذَجًا من المُثُلِ كاملاً، فأقام الحجةَ لله على خلقه، وأعْلى للحق رايةً على مدى أفقه، واستنَار بِنَموذَجِيَّتِهِ أقوام، واقتدى بِهُدَى دَرْبه فِئَام، وارْعَوَى بصرامة حقِّه طَغَام.

ومما ينبغي تقريره أن الكمال البشري لم يَثْبُت إلا للمعصومين من الأنبياء والمرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، ومن عداهم فكلٌّ نقصٍ وذنبٍ وتقصيرٍ فهو جائز عليهم وثابت في حقهم على وجه اللزوم، كما قال رسول الله ﷺ: «كل بني آدم خطَّاء، وخَيْرُ الخطَّائين التوابون»[٣].

وعليه فلا مَطْمَحَ لأحد في بلوغ رُتَبِ الأنبياء والمرسلين أصلاً، ولكن مراتب الطاعة المختلفة مأذُونٌ بتسنمها مسموح بِرُقِيِّها من كل البشر.

---

(١) رواه البخاري وغيره. (٢) رواه مسلم.
(٣) رواه ابن ماجه، وقال الشيخ الألباني: إسناده حسن.

لا جرم تَنَافَسَ علـى تلك المراتب المتنافسـون، وتسابق إليها الحريصـون، فذاك صوَّام وهذا قـوَّام، وآخر بذول، ورابع من الذاكـرين الله كثيـرًا، وخامس ممن شَـمَّر الساعد في طلب العلم وبلغ رُتَبَ العلماء، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨).

وعلى هذا التنظير فإنَّ المُتَصَوَّر أن تتحقق في واقعنا نماذج السلف الصالح الراقية، ويَتَجَسَّمَ في نطاق حواسنا ما نقرؤه في تراجم أئمتنا الأعلام.

ونفس هذا التنظير يتطابق مع منهـج السلف في التزكية، فسلفُـنا لم يطمحوا أن يكون كل المجتمع قَـوَّامًا لليل، أو صوَّامًا للنهار، لأن هذا لم يتحـقق في عهد النبي ﷺ أصلاً، فكيف نرجوه في أجيال لاحقة، والرسول ﷺ يقول: «**لا يأتي زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه**»[1].

بل المتصوَّر أن تتنوع نماذج الطاعة في المجتمع الواحد، وتتوزع رُتَبُ الطاعة العليا بين الطاقات المختلفـة، فهناك من بلغ في الزهادة واطِّراحِ مَلَذَّاتِ الدنيا مقـام معروف الكرخي، ومنهم من استوفى من التقوى نصيب أحمد بن حنبل، ومنهم من نذر نفسه للجهـاد فلا تراه إلا مخاطرًا بنفسـه في كل ميدان، ومنهم من تَفَـرَّغَ لمقارعة المبـتدعة والزنادقة أمـثال شيخ الإسلام ابن تيـمية، ومنهم من تَصَـدَّرَ للوعظ والإفادة والنصح للأمة، أمثال الحسن البصري.

وعلى هذا المنوال ينبغي أن ينـظر المسلمون لمنهج الصلاح والإصلاح: أن يتـوجه كل امرئ إلى مـا تطيب نفسه به من رتب الطاعة فـيرقى في درجاتها، ويحـتل منها المقام الأسمى، ويبلـغ فيها الدرجة العليـا، فإن وجد زكاة قلبه في قـيام الليل أَدْمَنَه،

---

(١) رواه البخاري.

وإنْ تَلَذَّذَ بالصيام أدامه، وإن أتقن العلم تخصص فيه وأفاد الناس، وإن استحلى تلاوة القرآن جعله نَفَسًا يَحْيَا به، وإن كانت نفسه ذات سجايا صالحات كالكرم والحياء تمادى فيها وتَفَنَّن ليكون مضرِبَ المَثَلِ فيها.

وهكذا توجد في المجتمع أمثلة المعالي، فإذا ما التَفَتَ طالبُ هدًى ليقتدي بكريم في حُسن الرِّفادة والقِرَى رأى نموذجًا حَاتميًا، وإذا بحث مُتَنَسِّكٌ عن أسوته في الصيام والقيام وجد شبيهَ الفُضَيْلِ ومَثيلَ المُحاسبي، والمطلوب أن يَتَرَفَّع كل ذي خصلة في درجاتها حتى يصير أُحْدوثَةَ الدَّهر، متسابقًا متسارعًا غيورًا أن يسبقه إلى الله مشمِّر، لا يقنع من نفسه بسير الهُوَيْنَى حتى يَعْدُو كالمُصَلِّي[١]، ويَنْبذَ الحَجْل[٢] المَقيت.

إن الذي يعجز عن أن يقدم لدينه نشاطًا دعويًا ملموسًا في معتَرِكِ الصراع مع الباطل، وفي لُجَّة الحرب الضَّروس مع عروش الكفر وأصنام المذاهب الباطلة المعبودة من دون الله، لن يعجزَ - إن شاء الله - أن يقدم لأمته نموذجًا يُقْتدى به فيما عجز عنه الدعاة المنشغلون بمواجهة صناديد الكفر العنيد، والفسق العتيد.

بل إن هؤلاء على الحقيقة هم الجنود المجهولون الذي يَقْوَى بطُهُورِيَّتِهم بُنيانُ الصحوة، ويصفو الكَدَرُ، وتَتَلاشى الشوائب.

وهؤلاء هم الذين على أَصْدَاءِ صلاحهم تَتَنَزَّل الفتوح ويهبط النصر المبين، وهم الذين يَنْدفعُ بهم البلاء، ويَنْزِل الغَيْث من بعد القُنُوط، وتكاثُرُ نماذج الإصلاح هذه كَفيلٌ بأن يدفع الخَبَثَ عن المجتمع، فإن الماء الطَّهورَ الكثيرَ لا يُنَجِّسُهُ شيء، وإذا بَلَغَ قُلَّتين لم يَحْمل الخَبَثَ، فالمُتَصورُ أن صلاح الدعاة بل صلاح شباب الصحوة

---

(١) على وزن اسم الفاعل، هو الأول في الخيل المتسابق.
(٢) هو التريث في الخطو، والتمهل في المشي.

فَحَسْبُ وتسابقهم في درجات الولاية، مُؤْذِنٌ بتطهير المجتمع من عناصر الفساد والإفساد، ونَظَرِيَّةُ الفرض الكفائي في أحكام الشريعة الغَرَّاء قائمة على هذا المعنى، فالمراد من الفرض الكفائي حصولُ الكفاية من فعل ما بحيث ينسَدُّ بابُه، ويحصُلُ المراد منه، وما دام الأمر ناقصًا، فالإثم عالِق في رِقَابِ كُلِّ الأفراد المستطيعين، وإذا كنا نعد تَخَصُّصات مثلَ الطِّب والهندسة وغيرها من المهنِ التي يحتاج إليها المجتمع أيَّمَا احتياج من الفروض الكفائية، فأجدر بأن يكون وجودُ النماذجِ الإصلاحية العالية فرضًا كفَائيًا أيضًا تأثم الأمة جَمعاءُ إذا لم يَقُمْ من أفرادها المستطيعون من يحقِّقُهَا ويُمَثِّلُهَا.

يقول الأستاذ الراشد[1]: إن الداعية إذا ألزم نفسه بالورع كان لوَرَعِه أصداء يُحْدِثُ تكرُّرُها وتَرَدُّدُها تحريكًا للناس، ويوضِّح ذلك ما اكتَشَفَه الزاهد يحيى بن معاذ من أنك (على قدر شُغْلكَ بالله يشتَغلْ في أمرك الخَلْق)، وتوفيق الله - تعالى - لنا في عملنا التَّجميعي مَنُوطٌ بإقبالنا عليه، وما أَزْمَةُ صدود الناس عنا إلا من نتائج أزمة قلة اهتمامنا بما أَوْجَبَهُ الله، ومن أقبل بِقَلْبِهِ على الله تعالى: أقبل بقلوب العباد إليه، إن الدعاة كثيرًا ما يشكون عزوف الناس عنهم والتهاءَهم بشكْليَّات عادية يجدونها عند الأحزاب الأخرى، وبالغَثِّ لا بالسمين، وباللَّغو لا بالعلم، وما من شك في أن هذه الظاهرة هي من الجهالة التي قوبل بها الأنبياء - عليهم السلام - وبعضُ المصلحين، وأنها صفة متوقَّعة من البشر، وأنها من علامات اقتراب الساعة، ولكن يبدو أن صدود الناس هذه الأيام قد فاق كل صدود سابق، وأن جهالة الناس بلغت حضيضًا واطئًا، وأصبح أمر الإصلاح عسيرًا على المُقِلِّ الماشي في طريق الإيمان بهدوء وبرودة، ولابد أن يَتَصدَّى المُكثِرُ، الرَّاكِضُ، الفَائِزُ، ذو الحرارة.

---

(١) «المسار» (ص٩).

إن للتقوى آثارَ تشغيل، وبمقـدار جِدِّيَّتِنَا يكون الناس جِدِّيِّين، ولنا شاهد دائم في أنفسنا، فإننا نتفاوت بين يوم ويوم، وإيماننا يزيد وينقص، فإذا كنا حينا في إيمان جيد رأينا إقبال الناس علينا، وإذا كان فينا جَزْرٌ إيماني وقسوة قلب في حين آخر - رأينا قلة جَـدْوَى نشاطِنا، مع كـثـرة غُدُوِّنَا وَرَوَاحِنَا، وكلٌّ مـنا قد تَعَـاقَبَـتْ عليه مـثل هذه الأحوال، ولَمَس بنفسه اختلاف مواقف الناس منه، وضـوابط إنتاج الجماعة تعتمد في كثير من جوانبها على ضوابط إنتاج الفرد. اهـ.

إن الأمة تحـتاج أن يوجـد من بينها من إذا أقـسم على الله أَبَرَّه الله، من إذا رَفَعَ أُصْبَعـه إلى السمـاء داعيًـا انفتحـت له أبواب القبـول والإجابة، من إذا أَلَـحَّ على الله - تبارك وتعالى - نزل التأييد من الله عاجلاً غير آجِلٍ.

تحتـاج الأمة إلى البَـذول المضحي بـالمال والثروات لا يخـاف الفقـر والإملاق، نموذجا في الإنفـاق كأبي بكر الصـديق يوم خرج من مـاله كله، فلما سـأله الرسول ﷺ: ماذا تركت لأهلك يا أبا بكر؟ . . قال: تركت لهم الله ورسوله[١].

إن الأمة أحْـوَجُ ما تكون إلى فِـتْيَانِ صـدقٍ يعيدون إلينا ذكـرى المتنسكين الأول أمثال الفضيل بن عياض، وابنه علي، والـسُّفْيَانَيْنِ، وعبد الله بن المبارك، والكرخي، وأحمد بن حنبل وأضرابهم.

إن الأمة لفقـيرة إلى أنموذج في الزهد يذكِّر الناس بحقيـقة الدنيا، ويُريهم أن في البشر من يمكنه أن يغالب نفسه ويُطَلِّقَ هذه الدنيا طلاق البتة، وأن يقنع من هذه الدنيا بالقليل الذي يكفي.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح.

محتاجة والله هذه الأمة المنكوبة إلى من يعيد لها ذكريات وأمجاد الأكارم الأول، كحِلْمِ الأحْنَف بن قَيْس وجُوْدِ ابنِ المبارك، وصَبْرِ أحمد في المِحَنْ، وجَلَدِ ابن تيمية في مواجهة قوى الفساد والعُتُوِّ والبَغْي.

ومـا أجْمَلَ أن يتلفت الناس من حـولهم في كل مـدينة وقرية، فـيجـدون هذه النماذج حـجة لله عليهم، وصَـرْخَةَ نذير تذكِّرهم بما يجب عليـهم، وتَلْفِتُ أنظارهم إلى أن المكارم والمعالي ثَمَّ تنادي عليهم بالرقي والسمو بأحوالهم.

وليت الدعاة والمربين يلاحظون هذا الاتجاه في تربية النشء، فقد يجدون من بين الشبـيبة مـن تَقْصُرُ به همَّـتُه عن مواجـهة الناس بخُطبـة أو درس ولكنه سيـجده في الزهادة والتقوى غـرسًا يحتاج إلى السِّقاية والعِناية، وقـد يَجِدُ من بينهم من لا يُتقِنُ فنون العلم، ولكنه سيـجده في رِقَّة القلب، وسرعة الدَّمـعةِ ما يستـحق أن تُنَمَّى فيه هذه الخصلة ليكون قدوة للعيون الجامدة والمُقَل المتحجِّرة.

وليس على الدعـاة والمربين من بأس أن يَنْدُرَ - في نشـئـهم الذين يربونهم - طلبـة العلم أو الراغبون في التخصص، ويكون بدلاً منهم المتنافسون في الخيرات والعبادات.

بل إني لأرى أن العلم فيه مـا يرغِّب الناس فيه، فآثاره في الناس مـشهودة، وفضائله في النصوص معلومة، ورُتَبـتُهُ في دنيا الناس لا ينكرها أو يزهد فيها إلا غِرٌّ جَهول.

أما الفضائل الأخرى كالزهد والاجتهاد في العبادة وتحقيق معالي الأخلاق ومكارمها، فليس لها من وازع إلا نَجَابَةَ الساعي إليها، وسُمُوُّ عقلٍ من شَمَّرَ للتمثل بها.

والصحـوة الآن تمر بحالة تَشَبُّعٍ في طلبـة العلم، الذين قَنَعُوا من العلم باسـمه، واكتفـوا من مزاياه بشكلهِ ورَسمِـهِ، ونَدَرَ من بينهم من حَقَّقَ في دنيا الناس شـيئًا مما تَعَلَّمَه أو عَلَّمَه، لا أستثني - ورب الكعبة - نفسي.

والصحوة أشد ما تكون احتياجًا إلى نماذج الصلاح العليا التي سيكون لها دور المناعة والحصانة لهذه الصحوة من الانحلال والتآكل.

■ **ويمكننا أن نلخص خطوات هذه الطريقة في الفقرات الآتية:**

١ - اهتمام الدعاة والمربين بالقيم والمثل والأخلاق ونماذج الصلاح والعبادة أثناء ممارسة النشاطات التربوية والدعوية المختلفة.

٢ - أن تتوافر في المكتبة الإسلامية الأدبيات التي تُظْهِرُ هذه النماذج من السلف الصالح بحيث تكون وسيلة مَيْسورة لتعليمها للناشئة أو تعميمها على الناس، وتذكيرهم بها في الخطب والدروس والمواعظ.

٣ - أن يقوم الدعاة بدور تربوي دقيق في ملاحظة العناصر عالية المستوى من الناشئة، والتدقيق في صلاحيتهم لأي اتجاه، وتنمية ذلك الاتجاه بما يحقق نبوغهم فيه، ورقيِّهم على دربه.

٤ - أن يجتهد كل الدعاة بل كل الغيورين على الدين في أن يحقق كل واحد منهم نموذجًا من نماذج الصلاح التي يحبها وينوي بهذا الاجتهاد - في بلوغ رتبة الصلاح - أن يكون داعيًا بصلاحه إلى الله تعالى، وحجة له على خلقه ورمزًا لشموخ هذا الدين وأثره في نفوس أتباعه.

٥ - شَحْذُ هِمَمِ الناشئة للتنافس في درب الاستقامة عَبْرَ المسابقات العلمية، والمخيمات التربوية والاعتكافات في المساجد والندوات الترفيهية.

وبعد .. فإن الصلاح حركة ذاتية في أعماق النفس حيث تتفاعل الإرادات، وتتجاذب الأهواء، وتتعارك النوازع، وينتصر في النهاية العزم القوي.

والنفس الطاهرة هي التي تسمو على الخَبَث، وتَتَجَذَّرُ في تُرْبَتِها قِيَمُ الحق، ويمكث في أرض فِطْرَتها ما يَنْفَعُ الناس، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ (الرعد: ١٧)،

فأكْرِم بها من نفس تلك التي استَعْـدَتْ على شهواتها جنود الإرادة، وقَفَزَتْ على أسوار المصـاعب تتسنم ذُرَى المعالـي والمكارم، تخوض حربَ التـزكية واثقـة أنها ستخرج من المعركة بنـصر مبين وفلاح أكيد فـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ١٠)، لا تتهيب من مَسَاءَة شَانئٍ أو مَلامَة عَاذل، قد أَرْكَزَتْ أَوْتادَ الحقِّ في أرض العَزْم الوثيق، وتَغَلْغَلَ اليقين يَسْرِي في هِمَّةٍ مُـتَعَاظِمَةٍ، كما سَرَى المدادُ في الماء القَرَاح.

ومن باب رَدِّ العجُـزِ إلى الصَّدْر، نقول: إن كل مُكلَّف يسـتطيع أن يخدم الدين بأن يكون عَبْقَـرِيًا في دَرْبٍ من دروب الاستقامـة، فَذًا في سبيل من سُـبُلِ المرحمة، يتخصص في شأنٍ من شئون الآخرة، كما يتخصص الناس في مفردات شئون الدنيا.

وقد أشار إلى هذا المعنى نبـينا ﷺ، حيث قال: «كل سُلامَى من الناس عليه صدقةٌ، كل يوم تَطْلُعُ فيه الشمس: تَعْدِلُ بين الاثنين صدقة، وتُعِينُ الرجل في دابته فَتَحْمِلُهُ عليها، أو ترفعُ له عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خَطْوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتُميطُ الأذى عن الطريق صدقة»[(١)].

وإلى هذا المعنى أيضًا يشـير قوله ﷺ: «الإيمان بِضْعٌ وستون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق»[(٢)].

◆◆◆

(١)، (٢) رواهما البخاري ومسلم.

الطريقة الثالثة

التَّنَوُّعُ فِي وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ

قد مَرَّ معنا أن الدعوة معنى شامل لكل فعل يُرَغِّبُ الناس في دين الله ـ تبارك وتعالى ـ مما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وهي بهذا المعنى تأبى أن تنحصر في هيئة الموعظة سواء تشكلت في صورة الخطبة أو الدرس أو نحو ذلك.

والعجب الذي لا ينقضي من أناس أرادوا أن يَحْصُرُوا مفهومَ الدعوة في خطبة الجمعة، ودرس العلم في المسجد، ناسين أن رسول الله ﷺ وَعَظَ على القبر وفي سُوحِ القتال، بل وعظ الناس بفعله قبل قوله، وخصص للنساء يومًا يَعظُهُنَّ فيه، وكان يَخُصُّ عائشةَ بمزيد علم لكونها المطلعة على خَفِيٍّ أمره، فتكون بذلك المُبَلِّغَ للناسِ ما خفي من سنة رسول الله ﷺ، وجعل فِداءَ أسرى بدر أن يعلِّموا صِبْيَةَ المسلمين الكتابة، أفلا ينبئ كل ذلك أن الدعوة وخدمة الدين يمكن أن تكون خارج حدود المسجد؟!، ولنا أن نسأل: كيف للدعوة أن تقتحم أسوار الطلبة الشيوعيين في الجامعات إذا لم نخرج من طلائعنا أوتادًا في العقيدة الإسلامية ومتخصصين في الأفكار الهدامة، يكوِّنون جَحَافِلَ حقٍ تَهْدِمُ عروشَ الكفر بالحجة الواضحة والبرهان الناصع؟.

إنني أستقبح أن يتطاول شيوعي وَقِحٌ على أحد الشباب الملتزمين ويتهمه بأنه ليس له أيديولوجية، أو أن يَتَجَهْرَمَ[1] عَلْمَانِيٌّ في مدرجات الكليات أمام آلاف الطلبة والطالبات بعقيدة الفصل بين الدين والدولة فلا يجد من الغيورين على دين الله من يقف له بالمرصاد.

---

(١) أن يجهر بالجرم.

ولقد شُهد للكفر جَولَة وحَظِيَ النفاق بدولة يوم أن توارى أهل الديانة في المساجد وتركوا الجهاد باللسان الذي أمروا به في غير ما آية، قال الله تعالى: ﴿يا أيها النبيُّ جاهد الكُفَّار والْمُنافقين واغْلُظْ عَلَيْهم﴾ (التحريم: ٩)، وقال تعالى: ﴿فلا تُطع الكافرين وَجَاهدْهُم به جهادًا كبيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢) أي: بالقرآن.

إن الدعوة كما تحتاج خطيبًا مُفَوَّهًا فلا غِنَى لها أيضًا عن صَحَفِيٍّ نَابه وكاتب ذي قلم سَيَّال ومُؤَلِّف حَسَنِ الجَمْعِ والعرْض ومُنَاظِرٍ يَقْطَعُ خصوم الإسلام بحججه القوية، وأساليب إقناعه المُبْهِرَة، بل إن الدعوة لابد أن تطمح أن يكون لديها إعلاميون ذوو دراية بتقنية الإعلام حتى إذا ما تمكنت من إطلاق إذاعة أو قناة تلفزيونية، كان ثَمَّةَ كوادر تحمل هَمَّ الدين معها إلى تلك المواقع.

وكتابنا مؤلف حال كون المسلمين يعيشون عصر الاستضعاف، ولكن هذا ليس بحائل أن نتطلع إلى دعوة طلائع الإسلام أن يستعدوا لعصر التمكين بالولوج في كل التخصصات، فأَسْلَمَةُ العلوم لن تتحقق في أرض الواقع بدون علماء مسلمين نَبَغُوا وأَبْدَعوا وبهروا.

وَحَصْرُ الدين في حُلَّة الوعظ والخطبة كَيْدٌ عَلْمَانِيٌّ عَتيق، أرادوا من ورائه أن يَتَسَرْبَلَ الإسلام ثوبَ الكنيسة، فيظهرَ الواعظ في لباسه الرسمي المعهود، ويَلُوكَ كلماته بتَرْنِيمَةٍ تُشْبِهُ ترنيمة المنشدين في الكنائس، لَكَأَنَّ الشيخَ يريدونه صِنْوَ القِسِّيسِ الذي يَعظُ، فتَتَلاشى شُمولية الدين في هذا الديكور المصْطَنَع، وإذا ما هَبَّ طبيب أو مهندس أو تاجر يريد تطبيق شرع الله، وتعظيم حرماته استعظموا فِرْيَتَه وحسبوه كَلابِسِ ثَوْبَي زُور، وهكذا تَفِرُّ معالمُ الحقيقة من فحيح الكائدين.

مِن الذي رَسَمَ القانون الذي به أُلزم الناس ألا يروا أهل العلم إلا في مقام الوعظ، وألا يسمعوا آيات الله تتلى إلا عن طريق الدرس أو المحاضرة؟! بل مَنِ الذي يُلْزِمُ الدعاةَ أن يَنْصَهِرُوا في هذه البُوتَقَةِ فلا يخرجون منها ولا يحيدون عنها؟!.

إن شواهد الشرع - من سيرة رسول الله ﷺ وسلف الأمة الصالح والعلماء المعتبرين ممن مارسوا مهنة الدعوة والجهاد - تشير بوضوح إلى أن الدعوة الإسلامية لابد أن تكون جَارِفَةً غَازِيَةً، لا تقف عند هَيْئَةٍ ولا تَتَحَجَّرَ عند تَمْثَال مكرور، ومع مراعاة الضوابط الشرعية التي تحدثنا عنها (في قاعدة الوسائل)، فإن الدعوة لابد أن تنطلق في أُفُقٍ رحيب، تقاوم الباطل والإلحاده، تهاجم عرش الكفر، وتَهُزُّهُ بثبات ورسوخ، وليس ذلك يأتي إلا بِتَلَمُّسِ الوجوه التي بها نَلِجُ إلى قلوب الناس، ومعرفة الفنون (الأنواع)[1] التي بها نَحُوزُ قَنَاعاتِهم.

وتأمَّل في القرآن قصة نبي من أولي العزم من الرسل، أَعْيَتهُ الحِيَلُ في إسماع قومه صوت الحق، فما بَرِح يَبْتَكِرُ الوسائل ويَتَحَيَّنُ الفرص التي بها يجهر بالدعوة، ذلكم هو نبي الله نوح ﷺ، قال عنه الله - تبارك وتعالى -: ﴿ قال ربِّ إني دعوتُ قَوْمي لَيْلاً ونَهاراً (٥) فلَمْ يزِدْهُمْ دُعائي إلاَّ فراراً (٦) وإني كُلَّما دعوتُهُمْ لتغفر لهُمْ جعلُوا أصابعهُمْ في آذانهِمْ واستغْشَوْا ثيابهُمْ وأصرُّوا واستكبرُوا استكباراً (٧) ثُمَّ إني دعوتُهُمْ جهاراً (٨) ثُمَّ إني أعْلَنتُ لهُمْ وأسْررْتُ لهُمْ إسْراراً (٩) فقُلْتُ استغفرُوا ربَّكُمْ إنَّهُ كان غفَّاراً (١٠) يُرْسل السَّماء عليْكُم مِّدْراراً (١١) ويُمْددْكُم بأمْوالٍ وبنين ويجْعل لَّكُمْ جنَّاتٍ ويجْعل لَّكُمْ أنْهاراً ﴾ (نوح: ٥-١٢).

قال الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في تفسير هذه الآيات: وهي صورة لإصرار الداعية على الدعوة وتَحَيُّنِ كل فرصة ليبلغهم إياها .. ومع الدأب على الدعوة وتحين كل فرصة والإصرار على المواجهة اتبع نوح ﷺ كل الأساليب، فَجَهَرَ بالدعوة تارة، ثم زَاوَجَ بين الإعلان والإسرار تارة، وفي أثناء ذلك كله أَطْمَعَهُم في خير الدنيا

---

(١) وحتى لا تذهب بك الظنون كل مذهب - أيها القارئ الكريم - فإن أهم ضوابط التنوع عدم وجود الدليل الحاظر، فليس من التنوع الدعوى أن تتخذ الدعوة الغناء والرقص وسيلة لدعوة الناس، ولا أن تهادي الناس بالسجائر لتؤلف قلوبهم، ولقد ذكرت هذا الكلام ونصصت عليه مع وضوحه حتى تقطع الباب على أي فهم خاطئ ينشأ من كلام قد يكون مجملاً - والله الموفق -.

والآخرة، أطمعهم في الغفران إذا استغفروا ربهم، فهو سبحانه غفار للذنوب، وأطمعهم في الرزق الوفير الميسور من أسبابه التي يعرفونها ويرجونها وهي المطر الغزير، كما وعدهم برزقهم الآخر من الذرية التي يحبونها ـ وهي البنين ـ والأموال التي يطلبونها[١] اهـ.

وكما كان التنوع مسلك الأنبياء من قديم فقد رأينا سلف الأمة يَنْهَجُون ذاتَ المنهج في خدمة دينهم، تأمل حركة التصنيف في بدايات القرون الأولى، وكيف أنها بدأت بكتابةِ المصحف ثم جمعِ الحديث، وكتابته ثم إفرادِ الصحيح ثم جَمْعِه على أبواب السنن ثم جَمْعِه على أسماء الصحابة ثم على أسماء الشيوخ، واسْتَتْبَعَ ذلك ضرورة معرفة الرواة الثقات من الضعفاء فَتَكَلَّمُوا في الثقات والضعفاء وأحوالهم، وتواريخ ولادتهم ووفياتهم، وإذا عَرَّجنا على باب آخر غير العلم وجدنا كيف أن سلفنا الصالح كانوا أول من أسس فن إدارة دور العلم، وإذا طالعت كتاب (الدَّارِسُ في تاريخ المَدَارِس)، أو (تاريخ البداية والنهاية) لابن كثير، لوقفت على المستوى الراقي الذي وصلت إليه فنون الإدارة في زمان كانت أوروبا تَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاء.

ولو قَرَأْتَ كتابَ (شَمْسُ العَرَبِ تُشْرِقُ على الغرب)[٢] للمُسْتَشرِقَة الألمانية زِيْغْرِيْد هُونْكَهْ لَعَلِمْتَ أن حضارة المسلمين لم تَقُمْ على الأماني والأحلام، بل قامت على سواعد أقوام أخذوا بأسباب المدنية، وتنافسوا في خدمة دينهم لِيُعْلُوا صَرْحَهُ، وتَشْمَخَ هَامَتُه، فتكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

---

(١) «في ظلال القرآن» (جـ٥).

(٢) كتاب قيم جدًا في بيان حضارة المسلمين في وقت ما يسمى بالعصور الوسطى، وذكرت فيه بالشواهد مدى التقدم الهائل الذي وصل إليه المسلمون في كل مجالات الحياة، كالطب، والهندسة، وفن الإدارة وتقنية التعليم.

وقد مَرَّ معنا في (احتراف خدمة الدين) اجتهاد جماعة التبليغ في التفنن في طرق وأساليب الدعـوة، والوصول إلى قلوب الخلق، وتَلَمُّس كل الوسـائل الممكنة للدعوة إلى الله.

والتنوع ليس مِـزَاجًـا مُطاعًـا، أو هوى مُـتَّـبَـعًا، ولـكنه عِلْم وذَوق، ثم دُربَة ومنافسة، إذ لابد من معرفة أوجـه النفع والقصور في كل وسيلة من وسائل الدعوة، ولابد من وجود الإحصـائيات التي تفيدنا في مـعرفة الإيجابيات والـسلبيات، ثم إن طرح البدائل مُسْبَقًا مع دراستها وتمحيصها (كما هو معلوم في علم الإدارة) له دور في تلافي الفشل الذي يعتري الوسائل القاصرة.

ولِذَوْقِ الداعية دور مـهم في جماليات الوسائل حتى تكون ذات رَوْنَق يتـميز به الداعية المسلم عن غـيره، أما منافسة الداعيـة لغيره ودربته في تنويع وسائله فـعاملان مهمان في شحذ الهمم والإمكانيات واستنباط الأفكار الجديدة والعبقرية.

وليس يغيب عنا أن ننبه أن الجهدَ الجـماعي في تَنويعِ وسائل الدعوة أَثْرى وأغزر في الفائدة من الجهد الفـردي، كما أن قضية التنوع وغيـرها من ملامح دعوية مُرتَهنَة بقضـية العمـل الجماعي، ولا ريب فـقد برهنًا أن جهـد الجمـاعة محـاط برعاية الله مشمول بعنايته ومباركته.

ويُختم هذا الفصل بتوصيات عملية تفيد قضية التَّنوع بالنسبة للداعية:

١ ـ ضرورة فـهم مبـدأ الابتكار في الوسائـل الدعوية، وأنهـا مشروطـة بشروط شرعية، حتى لا تدخل في دائرة الابتداع، والمعنى: أن الدعاة يجب أن يفرقوا بين ما هو مسموح وغير مسموح فـي وسائل الدعوة، حتى يستطيعوا الإبداع دون تَهَيُّبٍ من حساسية الابتداع (إبداع دون ابتداع).

٢ ـ صقل الخبرات الدعوية بالأساليب الآتية:

▪ التعرف على الدعاة والتجمعات الدعوية والاحتكاك بجهودهم.

▪ مطالعة المؤلَّفات الدعوية التي تُعْنَى بهذه القضية مثل كتاب (دليل التنمية البشرية) لهشام طالب، و(المسار) للأستاذ محمد أحمد الراشد، و(مقدمات للنهوض بالدعوة) للأستاذ عبد الكريم بكار.

▪ صَقْل الذوق الدعوي بالثقافة العامة ومطالعة الدوريات العالمية التي يستفيد الداعية منها في أساليب العرض، ومتابعة كل جديد في عالم الإعلام.

▪ الإعداد لمؤتمرات ومعسكرات تدريب لتنمية قدرات الدعاة.

▪ جمع تجارب الدعاة وخبراتهم ومهاراتهم في كتاب مطبوع لتعميم الاستفادة من تلك الخبرات.

٣ ـ ضرورة مطالعة كل ما هو جديد عند دعاة الديانات والمذاهب الباطلة حتى يتمكن الدعاة من مقاومة إغْرَاءَاتِهِم ومواجهتها بالأنفع والأرجى لقبول الناس.

٤ ـ الاهتمام بجانب حسن العرض وبخاصة في الأنشطة الإعلامية، وقد أضْحىٰ هذا المجال عِلْمًا له تَقْنِيَتُهُ، وتواتر عندنا كيف أن المتنافسين في الحملات الانتخابية في الغرب يستعينون بمدير لحملاتهم تكون مهمته الترويج لشعبية تلك الشخصية بين الناخبين، وما أجدرنا في سبيل ديننا أن نعلم كيف نروج له، ونجعله غازيًا لقلوب الناس.

٥ ـ من الأهمية بمكان أن نولي هذا الجانب مزيدًا من الاهتمام عبر إيجاد المتخصصين المتفرغين (مكاتب خبرة) لابتكار وسائل دعوية تفيد الدعاة وتعينهم في مجهودهم الدعوي.

◆◆◆

الطريقة الرابعة

التَّعَلُّمُ والتَّعْليم

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لكُمَيْل ـ رجل من أصحابه ـ: احفَظ ما أقول لك: «الناسُ ثلاثةٌ: فَعَالِمٌ ربَّاني، وعَالِمٌ مُتَعَلِّم على سبيلِ نَجَاة، وهَمَجٌ رَعَاع، أتْبَاعُ كلِّ نَاعِق، يَميلون مع كل ريح، لم يَسْتَضيئوا بنورِ العلم، ولم يَلْجَئُوا إلى رُكنٍ وَثيق، العلم خيرٌ من المال، العِلْمُ يَحْرُسُكَ وأنتَ تَحْرُسُ المالَ، العِلْمُ يَزْكُو على العمل، والمالُ يُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، ومَحَبَّةُ العِلْمِ دينٌ يُدَانُ به باكتسابِ الطاعةِ في حياتِه، وجَميلِ الأُحدوثَةِ بَعْدَ موتِه وصَنيعِه، وصَنيعَةُ المالِ تَزُولُ بِزَوَالِ صاحبِه، ماتَ خُزَّانُ الأمْوالِ وهُم أَحْيَاءٌ، والعُلَمَاءُ بَاقُونَ ما بَقِيَ الدَّهرُ، أَعْيَانُهُم مَفْقُودَةٌ، وأمْثَالُهم في القلوبِ موجودةٌ»[(١)] اهـ.

---

(١) «علو الهمة» للشيخ محمد إسماعيل (ص١٤١)، وإنما أوردنا قول الإمام علي رضي الله عنه دون غيره، لأن له شاهدًا وثيق الصلة بما نحن فيه، وهو قوله في الصنف الثالث: وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، وفي كلماته تراه يصف واقع الأمة في كل زمان ومكان، فالمسلمون لم يُؤتوا إلا من الجهل والجهلاء، تَقَوَّضَ بهم ركنُ العلم فانهدم بنيان العدل حيث فُقِدَ من يَحْرُسُه، وتوصيفه للفئة الثالثة بأنهم أتباع كل ناعق ـ طَارَت مَثَلا ـ، وهو وصف لا تُخْطِئُهُ عيناك في المجتمعات المتَخَلِّفَة التي ليس لها العقل المكتسب الذي تميز به الظالم من العادل، وقوله: يميلون مع كل ريح، صفة لازمة لمن لا شخصية له، وهيئة راسخة فيمن تَقَولَبَ في تِمْثَال غيره، لأنه لا شيء، أو أنه شيء ليس له كيان أو طعم أو لون أو رائحة، شأن كثير من الموائع الهلامية، وقوله: «لم يستضيئوا بنور العلم»: قد يَظْهَرُ أنه وَصفٌ مُؤكِّد، والحقُّ أنه وصف كاشف، والمقصود بيان حماقة الراغبين عن العلم، وأنهم يعيشون في ظلمة، ويبصرون النور، ولكنهم ينهون عنه، وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون، وقوله: «ولم يلجئوا إلى ركن وثيق»: يُشْعِرُ أن قليل العلم لا يكفي في العِصْمَةِ من الضَّلالةِ والغواية، وأن الاستزادة منه سبيل الجادِّين في النجاة والرغبة في الفوز.

ونصوص الشرع المطهر وآثار السلف وأقاويل أهل العلم في فضل العلم والعلماء والتعلم والتعليم خارجة عن حَوْزَةِ الحَصْر[١]، والمقصود من هذا الباب: بيان خَطَرِ العلم والتعلم في رفع راية الدين وسُمُوقِ لوائِهِ بين العالمين.

والمقصود بالعلم هاهنا كل علم أورث خشية لله وعزة للدين، وإن كان من علوم الدنيا، وعلوم الدين مقصودة لذاتها، أما علوم الدنيا فمقصودة بالتَّبَع، فمن ابتغى علمًا من علوم الدنيا: كالطب، والهندسة، والفلك، والكيمياء، والإدارة، والمحاسبة، وتقنية الحاسب الآلي، واحْتَسَبَ المَثُوبَةَ وصَدَقَ في تسخير علمه لخدمة الدين رُجي أن تكون هذه العلوم بمثابة علوم الدين، بل طلبها حينئذٍ أشرف ممن طلب علوم الدين ولم يرفع بها رأسًا.

إن المقصود بكلامنا عن العلم هنا ما يُعِينُ على إعزاز الدين ورفع راية الحق، ولا يكون ذلك إلا بثلاثة أمور.

الأول ـ تعظيم العلم وإجلاله واعتقاد خطورته، كما قال حافظ حكمي ـ رحمه الله ـ:

وقَدِّسِ العِلْمَ واعْرِفْ قَدْرَ حُرْمَتِهِ ❊ لَوْ يَعْلَمُ المَرْءُ قَدْرَ العِلْمِ لَمْ يَنَمِ

الثاني ـ الجِدُّ في طلبه وتركُ الدَّعةِ والكسل، ومسابقةُ الغير فيه، والتفوق على أهل ملة الكفر والعناد.

الثالث ـ الالتزام بمنهج جاد يُسار عليه ويعوَّل.

(١) يراجع في فضله، وفضل طلبه، وشرف العلم والعلماء، وآداب طلب العلم «جامع بيان فضل العلم وأهله» لابن عبد البر، بتحقيق شيخنا أبي الأشبال الزهيري، أو «صحيح جامع بيان فضل العلم وأهله» للمحقق السالف، و«فضل العلم وآداب طلبته وطرق تحصيله وجمعه» للشيخ الأديب المتفنن محمد رسلان، ومن زُبَدِ ما صُنِّفَ في هذا الصدد «حِلْيَةُ طَالِبِ العِلْمِ» للعلامة الشيخ بكر أبو زيد.

ثم إن المقصود بالتعلم والتعليم ها هنا أيضًا بلوغ الرتبة العليا والغاية الكبرى منهما، وليس مجرد نوال حظ منه ولو كان قليلاً.

فَهِمَّةُ الدعاة والغيورين على الدين يجب أن تسابق الريح، وأن تكتسح الصعوبات، وتتجاوز الأزمات، فَتَرْقَى بصاحبها إلى ذُرَى المجد والناس قُعُود[1].

أما آلية التعلم والتعليم فهي المقصودة من بحثنا ها هنا، وكيف يستطيع الدعاة أن يوظِّفوا هذا الركن الركين (العلم) في خدمة الدين؟

إنه ما من شك أن كل أمر من أمور الدنيا له مقاصد ووسائل ومُتَمِّمَات، والمقاصد هي التي تَحْدُو طالبَها للرغبة فيها، والوسائل هي جادَّتُه، لنَيْلِ مَرْغوبِه ومطلوبه، والمُتَمِّماتُ مسْلَكُهُ في حفظ ما ناله وحصل عليه.

ومقصود العلم بالنسبة لطلاب الآخرة نوال رضا الله - تبارك وتعالى - والفوز بجائزته - تبارك وتعالى -، ومن مقاصد العلم تطهير النفس وتزكيتها وترقي المراتب العليا في العبودية، ومُسَامَتَةُ[2] الملائكة في مراتب الطاعة، إذ بالعلم تزداد الخشية وتعظم الإنابة.

أما وسيلة السالك طريق الآخرة في نيل مطلوبه من العلم، وتتميم ذلك بحفظه من الزوال وعدم النفع، فيكون بما سَنَسْطُرُهُ ها هنا.

فالذي ينبغي أن يعلمه كل غيور على الدين ومساهم في إعزاز الدين أن العلم كيان إستراتيجي وحيوي للدعوة الإسلامية، وهو بمثابة الروح السارية في

---

(١) راجع في كتاب «علو الهمة» للشيخ الرباني محمد إسماعيل - حفظه الله - «علو همة السلف الصالح في طلب العلم»، وكذلك ما سطره يَراع الداعية الأديب الرفيق سيد العفاني في كتابه «صلاح الأمة في علو الهمة»، فقد أتى بالعجب العجاب، وأوصيك بكتاب «قيمة الزمن عند العلماء» للشيخ عبد الفتاح أبو غدة - رحمه الله -.

(٢) مسامتة: قابله ووازاه.

بنيان الصحوة، وماءُ حَيَاتِها ورُوَاؤُها، وبقدر ما تبلغ الصحوة من العلم شَأْوًا بقدر ما تنال من الإعزاز شأنًا.

ومعنى كون العلم كيانًا إستراتيجيًا أنه صار ثابتًا لا يقبل التغير أو المساومة، وأنه يجب أن يوضع في أول سلَّم الأولويات، كما أن اشتراطه وصفًا لازمًا في حَمَلَة هذه الدعوة يجب أن يكون صارمًا لا يقبل التنازل أو التنازع.

فالدعوة لا يمكن أن تبدأ خطواتها بالجهل، ولا يمكن أن تتسارع في الخطو بأقدام الجهلاء، ولن تستطيع أن تقيم للدين صرحًا شامخًا، وهي من عُدَّة العلم خاوية على عروشها.

وقد أثبت التاريخ بالتَّجْرِبَة - بعد أن ثبت ذلك بنص الوحي المعصوم - أنه ما من أثر يَخْلُد أو جهدٍ يبقى أو تَرِكَةٍ تدوم إلا العلم النافع الذي يستفيد به صاحبه، ويُفِيدُهُ الناس.

فيجب - والحال كما ذكرنا - أن تتواصى هِمَمُ الدعاة على تبنِّي ميثاق غليظ في إحياء هذه القيمة في قلوب أفراد المجتمع، ومن باب أولى في نفوس من ينتمون إلى هذه الصحوة المباركة، وتحريك ماء الكسل الآسن الذي أَنْتَنَ بطول الخُمُول والمُكْثة، وحَفزِ الطاقات الهَادِرَة التي تنصرف في أودية الدنيا إلى احتضان العلم وتبنيه، وإنزاله المنزلة اللائقة به.

لم يعد من المقبول أن نكون من أصحاب دين أول كلمة في وحيه - الذي اختصصنا به - هو الأمر بالقراءة، فإذا بنا نقف في ذيل القُرَّاء والنَّاهِلين من العلم القَرَاح، كما لم يعد من المقبول أن نرى جَلَدَ الكفار والفجار في طلب العلم ورُقِّي مراتبه وتَسَنُّم مدارجه وحَمَلَة الحق يُحَمْلِقُون وللشفاه يُمَصْمِصُون.

يقول الراشد: «إن من مصائب أمتنا اليـوم أنها لا تقرأ، ومع ذلك فلا يتجه هذا الخطاب لهـا، لأن طريق الاستدراك طويل، ويبـدأ بيقظة الخـاصة من دعـاة الإسلام ليقودوا البـقية، وإنما الخطاب مُتَّجِهٌ لهـذه الخاصة الرائدة القائدة، بل ولفتـيان الدعوة المَيَامين، الذين هم قادة المستقبل، فنعم الفتيان فتيان الدعوة لو قرءوا».

لقد عرفت شباب الإسلام وصاحبـتهم واقتربت منهم، فوجدتهم من أنقى الناس سريرةً، وأَنْصَعِهِم طُهْرًا، وأصفاهُم عقـيدة، وأَجْزَلِهِم وَعْيًا، ورأيت منهم تشميرًا إلى الخير في حرص دائب، وفرارًا إلى الله تعـالى من خلال طريق عريض لاحب، لكنها كثـافةَ المطالعة تنقصُـهم، ولو أنهم أَحْنَوا ظهورَهم على كـتب التفسيـر، والحديث، والفقه، والتاريخ طويلاً، واكتالوا لهم من الأدب والثقافة العالمية العامة جزيلاً لكملت أوصافهم ولتفردوا في المناقب.

وإني لأعجب من دعـاة الإسلام الذين أراهم اليـوم، كيف يجـرؤ أحدهم على إطالة العنق في المجالس، والنشر في الصـحف، قبل أن يجمع شيئًا من البيـان جمعه الطبري في تأويل آي القرآن، وقبل أن يرفع له راية مع ابن حَـجَر في فَتْحِه، ولم يَنَلْ بَعْدُ من رفق أمِّ الشَّافعي وحَنَانها، ولا كان له انبـساط مع السَّرْخَسِيِّ في مبسوطه، أو مُوافقة للشاطبي في مُوافقاته؟!.

وكيف يَقْنَعُ الداعية وهو لم يقرأ بَعْدُ المُـهِمَّ من كتب ابن تيمية، وابن القيم، والغزالي، وابن حزم؟!، وكيف يسرع داعـية إلى ذلك، وهو لم يكثر من مطالعة كتب الأدب العربي القـديم، ولم يعكف مع الجاحظ وأبي حيَّان، أو ابن قتـيبة، وأديبي أصبهان؟

وأَعْجَبُ - أكثـرَ من هذا - لداعية أُثِيرُ حَـمَاسَتَه لهذه العلوم والآداب، فـيقول: ليس لي وقت، كأنه غيرُ مُطالبٍ بإِتْعَابِ نفسه تَعَبًا مُضَاعفًا، ولا شُرِعَ له السَّهرُ.

ثم أعجب أكثر إذا ذكرتُ له كتابًا فيأتيني من الغد مُغَاضِبًا، لخَطَأ وَقَعَ فيه كاتِبُه، أو بِدْعَةٍ طفيفة، كأن العلم لا يؤخذ إلا من صاحب سنة محضة، وكتاب مصون!.

ومـاذا عليك لو أنك قـرأت، ونَـقَّـحْتَ، وتَخَـيَّـرْتَ، وانْتَـقَـيْتَ، وأَخَـذْتَ، وَأَعْرَضْتَ[١]؟.

إن أول خطوة يجب أن تخطوها الصحوة المبـاركة في هذا الدرب أن يتواصى الأفراد فيمـا بينهم على ضرورة تدارك العمر في تحصيل العلم، وحـفز الهمة في التنافس إليـه، وإشاعـة هذه الروح بين كل المنتـمين إلى الصحـوة المباركـة، وأن يتحرك العلماء والدعاة في النداء إلى ثورة في مجال العلم، نَنْفُض به غُبَار الجهل العالق عبر مئات السنين، نَبْعَثُ روح السلف الصالح في أجسادنا لتنتبه من رقدتها وتستيقظ من نومتها[٢].

وبعد ذلك يجب أن توضع المناهج التفصيلية في تربية الناشئة على العلم وحبه وطلبه والشغف به، فإن ذلك هو الأساس المكين في إيجاد أمة تُعَظِّمُ العلم وتُحيِيه وتقوم به.

كما يجب أن يعمل المسئولون في الحركـات الإسلامية على توفير كل الإمكانيات المتاحة لتسهيل عملية طلب العلم لشباب الصحوة، وتشجيعهم وتبني العبقريات الفذة منهم، ولإصلاح المناهج التربوية بما لا يتعارض مع هذه المقاصد المذكورة.

إن مسـاجد الدعوة وبيـوتات الدعاة، يجب أن تكون صروحًـا للعلم، ومنارات لطلبته، ويـجب أن يتعاون الدعاة في إيجاد المرجـعيَّات العلميـة لكل العلوم، بحيث يَسْهُل على طلبة العلم أن يختاروا العلوم التي تميل نفوسهم إليها.

---

(١) «نحو المعالي» ـ سلسلة «رسائل العين» (ص٨٢).

(٢) راجع «علو الهمة» للشيخ محمد إسماعيل (الباب الرابع: الفصل الأول: «علو همة السلف في طلب العلم»).

إننا لا نطمع أن يكون المجتمع كله علماء، ولكننا نتمنى أن يكون المجتمع بأكمله من طلاب العلم، الذي يَدْعُو العَقْلَ لِيَحْيَى من رقدته، فلا يستسلم للظلم والجور، أو يرضى بالهزيمة والهون.

وطالب العلم الـذي بإمكانه أن ينفع دعـوته ودينه هو الـذي يسلك جَـادَّةَ العلم بِجِدٍّ، وينأى بنفسه عن أماني الحالمين، وخطو الكسالى الخاملين.

ومن أجل رفع معنويات طلبة العلم وحفز هممهم فيجب ألا يترك لهم طريق الطلب يَتَخَبَّطون في دَيَاجِـيرِهِ وأساليبه المختلفة المتـباينة، بل يجب أن توضع مناهج الطلب بإزاء تيسير الشيوخ المتخصصين الذين سيكون لهم اليد الطولى في توجيه الطلبة.

والآفة التي يَعْلَمُهَا كلُّ طلبة العلم الآن أن مسيرة طالب العلم إذا كانت له مسيرة أصلاً متروكـةٌ لِهَوَاهُ ومِزَاجِهِ الشخصي، فـهو يقرأ اليوم كتابًا فـإذا مَلَّهُ أو وَجَدَهُ ثَقِيلَ الدم استَسَاغ التَّرحُّل عنه إلى كتاب آخر دون استشارة شيخ أو انتهاج منهج.

وآخـرون يقـرءون الكتب التي اشـتهـرت بين العلمـاء دون اعـتـبار لمسـتـواهم وإمكانياتهم في فهم أو هَضْمِ المعلومة، وآخرون يقـرءون الكتب ذات التجليد الجميل والغلاف الخلاب، فإذا ما كان الكتـاب ذا وَرَقٍ أصفر أو تجليد مُنَفِّرٍ نفرت منه قلوبهم وتَذَرَّعوا بأن أعينهم لا تطيق النظر إلى الكتب الصفراء.

والأمزجـة في هذا الباب لا حصـر لها، وقد عـانيت شخصـيًا أثناء الطلب من بعض هذه الأمزجة الهوائية لقلة الشـيوخ والمُوَجِّهين آنَئِذٍ، ولاشك أن هذا المسلك من شأنه أن يكون عائقًا كبيرًا في اتجاه تخريج طلبة العلم الجادين المثابرين.

وفي مقـابل هذا المزاج الهوائي لطلبـة العلم، فإننا نجـد بعض الشيـوخ والعلماء والدعاة - للأسف - يسـاهم بدور ذي بال في تقعيـد هذا المسلك وتقنينه، وذلك عن

طريق انتهاجهم نفس الطريقة في التدريس، فبعض الشيوخ لا يثبت على كتاب، فهو كالحال المرتحل، بل ربما لا يثبت على علم واحد، وإنما هو موسوعي[١] مثل: القاموس المحيط، والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط[٢].

وآخر من العلماء والشيوخ لا عناية له بتلامذته ومريدي علمه، فهو يلقي لهم بالمعلومات ولا يبالي فَهِمَهَا فَاهِمٌ أو أَخْطَأَ فِي تَلَقِّيهَا ساذِج، وربما توجد عنده عَبْقرِيَّات فذة لا يلقي لها بالاً.

وآخرُ همُّهُ تلقين العلم الشرعي دون أَدَبِه، فيتخرج تلامذتُه كالخُشُبِ المُسَنَّدة أو العِظَامِ النَّخرة، أو كأَعْجازِ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ، ولربما كان أول من يحاربه ويعارضه ويهاجمه هم تلامذته، لأنهم لم يتنشأوا على احترام أهل العلم وتوقير حملته، وقد رأينا في عصرنا من طلبة العلم من نشأ على هذه الشاكلة، فأرداهُ سوءُ منهجه في الوقيعةِ بالعلماء والأئمة وسبِّهم والحطِّ من أقدارهم[٣].

وآخرون كُثُرٌ ليسوا بعلماء ولا أنصاف علماء، ولكنهم متطفلون على موائد العلم، شعارهم: قلت .. وعندنا (ومن أنتم حتى يكون لكم عِنْدُ؟!!)، وهذا الإمام لم يفهم الحديث، وذلك الصحابي قوله مردود، ونحو ذلك من العبارات التي لا

---

(١) وموسوعية العالم أو الشيخ لا تشفع في تخريج طلبة العلم الأقوياء في مادتهم، لأنه بتنقله وعدم مواظبته على علم واحد، وعدم تدرجه في تلقين المادة، سيجد أن الطلبة حصلوا علومًا غير متناسقة، وأفكارًا غير مرتبة، فتقل الاستفادة أو تنعدم، وما زال سلفنا وعلماؤنا بَلْهَ مناهج التعليم الحديث، تنصح بالتدرج والانتقاء، ومراعاة المستويات في العملية التعليمية، ولهم في ذلك عبارات شهيرة مثل قولهم: من ثَبَتَ نَبَتَ، وما ورد عن بعضهم في تفسير قوله تعالى: **﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾** (آل عمران: ٧٩)، قال: يعلمون صغار العلم قبل كباره.

(٢) هو اسم القاموس المعروف في اللغة، للإمام الفيروز آبادي.

(٣) وفيهم ولأجلهم صنف الشيخ العلامة محمد بن إسماعيل كتابه «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام».

طعم لها، ولكنها خرجت من أفئدة خاوية مـن توقير العلم وأهله، ومن عقول مُفْلسة منَ العلم وعُدَّته[1].

إن هذه الآفـات الناهشـة في نسيج الصـحـوة يجب أن تُسْـتَأصَلَ من الجـذور، وتُستبدلَ بالمُثُلِ الكاملة التي كان عليـها سلف الأمة، فلن يَصْلُحَ آخرُ هذه الأمة إلا بما صَلُحَ به أولها، كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ.

ولقد شهدت الصحوة تجربة المعاهد العلمية الخاصة التي استظلَّ بها كثير من طلبة العلم دهرًا ثم قَلَبَ لها الطغـاةُ ظَهْرَ المجَنِّ حينما رَأَوا الأثر الجـارفَ الذي أحدثته في الصف الإسلامي، بل تواصل زَحْفُ الطغاة إلـى الدعاة في بيوتهم لأجل منع دروس العلم وتجفـيف أي يَنْبُوع حكمة في المجتـمع الإسلامي، وإطفاء كلِّ شُعَـاعٍ يَنْبَثِقُ في زاوية من زواياه، وليس من شيء نَتَـسَلَّى به ونَتَعَـزَّى إلا قول الله تعـالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (الصف: ٨)، وقال: ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢).

ولكن ذلك لا ينبغي أن يَفُتَّ من فؤادنا أو ينال من عزيمتنا، فإن العلم كما أسلفنا استـراتيجيـة لا تراجع عنها، ويجب أن نستـغل كل الوسائل الممكنة للرقي بمسـتوى المنتمين إلى الصحوة علميًا حتى ولو كان بابتكار المناهج التعليمية الجديدة والجادة التي تعالج الوضع المنقوص الذي نعيشه ونحياه.

▪ وقد كان لكاتب هذه السطور معاناة لمأسـاة طلبة العلم، فتم وضع منهج يعالج إشكاليتين حاصلتين:

الأولى ـ إشكالية عدم وجود العلماء، أو قلتهم، أو عدم تفرغهم الكامل لطلبة العلم.

والثانية ـ إشكالية نوعيـة الكتب التي يجب قراءتها في كل علم مع اعتـبار المَرْحَلِيَّةِ والتدرج في الطلب والتحصيل.

---

(١) وفيهم ولأجلهم صنف الشيخ العلامة بكر أبو زيد كتابه: «التعالم».

فعلى صعيد قلة العلماء عالج المنهجُ قضية التلقي باعتبارها الأساسَ الذي اشترطه السلف الصالح في اعتبار العلم، حتى قال قائلهم:

مَنْ يَأخذِ العلْمَ عَنْ شَيْخٍ مُشَافَهَةً ٭ يَكُنْ عَنِ الزَّيْغِ والتَّحْرِيفِ في حَرَمِ
ومَنْ يَكُنْ آخِذًا للعِلْمِ مِنْ صُحُفٍ ٭ فَعِلْمُهُ عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ كالعَدَمِ

وذلك بتقنين قراءة الطلبة للكتب[١] عن طريق التدرج في مستوى الكتاب حتى تقل نسبة العبارات الغامضة والمسائل الصعبة، مع اشتراط وجود الشيخ المتابع الذي يجري اختبارات شفوية وتحريرية، ويشرح عيِّنَات مختلفة من الكتب أو العناوين التي يقرؤها الطالب.

---

(١) أما ما اشترطه البعض من ضرورة الرواية وعدم الاعتداد البتة بمن أخذ علمه من المطالعة، فهذا في زمن الاختيار، وزماننا يحتاج إلى فقه النوازل الذي يَعْتَبِرُ الضرورة ويَلْحَظ المصلحة بالأخذ بما يحصلُها أو يُتَمِّمُها، ويُراقِبُ المَفْسَدَة بالأخذ بما يدرؤُها أو يُقَلِّلُها.
ويمكن لمن عَدِمَ الشيوخ بالمرة أن يستعيض بأشرطة أهل العلم في شرح الكتب ليُحَصِّلَ الدربة على كيفية مطالعة الكتب، وفهم عبارات المصنفين القدماء، وله أصل عند المحدثين وهو الرواية بالوجَادة، قال السيوطي في «التدريب» (٢/ ٦٠ فما بعده): القسم الثامن ـ الوجادة: وهذ مصدر لوجد، مُوَلَّدٌ غير مسموع من العرب، وهي أن يقف على أحاديث بخط راويها لا يرويها الواجد، فله أن يقول وجدت أو قرأت بخط فلان أو في كتابه بخطه حدثنا فلان، ويسوق الإسناد والمتن، أو قرأت بخط فلان عن فلان هذا الذي استمر عليه العمل قديمًا وحديثًا، وهو من باب المنقطع، وفيه شوب اتصال، وجازف بعضهم فأطلق فيها حدثنا وأخبرنا، وأُنكِرَ عليه، وإذا وجد حديثًا في تأليف شخص، قال: ذكر فلان، أو: قال فلان، أخبرنا فلان، وهذا منقطع لا شوب فيه، وهذا كله إذا وثق بأنه خطه أو كتابه، وإلا فليقل: بلغني عن فلان، أو وجدت عنه ونحوه، أو قرأت في كتاب أخبرني فلان أنه بخط فلان، أو ظننت أنه خط فلان، أو ذكر كاتبه أنه فلان أو تصنيف فلان، أو قيل: بخط أو تصنيف فلان، وإذا نقل من تصنيف فلا يقل: قال فلان، إلا إذا وثق بصحة النسخة بمقابلته، أو ثقة لها: «أي: أو بمقابلة ثقة لها»، فإن لم يوجد هذا ولا نحوه فليقل: بلغني عن فلان، أو وجدت في نسخة من كتابه ونحوه، وتسامح أكثر الناس في هذه الأعصار بالجزم في ذلك من غير تحر، والصواب ما ذكرناه، فإن كان المطالع متقنًا لا يخفى عليه غالبًا الساقط أو المغير رجونا الجزم له، وإلى هذا استروح كثير من المصنفين في نقلهم، أما العمل بالوجادة فنقل عن معظم المحدثين المالكيين وغيرهم أنه لا يجوز، وعن الشافعي ونظار أصحابه جوازه، وقطع بعض المحققين الشافعيين بوجوب العمل بها عند حصول الثقة، وهذا هو الصحيح الذي لا يتجه هذه الأزمان غيره. هـ.

وعلى صعيد نوعية الكتب، فقد تم اختيار الكتب التي يسهل قراءتها (مع الحرص أن تكون نسبة كبيرة منها من كتب التراث الأصيل) وتصعيد مستواها مرحليًا بعد نجاح الطالب في اجتياز الاختبار التحريري والشفوي.

وتضمن المنهج بحثًا مختصرًا في كيفية الاستفادة من قراءة الكتب، تم فيه تقعيد أسس القراءة النافعة، والوسائل العملية لتحصيل أعظم فائدة للقارئ العادي والمتوسط والعالي المستوى، وكل ذلك عن طريق أبحاث نفسية واجتماعية ثم الاستفادة منها وتأطيرها في إطار شرعي إسلامي(١).

إن أقل ما يجب أن يبذله دعاة اليوم هو تكوين مجموعات علمية والإشراف عليها، والرقي بمستواها العلمي والتطبيقي، وإكسابها الدربة اللازمة لكل ما تحتاجه الدعوة من علوم ومعارف، حتى الدنيوي منها، وبدون ذلك فإخال كل المحاولات المبذولة قد أثبتت التجربة أنها باءت بالفشل.

وينبغي أن يتدارس الدعاة دومًا هذه القضية باعتبارها مشكلة حقيقية تهدد المستقبل الدعوي بحق، وما لم يعمل الدعاة على تدارك هذا الأمر في مؤتمراتهم واجتماعاتهم، فإن الصحوة إما أن تنحسر كمًا أو كيفًا، وفي كلتا الحالتين فالخاسر الوحيد هو مستقبل هذا الدين.

ولكن على صعيد المجهود الفردي، نقول: إنَّ أيَّ منتمٍ للصحوة المباركة بل للدين الحنيف لابد أن يقوم لله قومة صدق، ينفض عن سربال إيمانه غبار الجهل، ويتحلى بزينة العلم، ويصطف في مسيرة الساعين إليه الباحثين عنه الطالبين له.

---

(١) وأسأل الله - عَزَّ وَجَلَّ - أن ييسر لي تجميع وترتيب المادة العلمية لهذا المنهج والبحث، حيث نأت الديار عن أصول هذا البحث - ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم -.

ويكون ذلك ببذل كل جهد مستطاع في مخالطة العلماء وطلبة العلم، والأخذ بنصائحهم في قراءة الكتب، ومشافهة الشيوخ في مسائل العلم، وعرض ما يصعب أو يَسْتَغلِقُ فهمه عليهم.

وليس من الشرط أن يوجد العالم الموسوعي الذي له في كل العلوم منال، بل إن طالب العلم في عصرنا لو تخصص في كتاب من الكتب الشهيرة المهمة مثل (فتح الباري) أو (تفسير القرطبي)، أو في مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية، أو مؤلفات ابن القيم ـ رحم الله الجميع ـ لكان ذلك مسلكًا محمودًا ذا عاقبة نافعة.

وقد يُمضي طالب العلم في مسيرة العلم سنين ولَمَّا يحقق إنجازًا ذا بال، ولكنه لو جمع الهمة والقصد في كتاب واحد (موسوعي كما مَثَّلْنَا) لكان ذلك أرجى في النفع، وأجدر لتحصيل الفائدة.

إن طلب العلم وتعليمه للناس وظيفة لا يجوز أن ينفك عنها أي داعية ينتمي للصحوة المباركة، ولا أن يتبرأ من تبعتها، ولا أن يدعي عدم فائدتها، فهي شريان الحياة، وترياق الشفاء لكل الأدواء التي نعاني منها على مستوى الأمة وعلى صعيد الصحوة الإسلامية.

◆◆◆

الطريقة الخامسة

اكْتِسَابُ مَهَارَاتِ الدَّعْوَة

إنَّ الدعوة كغيرها من الأعمال تحتاج إلى دُرْبَةٍ وخبرة، وما من عمل أتقنه صاحبه بالفطرة، مِصْدَاقُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).

وموسى عليه السلام طلب الاستعانة بذي الخبرة حين قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه: ٢٩-٣٢)، كما أنَّ مما رَشَّحَهُ لكي يُؤَاجِرَهُ صاحبُ مَدْيَنَ للعمل توفُّرُ الشَّرْطين اللذين ذكرتْهُما إحدى البنتين: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، وطَالُوتُ اسْتَحَقَّ المُلْكَ بما أُوتي من بسطة في العلم والجسم.

وهكذا يجب أن يمضي الداعية، يجابه الصعاب ويواجه المواقف بمهارات مكتسبة، وخبرات مُجتَناة، ودربة مُسْتَقَاة، ما أعظمهما من همة لا تترك لكلمة (ظروف) حجةً لِمُحْتَجٍّ، أو عذرًا لِمُعتذر، إنه يأبى إلا الكمال، لأن النفوس الكاملة تستقبح النقص:

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبًا ... كَنَقْصِ القَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وتكامُلُه في إتقان الأسباب مُوازٍ ليقينه في معونة الله ـ تعالى ـ، لأنها لا تأتي إلا على قدر المَئُونَة، وهدايةُ التوفيق منوطةٌ باتباعِ هدايةِ الإرشاد، والله لا يضيع أجر المحسنين.

إذا أُسْنِدَ إلى أحدهم عمل من أعمال الدعوة أَقْبَلَ عليه بالدَّرْسِ والتحليل والتمحيص، واقترح الأساليب ودرس إمكانية تطبيقها، والعوائق التي قد تحول دون نجاحها، كما يدرس النتائج المتوقعة واحتمالات الفشل والبدائل المقترحة.

إنَّ الداعيةَ الناجحَ ذو قَلْبٍ عَقُولٍ، ولسان سَئُول، يَمْقُتُ الجهلَ، ويُعَظِّمُ العلم، ويحترم التَّـخَصُّصَ، يرفض أن يقوم بعمل لا يُتْـقِنُهُ حتى يُتْقِنَهُ، فهـو لا يَحْتَجُّ بعدم الإتقان على ترك العمل، بل يعتذر عن العمل رَيْثَمَا يتقنهُ ويقوم به حق القيام.

إن الدَّاعيةَ الناجحَ إذا أُسْنِدَتْ إليه ـ خُطبةٌ حـال كونه لا يجيد الخطابةَ ـ، استأذن أصحابه شهرًا، ليـتعلم فن الخطابة، ويجيد أساليبها، ليرقى المنبـر متمكنًا من صَنْعَتِهِ مَالئًا مكانه الذي وُضِعَ فيه.

إن الداعية الناجح إذا اكتـشف أنه لا يُتْقِنُ محادثة الناس على الملإ، هَرَعَ إلى المكتبات يبحث عن الكتب التي صُنِّفَتْ في كيفيـة تنمية مهارات المحادثة ومواجهة الجماهير.

إن الداعية الناجح إذا خَطَبَ في موضوع أشْبَـعَهُ، وإذا تحدث في قضية أتى على تفاصيلها فلم يترك تعقيبًا لِمُعَقِّب.

إن مشاريع الـدعاة الناجحين لا يَعْتَـرِيها الفشل من قِبَلِ تقـصيرهم، أو يصيـبها الشلل بسبب أخطائهم، بل بأقدار وحِكَمٍ لا يعلمها إلا الله تعالى.

وهم في بذلهم الوُسْعَ مثل الأنبـياء الذين مكثوا في أقـوامهم مئات أو عـشرات السنين، ثم لا يأتون يوم القيامة مع أقوامهم إلا بالرهط وبالواحد والاثنين، وربما يأتي النبي وليس معه أحد.

والمهارات الدعـوية تَخَصُّصٌ يجب أن نؤمن به ونحترمـه، فليس شرطًا أن يكون كل عالم داعية والعكس صحيح أيضًا، وكم من علمـاء متخصصين ملئوا الدنيا علمًا ولكنهم يفشلون في أي موقف دعوي ساذج.

كما يجب على الدعاة ألا يفـتئتوا على العلماء في الفتـوى والإفادة، كما يجب على العلماء ألا يحتكروا الدعوة بزعم احتكارهم للعلم.

والواقع يشهد بأن المهارات الدعوية صارت تتطلب تخصصات مختلفة ومعقدة لا يسد احتياجاتها المتخصصون في الفقه والحديث.

الدعوة تحتاج إلى المُرَبِّين لمختلف الأعمار، والذي يَتَعَهَّدُ الأطفال والصبية الصغار ليس كمن يُرَبِّي الشَّبِيبَةَ المراهقين، ومن يُعْنَى بمقارعة المُنَصِّرين ومُجَابَهَةِ العَلْمَانيين لن يتفرغ كثيرًا للاهتمام بسد حاجة الفقراء المسلمين مثلاً.

إنها وظائف كثيرة، تحتاج إلى جهود متضافرة، وفي نفس الوقت إلى مهارات مكتسبة تتناسب وتلك الوظائف.

إذ لم يَعُدْ من المقبول أن يقوم داعية واحد بكل تلك الأنشطة التي ذكرناها، أو يهتم بها ويفكر فيها، إن ذلك سيؤدي به إلى خَلَلٍ في الأداء أو قصور في التخطيط والتنظيم، ولاريب.

فناسب حينئذٍ أن تتوزع اختصاصات الدعوة على الدعاة، مع ضرورة أن يقوم كل داعية بإتقان الدور الذي أسند إليه وأن يتخصص فيه، ويعد نفسه أن يكون مرجعًا لغيره من الدعاة فيما أسند إليه.

إننا لن نستطيع إيجاد العالِمَ الموسوعي، والداعية الجامع لكل الفنون والعلوم، إلا أن يكون ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن ينبغي أن نتعامل مع السنن الكونية بواقعية، وألا نَرْكَنَ إلى الأماني الكاذبة والأحلام الشاردة.

ومن الواقعية بمكان أن يدرك الدعاة أن مجال الدعوة واسع الأرجاء، وأنه يحتاج إلى جهودٍ جبَّارة، وطاقات هائلة، وسواعد متضافرة، وأن الساحة مليئة بالأعداء الذين أتقنوا كل المهارات الممكنة للمواجهة مع الإسلام، وأنهم يُعِدُّونَ العُدَّةَ الكاملة لاستئصال الدين، وأن عدتهم في ذلك متكاملة التجهيز والتنسيق، وأنهم متفقون على تسخير كل تقنية متاحة في نصرة باطلهم.

وبإزاء ذلك يتعامل بعض الدعاة مع واقعهم بسذاجة وبساطة لدرجة تدعو للرثاء أو الشفقة، مدفوعون بعواطف صادقة لكنها لا تغني فتيلا أمام سنة الله التي لن تجد لها تبديلاً.

فسنة الله لا تحابي أحدًا، حتى الأنبياء والمرسلين، اجْتَرَفتهُمْ أَقْدارُ الإله لما حصل التقصير من بعض أتباعهم، أَخَذَتِ الرَّجْفَةُ موسى ومَنِ اخْتَارَهُ لميقات ربه بفعل بعض السفهاء، ويُهْزَمُ جيشٌ فيه خيرُ البشر، وخِيرَةُ الله من العالمين محمد ﷺ، لأن من جنده من كان يريد الدنيا.

وبإزاء صرامة القوانين الكونية، فإن المسلمين قد عاشوا - للأسف - قرونًا في ظل ثقافة تَوَاكُلِيَّة، وتحت سقف سَلْبِيَّة مُقَنَّنَة، وقد وُجِدَ من علماء المسلمين - للأسف أيضًا - من يُقَعِّدُ مَبْدأَ السِّياحة في الأرض للتعبد والخلوة في الفَيَافِي على شاكلة رهبان النصارى والبوذيين، في وقت كان التتار يدكون حصون الشام، والصليبيون يدكُّون حصون مصر.

إن في بعض الأدبيات الصوفية جُنُوحٌ لما يمكن أن نُسَمِّيَه دعوةً للكسل والخمول، ولن نعجب أن يستقر في أذهان العامة أن الصوفية أو رواد المساجد في الجملة أصحاب بطون، أو أنهم عشاق (الفَتَّة).

إن هذه الثقافة التواكليَّة سَرَتْ في ضمير الأمة حتى أضحت عقيدة يُعْتدُّ بها، ومَهْيَعا يرتاده كل من أراد التدين، ولا أغالي إذا قلت: إن شيئًا من هذه التواكلية سرى إلى أوصال الصحوة المباركة بفعل التَّجاوُر والمعاشرة.

ورأينا من يُقَنِّن لهذا الكسل، ويُقَعِّد لما اصطَلَحَ عليه العوام باسم (البركة)، أي: أن كل شيء يمشي بالبركة أي: بدون اتخاذ الأسباب وبدون اكتساب المهارة اللازمة لأدائه.

وسمعت بعض الدعاة ينفر من التخطيط السليم لإدارة الدعوة، وأن الخير في عدم تعقيد الأمور، وآخر يُبَدِّعُ العَمَلَ الجَمَاعِيَّ، وثالثٌ يُحَرِّمُ ابتكار الوسائل الدعوية، في نمط من السذاجة لا يتناسب مع مقامهم في العلم والفضل.

إن اتخاذ الأسباب عقيدة، كما أن التوكل نفسه من العبادات القلبية الأصيلة، ورسول الله ﷺ جمع بين الاثنين في أسلوب بليغ حين قال: «لو أنكم تتوكلون على الله حق تَوكُّله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا»[1] أي: تذهب في الصباح المبكر خالية الحواصل، فإذا عادت في المساء كانت ممتلئة البطون، ولو كان التوكل في ترك الأسباب، لَقَرَّت الطير في وُكُنَاتها وأوكارها تنتظر رزقها رَغدًا يأتيها من كل مكان، ولكنها خرجت وطارت، وسعت في أرجاء الحقول، تبحث عن الحبِّ والدُّود، والفقيه من اعتبر.

إنني أستحي ـ والله ـ من نفسي حين أرى المنافق أو الفاسق يُتْقِنُ من حِرْفَة الدِّعاية لِنِحْلَتِه ومنهجه ما لا أُتْقِن، وأَتَوَارَى خَجلاً، وأذوب كَمدًا، حينما أرى جحافل الكفر تُغِيرُ على موقع من مواقع المجتمع والدعاة يقفون في دَهْشَة واجمين.

إن هذه الثقافة المنحرفة يجب أن تُسْتأصل من وجداننا، ويحل محلها الإيمان بأهمية السبب، والاستعداد به لمواجهة الباطل، والبحث عنه (أعني السبب)، واستفراغ الوسع في طلبه، والحصول عليه، وإعمال سبيل الدربة لاستعماله وتطبيقه واكتساب المهارة فيه.

وقادة الصحوة الإسلامية إذا أرادوا أن تخطو الصحوة خطوات واثقة نحو العالمية التي تتناسب مع رسالتها وضخامة تَبِعَتِها، فيجب عليهم أن يتدارسوا بجدية مبدأ تدريب الدعاة على المهارات الدعوية، وتثقيفهم بالثقافات التي يحتاجونها في مسيرتهم.

إنه ما من هيئة إدارية أو شركة تجارية إلا وتَعْقِدُ لِمُوظَّفيهَا دورات تدريبية في كل المناحي التي يحتاجها قطاع أعمالهم، بحيث يترقَّى الموظفون في درجات المهارة ولا يبقون أسرى المعلومات العتيقة، والأساليب البالية.

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

إذن . . فليس على الدعوة من بأس أن تعقد دورات تدريبية لتنمية مهارات الدعاة في الخطابة والموعظة والتأثير على الناس، أو دورات تدريبية في تحضير الموضوعات وتنسيقها، أو دورات في إدارة الدعوة في المساجد أو في الجهات التي يكثر تواجد الدعاة فيها.

مثل هذا الاتجاه كفيل بتكثير سواد الدعاة عبر رفع كفاءة آحادهم ممن لم يشارك في الدعوة بفَعَالية من قبل، ومن شأن هذه الطريقة أن ترفع مستوى أداء الداعية فيتحسن النشاط الدعوي بالتَّبع.

إن من العادي في الدول المتقدمة أن تعقد مؤتمرات بحثية على مستوى الجامعات والصحف والشركات - في كل المجالات - وفي المدارس على مستوى المدرسين والطلبة، تعرف هده المؤتمرات بجلسات (Seminar)، يستضاف فيها متخصص في مجال معين ليتحدث عن تخصصه، وكيفية الاستفادة منه في القطاع الذي يستمع إليه، ثم يتم إتاحة فرصة المناقشة، ثم يتم صياغة توصيات يُدلى بها إلى ذوي الاختصاص، ليروا ما يمكن تنفيذه من عدمه.

ومن الأمور الطريفة التي علمتها مؤخرًا أن شهادة الأيزو (الجودة العالية العالمية) تعدَّى مجالُها الجانبَ الإداري والصناعي ليشمل العملية التعليمية، فصارت المدارس تمنح شهادة الجودة التي تثبت رقي مستوى مدرسيها، وإدارتها وعمليتها التربوية والتعليمية، وغير ذلك من الشروط الصارمة التي يجب أن تتوفر في المدرسة النموذجية[1].

(١) إن طرافة هذا الأمر تذكرنا بموجة المدارس النموذجية التي كانت تتسمى بها المدارس في البلاد العربية، ولم تكن في الواقع إلا مدارس أفضل من غيرها، أما كونها نموذجية بمعنى رقي مستواها وارتفاع قدرها، فهذا ما لم يكن له ضابط ولا رابط في تاريخنا الحديث.

ولاشك أن هذا الأمر يستدعي إِسْقَاطًا مباشرًا على شأننا الدعوي، حيث إن نشاطاتنا الدعوية تفتقر إلى الجودة، بل تفتقر إلى معايير الجودة نفسها، لدرجة أن بعض الجماعات العاملة في حقل الدعوة تستسيغ لأفرادها التصدر للخطابة والإفادة - حال كونهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أماني[1] -، ولاريب أن هذه جُرأة على الله تعالى، واستهزاء بجناب الشرع الموقَّر، واستخفاف بعظمة شعائر الله.

إنني أتصور قوة الدعوة في قوة دعاتها وثباتها في ثباتهم، وقدرتها على غزو قلوب الناس من قدرة دعاتها على حل مشكلاتهم: كل مشكلاتهم، ولا يمكن أن نرجو نصرًا في معركة ما تخاذلت همتنا فيها عن استعمال نفس السلاح الذي يستعمله أعداؤنا أو استعمال ما هو أفضل منه.

إن معارك حامية الوطيس دارت بين شيخ الإسلام ابن تيمية وخصومه كان محك الغلبة فيها لمن أحاط بعلوم الشرع، ولولا أن قَيَّضَ الله لأهل السنة مثل شيخ الإسلام في ذلك الزمان لكانت السنة تعاني الآن غُرْبَةً حالكةً، فكان في تصدِّي شيخ الإسلام للبدع الكلامية والانحرافات العقدية والسلوكية في المجتمع الإسلامي مع شهادة الخصوم له بطول الباع في علوم الشريعة، كان ذلك له أعظم الأثر في رِفْعَةِ شأن أهل السنة وعُلُوِّ كَعْبِهِم بين الناس.

وكذلك كانت مجهودات العلامة المحدث الشيخ الألباني - رحمه الله -[2] في علوم السنة، ومن قبله جهود الإمام ابن باز - رحمه الله - في الدعوة والفتوى، فَأَعْظَمَ اللهُ منزلة أهل السنة بهما، وجعل لهم بين الناس وَجَاهَةً وصيتًا، وأحسب أن الدعوة تحتاج إلى عشرات من مثل هؤلاء حتى تخوض المعركة بخطا واثقة.

---

(١) إلا قراءة.

(٢) كتبت هذه السطور إبان حياة الشيخ، فرحمه الله رحمة واسعة.

■ ***وإذا أردنا أن نصوغ مهمات هذه الطريقة في عناصر عملية محددة فيمكننا أن نلخّصها فيما يلي:***

١ ـ تكوين مكاتب لتبادل الخبرات بين الدعاة مهمتها البحث عن كل جديد في تَقْنيات العصر، مما له مَسيسُ صلة بواقع الدعوة، وتسخيره في خدمة الدين، مع إيجاد الكوادر التي تستطيع التعامل مع تلك التقنيات الحديثة.

٢ ـ أن تتواصى همم الجماعات والهيئات الإسلامية على تدريب أفرادها، وصياغة مناهج علمية تدريبية، مع الحرص على متابعة المستوى ومحاسبة المقصرين مع توليد القناعة في نفوس الأفراد والجماعات بأهمية اكتساب الخبرات والتخصصات المناسبة التي تحتاجها الدعوة، وأنَّ ذلك من صميم الإتقان والإحسان الذي أمر به الشرع المطهَّر.

٣ ـ قد يَعْسُرُ تنفيذ مثل هذه المناهج التدريبية بطريقة جماعية، فلا أقل من أن توجد تلك المناهج في صورة مؤلفات متاحة لكل قطاعات الدعاة حتى يتمكنوا من النهوض بإمكانياتهم الدعوية بصفة ذاتية.

٤ ـ ضرورة وجود متخصصين في المناهج التدريبية، مهمتهم متابعة احتياجات الدعوة والدعاة وملاحقة هذه الاحتياجات على صورة كتب أو أشرطة سمعية أو برامج حاسب آلي.

٥ ـ من الأهمية بمكان أن يعمل هؤلاء المتخصصون على متابعة الجديد مما تحتاجه الدعوة من المؤلفات الأجنبية، وترجمتها وتيسير تداولها على مستوى الدعاة.

٦ ـ الاهتمام بالجانب الإحصائي في الأنشطة الدعوية، لأنها من أهم سمات الموضوعية في تقدير جدوى الوسائل ومدى نجاح التجارب، وأرى أن القصور الحادَّ في إحصائيات الدعوة له دور كبير في الارتجالية في معالجة المشكلات.

٧ - من أهم الجوانب التي يجب على الدعاة إتقانها أو الإلمام بها على أقل تقدير: تقنيات الحاسب الآلي، وإمكانياته المتعاظمة، وبخاصة في ثورة المعلومات التي أتاحها الحاسب الآلي، حتى أضحت آلاف الكتب التي يجمعها طلبة العلم في عشرات السنين، مخزنة في قرص من أقراص الحاسب الآلي.

٨ - إصدار دوريات متخصصة في الجوانب التي يحتاجها الدعاة لاسيما الأخبار والقضايا الدعوية الملحة، وحشد آراء أئمة الصحوة وقادتها فيها لضمان أعلى نسبة توحد في الاتجاهات وردود الأفعال.

٩ - عقد المؤتمرات واجتماعات البحث باستمرار على مستوى القادة والأفراد - عند الإمكان - لمناقشة أوضاع الصحوة، ودراسة المشكلات واقتراح الحلول والعلاجات، والتركيز على جانب المشروعات الدعوية العملاقة التي تتطلب مجهودات جماعية، وإمكانيات متضافرة.

◆◆◆

الطريقة السادسة

الدُّعَـــاءُ

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلى اللهِ لأَبَرَّه»، وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبره، ألا أنبئكم بأهل النار؟ كل عتل جواظ متكبر»[١].

وعن محمد بن المنكدر قال: كنتُ في المسجد، فإذا أنا برجل عند المنبر يدعو بالمطر، فجاء المطر بصوت ورعد، فقال: يا ربِّ لَيْسَ هكذا، قال: فَمَطَرَتْ، فَتَبعتُهُ حتى دخل دار حَزْم أو آل عمر، فعرفتُ مكانه، فجئتُ من الغد، فعرضتُ عليه شيئًا فأبى وقال: لا حاجةَ لي بهذا، فقلت: فحُجَّ معي، فقال: هذا شيء لك فيه أجر، فأكْرَه أن أُنافِسَكَ عليه، وأما شيءٌ آخذُه فلا[٢].

وقال الأصمعي: لما صافَّ قتيبةُ بن مسلم للتُرْك وهَالَهُ أمرُهم، سَأَلَ عن محمد ابن واسع، فقيل: هو ذاك في المَيْمَنَة جَامِحٌ على قَوْسِهِ يُبَصْبِصُ بأصْبعه نحو السماء[٣]، قال: تلك الأُصْبُعُ أَحَبُّ إليَّ من مائة ألف سيفٍ شهير، وشابٍّ طَرير[٤].

إن المتتبع لنصوص الشرع ليجد بدون فكر أو تأمل أن قضية الدعاء تحتل أهمية قصوى في سياق ما وصى به الشرع، كما تجد مساحة واسعة في سيرة النبي ﷺ تنبيك بالقطع أن القوم كانوا يُعَوِّلُونَ على هذا الأمر في جُلِّ مشكلاتهم.

---

(١) رواهما البخاري ومسلم.

(٢) «التواضع والخمول» لابن أبي الدنيا (ص٢٧).

(٣) أي: يشير بأصبعه يدعو بها.

(٤) «سير أعلام النبلاء» ترجمة محمد بن واسع - رحمه الله -.

لا جَرَمَ قال النبي ﷺ: «**الدعاءُ هو العبادة**»[1] وهو سلاح ماضٍ، وعُدَّةٌ عَتيدَةٌ، ووسيلة مُوصِلة، ودَرْبٌ نافذ، وسَالِكُهُ مُفْلِحٌ ورَابِحٌ في كل الأحوال، وقد علم سلفنا الصالح قوة هذا السلاح فاستعملوه في كل شئون حياتهم، حتى رُوي عن أحدهم أنه كان يدعو في دعائه، قائلاً: اللهم ارزقني طبيخًا، اللهم ارزقني كذا وكذا.

وعن بعضهم أنه يسأل ربه كل شيء حتى الملح، وهذا هو المذهب السديد في الباب، أن يُلِحَّ العبدُ في المسألة ولو في الصغير من الشأن، إذا أظْهَرَ الفقر إلى الله، في ذلك الحقير، وأيقن أنه غيرُ مَقْضيٍّ إلا بإذن ربه ذي النِّعم والآلاء، وما ورد عن بعض السلف من أنه يستحيي من الله أن يسأله شيئًا من أمور الدنيا، فذلك محمول على أنه جَازِمٌ بِفقرِهِ إلى الله في تلك الأمور، وفَضَّلَ الاجتهادَ في الدعاء والتضرعِ والسؤالَ للغاياتِ الكبرى، كالفوز بالجنة والنجاة من النار، ﴿**وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ**﴾ (البقرة:١٤٨).

وفي سياق موضوعنا حول البذل للدين، فإننا نلاحظ أن طائفة كبيرة من المسلمين، ومنهم كثير من الدعاة في كثير من بقاع العالم عجزوا عن كثير من أوجه البذل التي ذكرناها وسنذكرها، ولم يبق لهم من شيء يقدموه أو جهد ليبذلوه إلا أن يبسطوا الأكف ويتضرعوا إلى القوي العزيز بنصرة الدين.

فَلْيَكُنِ الدعاء إذن تَخَصُّصًا من التَّخصُّصَاتِ التي يَنْبَري لها الغيورون على دين الله، ولْتَكُنْ تلك الأيدي الضارعة سيوفًا مُصلَتَةً على هام أعداء الدين، ولْتَكُنْ تَضَرُّعَاتُها صَرْخَاتِ نذير في وجوه الكافرين.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي، وقال: حسن صحيح.

والذي يجب أن نحشد له اعتقادَ الناس: وَثَاقَةَ اليقين بالله ـ تبارك وتعالى ـ، وحُسْنَ الظن به، والتعويل على نصرته، فيدعوا الناسُ حالَ كونِهم على يقينٍ أن دعاءهم يَنْفَعُ كما يَنْفَعُ المالُ والسلاحُ وكلُّ مَئُونةٍ مَحْسوسة.

وقد نطق بذلك الوحي كتابًا وسنة، فقد قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، وقال رسول الله ﷺ: **«لا يَرُدُّ القضاءَ إلا الدعاء، ولا يَزِيدُ في العُمرِ إلا البِرُّ»**[١].

وما أحوج الدعوة إلى مِثْلِ أُصبُعِ محمد بن واسع ـ رحمه الله ـ تشكو إلى الله غربة الدين، وتستنزل نصره ومدده، وما أحوجنا إلى ذاك الخَفِيِّ النَّقِيِّ التَّقِيِّ الضعيف المُتَضَعَّفِ الذي لو أقسم على الله لأَبَرَّه.

إنْ جهودَ هؤلاء الداعين ليست بأقل من جهود من يُنْكِرُ المنكرَ بكل جوارحه، أو من يواجه صناديد الكفر والنفاق في كل ميدان، وليست بأقل من جهود الخطباء والوعاظ وكل داعية في كل ميدان، بل هم الجنود الأخفياء الذين علامةُ صدقِهم خفاؤُهم، وحَرِيٌّ بكل غَيور أن يجتهد ليصل إلى مثل ما وصل القوم، من باب البذل لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ولا مجال أن نعدِّدَ هاهنا ما ورد في استجابة الله لعباده، بل ما ظهر من الكرامات في هذا العصر، فهو مما لا يخفى على أحد، وذلك أَنَّنَا ـ وكُلُّ مُؤْمِنٍ حَقًّا ـ لا يربط الاستمرار في الدعاء بحصول الإجابة، فهذا شأن المنافقين أو الكافرين الجاحدين لقدرة الله ـ تبارك وتعالى ـ، بل قد أخبر النبي ﷺ أن هذا من موانع الإجابة، فقال ﷺ: **«يُسْتَجَابُ لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لي»**[٢].

---

(١) رواه الترمذي والحاكم، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع».

(٢) رواه البخاري ومسلم.

كما أن الإلحاح في السؤال يجب أن يكون دَأْبَ كل الدعاة إلى الله تعالى، وهو شأن علاقتهم بالله القائمة على دوام المناجاة والاجتهاد والتضرع.

وقال الأوزاعي: «يقال: أفضلُ الدعاءِ الإلحاحُ على الله والتضرع إليه»[١]. وعن عبد الله بن عُكَيْم قال: خطبنا أبو بكر ﷺ فقال: «**أما بعد، أُوصيكم بتقوى الله، وأَنْ تُثْنُوا عليه بما هو له أَهْلٌ، وتَخْلِطُوا الرَّغْبَةَ بالرَّهْبَةِ، وتُجْمِعُوا الإلحَاحَ بِالمَسْأَلَةِ؛ فإنَّ الله أَثْنَى على زَكَرِيًّا وأَهْلِ بيتِهِ فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾** (الأنبياء: ٩٠)»[٢].

ويَلْزَمُ مَنْ صَدَّرَ نفسَه لخدمة الدين عن طريق الدعاء أن يُحَصِّلَ أسباب وشروط الإجابة، بأن يَطْعَمَ من الحلال وأن يَتَحَرَّى المكانَ والزمانَ الأحْرى بالقبول، وكل ذلك مسطور في كتب أهل السنة بما لا مَزِيدَ عليه[٣].

فلنتأمل كيف يمكن للدعوة أن تنتصر على أعدائها حين نرى آلاف الأَكُفِّ تُرْفَعُ في سَحَرِ كُلِّ ليلةٍ تَسْتَنْزِلُ المعونة والمَدَدَ، ولْنَتَصَوَّرْ كيف يمكن أن يكون حال المسلمين لو كان من بينهم واحدٌ مثل محمد بن واسع.



---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان».
(٢) رواه هَنَّادٌ بن السَّرِي في كتاب «الزهد» (١/ ٢٨٣).
(٣) ننصح بكتاب: «النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة» للشيخ محمد إسماعيل ـ حفظه الله ـ، وكتاب: «الدعاء» للشيخ سعيد بن وهف القحطاني، وللاطلاع على المزيد في فضل الدعاء وأثره ينظر كتاب: «صلاح الأمة في علو الهمة» د. سيد حسين العفاني ـ حفظه الله ـ (جـ٥ ـ الفصل الرابع)، وشريط: «يا سامعًا لكل شكوى» للشيخ إبراهيم الدويش ـ حفظه الله ـ.

الطريقة السابعة

تربية أفراد الأسرة

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦).

عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾، يقول: «أَدِّبُوهُم وعَلِّمُوهُم»، وقال علي بن أبي طَلْحَةَ عن ابن عباس: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾، يقول: «**اعملوا بطاعة الله واتقوا معاصي الله وأْمُرُوا أَهْلَكُم بالذِّكْر يُنْجِيكُمُ اللهُ من النار**»، وقال مجاهد: ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾، قال: «اتقوا الله وأَوْصُوا أهليكم بتقوى الله»، وقال قتادة: «تأمرُهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقومَ عليهم بأمر الله، وتأمرَهم به وتساعدَهم عليه، فإذا رأيتَ لله معصية قَذَعْتَهُم عنها وزَجَرْتَهُم عنها»، وهكذا قال الضحاك ومقاتل: «حقُّ المسلمِ أنْ يُعَلِّمَ أهلَه من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم وما نهاهم الله عنه»، وفي معنى هذه الآية قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مُرُوا الصبيَّ بالصلاة إذا بَلَغَ سبعَ سنين، فإذا بلغ عَشْرَ سنين فاضْرِبُوهُ عليها**»[1].

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم ليكون ذلك تَمْرِينًا له على العبادة، لكي يَبْلُغَ وهو مستمر على العبادةِ والطاعةِ ومُجانبةِ المعاصي وتركِ المنكر، والله الموفق.

وقال الله ـ تبارك وتعالى ـ مادحًا إسماعيلَ عليه السلام: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم: ٥٥)، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذا أيضًا من الثناء

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وقال: حديث حسن.

الجميل والصفة الحميدة والخَلَّة السديدة، حيث كان صابرًا على طاعة ربه - عزَّ وجَلَّ - آمرًا بها لأهله، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ (طه: ١٣٢) الآية، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: ٦)، أي: مروهم بالمعروف وانهوهم عن المنكر ولا تَدَعُوْهُمْ هَمَلاً فَتَأْكُلَهُم النار يوم القيامة.

وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«رَحِمَ اللهُ رجلاً قامَ من الليلِ فصلَّى وأيقظَ امرأته فإنْ أبَتْ نَضَحَ في وجهِهَا الماءَ، ورَحِمَ اللهُ امرأة قامتْ من الليل فصلَّتْ وأيقظتْ زوجها، فإن أبَى نَضَحَتْ في وجهِهِ الماءَ»**[١].

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فَصَلَّيَا ركعتين؛ كُتِبَا من الذاكرين اللهَ كثيرًا والذاكرات»**[٢].

وهكذا حال من وقَفَ نفسه على إصلاح الناس ودعوتهم إلى الخير؛ فإنَّ أوَّلَ من يَبْتَدِئُ بهم أهلُهُ الأَدْنَوْنَ كما قال - تبارك وتعالى - لنبيه ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، وكما قال النبي ﷺ: **«كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عن رَعيَّتِهِ»**[٣]، وقال ﷺ: **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يَقُوتُ»**[٤]. وتضييعُهُم بعدم التربية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتجافي بهم عن موارد الهَلَكَة أعظمُ ضررًا من تضييعهم بعدم الإنفاق والإطعام.

---

(١) رواه أبو داود، وابن ماجه، وصححه الشيخ الألباني.

(٢) رواه أبو داود، والنسائي في «الكبرى»، وابن ماجه، وصححه الشيخ الألباني.

(٣) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي.

(٤) رواه أبو داود والنسائي والحاكم، وإسناده صحيح.

إن انشغالَ الداعية أو أيٍّ مسلم بإصلاح أسرته من أعظم طُرُقِ التمكين لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ، ومن أَيْسَرِ الوسائل لأَسْلَمَةِ (أنظمة) المجتمع بصورة أُفُقيَّةٍ ورَأسيَّةٍ، بل هو أيسر من المعتركات التي يخوضها الدعاة في مواقع المجتمع المختلفة دون أن يكون لديهم الظن الغالب في النصرة والغلبة، هذا من حيث الكم، أما من حيث الكيف: فإن اعتناء المسلم بأسرته أعظم أثرًا من إصلاحه لفرد خارج الأسرة، فهو يتمتع بولاية شرعية تتيح له ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكل مراتبه، وتفرغُه للعناية بالمشكلات داخل الأسرة وعلاجها أكثر من تفرغه خارجها، بل إن تأثر أفراد الأسرة به كَقُدْوَةٍ تفوقُ تأثرَ غيرِهم به، وما ذلك إلا لطول العِشْرة والمعاينة والمعاملة.

ولكن الذي يجب الاعتناء به تلك المناهج الكفيلة بتحقيق أعلى قدر من الثمرة التربوية المرجوة، إذ المسبَّبات تبع لأسبابها، والنهج التربوي الذي يجب أن يلاحظه كل عائل يقوم على دعائم أساسية هي بمثابة الأهداف أو الإستراتيجيات التي تنبني عليها الوسائل والمعالجات.

■ أما تلك الدعائم فهي:

١ ـ تأسيس حياة إسلامية في المنزل قِوامُها الخضوع التام لأحكام الشرع والاستجابة السريعة لأوامر الله ورسوله ﷺ.

٢ ـ العمل على ازدياد الإيمان عَبْرَ رِحْلَةِ الحياة، والاجتهاد في الطاعات والعبادات.

٣ ـ بناء أسرة قوية إيمانيًا وعلميًا ونفسيًا وأخلاقيًا.

٤ ـ تأسيس العلاقة بين أفراد الأسرة على الحب والإيثار والشفقة والنصح.

٥ ـ تحصين أفراد الأسرة بمناعة إيمانية ضد ابتلاءات الدنيا كالأمراض والفقر ونحو ذلك.

٦ ـ الاهتمام بالجوانب المتممة للضروريات مثل النظام والنظافة والذوق العالي والآداب الرفيعة.

٧- العمل على تحصين أفراد الأسرة ضد فتن العصر المختلفة الهادمة لبناء الدين.

٨- إعلاء الحِسِّ الجهادي، والتعويد على البذل في سبيل الدين.

٩- الاهتمام باللغة العربية، والعلوم الشرعية، والثقافة العامة.

١٠- تأسيس مبدأ التنافس على الفضائل والتسابق إلى الخيرات[١].

وعلى ضوء هذه الأُسُسِ والمُفْرَدَاتِ العامة المُلاحظة في العملية التربوية طوال عمر هذه الأسرة يتم وضع المناهج التربوية العملية التي تتجه لتحقيق تلك الأهداف.

وليس هذا الدور التربوي مقصورًا على رب الأسرة وقَيِّمها وهو الأب، بل كل مُنْتَمٍ إلى أُسْرَةٍ وإنْ قلَّ قدرُه وضَعُفَ شأنُه، لكن عَلَتْ هِمَّتُه في جانب الإصلاح والرغبة في معالجة الخلل.

فكل من انتمى للصحوة المباركة مَدْعُوٌّ أن يمارس دورَه التربوي داخل أسرته مساهمة في نشر نور الدين، وإشاعة الخير والهدى بين أفراد المجتمع.

---

(١) وإذا أراد رب الأسرة طريقة عملية للاهتمام بالأسرة، فإن ذلك يتضمن جانبين:

(أ) جانب علمي: وذلك بعقد بعض الجلسات العلمية في المنزل لأفراد الأسرة يتناول فيها بعض الكتب المبسطة، مثل: «أيسر التفاسير» للجزائري، «صور من حياة الصحابة» لعبد الرحمن رأفت الباشا، نماذج من علو همة السلف في كتاب: «علو الهمة» للدكتور محمد إسماعيل أو سيد العفاني أو غير ذلك من الكتب التي يسهل على رب الأسرة قراءتها والاستفادة منها، فإن لم يكن قارئًا فليجمعهم على بعض الأشرطة المفيدة، ثم ليحرص على إجراء بعض المسابقات الدورية ليحفزهم ويزيد من أنشطتهم، ولتكن هذه الجلسات أسبوعية أو نحو ذلك.

(ب) جانب عملي: بأن يضع رب الأسرة منهجًا تربويًا لأفراد أسرته يجتمعون عليه من حضور مجالس العلم، صيام النوافل، قيام الليل، إخراج الصدقات .. مع التشجيع المستمر منه للمجتهدين، وحث المفرطين على اللحاق بهم، مع القيام ببعض الرحلات الترفيهية لأفراد الأسرة بصفة دائمة في أماكن مناسبة ترويحًا عن قلوبهم حتى لا تمل.

وساطِرُ هذه الكلمات على يقين أن لو كان في كل أسرة فردٌ مُنْتَصِب للقيام بحق الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الهدى وإصلاح العِوَج، فالتمكين لدين الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ يكون من باب تحصيل الحاصل.

ولاشك أن من أهداف الصحوة في المرحلة المقبلة تفعيلَ دورِ كل مُنْتَمٍ إليها، والرُّقِيَّ بمستواه العلمي والتربوي، فيُصْبِحُ في كُلِّ ميدان صوتٌ حق ينادي على الخلائق ويتدخل لإصلاح العوَج، وتعميق الانتماء للدين الحنيف[1].

---

(١) ينصح بكتاب: «صورة البيت المسلم» للشيخ/ عصام بن حمد الشريف، وكذا: «مسئولية الأب المسلم في تربية الولد» لمؤلفه: عدنان حسن باحارث، وكتاب: «تربية الأولاد في الإسلام» لعبد الله ناصح علوان، وغير ذلك من كتب الأسرة والتربية.

الطريقة الثامنة

تَسْخِيرُ المَنَاصِبِ المُؤَثِّـرَةِ

يقول الأستاذ محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من داخلها) بعد أن استعرض جهود الدول الغربية الكبرى - كأمريكا - في تغريب المناهج التعليمية والتربوية والاجتماعية السائدة في العالم الإسلامي، وعقدها لمؤتمرات حاشدة تدعو فيها مسئولي التعليم في الدول الإسلامية منفقة على هذه المؤتمرات ببذخ شديد، يقول - رحمه الله -: «ثم إن هذه المؤتمرات هي - من ناحية أخرى - وسيلة للاتصال القريب المباشر بالمسئولين، يعجمون عودهم، ويدرسونهم عن قرب، ويختبرون مدى مناعتهم ومدى استعدادهم للتجاوب مع الأهداف الخفية للسياسة الاستعمارية، كما يختبرون مواطن القوة ومواطن الضعف في كل واحد منهم لمعرفة أنجح الوسائل للاتصال بهم والتأثير عليهم . . .، ثم يقول: وهدف آخر من هذه الأهداف الواضحة هو السيطرة على توجيه المجتمع، عن طريق هؤلاء الأصدقاء من أصحاب النفوذ» اهـ.

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠)، وفي الحديث: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن»، أي: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع. اهـ.

إن مناصبَ الحكم قد جعل الله - تبارك وتعالى - فيها من التَّسَلُّط والقَهْرِ بحكم عُرْفِ الناس ومواثيقهم التي جُبِلُوا عليها - ما لم يجعل في غيرها من المناصب، وإذعان الناس لرأي السلطان والقوة أعَمُّ وأفْشى من إذعانهم لرأي ذي الحُجَّة والبينة.

ولما أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ انقياد القلوب إليه بالرسالة الخاتمة لم يرسل رسولاً ملكًا، بل عبدًا رسولاً متواضعًا، يأمُر من موقع رساليَّته، ويُوَجِّهُ من مُنْطَلَق أُبُوَّته البشرية العامة، وما ذلك إلا ليكون إقبال الناس بقلوبهم لا بأبدانهم.

ولكن ذلك لم يمنع النبي ﷺ أن يأخذ بأسباب القوة ويقيم قواعد الحكم والسياسة الشرعية التي ألزم الناس أن ينضووا تحت لوائها، ولم يترك لأحد الاختيار في شأن الطاعة المطلقة له كرسول وحاكم يحكم بما أنزل الله ـ تبارك وتعالى ـ[(١)].

ومجتمعاتنا الإسلامية في الغالب مازالت تحافظ على الشعائر الظاهرة أو تحترمها في الجملة، كالصلاة والحج ونحو ذلك، ولابد أن يستغل الدعاة هذه العقيدة الاجتماعية في إحياء شعائر الإسلام لِيَصْطَبِغَ المجتمع بَصِبْغَةِ الدين، وتَعْلُوَ كلمةُ الله على الدين كله.

وأَقْوَمُ ما يمكن سلوكُه لِبَثِّ هذه الشعائر في ميادين المجتمع أن نستعين بأولياء الأمور من ذوي المناصب الرفيعة والنافذة، ونَحْفِزَ غَيْرَتَهُم على الدين، ونَسْتَنْفِرَ شعورَهم الإسلامي الدفين، مُطَالِبِيْنَهُم القيام بأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ في حق

---

(١) هذا الكلام نخص به من يجادلون في أن الرسول ﷺ أقام دعائم الدولة الإسلامية والحكم الشرعي، ويريدون أن يثبتوا أن الرسول ﷺ في حقيقة الأمر لم يكن إلا رسولاً كما قال هو عن نفسه، ولاشك أن هذه مغالطة منشؤها الخطأ في فهم مقصود الرسول ﷺ، وعدم الاستدلال بالنصوص الأخرى القاطعة في هذا الصدد.
ـ ومنه قوله تعالى: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ (المائدة: ٤٩)، وقوله: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ (النساء: ٦٥)، وقد أجمع العلماء على أن النبي ﷺ قضى بين الناس بالشرع المطهر، وحكم بينهم بمقتضى نصوص الوحي التي نزلت إليه، وأن ذلك لم يقتصر على شئون العبادة، بل تجاوز إلى كل شئون الحياة كالسياسة والاقتصاد والأحوال الشخصية وأحكام السلم والحرب.

المُمكَّنين في الأرض، حيث قال عز من قال: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(الحج: ٤١)، قال الحسن وأبو العالية: هم هذه الأمة إذا فتح الله عليهم أقاموا الصلاة، وقال ابن أبي نُجَيْح: يعني الولاة، وقال الضحاك: هو شرط شَرَطَهُ الله - عَزَّ وجَلَّ - على من آتاه الملك، وهذا حسن، قال سهل بن عبد الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على السلطان وعلى العلماء الذين يَأْتُونَهُ وليس على الناس أن يأمروا السلطان؛ لأن ذلك لازم له واجب عليه ولا يأمر العلماء فإن الحجة قد وجبت عليهم[1].

وقد خَبُرتُ عن كثير من الدعاة أَخْذَهُم بمبدأ مجانبة السلطان وعدم الدخول عليه، ولاشك أن هذا منهج السلف، ولكنه ليس مُطَّردًا في كل الأحوال، بل كان السلف لا يدخلون على السلاطين في أمور الدنيا زهدًا فيما في أيديهم، أما إن كان أَلَمَّ بالمسلمين رَزِيئَةٌ أو حَدَثَ مُنْكَرٌ مُتَعَاظِم فتكاسل السلطان عن إنكاره نصحه العلماء سرًا، فإن أبى أعلنوا وقاموا هم بالأمر دونه.

كما أنه ليس صحيحًا أن الأصل في نصيحة ولاة الأمر أن تكون في السر، بل قد يحتاج الأمر إلى المناصحة في الجهر كما لو جحد الحاكم حكم الشرع، وأَبَى تطبيقه، أو عُلِمَ جَهْلُهُ وعمايته عن النصيحة بالتفاف بطانة السوء حوله[2].

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٢/ ٧٣)، والمقصود أن الناس لا يجب عليهم أن يأمروا السلطان والعلماء؛ لأنهم مأمورون بأصل الشرع، بل هو مستحب، وقد يتجه القول بالوجوب في حال جهل السلاطين والحكام وغفلة العلماء وخوفهم، فالتذكير أمر عام ينفع الله به كل المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٥).

(٢) ومن المضحك المبكي الذي قرأته مؤخرًا أن شركة أطعمة ومأكولات أمريكية افتتحت فرعًا لها في الضفة الغربية بفلسطين المسلمة، فقامت المنظمات الإسلامية في أمريكا بتهديد الشركة بمقاطعة المسلمين لها إذا لم تستجب لطلب تلك الجمعيات بإغلاق ذلك الفرع لمخالفته للقوانين الدولية (التي تعتبر الضفة الغربية بموجب قرارات هيئة الأمم المتحدة منطقة محتلة لا يجوز لليهود التصرف فيها)، وقد =

وفي سيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين نماذج تبيح مبدأ المناصحة من قِبلَ المُتَأَهِّلِ لها، وأنها الأصل فيما بين الحاكم والمحكوم، وأن الحاكمَ لو جَحَدَ هذا الأصل جاز للناصح بل استُحِبَّ - وربما وجب - أن يناصحه رغمًا عنه مادام قد رآه على منكر لا يجوز السكوت عليه.

ومن أقل أحوال المناصحة أن نَحُضَّ أولي الأمر على التمسك بشرع الله، والمبادأة بهذه النصيحة لا تحتاج إلى وجود سبب أو مناسبة، فكيف لو كانت هناك أسباب كثيرة تدعونا إلى الإكثار من مناصحة أولي الأمر حول هذا الفرض المهجور (أعني تطبيق شرع الله والتمسك به).

كما أن كلَّ مَنْ مَنَّ الله عليه بمنصب عال ونافذ في أي قِطَاعٍ مِنْ قِطَاعَاتِ الدولة، حتي ولو كان ذلك في الأملاك الخاصة، بحيث يستطيع أن يستخدم نفوذه ذاك في إقامة شرع الله - تبارك وتعالى -؛ فإنه يَلْزَمه أن يبذل المستطاع.

وليس عسيرًا على من مَلَك القرارَ في دائرة من دوائر الدولة أن يأمرَ موظفيه بالصلاة، أو يَحُثَّ المتبرِّجات على الحجاب، أو يحاربَ الرِّشوة والخيانة، ويَحُضُّ الموظفين على المحافظة على أموال الدولة وأموال المسلمين.

وليس عسيرًا على أي مالك شركة أن يُصْدِرَ قرارًا بإيقاف العمل عند أوقات الصلاة، أو أن تكون لوائح العمل موافقة شرع الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة،

= تجاوبت جامعة الدول العربية مع دعوة تلك المنظمات الإسلامية وأيدتها، ولكن المضحك المبكي الذي أشرت إليه أن إحدى الصحف نقلت عن أحد أساتذة الشريعة في جامعة إسلامية معروفة قوله: «إن المقاطعة ليست حلاً، وأن هذه الأمور من شأن أولياء الأمور، وأنه يدعو المسلمين إلى عدم إثارة البلبلة بمثل هذه التصرفات. والرد على مثل هذه النماذج يجلب الصداع، فلقد عييت من أولئك الذين تحتاج أن تشرح لهم البدهيات، أو تستدل للمسلمات، وخير لنا أن نترك هؤلاء وحشو كلامهم، وندعهم في حاشية التاريخ لينساهم الناس وينسون كلامهم الرديء الذي لا طعم له ولا رائحة.

ولَعَمْـرِي إن هذا هو التعظيم لشـرع الله تعالى، وإلا فمـا فائدة أن يَمُنَّ الله على أي مسلم بِولايَةٍ وسلطان فَـيَخُونَ من وَلاه ويعيث في الأرض الفـساد أو يسكت عن حق صاحب الملك والملكوت.

إنَّ التعبيرَ عن انتمائكَ للدين ليس بمجرد أداء الصلاة وصيام رمضان وحج البيت وإقامة الشعائر ثم لا تبالي بعد ذلك بالناس في أي أودية الدنيا هلكوا.

إذ انتـماء المسلم لدينه يـحتم عليـه أن يجاهر بقَـيُّـوميَّـةِ الدين على المجتـمعِ، ومَرْجِـعِيَّـتِهِ فـي كل تفاصـيل حركـة الحيـاة، وإثبات أن الناسَ كلَّهم أَسْـرَى في يدِ الشريعة، وألا فكاك عن هَيْمَنَةِ الشرع وحَاكِميَّتِه.

إنني على يقين أن لو كان كلُّ مديرٍ مسلمٍ قائمًا بحق الله، راعيًا لشرعه، محافظًا لحدوده، آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر، لأضحت كل الدوائر والقطاعات ذاتَ سِمَةِ تَدَيُّنٍ ظاهرٍ، إذ الملاحَظُ أن كـثيرًا من الـعاملين والموظفين الصـغار يشكِّلون التـزامَهم بالدين على نَمَطِيَّةِ مُـدِيرِيهِم، فلو كان مديروهم يصـلون فإنك ستلاحظ بسـهولة أن المصلحة بِـأَجْمُعِـهَا حريصـةٌ على أداء الصلاة أو أنهـا لا ترى في أمر الصـلاة غرابة وشذوذًا عـلى الأقل، أما المصلحـة التي يكون مديرها علمـانيًا حـانقًا علـى الإسلام وأهله، فـإنك ترى توجُّس المتـدينين منه يصل إلى درجـة مداراته في فـرائض الدين وشعائره، لدرجـةِ أن لو صَلَّى مُصَلٍّ لاستَغَلَّ بعضُ المنافـقين هذا الموقف للتزلُّف إلى سيدِه وكبيـره، وليس خافيًا على أحد ما يحدث في كـثير من تلك الدوائر من حربِ لله ورسوله ﷺ وللدين بكل مظاهره وشعائره، ألا فبُعْدًا للقوم الظالمين.

* * *

الطريقة التاسعة

المال المبارك

جاء في جريدة الشرق الأوسط عدد الاثنين ٢٠ ربيع الآخر ١٤٢٠هـ - ٢ من أغسطس ١٩٩٩م (الصفحة الأولى) ما يلي: العنوان بالخط العريض (بيل غيتس يعتزم التبرع بـ ١٠٠مليار) (مائة ألف مليون) دولار للأعمال الخيرية. ثم تفاصيل الخبر كما يلي: يُخَطِّطُ الملياردير (بيل غيتس) رئيس شركة (مايكروسوفت) العملاقة، لمنح ثروته التي تقدر بأكثر من مائة مليار دولار للمساهمة في القضاء على أمراض قاتلة مثل (الإيدز والملاريا) من خلال المؤسسة الخيرية التي يرعاها والتي تحمل اسمه، بحيث يحتل المرتبة الأولى قائمة المانحين من الأفراد في العالم، وقال والد (بيل غيتس): إن ابنه الذي أصيب بصدمة قاسية من جَرَّاءِ المناظر المروعة التي شاهدها أثناء زيارة للهند وجنوب أفريقيا يَنْوِي بَذْلَ جهودٍ للمساعدة في تخليص العالم من الأمراض الخطيرة، وأنه سيعلن خلال الأيام المقبلة الخطوات العملية في هذا الاتجاه.

وكشف والد (غيتس) الذي يرأس مؤسسة (غيتس) الخيرية في مقابلة مع صحيفة (صنداي تايمز) البريطانية أمس أن ابنه سيعلن خلال ثلاثة أشهر عدة مشروعات مالية تجعل من مؤسَّسَتِهِ الأَكْبَرَ في العالم في المجالات الخيرية.

وأشار إلى أن ابنه بيل غيتس وزوجته (ميليندا) ينويان تقديم الثروة التي جمعها بيل من تأسيسه لشركة (مايكروسوفت) إلى المؤسسة الخيرية خلال حياتهما وليس بعد وفاتهما، ولكنه لم يحدد تاريخًا معينًا، وتعد مؤسسة (وليام غيتس فاونديشن) الخامسة في الترتيب العالمي من حيث الأموال المستثمرة فيها، وقد شاركت أخيرًا في

تقديم الدعم للعديد من المؤسسات التعليمية في بريطانيا، مثل جامعة كيمبردج (١٨ مليون دولار). اهـ الخبر.

ليس هذا هو المال المبارك، وإنما جئتُ بهذا الخبر وصَدَّرْتُ به هذه الطريقة لأُشْعِلَ الغَيْرَةَ في قلوب أهل الإيمان، ولا أقول في قلوب أهل الثروات والمال، والعظة واضحة جَلِيَّةٌ: ثروة تعادل احتياطي العملة الأجنبية الموجود في كل البنوك المصرية قاطبة أو يزيد، يتبرع بها صاحبها - الكافر - لمؤسسة خيرية باسمه، شفقة على مرضى الإيدز والملاريا، فكيف بنا ونحن مسلمون، والبذل في سبيل الدين واسع، ولو كان بالقليل من المال.

وأبو بكر الصديق رضي الله عنه خَرَجَ من مالِه كلِّه، والعِظَةُ فيه أَقْوَمُ، ولكن الناس إذا سمعوا من يستخدم فئة المليار في التبرعات تعجبوا، وإذا كان كافرًا زاد العجب، وإلا فإن خروج أبي بكر من ماله كله أوقع أثرًا في القلب، وقد قال في ذلك الموقف لما سأله الرسول ﷺ: «ماذا تركت لأهلك يا أبا بكر؟»، قال: **«تركت لهم الله ورسوله ﷺ»**.

ولعمري فإن هذا هو المال المبارك: ما أنفقه صاحبه في سبيل الله ولو كان به خصاصة، لا يرجو من الناس جزاء ولا شكورًا، ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ (الليل: ١٩-٢٠)، ثم لا يتبع ما أنفق منًّا ولا أذى، أولئك ﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢٦٢).

إن استثمار المال في كل مجال دنيوي محفوفٌ بمخاطر الإفلاس والسرقة وإتلافِ الجوائحِ واخْتِلاس الخَوَنَةِ وكساد السلع وإعراض المشتري ومنافسة السوق، أما التجارة مع الله واستثمار المال في الدعوة إليه ونصرة دينه فمن أضمن الاستثمارات، فأصحاب هذا المال ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر: ٢٩)، وأصحاب هذا الاستثمار هم الآمنون يوم

الخوف الأكبر، ولْنَتَّعِظْ بِبَذْلِ أبي بكر الصديق للدين، ولنعتبر بقول النبي ﷺ: «ما نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ إلا مَالَ أبي بكر»، قال أبو هريرة: **«فَبَكَى أبو بكر وقال: وهَلْ نَفَعَنِي اللهُ إلا بك، وهَلْ نَفَعَنِي اللهُ إلا بك، وهَلْ نَفَعَنِي اللهُ إلا بك»**[1].

والبذل الذاتي للدين سيظل هو المورد الأساسي الذي تنفق منه الدعوة، وقد تبتكر الدعوة أساليب (ستتحدث عنها) في تحصيل المال الكافي للإنفاق على أوجه النشاط الدعوي المختلفة، وقد يكون لها أملاك خاصة تَدرُّ عليها أرباحًا، ولكن العطاء الذي يمنحه الأفراد لدينهم يبقى هو الأصل والباقي كله فرع.

فالدعوة تحتاج أفرادًا كأبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأضرابِهِم من أثرياء الصحابة ممن أوقفوا أموالهم وأَعْتُدَهُم في سبيل الله، فلم يُقدِّموا على البذل للدين زوجًا ولا ولدًا.

وذلك؛ لأن الأصل أن المسلمين ما وُجِدُوا إلا ليكون الإسلام مصدر عزهم في هذه الدنيا، فهم يبذلون في سبيل رفعته ونصرته، ويعلمون أن أي مال ينفق في سبيل الدين فهو في سبيل إعزازهم هم.

ولذلك كثرت النصوص الآمرة بالإنفاق، الداعية إلى البذل؛ لأن الإنفاق في حد ذاته عبادة مقصودة لكل مسلم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: ٢٤-٢٥).

ونحن لن نعوِّل كثيرًا على إنفاق الحكومات، وإن كان مُهِمًّا في ذات الأمر، وذلك لما يصحبه من مُدَاخَلاتٍ ومُعَوِّقَاتٍ تُقَلِّلُ من فائدته، وتحول بينه وبين الانتفاع المثمر.

ومن أهم الأسس التي يجب أن تُعَوِّلَ عليها الدعوة الإسلامية في توفير النفقة اللازمة للمشروعات الدعوية أساس المبادأة في تحصيل النفقة والتبرع، لا الانتظارُ لما

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان، وهو صحيح.

يُفِيضُ به المحسنون على الدعوة من فضول أموالهم . . فيجب أن يلتزم كل الدعاة والمنتمون للصحوة بمبلغ مالي معتبر يقدمونه للدعوة كمورد ثابت، كلٌّ حسب استطاعته، كما يجب أن يسعى الدعاة لدى المحسنين من ذوي الكرم والمروءات والنجدة والديانة ليمدوا مشروعات الدعوة بما تحتاجه، ومن الأفضل أن تكون مشروعات الدعوة مدروسة ومنظمة ومعروضة على شكل بيان مكتوب، يمكن تقديمه للمحسنين ليقتنعوا بوجود مشروعات حقيقية تقوم بها الدعوة(١)، والسيِّئ أن بعض الساعين في الأعمال الخيرية ضربوا مُثلاً غير لائقة في جمع التبرعات حتى احتاط أهل الإحسان في أموالهم فلم يَعُد البذلُ كما كان في الماضي لِتَغَيُّرِ الزمان وكَثْرَةِ المتسلِّقين واللصوص الذين اقتحموا الميدان . . فإلى الله المشتكى.

كما يجب أن تقوم الدعوة بدور فاعل في جمع زكاة المال من المسلمين، إذا تيسر دون مشكلات أو مضايقات، وكذلك حث الناس على أبواب الخير الأخرى، كالصدقات المطلقة، والصدقة الجارية، والوصية قبل الموت، والوقف على أعمال البر، وكفارات الأيمان والنذور، ورعاية طلبة العلم، وبناء المساجد، وحفر الآبار، ونحو ذلك من أوجه الإنفاق التي تبلغ أضعاف ذلك ولا ريب.

وإذا تَصَدَّرَتِ الدعوة لمثل هذا النشاط فلابد أن يكون لديها جهاز إداري ذو كفاءة وقدرة على عملية جمع النفقة وإدارتها وكيفية إنفاقها أو استثمارها على حسب الضوابط الشرعية التي أقرتها الشريعة(٢).

---

(١) هذا عند أمن المفسدة وتحقق المصلحة، وإلا فالحذر الحذر!!

(٢) إن المؤسسات الخيرية الغربية (ومما يصنف معها: المؤسسات التنصيرية) لا تنتظر مجيء الإحسان إليها، بل تبادر بالاتصال بكل من تعلم مقدرته على الإنفاق والبذل حتى لو كان عدوا لها، ولدى تلك المؤسسات أجهزة استشارية في كيفية تحصيل التبرعات، ومن وسائلها: إعداد بيان بالمشروعات المراد تنفيذها والمبالغ المطلوبة لتنفيذ المشروعات، وليس بخاف أن كثيرًا من تلك المؤسسات تتلقى تبرعات من كثير من المسلمين الجاهلين بمصارف تلك المؤسسات!!.

كمـا أنه من الأهميـة بمكان أن يكون لهـذا الجهاز الإداري لجـنة شرعيـة تراقب تعاملاته، أو أن يستعين ذاك الجهاز بالعلماء ويستفتونهم في المسائل المتعلقة بعملهم.

إن المال المبارك الذي ينفقه أي مسلم على الدعـوة جزء من الجهاد في سبيل الله، بل ركن عظيم منه، وجُلُّ الآيات التي تحدثت عن الجهاد فـي سبيل الله قرنت الإنفاق بالقتال.

وليست العِبْـرَةُ بالكثرة، بل العبرة بفـعل النفقة نفسهـا، وقد قال ﷺ: **«سبق درهمٌ مائة ألف درهم: رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها»**[١].

ويغيب عن كثير من الدعاة والغيورين على الصحوة حديث النبي ﷺ: **«أَحَبُّ الأعمالِ إلى الله أَدْوَمُها وإنْ قَلَّ»**[٢].

فمـا داوم الناس في إنفاقـه على الدعوة ـ وإن قل ـ أكثـرُ بركةً وأعظمُ نفـعًا من الكثير المنقطع، فالله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ إذا أحب عملاً من ابن آدم باركه له وأعانه عليه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (إبراهيم: ٧)، وكـما قـال ﷺ: **«إن الله قال لي: أَنْفق أُنْفق عليك»**[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ يوم يُصْبحُ العبادُ فيه إلا مَلَكَانِ يَنْزِلان، فيقولُ أحدُهما: اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، ويقولُ الآخَرُ: اللهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**[٤].

---

(١) رواه النسائي، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع».
(٢) رواه البخاري ومسلم. (٣) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه»** [(١)].

وهذه القلة في المال والإمكانيات ما ينبغي أن تَفُتَّ من عَضُدِ الدعاة وتُيَئِّسَهم من نصرة الله ومعونته، فالعقيدة الصامدة الشامخة مع بذل المستطاع تَستَجْلِبُ معونةَ الله على حسب موعود الله - تبارك وتعالى -، كما قال - عزَّ وجلَّ -: ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾ (البقرة: ٢٤٩)، وقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿**ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون**﴾ (آل عمران: ١٢٣)، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي من الله على قدر البلاء»** [(٢)].

ويمكننا أنْ نُمَثِّلَ بكرامات معاصرة لإمكانيات قليلة تيسرت للدعاة واستطاعوا بها أن يفتحوا أبواب بلاد وقلوب عباد، ولكننا نمثل بنموذج واضح بيِّن، وهو نموذج الصحوة الإسلامية في العالم كله، حيث تقل الإمكانيات الدعوية أو تَنْعَدِم، بل وتُحَارَبُ من كل قُوى الاستكبار العالمي، ويطارَد الدعاةُ ويُشَرَّدون، وتحمل عليهم وسائل الإعلام بحملات تشويه مسعورة، إضافة إلى ما يعانيه صفُّ الدعاة من فرقة وتَشَرْذُم أيضًا، ولكنهم يخرجون بعافية أكثر من ذي قبل ونصر أعلى من السابق، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وما إخال ذلك إلا من بقية إخلاص وقليل من البذل المبارك وعدد من الدعوات الصادقة الخالصة، فكيف بنا نحن معاشر الدعاة لو تَمَحَّضَ صدقُنا وإخلاصُنا ولو تكاتفت سواعِدُنا في التعاون والنفقة والبذل لدين الله - تبارك وتعالى -؟

---

(١) رواه مسلم، وأحمد، والترمذي.

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/ ٣٢٤٤): رواه البزار وفيه صادق بن عمار، قال البخاري: لا يتابع على حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح. اهـ. وقد صححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٦٤). **والمعونة**: القوت.

وعلى صعيد المجهود الفردي، فالمال وسيلة مهمة لكل نشاط، فأنا أدعو رجال الأعمال في كل مدينة، بل وأصحاب المحال والدكاكين لأن يقيموا رابطة تجمعهم، فيتعاونون في إعزاز الدين بالمال، ويساعد بعضهم بعضًا إذا حدث ألمٌ بواحد منهم، أو أهلكت جائحةٌ تجارته، وقد أدركَت كثير من التجمعات الإسلامية هذه الفائدة فعملت على تكوين مثل تلك الروابط على نحو ما نرى في أمريكا وتركيا، ومن شأن هذه الرابطة أن تستقطب أهل الغيرة من المسلمين الذين يتباطئون عن نصرة الدين لعدم وجود القناة التي يعملون من خلالها.

ومن المفيد أن ننبه رجال الأعمال الغيورين علي دين الله بضرورة أن يعملوا على دخول انتخابات الغرف التجارية التي غالبًا ما يكون لها دور في تقنين القوانين التجارية، وتحترم الحكومات اتجاهاتها، فيكون للمسلمين بذلك منبر جديد في منحى من مناحي الحياة لم يكن للخطباء والوعاظ أن يَلِجُوهُ إلا بشِقِّ الأَنْفُس.

ويستطيع كل داعية إلى الله، بل كل غيور أن يكون صندوقًا للدعوة في كل منطقة ينادي الغيورين على الدين للبذل ولو بالقليل، وقد أخبرني بعض الدعاة أنه يلزم إخوانه ببذل قروش (بمعنى القروش الحقيقي) كل يوم، فتعاظم عنده من المال ما قام به بمشروعات كثيرة.

وإذا تعسر مثل هذا النظام فَلْيَجْعَلْهَا كل داعية في خاصة نفسه، يُسِرُّ إلى إخوانه بمشروعات الدعوة - ولو كانت صغيرة كعيادة مرضى أو تأليف قلب عاص بهدية ونحو ذلك -، ويجمع منهم ما يستطيع به تنفيذ ذلك المشروع.

وما إخالُ الأمر عسيرًا على أحد: أن يدخر الداعية من حر ماله هو ما ينفق به على الدعوة، ولا خَيْرَ في داعيةٍ لا يَحْتَوِشُ من طعامِه وشرابِه ولباسِه في سبيل دينه وأمته.

◆◆◆

الطريقة العاشرة

عِمَارَةُ المَسْجِدِ

قال الرسول ﷺ: «المسْجدُ بيتُ كلِّ تَقيٍّ»[(١)].

لقد كان من مقاصد الشريعة أن يَحْصُلَ الاجتماع على الطاعة، والتعاون على البر والتقوى بما يحفظ جَنَابَ الشريعة في المجتمع ويُعْلِي من حرمة الدين في قلوب الخلق، فَشَرَعَ اللهُ ـ تبارك وتعالى ـ بناء المساجد في كل البقاع، وإحياءَها بكل أنواع العمارة، وتقديسَها وتعظيمَها، وإعطاءَها المقام الذي تستحقه من هوي الأفئدة إليها، وحُنُوِّها عليها، وإِلْفِها المقام بها.

وقد كان المسجد هو عماد المجتمع المسلم منذ عهد النبي ﷺ، يشير إلى هذا المعنى ابتداء النبي ﷺ ببناء المسجد كأول مشروع عند هجرته إلى المدينة.

وظل المسجد يحتل هذه المكانة في كل العصور الإسلامية، حتى في عصور الضعف والهزيمة، كان المسجد هو ملتقى المسلمين، ومحل ندواتهم واجتماعاتهم ودروسهم.

بل إن المتأمل في العمارة الإسلامية في كل بقاع العالم الإسلامية ـ كالعمارة الأندلسية والمملوكية والعباسية ـ يجدها تجعل المسجد محور كل مشروع، فالمدرسة كان المسجدُ مركزَها، وقصرُ الخليفة أو الأمير كان لابد أن يحوي مسجدًا، بل وكل مدينة تُخَطُّ: كان المسجد هو نقطة الارتكاز، ومحور طرقات المدينة الجديدة.

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير»، والقضاعي في «مسنده»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، وقال الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٧١٩): حسن.

والحقيقة أن احتلال المسجد لهذه المكانة في المجتمع المسلم مَأْتَاهُ من حرمته العظيمة في قلوب المسلمين، وتعظيمهم لأمره، وكل ذلك لكثرة ما ورد من النصوص في شأن عمارة المساجد.

ومعنى عمارة المسجد: بناؤُهُ وإصلاحُ شأنِه بتنظيفِه وتطييبِه، والمقصود الأعظم من عمارته الصلاةُ فيه، وامتلاؤه بالمصلين للفرائض والنوافل، وتعظيمُ حرمته قولاً وفعلاً، وقد كان أول ما يفعل النبي ﷺ إذا جاء من سفر أن يذهب إلى المسجد ويصلي ركعتين[1].

وقد استعادت المساجد مكانتها عندما أخذت الصحوة الإسلامية تشق طريقها في هذا العصر، فكانت آيةَ صِدْقٍ ودليلَ طهارة، وعلامة على أنها سلكت الطريق الصحيحة.

وعندما مالت بعض الحركات الإسلامية في طرائقها التربوية عن محورية المسجد، صرخ فيهم الراشد قائلاً: كلا .. بل علينا أن نوازن ولا نجعل اللَّبثَ في المساجد ضامرًا، فإنَّ خرِّيجَ المسجد غالبًا ما يكون عاقلاً رزنًا مترويًا، ذائقًا لثمرات الإيمان، ذاتي الاندفاع، ليس بالمطيع فقط، ولكنه المبتكرُ، ولا السائرِ بحركةِ مسيرةِ أصحابِه فَحَسْبُ، ولكنه المتقدم الحادي.

كأننا - أيها الإخوة - نلمس تكبرًا على المسجد عند بعض جدد المصلين المثقفين والجامعيين، يدخلونه وقت الفرض فقط، ويَأْنَسُونَ بالمجالس خارجه، وربما كانت هذه الظاهرة ناتجة عن الدعاية العرفية التي تُعْلِي مكانة الجامعة في تطوير المجتمع، فَتَأْخُذَ طالبَها وخرِّيجَها نَشْوَةٌ جاهلية تختلط بصلاته، ومن اللائق أن نرده إلى قيمته الحقيقية، وأن ندله على طريق البداية الإيمانية الذي لابد وأن يمر بالمسجد طويلاً.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

إن العيش في المجتمع العام، والتفاعل مع أحداثه، قد يستهلكان المخزونَ الإيماني الذي يملكه المدعو، فيقف عطاؤه عند حَدٍّ ويُفْلس، وعلاج ذلك أن نجعل له موردًا دائمًا تتكفل به حياة المسجد، وما فيها من سكون وصفاء نفس، ورحمة متنزلة وإلهام[1] اهـ.

إن المسجد ميدان خصب لخدمة الدين، وسبب ذلك أنه مَهْوى أفئدة المسلمين في كل مكان، فمن لا تستطيع لُقْيَاهُ خارج المسجد، ومن تتحرج من نصيحته ودعوته في الطرقات والمنازل، ستَجِدُهُ في المسجد مستعدًا لكل نصيحة، وراغبًا في كل خير، بل إنني أجزم أن كثيرًا من الناس الذين يحتاجون النصيحة، يعلمون أن الدعاة يخافون ويستحيون من إعطائها لهم خارج المسجد، فيأتون ونفوسهم في شوق أن يرزقهم الله رجلاً صالحًا يأخذ بأيديهم إليه.

وقد حدثني كثير من الشباب أنهم كانوا في جاهليتهم ينظرون إلى الملتزم بالدين نظرة إجلال وإكبار، وأنهم كانوا يرون ترداده إلى المسجد مظهرًا يحرك كوامن الإيمان في قلوبهم، وأنهم كانوا يتمنون أن يكونوا مثله في الطاعة، وأن لو كانوا مثله كثيري التردد على المسجد.

وما سبق: قدمته لتأسيس قاعدة في قلوب الدعاة، وهي أن أية دعوة لابد أن تكون نقطة انطلاقها من المسجد، وأن المسجد يجب أن يكون المحور في كل عملية إصلاحية، أو دور تربوي يراد تفعيله وتطبيقه.

ولقد آن الأوان أن ندرك هذه المسلَّمة لتنطلق جهودنا واثقة، وتتحفز هممنا في يقين، فالمسجد متنزل السكينة، ومهبط الملائكة، ومحط الرحمات الإلهية.

إن جهود خدمة الدين تتضاعف في المسجد، ويكتب لها من البركة والقبول أكثر مما يبذل خارجه، ولذلك وجب أن نستغل كل نشاط ممكن، ونستثمره في المسجد بالصورة الشرعية التي تحقق مقاصد الدعوة الإسلامية الأصيلة.

---

(١) «المسار» لمحمد أحمد الراشد (ص١٣٧).

ولا ينبغي أن يغيب عن الذهن أن المساجد لم تُبْنَ إلا لإقامة الشعائر وتعظيم حرمات الله، كما قال ﷺ للأعرابي الذي بال في المسجد: «إنَّ المساجد لم تبن لهذا، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها»[1].

وفي غمرة النشاط الدعوي يجب أن نحقق هذا المقصود حتى لا ينقلب المسجد إلى ساحة لعب ولهو، فنكون ـ والعياذ بالله ـ ممن بدلوا نعمة الله كفرًا.

إن أهم ما يُبدأ به في أنشطة المسجد أن ندعو الناس للصلاة فيه، وذلك يستلزم إعداده وتهيئته لاستقبال المصلين، بتنظيفه وتطييبه والاعتناء به، وخاصة (بدورة المياه).

وكذلك الاهتمام بوجود المؤذن الراتب، والإمام الراتب، وتنظيم جدول الخطابة بما يسمح باستمرار إقامة الشعائر فيه بديمومة تدعو الناس للتعلق بذلك المسجد.

ثم يبدأ القائمون على النشاط في المسجد في إنشاء الدروس والمحاضرات العلمية، وجذب الناس إليها عن طريق الإعلان بالطرق المختلفة، ويجب أن يراعى في الخطب والدروس والمحاضرات ما سننبه عليه في الطريقة الرابعة عشرة من طرق خدمة الدين.

ومن الأنشطة التي يجب أن يُهْتَمَّ بها: وجود المتخصص في الفتوى في أوقات معلومة محددة، ليجد الناس من أهل العلم من يسألونه في شئون دينهم ودنياهم، وهذا لعمري من أهم المقاصد التي يجب أن يعتني بها الدعاة في أنشطة المساجد، ففي نظري أن هذا المسلك هو أول طريق للتمهيد لحاكمية الله ـ تبارك وتعالى ـ، فإننا حين نوفر للناس مرجعية علمية في الفتوى نكون قد اجتذبنا تبعيتهم وملكنا توجيههم، فالناس مجبولة على طاعة أهل العلم، وخاصة لو كان ذلك العالم موفور الأدب، واسع الفضل، محترم الجناب.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

والمتصوَّر أنه لو كان في كل مسجد جامع أو في كل منطقة سكنية عالم يفيد الناس في قضايا دينهم ودنياهم، ويُرشدُهم إلى مقاصد الشرع، فإنا نضمن بذلك قيادة المجتمع بسهولة.

ومن أنشطة المسجد المهمة: عقدُ مجالس تلاوة القرآن وتعليمه وتلقينُ أحكام التلاوة، للصغار والكبار، وقد أَهْمَلَت الدعوة هذا الجانب على حساب العلوم الشرعية الأخرى، حتى غَدَا تَعَلُّمُ القرآن وتعليمهُ في آخر سُلَّمِ الأولويات، بل نرى من الناس من لا يَرْفَعُ بهذا القرآن رأسًا، ويَعْتَقِدُ أن المُهْتَمَّ بحفظه وتلاوته من الدراويش الذين يرثى لحالهم، وقد رأينا بعض الشبيبة الذين تنشئوا على هذا المسلك، وقد تَضَلَّعُوا من بعض العلوم كالفقه وأصوله، والحديث والرجال، ولكن الواحد منهم لا يتقن سورة من سور: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وهذا واقع تستطيع كل عين فاحصة أن تراه، وأكثر من هذا إيلامًا بعض الدعوات التي جعلت المسجد مكانًا يتجمع فيه الشباب من أجل ترتيب لقاء رياضي أو نحو ذلك، فلا يتعلق في قلوبهم من المهابة له، والتعظيم لأمره ما يَقَرُّ في القلب ويثبت في الاعتقاد، بل يرتبط في ذهن مثل أولئك أن المساجد لم تُبْنَ إلا لهذا الغرض، فَأَخْسِرْ بها من صفقة أن تكون مساجدنا مُلْتَقى للاَّهين والعابثين.

ومن الأنشطة الجديرة بالاهتمام في المسجد: تعليقُ مَجَلَّة حائط[1] تحوي مقالات تعالج القضايا المتفرقة التي تظهر في المجتمع، ويراعى ألا تعلق هذه المجلة بحيث تكون في مواجهة المصلين، بل يجب أن تعلق من وراء ظهورهم حتى لا تلهيهم في صلاتهم.

---

(١) ومن أفضل المجلات التي يُستعان بها في ذلك: سلسلة مجلات «اللآلئ الحسان من روائع الكلم والبيان» لعبد العزيز المسند ـ حفظه الله ـ وكذا مجلة (تبصرة) من إصدار دار القاسم، وإن تعذر الحصول عليها، فمن الممكن عمل المجلات ذات المقالات المكتوبة بخط اليد، وإشراك الشبيبة فيها، ليزداد ارتباطهم بالمسجد ـ والله الموفق ـ.

ومن الأنشطة المهمة أيضًا: تكوين مكتبة صوتية تحوي خُطَبَ ودروس العلماء، والدعاة في شتى الموضوعات التي يحتاجها الناس، وكذا تكوين المكتبة المقروءة، واشتمالها على أمهات الكتب وأنواعها المختلفة لتسد حاجات المصلين، مع تسهيل أمر الاستعارة والاستفادة منها على المصلين، مع عدم التشديد في هذا الجانب عليهم، بل تشجيعهم على القراءة والاستعارة ببعض المسابقات والأبحاث، مع الحرص على فتح المكتبة في أوقات متكررة مناسبة لأوقات المترددين على المسجد.

وجدير أيضًا بالمسئولين عن أنشطة المسجد أن يوفِّروا المصاحف لتلاوة القرآن، والكتب الدينية المهمة التي يحتاجها الناس، وخاصة الكتيبات الصغيرة التي تعالج الموضوعات المُلِحَّة بحيث يَسْهُلُ على المصلين قراءتها أثناء انتظار الصلاة مثلاً، وذلك كأن تعلق في حلق في جوانب المسجد لتكون في متناولهم.

وننبه إلى ضرورة تعاون الجميع في أنشطة المسجد، وصورة ذلك أن توجد لجنة للعناية بأنشطة المسجد، حيث تقوم هذه اللجنة بتوزيع الأعمال على المستعدين للتعاون، كما تقوم بدراسة متطلبات المسجد وما يحتاجه من أنشطة تتناسب مع حجمه وحجم المترددين عليه، ثم تقوم بتنفيذ ما تستطيع القيام به.

والأصل أن أي نشاط دعوي جدير أن ينطلق من المسجد، كتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين، ورعاية الأرامل والأيتام، ومساعدة المحتاجين في المواسم كالأعياد ونحو ذلك، وعقد المجموعات العلمية للطلبة الذين ضاقت بهم النفقة عن حضور الدروس الخصوصية.

وتوسيع الأنشطة وانطلاقها من المسجد كَفِيلٌ بإعادة الروح إليه، واستقطاب قلوب الناس حوله، وغَرْسِ الروح الجماعية من خلاله، ولا يوجد مكان أكثر ملاءمة من المسجد، ليستعيد المسلمون في كل مكان ائتلافَهم وتعاونَ وحبَّ بعضهم لبعض.

الطريقة الحادية عشرة
التَّخَصُّصَاتُ النَّـادِرَة

لما علم يوسف عليه السلام من نفسه الأَهْلِيَّةَ من حكمةٍ وتأويلٍ للأحاديث، وعَلِمَ أنه احْتَلَّ من مقام العزيز مكانَةً طلب منه أن يُوَلِّيه على خزائن الأرض، وأبدى قدراته التي تؤهله للمنصب دون أن يَسْتَغِلَّ إعجاب العزيز به في توليته منصبًا لا يتقنه.

وكان من صفات يوسف التي أهلته للمنصب: الحفظ والعلم، أي: حفظ الحساب، والعلم بالألسن كما رجح الطبري ـ رحمه الله ـ.

وفي سياق التأهل للقيادة رأينا كيف أعان الله الأنبياء بالمعجزات القاهرة التي يُذْعِنُ لها ذوو العناد ممن لا يقتنعون إلا بالغلبة المادية والقوة الدنيوية، ويصعب عليهم الاستجابة لطهارة نداء الوحي.

وفي عصرنا نرى غالبية المجتمع لم يَعُدْ يبالي كثيرًا بفتاوى العلماء، ووعظ الوعاظ، لغَلَبَةِ التفكير المادي على أبنائه، واعتباره بالمؤهلات العلمية الدنيوية، وتراه جليًا في كثير من القضايا التي لا يُبَتُّ فيها إلا بفكر الفقيه المجتهد المفتي، ولكنك ترى الناس يعرضون عن قوله ويقبلون قول أي مُتَخَصِّص آخر في شئون الدنيا.

وتَنَدَّرَ بعضُ الوُعَّاظِ حينما نعى على المدخنين أنهم لا يستجيبون لأمر الله بترك الخبائث مثل: الدُّخان، والخمر، والمخدرات، ولا يلتفتون إلى فتاوى أهل العلم بحرمة هذه الأمور، ولكنه سَرْعَانَ ما يبادر إلى الإقلاع لو أفاده طبيب بشري، أو متخصص في السموم، أن تلك المتناولات من شأنها أن تُدَمِّرَ صحة الإنسان تدميرًا، أو أفاده طبيبه الخاص أنه إن لم يمتنع عن التدخين فسيصاب بالسرطان ونحو ذلك.

وما مثلتُ به يسري على كثير من شئون الحياة، حينما نرى الناس يوسِّدون الأمر إلى غير أهله، فلا يجوز أن ننساق وراء هذه الخيانة الجماعية، بل يجب أن نقاومها ونُحَارِبَهَا بأن نؤهِّلَ الدعاة لتلك المناصب التي تُوَسَّدُ إلى غير أهلها، أو نؤهل هؤلاء الناقصين ليكونوا على مستوى الأمانة التي تحمَّلوها.

وقد طغى بين الناس حب الدنيا لدرجة اعتِبار أنَّ تَعَلُّم الدين وأحكام الشرع يُدرج صاحبه في عداد المفاليس، فلزم أن يرى الناس دارسي الدين والشرع في قمة التخصصات الدنيوية ليقتنع الناس بإمكانية المعادلة التي يزعمون أنها مستحيلة الحل.

وللأستاذ الراشد كلام نفيس في كتاب له سماه (صناعة الحياة) ضَمَّنَهُ النظرية النووية في الدعوة، حيث زعم أن المجتمع أشبه ما يكون بالذرة التي تحوي النَّوَاةَ وحولها تدور الإلكْتْرُونَات، وسبب دورانها حول النواة، وعدم شرودها أن النواة قد حوت من الشحنات أكثر مما في توابعها، فهنَّ في حاجة إليها ومنجذبين إليها بحكم قانون الاحتياج الذي بَثَّهُ الله في الكون.

ويشير إلى أن الدعاة ينبغي أن يكونوا بمثابة النواة التي تدور حولها توابعها وهن أفراد المجتمع، وأنه يجب أن يَبْلُغَ الدعاةُ في العلم والتخصص والرِّيادة ما يُؤَهِّلُهُم أن ينجذب لهم المجتمع انجذاب الإلكترونات إلى النواة، وذلك بأن يكونوا صُنَّاع حياة، لا يستغني عنهم المجتمع بحال.

وضَرَب مثلاً بالفقيه المتخصص المجتهد الذي تحتاجه الأمة مَرْجعًا وثيقًا مُطَّلعًا في كل مجالات الحياة، والخطيب البليغ الذي إذا قال أَسْمَعَ، وإذا خَطَبَ أَخْضَعَ، والمهندس العبقري الذي يُبْهِرُ الناس بجمال تصميماته، والطبيب الحاذق المتخصص في مجالاته، وحتى الخطَّاط الذي يَخُطُّ الكلمات في رشاقة وَوَسَامَة مُسْبِغًا قِيَمَ الجمال، ورَوْنَقَ البهاء على اللغة العربية التي أَعْجَزَتْ في مَبْنَاها وأَعْرَبَتْ في معناها وأَدْهَشَتْ في جَمَال رَسْمِ حروفها وكلماتها.

ويرى ـ حفظه الله ـ أن الدعوة لو عَمِلَتْ في مدة دعوتها على تكوين النَّوَيات التي تستقطب أفراد المجتمع فإنها بذلك ستقود المجتمع تلقائيًا، وتسيطر على اتجاهاته ببساطة.

ولن نغالي إذا قلنا: إن الدعاة الآن هم المُسْتَقْطَبُون وليس الناس، فكثير من الدعاة تَذْهَبُ بهم الريحُ حيث مالت، وتَعْوَجُّ بهم التيارات حيث سَارَتْ، وذلك لأنهم لم يمارسوا دَوْرَهم في جَذْبِ قلوب الناس عبر التخصصات النادرة، فيما يرى المجتمع ضرورة الإذعان لها، والتسليم بها، والاعتماد عليها.

إن الطبيب المتخصص في الأفْرُع النادرة إذا أَجْرى عمليةً جراحية صعبة لمريض، وكتب الله لها النجاح، فإن ذلك الطبيب يكون بمثابة المنقذ والبطل، حتى إذا ما ألقى الطبيب نصيحة ـ ولو كانت عن أمور الدين ـ، فإن المريض سيتلقاها بصدر رحب، وقد يكون بتنفيذ سريع.

وقد رأينا أناسًا أوصاهم أطباؤهم بالصلاة لعلاج آلام المفاصل، فهرعوا سراعًا إلى طاعة الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ، وبعض شُدَاةِ الأدب واللغة إذا رأوا أُستاذهم وقُدوتَهم فيما يُحِبُّونَه غيورًا على الدين منافحًا عن الشرع، اقتدوا به تأثُّرًا، وتابعوه إعجابًا وإكبارًا.

ولن أذهب بك كل مَذْهَبٍ أيها القارئ، بل أكتفي لك بمثال أخيرٍ واضح لكل عيان، وهو كيف أننا نرى الطالب المجتهد المتفوق قدوة لزملائه وأسوة لأصدقائه، وكيف أن ذا المهارة على الدوام يقول: مَنْ مَعِي؟، وذو البَلادَةِ في تَبَعِيَّةٍ يقول: أنا مَعَ مَنْ؟.

إنها سنة الله في الخلق أن يجعل المتميزين قَادَةً، والمتفوقين سَاسَةً، ولن تُخطِئَ عيناك هذه القاعدة في البَهَائِمِ الرُّتَّعِ، كيف أنها تَنْقَادُ للفَحْلِ القَوِي، وتُذعِنُ لإرادته وتَتْبعُ طَرِيقَه.

فليكن هذا الأمر على الخاطر حينما نُوصِي أبناءَ الدعوة بشيء من علوم الدنيا، بل ينبغي أن نستقطب تلك التخصصات النادرة في المجتمع، ونحمِّلها أمانة الدين، ومسئولية الدعوة إلى الله تعالى، كما يجب أن يكون هناك تَواصُل دائم بين الدعاة وبين مشاهير الأدب، والطب، والهندسة، والعلوم كافة، لأن هؤلاء هم وَاجِهَةُ المجتمع وقادتُه في الغالب، فلزم أن تتحدث الدعوة بنفسها عن نفسها، وتمنع الوسطاء من التعريف بها.

كما ينبغي أن نتواصى مع الشباب في كل الميادين على ضرورة التفوق العلمي، وتسخير هذا التفوق في خدمة الدين، وهي غاية يجب أن يَتَنَشَّأ عليها شباب الصحوة، ويجب أن نُعَرِّفَهَا لكل شاب مسلم[1].

إن قيادة المجتمع، بل قيادة البشرية لن تكون بالكرامة والمعجزة، ولَيْسَ لُبْسُ المُرَقَّعِ وإمساك السُّبْحَةِ سببًا مُقْنعًا لتَوَلِّي زمام التوجيه، فالناس تحتاج إلى عُقُول مُدَبِّرة، وليسَ إلى أفواهٍ مُدَّعِيَةٍ، ومن خَانَهُ عَقْلُهُ وجَنَانُهُ لم يَنْفَعهُ جَمَالُهُ ولِسَانُه.

---

(١) أين هذا من حال بعض الطلبة المسلمين الذين يهملون دراستهم بحجة أنها دراسة **دنيوية**، **ولو أنهم** أحسنوا النية فيها، ووظفوها لخدمة دينهم لسموا وعلوا في الدنيا والآخرة، ومن **عجب أقوال الإمام** الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ قوله: «إنما ضيع المسلمون ثلث العلم بتضييعهم للطب، **وتركه لليهود** والنصارى»، فما أشبه كلامه بحالنا ـ وإلى الله المشتكى ـ.

الطريقة الثانية عشرة
الجِهَادُ أو العَـزْمُ عَلَيه

لم يأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ في القرآن أمرًا مؤكدًا بكلمة الحق إلا في موضعين:

الأول ـ في سورة آل عمـران، حول التقوى، فقـال عَزَّ من قائل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاته ﴾ (آل عمران: ١٠٢).

والثاني ـ في سورة الحج، حول الجهـاد، حيث قال ـ جَلَّ جلاله ـ: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِه ﴾ (الحج: ٧٨).

ولا يأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ أمرًا مؤكدًا إلا إذا كان المأمور به قد بَلَغَ رتبة سامية في معـاني الشرع التـي جاء بها الوحـي، ولذلك كانت التـقوى وصيـة الله للأولين والآخرين، كما قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (النساء: ١٣١)، وأكد على معنى الجهاد، لأنه ذِرْوَةُ سَنَامِ الإسلام، كما قال الرسول ﷺ: «رَأسُ الأمْرِ الإسلام، وعمودُهُ الصلاةُ، وذِرْوَةُ سَنَامِه الجهادُ»[١].

وقيمـةُ الجهاد لا يختلف عليها مـسلمان، فهي الرُّوح الساري في ضمـير الأمة، يُخيفُ عدوَّها، ويُرهِبُ المُتَـربِّصَ بها، والعازم على نَوَالِ خيْراتِهـا وثَرَوَاتها، وما زال الكفار، في كل زمان ومكـان، يَتَوَجَّسُون من هذه الكلمة التي لهـا أثر كآثار القنابل، بل أشد، ولعمري هي من ميراث مخصصات النبوة التي أخبر عنها النبي ﷺ حين قال: «نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْر»[٢].

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.   (٢) رواه البخاري ومسلم.

وليس الجهاد الذي نتكلم عنه ونريد توطين معانيه وقِيَمه في أعماق قلوبنا ذاك الذي يفعله بعض المتهورين من المنسوبين للصحوة، ونحن لا نُنْكِرُ غَيْرَتَهُم، ولا نَتَّهِمُ نيَّاتِهِم، ولكننا في الوقت ن فسه لسنا مضطرين أن نُحَرِّف الحق ليلائمَ فكرةً ارتآهَا نَاقِصٌ في العلم، أو قاصر في التَّجرِبَة.

إن المقصود بالجهاد - الذي مَدَحَه الشرع - ما أَحْدَثَ النِّكَايَةَ بالكفار لا ما أَلحَقَ بالمسلمين من الاستئصال والدمار، وإذ نؤكِّدُ على معاني الجهاد في زمانٍ اعْتَبَرَهُ الناس تَطَرُّفًا وإرْهَابًا وتخلُّفًا ورَجْعيَّة، فإننا في الوقت نفسه نملك الشجاعة في نقد الذات، واتهام النفس ومواجهة الضمير بالخطأ والرجوع عنه، فالحقُّ أَبْلَجُ، والرجوع إليه فَرْضٌ[1]، ونقاءُ دِيننا أغلى من أن نُفَضِّلَ عليه كِبْرِيَاءَ نَفْسٍ أو تَأْخُذنَا عنه عِزَّةٌ بالإثم.

وقد بدى لكل ذي بَصيرة كيف أن بعضًا من الجماعات التي تَبَنَّتْ خطًا جهاديًا بعيدًا عن مشاورة أهل العلم وبصيرة أهل الخبرة والنصيحة، قد اكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم كانوا يسيرون في الطريق الخطإ، وأنَّ خَطَأَهُم هذا كَبَّدَهُم الكثير من الخسائر.

وقد اكتشف أولئك - فيما بعد - أنهم لم يكونوا يخدمون الدين، بل جَرُّوا عليه وعلى أهله من الأذى والصَدِّ ما سَتَظَلُّ الصحوة تذكره أَبَدَ الدهر[2]، ونحن بحمد الله

(١) من الشائع في ألسنة العامة: الرجوع إلى الحق فضيلة، وقد سرى معنى هذا المثل في قلوب الناس، حتى غدا عقيدة اجتماعية، وأصبح الرجوع إلى الحق عند الناس متروكًا لاختيارهم ومروءتهم، بينما الشرع يقرر أن الإعراض عن الحق اتباع للهوى، واتباع الهوى يضل عن سبيل الله، قال - تبارك وتعالى -: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾** (ص: ٢٦).

(٢) إن الرسول ﷺ لم يجاهد إلا حينما أذن له الله - تبارك وتعالى -، وكانت مراحل تقنين الجهاد توحي بأن المسلمين لم يُكلَّفُوا بمرحلة إلا بعد أن استوفوا إمكانياتها، فكانت مرحلة الدفع أولى المراحل، كما قال تعالى: **﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾** (الحج: ٣٩-٤٠)، وكان هذا في بداية العهد المدني. =

لسنا بالشَّانئينَ علـى أهل الإيمان ـ كيفمـا كانوا ـ ولا الشَّامـتين بمُبْتَلىً ـ قَدْرَ مـا كان بلاؤه ـ بل يعلمُ الله سَرِيرتَنَا في موالاة أهل الإيمان والسنة، وتعظيمِ مَقَامِهِم، والدعاء لهم في السر والعلـن، وحُبٍّ الخير لهم، وإرادةِ نصـرتهم والعزم عليه، وفـعلهِ كلما سَنَحَتِ الفرصة، ولكن النُّصحَ واجب، وإن كان ثقيلاً.

ولقد كان شرط الكتـاب ألا أورد فيه إلا طريقة مُمْكِنَةَ التنفيذ سَـائغَةَ العمل، فلما تَصَفَّحْتُ الواقع وَجَـدْتُ الجهاد من دوائر الخطر التي صار يَخْشَى الحديث عنهـا الكثيرُ من الدعاة، ولعمري هذا من غربة الدين في هذا الزمان ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ.

= كما نلاحظ أن الجهـاد لم يفرض في مكة قط لانعدام القدرة، بل أمروا بكف الأذى والصـبر، كما قال ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾** (النساء: ٧٧)، ثم فرض بعد ذلك جهاد الطلب، لما استحكم الإعداد وتهيأت العدة، قال تعالى: **﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾** (البقرة: ١٩١)، ولا ينبغـي أن نمتري في أن القدرة شـرط ظاهر وواضح في كل تكاليف الشـرع عامـة، وفي التكاليف الشـاقـة التي تتطلب إعـدادًا وعدة من باب أولى، والقـدرة تتفاوت بين المكلفين، ولها ـ أي القدرة ـ أثر في تحديد مراحل الجهاد ومستوياته، وأوضح دليل على ذلك قوله ﷺ بعد صلح الحـديبية: **«الآن نغزوهم ولا يغزوننا»**، ولنختم بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا الصدد، حيث قال ـ رحـمه الله ـ في «الصارم المسلول» (٢/ ٤١٣): فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى اللذين أمر الله بهمـا في أول الأمر، وكان إذ ذاك لا يؤخذ من أحد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيـرهم جزية، وصـارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مسـتضعـف لا يمكنه نصر الله ورسوله ﷺ بيده ولا بلسانه، فينتصر بما يقـدر عليه من القلب ونحوه، وصارت آية الصغار على المعاهدين في حق كل مـؤمن قوي يقدر على نصـر الله ورسوله ﷺ بيده أو لسـانه، وبهذه الآية ونحوها كـان المسلمون يعـملون في آخر عـمر رسول الله ﷺ، وعلى عـهد خلفـائه الراشدين، وكذلك هو إلى قيام الساعة، لا تزال طائفـة من هذه الأمة قائمين على الحق، ينصرون الله ورسوله ﷺ النصر التام، فَمَن كَانَ مِنَ المؤمنين بأرض هو فيها مُسْتَضْعَفٌ أو في وقت هو فيه مستضعفٌ، فَلْيَعْمَل بآية الصبر والصَّفْح عَمَّن يُؤذي الله ورسوله ﷺ من الذين أوتوا الكتابَ والمشركين، وأمَّا أهلُ القوة فإنما يَعْمَلُون بآية قِتَال أئمَّة الكُفرِ الذين يطعَنُونَ في الدين وبآية قتالِ الذينَ أوتوا الكتاب، حتى يعطُوا الجزْيَةَ عن يَدٍ، وهم صَاغِرُون. اهـ.

وخشيت أن يتوالى الزمان ويَتَطَاوَلَ العُمُـر، ويدومَ التَّسَاكُتُ فينسى الناس فريضة من فرائض الله، وشعيـرة من شعائر الدين، فأحببت أن أؤكد أن الجهـاد بكل معانيه واجب باللسان، وباليـد، وبالمال، وبالقلب أيضًا كما قـال شيخ الإسلام ابن تيـمية، وكمـا يدل عليه حديـث النبي ﷺ حين قال: **«مَنْ مَاتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّث نَفْسَهُ بالغَزْوِ مَاتَ على شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»** [١].

والظاهر من الحـديث وجوب أحـد الأمرين: إذ المعنى: أن من غَـزَا فقـد بَرِئَت ذمَّتُه، ومن لم يَغْزُ فلا أقل من أن يُحَدِّثَ نفسه بالغزو [٢].

هذا وللجهاد أحكام وشـروط ومقتضياتٌ لا يَتَّـسِعُ المقامُ لذكرها [٣]، ولكننا نُنَبِّهُ على أن كل صورة من صور خدمة الدين داخلة في مـعنى الجهاد بالأصالة أو بالتَّبَع، ويبقى أن نَسْـتَنفِرَ هِمَّة المسلمين أن يناصـروا إخوانهم المستضـعفين في كل مكان على وجه الأرض، سواء باليدِ أو بالمالِ أو بالدعاء وشَحْذِ الهِمَمِ، وهو أَقَلُّ القليل.

---

(١) رواه مسلم وأبو داود.

(٢) وما جاء في «صـحيح مسلم» بعد روايتـه للحديث عن ابن سهم قال عـبد الله بن المبارك: «فنرى أن ذلك كان على عهد رسول الله ﷺ»، فهذه عبارة قَلِقَةٌ مُـجْمَلَةٌ، تحتمل أكثر من معنى، فقد يكون المراد: أن وجوب أحد الأمـرين كان على عهد الرسولَ ﷺ، وأن من جاء بعـده يجب عليه الغزو بالفعل، ولا يجزئه حـديث النفس، أو يكون المعنى: أن عدم الغزو وإرادته من عـلامات النفاق على عهد الرسول ﷺ، أما بعد ذلك فـليس نفاقًا بل معصية أو كبيرة، إذ الفرار مـن الزحف كبيرة كما ورد في الأحاديث، أو يكون المراد: أن وجوب أحـد الأمرين كان واجبًا على عـهد رسول الله ﷺ فقط، أما بعد عهده فليس بواجب، وهذا الأخيـر إن صح فيحمل على جهاد الطلب الذي هو فرض كفاية، وهو الذي يقوم به المسلمون حال التمكين والقـوة، أما جهاد الدفع فهو فرض عين، لا يسقط إلا بالعـجز المتـحقق لا بالعـجز المظنون المتـوهم، والجـهاد في هذا العـصر بكل أنواعـه: بالقلب، واللسان، واليـد، والمال، من نوعِ جهاد الدفع الذي هو فرض عـين لا يحل لمسلم أن يتخلف عنه إلا بالعجز المتـحقق، فالكفر قد حَلَّ بِسُوحِ الإسـلام جِهارًا، ونَعَقَ بُوْمُ الفجور أمام أبواب المسـاجد ليلاً ونهارًا، فكيف يحل القعود عن دفع الشر الداهم، ومواجهة الخطر القائم ـ والله الموفق والمعين ـ.

(٣) ونوصي بكتاب «تحصيل الزاد لتحقيق الجهاد» للشيخ/ سعيد عبد العظيم ـ حفظه الله تعالى ـ.

كما أننا ندعو الحكومات الإسلامية أن تقوم بدورها في نصرة قضايا المسلمين في كل مكان كالشيشان والبوسنة وكوسوفا والفلبين وغيرها من البلاد التي يعاني أهلها الضَّيْمَ والتشريد والتقتيل والإبادة والتعذيب.

وندعو كل كاتب وصحفي وأديب وصاحب لسان أو قَلَمٍ أنْ يُسَخِّرَ قَلَمَه ولسانَه في نُصرةِ قضايا المسلمين حيثما حَلَّ أو ارْتَحَلَ، ونَسْتَثِيرُ غَيْرَتَه في الصَّدع بكلمة الحق أينما ووقتما كان.

إنَّ ضَيْمًا يَعْلُو ولا يَشْمَئِزُّ له ضميرُ حُرٍّ أو يَسْتَنفِرُ نَخوةَ غَيورٍ حَرِيٌّ له أن يَطَأَ بمِيْسَمِهِ أُنُوفَ كل الخائرين، وليس على الجُبَنَاءِ بعد النكوص من بأس أن يُقال لهم كما قيل للأمير عبد الله آخر أمراء الأندلس حينما سقطت قرطبة، فَبَكى: ابْكِ على مُلْكٍ ضَيَّعْتَهُ كما يبكي النساء.

الطريقة الثالثة عشرة
مُحَارَبَةُ المُنْكَرَاتِ

إن شريعة الإسلام شريعة تَدْفَعُ الخَـبَثَ كالماء الطهور المتدفِّق، يَرْفَعُ الحَدَثَ ويَدْفَعُ الخَبَثَ، وهي شـريعة تأبى الوَهَنَ والتَذَيُّل، أقـامَها المولى - تبـارك وتعالى -؛ ليكون الناس جميعًا أسرى في زمام قيادتها، لا يحاول جريءٌ أنْ يَتَقَحَّمَ أسوارها شاردًا منها إلا خسر، غائرًا عليها إلا ندم.

شريعةٌ جامعةٌ قاهرة، تُبْـهِرُ العقول وتخلب الألباب، تسيطر على نوازع النفس الشـاردة، التي لا يقوى عليـهـا الإنسان نفـسه، ولكن تقـوى الشـريعة على كَـبْحِ جِمَاحِها وترويضِها.

ولأجل ذلك كان لزامًا علـى الأمة أن يكون مِنها مَنْ يقوم بأمر هـذا الشرع علمًا وتعلمًا، وتبليـغًا ونذَارةً، حتى تَرْعَوي وسـاوِسُ الزَّيْغ في النفوس عندما ترى مـهابة الشرع وجلالة أحكامه مسيطرة على ميدان الإرادات النفسية.

فالشرعُ هو الذي يُقَنِّنُ للنفس ما يجوز لها إتيانُه، وما لا يجوز، وهو الذي يضع الحدود لما يَحِـلُّ ويَحْرُم، وهو الذي يَرْسِمُ لهـا الإطار الذي لا يجوز أن تتـجاوزه في مجال المباحات والطيبات.

يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢)، وقال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«من رأى منكم منكراً فليغيِّرهُ بيده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»**[١]، وفي لفظ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«من رأى منكم منكراً فَغَيَّرَهُ بيده فقدْ برئَ، ومن لم يستطع أن يغيِّره بيده فغيره بلسانه فقد بَرِئَ، ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه فقد بَرِئَ، وذلك أضعفُ الإيمان»**.

وعن عُبادةَ بن الصَّامت رضي الله عنه قال: **«بايَعْنَا رسولَ الله ﷺ على السمع والطاعة في العُسْرِ واليُسْرِ، والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ، وعلى أَثَرَةٍ علينا، وأن لا نُنَازِعَ الأمر أهلَه إلا أنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عندكم من الله فيه بُرْهَانٌ، وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»**[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«على كلِّ مِيْسَمٍ من الإنسان صلاةٌ كل يوم»**، فقال رجل من القوم: هذا منْ أَشَدِّ ما أَنْبَأْتَنَا به، قال: **«أَمْرُكَ بالمعروف ونَهْيُكَ عن المنكر صلاةٌ، وحَمْلُكَ عن الضعيف صلاةٌ، وإنْحَاؤُكَ القَذَى عن الطريق صلاةٌ، وكل خَطوَةٍ تَخْطُوها إلى الصلاة صلاةٌ»**[٣].

وعن أبي عبد الله طارق بن شهاب البجلي الأحمسي أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم وقد وَضَعَ رِجْلَهُ في الغَرْزِ: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: **«كلمةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»**[٤].

---

(١) رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.
(٢) رواه البخاري ومسلم.
(٣) رواه ابن خزيمة في «صحيحه»، وله روايات أخرى صحيحة تشهد لهذا اللفظ.
(٤) رواه النسائي بإسناد صحيح.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بن عبد المطلب، ورَجُلٌ قَامَ إلى إمام جائرٍ فأمَرَهُ ونَهَاهُ فَقَتَلَهُ»[(١)].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم في حدود الله والواقع فيها كَمَثَلِ قوم اسْتَهَمُوا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مَرُّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نصيبنا خَرقًا ولم نُؤْذِ مَنْ فوقَنا، فإن تركوهم وما أرادوا هَلَكُوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوْا جميعًا»[(٢)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي بَعَثَهُ الله في أمة قبلي إلا كان له من أُمَّته حَوَارِيُّونَ وأَصْحَابٌ يأخذون بسنته ويَقْتَدُونَ بأمره، ثم إنها تَخْلُفُ من بعدهم خُلُوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جَاهَدَهُم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حَبَّةُ خَرْدَل»[(٣)]. والحَوَارِيُّ: هو الناصر للرجل والمختص به.

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فَزِعًا يقول: «لا إله إلا الله، وَيْلٌ للعَرَبِ من شَرٍّ قد اقْتَرَبْ، فُتِحَ اليومَ من رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مثلُ هذه»، وحَلَّقَ بين أُصْبُعَيْهِ الإِبْهَامُ والتي تَلِيهَا، فقلتُ: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[(٤)].

---

(١) رواه الترمذي والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) رواه البخاري والترمذي.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

وعن حُذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لَتَأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر أو لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عليكم عذابًا منه، ثم تَدْعُونَهُ فلا يستَجِيبُ لكم**»[1].

إنَّ حَشْدَ هذه الأحاديث بين يدي هذه الطريقة هنا من الأهمية بمكان، فقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بَدَأَتْ تَتَقَلَّصُ في بُؤْرَةِ الاهتمام الدَّعَوي لَدَى شَرِيحة مُتَعَاظِمَةٍ من المشتغلين بالشأن الدعوي، وغَدَتْ مُحَارَبَةُ المنكرات أَمْرًا نَتَحَاشَى الحديثَ عنه؛ إما تَهَرُّبًا من المسئولية ـ وهي مُحيقة بنا لا مَحَالة ـ، وإما خَوْفًا من تِكْرَارِ المآسي التي حَدَثَتْ بسبب تَهَوُّرِ بعض الشباب في ممارسة هذا الدور الحيوي في المجتمع المسلم.

وكل ذلك لا يُغَيِّرُ نَقِيرًا من حقيقة الأمر، وهي أن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أساسيات العمل الدعوي، وأن ما يُصيب الدعاةَ من جَرَّائه ـ بشرط الالتزام بالضوابط الشرعية ـ سُنَّةٌ قَدَرِيَّة حَالَّةٌ بكل من تَصَدَّرَ للصَّدْعِ بالحق في كل زمان ومكان، وأن القيام بهذا الفرض الكفائي مُتَعَيِّنٌ على الحَرَكَات الإسلامية بالأصالة ـ باعتبارها هي التي تُمَثِّل الإسلام في هذا الزمان ـ وعلى الدعاة والعلماء وطلبة العلم بالتَّبَع ـ باعتبارهم يمثلون شريحةَ المَرْجِعِيَّةَ العلمية والعملية للمجتمع ـ.

وما من شك أن ممارسات بعض الجماعات الإسلامية لهذه الفريضة ـ أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ قد أَوْرَثَتْ إِسْقَاطًا سَيِّئًا لدى مُعْظَمِ شرائح المجتمع، حيث لم يَتَوَاكَبْ مع القيام بهذا الفرض دَوْرٌ إعْلامي أو خطابٌ دَعَوِيٌ مُكَثَّفٌ يَشْرَحُ وِجْهَةَ نَظَرِ الدعاة فيما يقومون به من إنكار للمنكرات، مع تحرُّكِ آلة الإعلام العلمانية

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، وحسنه الشيخ الألباني ـ رحمه الله تعالى ـ.

في تشويه صورة المحتسبينَ وتَلْطِيخِ سمعتهم بالتهم الباطلة والإشاعات الكاذبة والتمثيليات السخيفة، فصارت تحركات الدعوة الإسلامية في هذا المجال عقيمةَ النتائج إن لم تكن قد حققت أضرارًا بالغة في البناء الدعوي.

ونحن لن نَمْلأ صفحات هذا الكتاب بأحكام فِقْهِ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكتابُنا بصدد تفعيل الدور الحركي للمنتمين للصحوة، وليس بالدرجة الأولى كتابًا يشرح مفردات التنظير العلمي للمسائل الفقهية، ومثل هذه الأحكام أحيل القارئَ أنْ يَتَلَقَّاها على وجه التفصيل والتدقيق في مباحث خاصة لشيوخ الصحوة ودعاتها[1]، مُسْتَبْصِرًا بفتاواهم واستشارتهم، نائيًا عن الإجمال والإطلاق والتعميم في مثل هذه المباحث التي هي أَلْصَقُ بالوظيفة القضائية عنها بالوظيفة الإفتائية.

واهتمامنا سينصبُّ في تناول أساليب تطبيق هذا الدور، مع مدارسة الآليات النافعة للحصول على نتائج حاسمة من هذه الطريقة الدعوية، مع التَّعَرُّضِ لِمَامًا لبعض الأحكام والقواعد العامة التي يجب **أن تَحْكُمَ مُمَارسةَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**.

وبَادِئَ ذي بَدْءٍ أَلْفِتُ نَظَرَ القارئ الكريم أن بَيْنَ الفِكْرَةِ وتطبيقها بَونًا شاسعًا ومساحةً تَتَّسِعُ لكثير من التعديلات حتى يَتَسَنَّى للفكرة أن تَخْرُجَ إلى حَيِّزِ الخارج بِأَكْثَرَ عائدٍ وأَقَلِّ ضَرَرٍ.

والذي يَتَوَهَّمُ أنَّ أيَّ فرض أو تكليف شرعي يجب أن يُطَبَّقَ بحذافيره وأهدابه دون مراعاة لشروط التكليف من استطاعةٍ وتَحَقُّقِ وجوبٍ ودخولِ وقتٍ وحصولِ

---

(١) أنصح بكتاب: «السياسة الشرعية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، و«الأحكام السلطانية» لأبي يعلى في بيان أحكام المحتسب والقاضي، و«الطرق الحكمية» لابن القيم. ومن المعاصرين رسالة مختصرة نافعة باسم «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للشيخ/ ياسر برهامي - حفظه الله تعالى -.

مَصلحةٍ وانْدِفَاعِ مَفسدةٍ فقد سَلَكَ دَرْبًا غيرَ مَرْضِيٍّ في تحقيق طاعة الله - تبارك وتعالى - وإقامة الشرع.

إن الرسول ﷺ كان في وُسْعِهِ أن يُطيحَ بالأصنام الثلاثمائة التي كانت مُعلَّقَةً حولَ الكعبة، ولكنه ﷺ قد انتظرَ أكثرَ من عشرين سنة يُحَطِّمُ أصنامَ الهوى في القلوب حتى إذا ما جاء الميعاد وحطم أصنامَ الكعبةِ قَرَّتِ العيونُ ورَضِيَتِ النُّفُوسُ ولم تَشْمَئِزَّ.

وفي ذلك بَوَّبَ البخاري - رحمه الله - في الصحيح، فقال: باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يَقْصُرَ فَهْمُ بعضِ الناس عنه فَيَقَعُوا في أَشَدَّ منه، وأورد حديث عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يا عائشةُ، لولا قومُكِ حديثٌ عهدهم** - قال ابن الزبير: بِكُفْرٍ - **لنَقَضْتُ الكعبةَ فجعلتُ لها بابين: باب يدخل الناس وباب يخرجون**». قال ابن حجر في (الفتح - ١/ ٢٧١): «ويُستفاد منه تركُ المصلحة لأَمْنِ الوقوع في المفسدة، ومنه تركُ إنكارِ المنكر خشيةَ الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم ولو كان مفضولاً ما لم يكن محرمًا».

وهذا الذي ذكرناه أصل يجب أن نستحضره في موضوعنا مع اعتبار الثوابت التي تأخذ حكمًا أكثرَ أَصَالَةً ورُسُوخًا، والمعنى أن الأصلَ عدمُ تغيير المنكر إذا خيف الوقوع في ما هو أنكر، إلا إذا كان المنكر هو الشرك نفسه فيجب الإنكار بأي حال؛ لأنه ليس بعد الشرك والكفر منكر أعظم منه، وهذا هو المقصود بالثوابت.

ومما ينبغي ملاحظته أن دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يَنْتَقِلَ من الأداء الفردي إلى الحشد الجماعي الهادر، كما يجب أن تتكثف الجهود الدعوية لتعميم قضية النهي عن المنكر خاصة، وتطعيم الخطاب الدعوي بعناوين بارزة حول هذا الصدد بحيث يكون عاملاً في توجيه دَفَّة اهتمام الناس إلى هذه الفريضة الغائبة.

لم يَعُدْ من المجدي أن يمارس الدعاة النهي عن المنكر بعيدًا عن تأييد كل قطاع الصحوة بل المجتمع، أو بعيدًا عن التعاطف الإيجابي الذي يشعر به الناهي عن المنكر حين يُحِسُّ أنه يُنَافِحُ عن كيانِ مجتمعِهِ الذي يَقِفُ من ورائِهِ مؤيِّدًا وناصرًا.

وليس التأييد والنصرة صُورَةً في ذِهْنِ أَحَدٍ منا يجب أن تتحقق، فليس التأييد مثلاً أن تتمدح وسائل الإعلام جهود الدعاة في محاربة المنكرات، أو أن ينتظر الدعاة من علماء السلطة فتوى تؤيد أعمالهم وتحركاتهم، أو أن يقوم المسلمون بمظاهرات هادرة مُعْلِنَةً تأييدها للآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

ولكن المقصود بالتأييد أن يصل الدعاة إلى مستوى يَقْتَنِعُ الناس فيه بوَجَاهَةِ ما يفعلونه وأن تصرفاتهم موزونة وتُمَثِّلُ مصالحَ الأمةِ ومَنَافِعَ المجتمع، وأنْ تَتَجَاوَبَ الشرائحُ المهمة في المجتمع، كالمثقفين والطلبة والعلماء ورموز المجتمع مع تحركات الدعاة في هذه الصدد.

وكما ذكرت: فإنه ليس من الضروري أن يكون هذا التجاوب صريحًا واضحًا، فقد يَسْكُتُ المجتمع ويسود الصمتُ قطاعَ المعترضين فَيَفْهَمُ الحصيف أن تصرفات الدعاة لم يستطع أحد أن يتناولها بقدح؛ لأنه إما أن يكون مقتنعًا بها أو خائفًا من مواجهة الناس بإنكارها فيخسر هو تعاطفهم وجماهيريته بينهم.

وسأضرب مثالاً واقعيًا حول إنكار المنكرات العامة العظيمة في المجتمع يثبت هذا المعنى: ففي بداية التسعينيات من القرن الميلادي الحالي انْبَرَى مجموعة من الدعاة وأصحابُ الغَيْرَةِ على حرمات الله - تبارك وتعالى - من أعيان المجتمع[١]، لمحاربة حملة الإلحاد والعلمنة والإباحية التي اسْتَشْرَتْ في المجتمع المصري، فَأَعْيَاهُم البحث

---

(١) على رأسهم الشيخ يوسف البدري والمستشار محمد صميدة الذي قام برفع الدعوى ضد كثير من تلك المنكرات في المحاكم.

عن وسيلة يُناهضون بها شياطين الإنس المجنَّدين لتنفيذ مآرب قوى الشر، فوجدوا أن أَقْوَمَ سبيل لضَمَانِ تأييدِ الرأي العام أن تواجه تلك المنكرات عبر القنوات المعتبرة في الدولة، فقرروا مخاصمة أصحاب تلك المنكرات إلى المحاكم وإِعْمَالِ كُلِّ نصوصِ القانون الوضعي التي يحتمل مَنْطُوقُهَا ومَفْهُومُهَا تجريْمَ تلك المنكرات.

وبدأ أولئك الغيورون في رفع القضايا على رموز الانحلال والعلمنة المجاهرين بفجورهم وكفرهم، وتَمَّ رَفْعُ قضايا على بعض الممثلين والممثلات الذين اعتادوا تقديم مَشَاهِدَ مُخلَّة في أفلامهم وعلى صور الإعلانات المعلقة في الشوارع والطرقات، وخُوْصِمَ بعضُ رموزِ العَلْمَنَةِ في الجامعات المصرية الذين ما فَتِئُوا يُصَرِّحُونَ بضرورة هَدْمِ المَوْرُوثَات الدينية التي يقوم عليها الأمن الاجتماعي، مثل إنكار العقائد المسلمة أو بعض النصوص القطعية.

ومن أروع الأمثلة التي طَرِبَ لها قَلْبُ كلِّ غَيُورٍ وشَفَى اللهُ به صدورَ قومٍ مؤمنين: القضيةُ التي تم على أساسها طلب التفريق بين أستاذ جامعي وزوجته لإتيانه في كتاباته التي يُدَرِّسُها أقوالاً نَصَّ العلماءُ في كل المذاهب على عَدِّهَا رِدَّةً يُسْتَتَاب قَائِلُهَا وإلا قُتِل.

وقد حكمت المحكمة الابتدائية برفض الدعوى لرفعها من غير ذي صفة، فلم يَيْأَسِ المجاهدون وأعادوا رفعَها في الاستئناف فحكمت لصالحهم، وأمرت بالتفريق بين الأستاذ الجامعي وزوجته (وهي أستاذة جامعية أيضًا)، فعانَدَ أولئك الخصوم وأعادوا رفع القضية في محكمة النقض التي تتسم أحكامها بمَهَابَةٍ وتُوصف بأنها نهائية لا يجوز معارَضَتُها، وكانت القاصمة حين حكمت محكمة النقض بتأييد حكم الاستئناف والأمر بالتفريق بين الزوجين، ولكن الزوجين كانا قد أَعَدَّا عُدَّتَهُما وسافرا إلى بلد أوروبي لاجئين لائذين بديار المشركين مستجيرين يبتغون عندهم العزة، فَأَخْسِرْ بها مِن سَفْرَةٍ يبيع فيها المرءُ دينَه بِعَرَضٍ من الدنيا قليل.

وعند متابعتي للصحف والمجلات وتحليل الأخبار التي تناولت الموضوع وجدتُ ما يلي:

ـ كانت الجرائد الرسمية تتناول القضية بشيء من الحِيَاد، وتَرْغَبُ في عدم إظهار التعاطف مع ذلك العلماني ـ مع أن تلك الجرائد علمانية في نحلتها ـ وذلك خوفًا من الوقوع تحت طائلة الاعتراض على أحكام القضاء أو التأثير في مجريات القضية.

ـ معظمُ الجرائد التي هَاجَمَتْ كتيبة المجاهدين كانت محدودةَ التأثير وكانت معروفة بانتحالها لكل ما يناقض الدين، فلم يستغرب الناس قيامَها بتلك الحملة، ولكنها (الحملة) مع ذلك لم تَدُمْ طويلاً، إذْ مَا أَنْ صَدَرَ حُكْمُ النَّقْضِ حتى لاذَتْ تلك الصحف بالصمت المطبق.

ـ سكوت كثير من كبار الكتاب والصحفيين عن التعليق على هذه القضية؛ لأنهم خافوا أن يخسروا بين الناس صفة انتمائهم للدين، إذْ ظهر في هذه القضية أن ذلك الأستاذ الجامعي كان ينافح عن كُفْرٍ بواح، وأن المؤيدين له كانوا يدافعون عن حق كل إنسان في الكفر بما شاء وكيف شاء.

ـ صرَّح كثيرٌ من الكتاب العلمانيين بِقَلَقِهِم من هذا الحكم القضائي (الذي وصفوه بأنه أخطر حكم في تاريخ القضاء المصري)، وأن منهم من صار يحتاط في كلامهم وكتاباتهم خشية أن ينالهم حكم من هذه الأحكام.

وبغضِّ النظر عن الغبار الذي أثاره العلمانيون على هذه القضيةِ، فإن الحملة لاشك قد آتتْ أُكُلَهَا وحَصَلَ المقصودُ بإنهاء المنكر وتهديد أصحاب المنكرات بلحوق الضرر بهم إذا ما حاولوا تكرار ذلك المنكر.

من هذا المثال أيها القارئ: لعلك لاحظتَ مَظْهَرًا وَدِدْتُ أن أؤكد عليه، وهو أن إنكار المنكر يحتاج في هذا الزمان إلى الكيد لأعداء الله بنفس ما يكيدون للإسلام،

قد قال النبي ﷺ: «الحرب خُدْعَة»[١]، وتلاحظ أيضًا أن وسيلة الإنكار لا يجوز أن تنحصر في الإنكار باليد أو بتكسير رأس أصحاب المنكرات، فأيُّ نَصْرٍ أَعْظَمُ من أن ولَّى ذلك العلماني هاربًا من البلاد ولم يُعَقِّب.

وقد رأينا كيف أن القضاءَ العلماني الوضعي أَمْكَنَ إخضاعه لمصلحة الإسلام والمسلمين، فكيف لو تَخَاصَمْنَا إلى ضمير المجتمع المسلم النقي، وما استقر فيه من تعاليم الدين؟ إننا لن نَعْدَمَ بين المجتمعات المسلمة حسًا إيمانيًا عاليًا يؤيد كل حملة نقودها ضد المنكرات، ولكننا يجب أن نفكر مَلِيًا في الطريقة التي نَسْتَفِزُّ بها هذا الحس الإيماني ليعبر عن غَضْبَته.

لقد بعث بعض الشباب الغيورين برسالة إلى إحدى الصحف يستنهض فيها غَيْرَةَ علماء الدين للذب عن النبي ﷺ، حيث دأب أستاذ الأدب في الجامعة الأمريكية على تناول النبي ﷺ بالقدح في كتابه الذي يدرسه للطلبة.

فثار المجتمع مستنكرًا مطالبًا بوقف هذه الحملة الكفرية المسعورة ضد رموز الأمة، وخطب كثير من خطباء مساجد الأوقاف ذامين الموقف السلبي تجاه هذا الشأن الجَلَل.

وآخرُ شاهد فيلمًا أجنبيًا يقدح في الذات الإلهية، فبعث إلى إحدى الصحف واسعة الانتشار يستنكر سكوتَ الرَّقابة على تمرير هذا الفيلم، فتأمل كيف أن عامة الناس على استعداد للتعبير عن غَضْبَتِهِم إزاء التجاوزات التي تَمَسُّ صُلْبَ المسلَّمات التي نشأوا عليها.

إن هذا الرجل لم ينكر على نفسه أو على مجتمعه وجودَ دور عرض تعرض الأفلام الأجنبية التي لابد وأن تحوي مشاهد لا يُقِرُّها الشرعُ المطهَّر، وذلك

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

لجهله وعمايته وغفلته عن هذه الأحكام، ولكنه فيما يعلم ويعتقد كان إيجابيًا لدرجة بعيدة المدى.

إنَّ فَنَّ إثارَةِ الرأي العام مسلك يستخدمه أعداؤنا بالباطل، فلماذا لا نستخدمه بالحق؟ وإذا كانوا يُدَغْدِغُونَ عواطفَ الناس ببعض المسلسلات والتمثيليات والأفلام مستغلين انكباب الناس على الشهوات، فلماذا لا نستغل نوازع الإيمان والخير في قلوب المجتمع لتكون حربًا على أعدائهم الحقيقيين؟

هذا هو لُبُّ الموضوع في بحثنا، إننا يجب أن نفكر كيف ننكر المنكر قبل أن نقرر أن ننكره، ويجب أن نخطط لذلك وبِأَنَاةٍ وإتقان قبل أن نبادر إلى اتخاذ خطوات عقيمة نخسر من ورائها نقاطًا كثيرة من سمعة الدعوة ووجاهتها بين الناس.

ولابد أن يكون في الحسبان أن الدعاة يعملون في مجتمع مُلَوَّثٍ بعقائد فاسدة وأفكار منحرفة، وأن أفراد هذا المجتمع مَجْرُوفُونَ بشهواتهم وغرائزهم إلى اتجاهات لا تلتقي مع ما يدعو إليه الدعاة في الغالب، بل قد تَصْطَدِمُ تلك الشهوات مع الدعوة في كثير من الأحوال.

ولابد أن يكون مُسْتَحْضَرًا أيضًا أن هذا الفساد الذي نُعَالِجُ بَتْرَهُ قد بَدَأَ يَنْهَشُ في نسيج الأمة منذ قرنين من الزمان، وأنه سَرَى حتى بَلَغَ النُّخاع، لا جَرَمَ يحتاج إلى وقت مديد لاستئصاله واستخراج مادته.

وعليه: فإن الأناة في مواجهة الباطل والتريث في الإعْداد له مسلكٌ رشيد لنصرة الحق، وليسَ جُبْنًا أو خُنُوعًا أو ذِلَّةً.

أما المنكرات الصغيرة المتكررة التي نواجهها كل يوم فتحتاج أيضًا إلى فلسفة جديدة - إن جاز التعبير - في التغيير وفي آلياته.

فالواجب على كل مسلم أن يتفانى - قبل كل شيء - في محاربة المنكر أينما كان، وبعد ذلك فإنه يجب أن يتخذ العُدَّةَ والعتاد لمجاهدة الباطل، وقد ذم الله - تبارك وتعالى - طائفة متخاذلة عن نصرة الحق، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ (التوبة: ٤٦)، وأمر طائفة أخرى إن هي أرادت نصرة الحق أن تنصره بالعدة اللازمة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

والإعداد لإنكار المنكر دليل على جِدِّيَة المحتسب في قيامه بهذا الفرض، وعلى رغبته في تحقيق ثمرة مرجوة من الإنكار، وليس الإنكار لمجرد الإنكار.

▪ فمن العدة اللازمة: العِلْمُ الواجبُ توافرُه للإنكار: فقد يكون مرتكبُ المنكر جَاهِلاً يحتاج إلى التعليم والتفهيم، وقد يواجه المحتسب أقوامًا يجادلونه في كون المنكر مُخْتَلَفًا فيه فلا يسوغ الإنكار فيما هو بصدده مثلاً، وهذا كله يتطلب عدة علمية تؤهل المحتسب للقيام بواجبه.

ومن العدة التي يجب أن يتخذها المحتسب اختيار الوقت المناسب للإنكار، وتقدير المصلحة والمفسدة المترتبة، إلا في المواقف التي تتطلب إعلامًا وبيانًا وقت الحاجة فلا يجوز التأخير حتى لو لم تترتب مصلحة ظاهرة من الإنكار، فالمصلحة المتحققة قيام الحجة في حق الجاهلين.

▪ ومن العدة التي يجب أن يتخذها المحتسب أيضًا: قلب عامر باليقين والثقة بالله - تبارك وتعالى -، ولسانٌ رطبٌ بذكره - عَزَّ وجَلَّ -، واستخدام الكلمات اللينة عند بداية الإنكار[1]، والرفق بصاحب المنكر وإنزال الناس منازلهم وإقالة ذوي الهيئات عثراتهم.

(١) وقد يتطلب الأمر تغليظًا في الكلام وخشونة في اللفظ، وعند ترتب المصلحة على ذلك فلا مانع من القيام به.

■ وأهم ما يجب أن يراعيَه المحتسب: أن يَكْسِبَ تعاطف الناس من حوله قبل إنكار المنكر، وذلك باستنفار المشاعر الإيمانية في الحال، وإظهار المنكر في أَشْنَعِ صورة، بحيث يحصل الإجماع من الموجودين على استقباحه واستهجانه، ثم يبدأ بعد ذلك في بيان عقوبة الله ـ تبارك وتعالى ـ والتخويف من سطوته وانتقامه، ولا ينبغي أن يُقَصِّرَ في بيان البديل الذي جعله الشرع لهذا المنكر، ورسم صورة واضحة لما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم والمؤمن من توقير حرمات الله وتعظيم شعائره.

وسأقترح هنا حوارًا في كيفية تغيير المنكر بإمكان كل مسلم أن يقيس عليه حالته التي يتعرض لها:

يركب محمد سيارةَ الأجرة الجماعية (ميكروباص).

محمد: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الركاب: البعضُ يردُّ السلام والآخر مُنْشَغِلٌ في سَمَاعِ الأغنية الصاخبة الشهيرة التي أدار سائق السيارة التسجيل بها.

محمد: لو سمحتَ وتكرمتَ ـ يا أخي الكريم ـ، أرجو أن تغلق هذه الأغنية، جزاك الله خيرًا.

الركاب والسائق: في وُجُومٍ.

سائق (وقد يكون أي راكب): حاضر ـ يا عم الشيخ ـ وتمضي السيارة ولا يغلق التسجيل.

محمد في إلحاح: لو تكرمت ـ يا أخي ـ أغلق هذا التسجيل، أما تعرف أن سماع الأغاني والموسيقى حرام.

السائق (يلتفت مذهولاً)[١]: ماذا تقول؟! لماذا تعقّد الأمور يا عم الشيخ؟! أنا لم أزْنِ أو أشربِ الخمر، فماذا في سماع أغنية بريئة؟!

محمد: أنا أعرف - يا أخي - أنك لم تزن ولم تشرب الخمر، وأنك تصلي وتصوم، ولكن نبينا ﷺ هو الذي أخبر بهذا، حيث قال: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف**»[٢]، وقد أجمعت المذاهب الأربعة على تحريم الأغاني والموسيقى.

أحد الركاب: لا تبالغ يا عم الشيخ، فقد رأيت الشيخ فلان الفلاني (مشهور طبعًا) يسمع أغاني السِّت.

محمد: يا أخي إذا سألك الله يوم القيامة: سمعت حديث رسولي في تحريم الغناء ولم تنته، هل ستقول: لأنني رأيت الشيخ فلان الفلاني يسمع الأغاني؟! أيها الأخوة إن سماع الأغاني داء يجب أن نَتَخَلَّص منه، إنه ينبت النفاق في القلب كما قال الصحابي عبد الله بن مسعود، ثم إنه مِزْمَارُ الشيطان وقرآنُه، وما سكَنَ الغنَاءُ في قَلْبِ امرئٍ إلا وطَرَدَ منه كلامَ الرحمن، فمن منا يسمع إلى القرآن ويستمتع به كما يستمتع بسماع الأغاني؟ إن القرآن هو غذاء الروح وليست الموسيقى والأغاني.

أحد الركاب: ساعةٌ لقلبكَ وساعةٌ لربك يا عم الشيخ!

محمد: لا يا أخي، هذه العبارة ليست صحيحة، فأنتَ كُلُّكَ لله، أنت مخلوق لله وليس لنفسك، وربك الذي تعبده وتصلي له وتحبه يقول لك: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي

---

(١) في بعض الأحايين يوجد بعض السائقين الذين لا خلاق لهم في دين الله - تبارك وتعالى -، وقد يوقف السيارة ويقول: ليس عندي استعداد لإغلاق هذه الأغنية، ابحث لك عن سيارة أخرى، وقد يتطاول البعض ويستخدم البذيء من الألفاظ، ومثل هؤلاء لا طائل من الإنكار عليهم، فهؤلاء لن ترهبهم إلا دِرَّةُ عمر وعصاه، ولكن ينبغي أن يبذل له النصح ثم يترك له السيارة بالمنكر الذي فيها ولسان حاله يقول: ﴿**مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (الأعراف: ١٦٤).

(٢) رواه البخاري.

وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، إن حياتَكَ كلَّها لله ثم إننا لا نلتزم بهذه العبارة، فهل نحن نعطي نصف أوقاتنا لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ؟ إننا نبخل عليه حتى بالصلاة أن نصليها في أوقاتها.

أحد الركاب: كلام عم الشيخ صحيح، أَغْلِقْ هذه الأغنية وأسمعنا القرآن يا (أسطا).

راكب آخر: انتظر، لا تغلق التسجيل، لماذا تريد أن تفرض رأيك على الجميع يا عم الشيخ، أنتم هكذا أيها المتزَمِّتون، مُتَسَلِّطون وديكتاتوريون!!

محمد (وهو يبتسم): يا أخي، أنا لم أَفْرِضْ رأيي، أنا قلت للسائق لو سمحت وتكرمت، ولو رفض في النهاية أن يغلق التسجيل كنت سأضطر للنزول من السيارة، ثم إن النصيحة بمقتضى شرع الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ليست فرضًا للرأي، بل مصلحة عامة لكل الناس.

السائق (متحديًا): طيب عندك شريط قرآن يا عم الشيخ؟

محمد (يمد يده مسرعًا في جيب قميصه): نعم، ولكن افرض أنه ليس معي شريط، فيمكنك أن تفتح إذاعة القرآن الكريم، وإلا فإغلاق التسجيل غنيمة على كل حال.

أحد الركاب (مقاطعًا): صحيح يا عم الشيخ، كنت ستنزل لو لم يغلق السائق التسجيل؟!

محمد (مبتسمًا وفي ثقة): نعم، فإن المنكر إذا لم أستطع أن أُزِيلَهُ يجبُ أن أزول عنه، فقد تتعرض السيارة لحادث اصطدام ـ لا سمح الله ـ فنموت جميعًا ونحن متلبسون بهذه المعصية، ولستُ مستعدًا أن ألقى الله وأنا عاصٍ.

الراكب يبتلع لعابه في وجل: حادث! ولماذا تقول ذلك؟ لماذا هذا التشاؤم؟

محمـد (بِنَبْرَةِ حُزْنٍ عميـقة): يا أخي، إن تذكر الموت ليس تشاؤمًا، فـقد قال ﷺ: «**أَكْثِروا من ذِكْرِ هَادم اللّذات**»[1]، وهو الموت، كما أن الذي ينسى الموت ويتناساه يصاب بالـغفلة، وتَكْثُرُ منه المعاصي، ثم إن الموتَ حقٌّ كـما نعلم، ما منه مَفَرٌّ ومَهْرَبٌ.

تمر السـيارة على حـادث اصطدام يموت فـيه السـائق ويرى الركـاب ذلك الميت والناس يخرجونه من السيارة المحطمة.

محـمد (منتهـزًا الفرصة): هل رأيتم؟ ترى مـاذا كان يسمع هذا السـائق قبل أن يموت؟ لو كان يسمع القـرآن فهنيئًا له بهذه الموتة، وإن كـان يسمع الغناء ويُدَنْدِنُ مع الموسيقى فقد مات على معصية وختم الله له بِشَرٍ، ونسأل الله السلامة.

في هدوء يمد السـائق يده إلى التسـجيل ويفـتح شريط القـرآن، فينطلـق صوت الشيخ محمود خليل الحصـري ـ رحمه الله ـ تاليـًا قول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ (الأنعام: ١٥).

انتهت القصة

إننا نمر يوميًا بالعديد من هذه المواقف التي تحتاج إلى حنكة وبدهية في التصرف وتقـدير الموقف وإعطائه مـا يناسبـه من الكلام، وقد ضـربت المثل بهـذه القصـة؛ لأفـترض أن إنكار المنكر قـد يكون بالأمـر بالمعروف، وقـد يكون بالكتـيب الأنيق وبالهدية المرقِّقَة للقلوب.

إن الداعية حاذقٌ في التـصرف، يَدْرُسُ شخصيةَ مَن أمامـه ويعاملها بما أُوتي من فِراسـة وتوسم، ليس بالغَضوبِ الأَلَدِّ الخَـصِم، بل شِعَارُه اللين، وقد أمـر الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ موسى أن ينكر على فرعون باللين، فقال تعالى: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ**

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وهو حديث حسن.

أوْ يَخْشَى﴾ (طه:٤٤)، وقال الرسول ﷺ: «**ما كان الرفْقُ في شيء إلا زَانَهُ، وما نُزِعَ من شيء إلا شَانَه**»[1].

إن الغلظة لا تناسب إلا أهلها ومن يستحقها من صناديد الكفر والنفاق، بل إن القرآن لم يأمر بالغلظة في موضع إلا مع الكفار والمنافقين حال مجاهدتهم ومحاربتهم، قال تعالى: ﴿**قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً**﴾ (التوبة:١٢٣)، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ (التحريم:٩) . . ومع ذلك فقد أمر الله تعالى بعدم انتهاج هذه الغلظة في مُطَّرِدِ الأحوال حتى مع الكفار، قال تعالى: ﴿**وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ (آل عمران:١٥٩).

وبعد أيها الداعية الأريب . . إن النهي عن المنكر يأخذ وسائل أخرى كثيرة، مثل إرسال الخطابات، وإهداء الأشرطة الصوتية التي تتناول المنكر المراد تغييره، أو زيارة وُدِّيَة يتم مناصحة صاحب المنكر فيها برفق ولين، أو مكالمة هاتفية يتم تفهيمه فيها ضرورة الانتهاء عن ذلك المنكر، أو حث من يحترمه صاحب المنكر على القيام بدور في نصيحته وزجره.

---

(١) رواه ابن حبان في «صحيحه»، وإسناده صحيح.

الطريقة الرابعة عشرة

مُخاطَبَةُ الجَمَاهير

إنَّ الحركةَ الإسلامية قد اتُّهِمَت بأنها نُخْبَوية، تَنْتَقي الصَّفْوَةَ لتُوَجِّه إليهم الخطاب الديني، بينما لا تبذل مجهودًا يُذكرُ في إيصال أُنْمُوذَجِ الحق ناصعًا إلى العامة.

ولو استثنينا جماعة التبليغ من هذا الاتهام فإنه سيكون ذا وجاهة وإصابة، بَيْدَ أن مفهوم الخطاب الجماهيري أوسع في الدَّلالة مـن مجرد دعوة الطبقات الدنيا من الناس أو ارتياد المقـاهي والبيـوتات على نحو مـا تصنع جمـاعة التبليغ (مـشكورةً في ذلك ولاريب)، إن الصدع بالحق يـقتضي أن يتـوجه الخطاب الإلهي إلى الكافَّـة أينما حَلَّ الداعية أو ارْتَحَل، بلسان الحال أو المقال.

وقد ذَكَرَتْ لنا كتب السيرة نشاطَ النبي ﷺ عندما أُمر بالجهر بالدعوة في قوله تعالى: ﴿ فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)، فَنَبَذَ السرية وأَقْبَلَ على آحاد الناس في منتدياتهم وأسواقهم وبيوتاتهم يجهر بالحق بسيطًا قويًا عاليًا.

إنَّ سِمَةَ الخطاب الجماهيري أنه سهلٌ ميسورٌ مفهوم كمثل نذارة الرسل لأقوامهم، ما فتئوا يكررون لهم: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (هود: ٥٠).

وينبغي كذلك أن يكون خطاب الدعوة الإسلامية بكل فصائلها: سهلاً مختصرًا، فإنه أدعى للحفظ والاستقرار في الوجدان، ولقد استطاعت بعض الفلسفات الأرضية والأفكار المنحرفة أن تَطْرَحَ شعارات مختصرة تعـبر عن أيديوليجياتها وانتماءاتها، وأن تُجَمِّعَ الناس حـولَ هذه الشعارات، فَـغَدَتْ كأنها حِكْرٌ عـليها ووقف من أوقافـها، فتأمل كيف أصـبح شعار (الحرية والعدل والمساواة) من شعارات الثـورة الفرنسية التي عُرِفت بها منذ قامت حتى زعم الزاعمون أنها أم الثـورات التحررية وزعيمة الحركات

التي نادت بالعدل والمساواة؟! وما نحن بصدده هنا: هو كيفية توسيع مستوى الخطاب الجماهيري لدى الخطاب الدعوي بعامة، بحيث تستطيع الدعوات أن تحتل أكبر مساحة ممكنة من المواقع.

فالملاحَظُ أنَّ مُفْرَدَاتِ الخطاب الدعوي لدى بعض الحركات الإسلامية تنحو جانبًا تَخَصُّصيًا زائدًا عن المطلوب، حتى في صعيد الخطاب الجماهيري الذي يتطلب نزولاً في المستوى إلى أفهام العامة، حتى لا تَنْشأَ حواجزُ نفسية مع مرور الزمن بين الجماهير وبين تلك الحركات الإسلامية.

ورسول الله ﷺ قد عَلَّمَ الدعاة هذا الأصل ونبَّههم إلى ضرورة الحَذَرِ عند التحدث مع العامة[1]، ولعمري إن الحديث إلى عامة الناس لا يقل أهمية عن ضرورة الاستعداد، وانتقاء الألفاظ عند الحديث إلى المتخصصين والمتبحرين.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**خَاطِبُوا الناسَ بما يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟**»[2]، وقال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: «**مَا أنتَ مُحَدِّثًا قومًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُم إلا كانَ لِبَعْضِهِم فِتْنَةً**»[3].

---

(١) روى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاذٌ رَدِيْفُهُ على الرَّحْلِ قال: «**يا معاذ بن جبل**»، قال: لَبَّيْكَ يا رسولَ الله وسَعْدَيْكَ، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يارسول الله وسعديك (ثلاثًا). قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقًا من قلبه؛ إلا حَرَّمَهُ الله على النار**» قال: يا رسول الله، أفلا أُخْبِرُ به الناسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قال: «**إذًا يتكلوا**»، وأخبر بها معاذٌ عند موته تَأَثُّمًا.

ـ قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١/ ٢٧٢): «وممن كَرِهَ التَّحْديث ببعضٍ دون بعضٍ: أحمدُ في الأحاديث التي ظاهرُها الخروجُ على السلطان، ومالكٌ في أحاديث الصفات، وأبو يوسف في الغرائب .. وعن الحسن أنه أَنْكَرَ على أَنَسٍ تحديثَ الحجاجِ بقصةِ العُرَنِيِّينَ لأنه اتَّخذَها وسيلةً إلى ما كانَ يَعْتَمِدُهُ من المبالَغَةِ في سَفْكِ الدِّماء بِتَأْوِيْلِهِ الواهِي» اهـ.

(٢) رواه البخاري في «صحيحه».

(٣) رواه مسلم في «صحيحه».

ويَعلَمُ من ذلك: أن الداعيـةَ يجبُ أن يَتَجَافَى عن كثيـر من الموضـوعات التي قد يَظُنُّها مُهِمَّـةً، ولكنَّ مقتضيات الواقع تَفْرِضُ عليه التَّرَيُّثَ في مواجـهة الجماهير بتلك الموضـوعات لما قد يَتَـرَتَّبُ على ذلك من المفـاسد الشرعـية المعـتبـرة أو تَأخُّرِ المصلحة الأولوية.

ولاشك أن خطاب الجماهير ينبغي أن يخضع لسياسة إعلامية سنتحدث عنها في الجَهْد الإعلامي (الـطريقة السادسة عشرة)، ونود هنا أن نؤصل للخطـاب الجماهيري الذي نريده أن يكون حِسًا دعويًا لكل داعيـة، فهو يُلاحظُ أثناء دعوته أن المراد تحبيش الأمة نحـو أهداف معينة، وتوحـيد الطَّرْحِ الذي يَتَكَثَّفُ حـولَه الاهتمام الشـعبي بما يَصُبُّ في تعميق الانتماء الديني لدى الأفراد والجماعات المختلفة في المجتمع.

إن الجمـاهيريةَ المقصـودةَ هنا تعني أن يتبنى عامَّـةُ الناس قضايا الدين، وتَتَـوَجَّهَ جهودُ البُسَطَاءِ نـحو خدمة مصالح الإسلام والمسلمين، وتَتَـرَفَّعَ همم الأفراد العاديين عن دَنَايا الاهتـمامات الأرضـية التي تَعَوَّدُوا علـيها في الحـياة الجاهليـة، لتكون لهم اهتماماتٌ تَتَّسِقُ وأمانةَ المسئولية التي يَتَحَمَّلُونها مع الدعاة.

■ *إنَّ مخاطبةَ الجماهير عَبْرَ ملاحظةِ هذا المُنْحَنَى يَتَطَلَّبُ أن نركِّزَ على أمرين:*

الأول - ميادين الخطاب الجماهيري.

الثاني - أساليب الخطاب الجماهيري.

أما الأول - فالمقصود به: أن يَحْرِصَ الدعاة على الاعتناء بالتجمعات التي يَتَكَثَّفُ حضورُ الناس فيها، ليس في أَزْمِنَةِ العبادات والأعياد الشرعية فَحَسْب، كصلاة الجمعة والعيدين والاسـتسقاء وصلاة الكسـوف، ولكن ينبغي أن يتجاوز الاهتـمام إلى غَزْوِ الناس في منتدياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ومواجهة الباطل في عقر داره، ومقارعة الجاهلية في عَرِينِها.

ليس يُجْدِي في الخطاب الجماهيري أن نَنْتَظِر مجيء الناس إلينا، ونَتَرَقَّب جلوسَهم مُنصتين أمامنا، بل يجب أن نَجْأرَ بالحق بين ظَهْرَانَيْهِم عاليًا مُدَوِّيًا، كما فعل الرسول ﷺ حين صَعَدَ على الصفا وأعلن أنه النذير بين يدي عذاب شديد، وكما خرج إلى وفود الحجيج يُسْمِعُهُم كلامَ الله، وكما خرجَ إلى الطائف يَسْتَنْصِرُ وُجَهَاءَ القوم للقيام بدين الله.

إن المجتمعات تموج بتحركاتٍ مختلفة الأفكار والتوجُّهات، ويتكثف الحضور الجماهيري حول تلك التحركات، فمنها النوادي والدورات الرياضية، والنقابات المهنية، والندوات الأدبية والسياسية ونحوها، والمؤتمرات العلمية المختلفة، وعلى مستوى أجهزة الإعلام الجماهيرية (ولها حديث خاص)، ينبغي أن يتكثَّف الحضور الدعوي، مستخدمًا كل السُّبُل في التَّوغُّل إلى سُوَيْدَاءِ تلك المنتديات والتجمعات المختلفة.

إننا نريد أن تصلَ كلمة الحق الناصعة إلى أسماع الناس، أنْ تَصِلَ وحَسْب، وما يَضُرُّنَا بعد ذلك أنْ لَبَّى نداءَها الناسُ أو أَعْرَضُوا، نَصَرُوا أو خَذَلُوا.

أما الأمر الثاني - أساليب الخطاب الجماهيري: فالمقصود به اعتمادُ الآليَّات الفنية لتحقيق هذا الخطاب الجماهيري، بحيث نَرْقَى بتَحَرُّك الدعاة نحو هذه الجماهيرية بخطًى علمية مَدْروسة، ولا نتركُ فرصةً لمجهوداتنا أن تَتَّسِمَ بطابَعِ رَدِّ الفِعْل، وتَرَقُّب ما يحتاجُه الناس لنُوَافِيَهُم به، بل يجب أن يكون زِمَامُ المبادرة بأيدي الدعاة، فمَقَاليدُ القيادةِ الجماهيرية بحقٍ يجب أن تكون في أيدي قادة الصحوة الإسلامية المباركة، لا في أيدي القوى السياسية التي تُمْلِي على الدعاة وتُقَرِّرُ لهم ما يجوز مخاطبة الناس به وما لا يجوز.

▪ ويمكننا أن نلخِّصَ هذه الآلية في النقاط الآتية:

١ـ حصر التجمعات التي يتكثف فيها حضور الناس، وترتيب تواجد الدعاة فيها بما لا يتعارض مع أحكام الشـريعة الإسلامية، كالنقابات والـنوادي الرياضية والأفراح التي تلتزم بالشرع المطهَّر.

٢ـ تنظيم جـداول الخطب والدروس والمواعظ في المساجـد بتوَسُّعٍ أُفُـقِيٍّ، حتى يصل الخطاب الدعوي إلى أَبْعَدِ بُقْعَةٍ مُمْكِنَةٍ.

٣ـ ترتيب العمل الدعوي في الجامعات والمدارس عبر التلاميذ والطلبة الملتزمين، وتنشـيطُ جهـودِهم الدعـوية عَـبْرَ تدريبِـهم على فنون إلقـاء الخطب والكلمـات في المدرجات وتنظيم الندوات وتنسيق المعارض الثقافية وتصميم مجلات الحائط.

٤ـ حثُّ العناصـرِ المُتَدَيِّنَة من الموظفين على بذل المجـهود الدعوي فـي المصالح الحكومية والشـركات والهيئـات، وتكثيفُ المظاهر الدينية في تلك المواقع، مـثل إقامة شعائر صلاة الجماعة، والدعـوةُ إلى حجاب المرأة المسلمة، وترتيبُ المعارض التجارية التي تبيع بالأجل كبديلٍ عن طريقة البيع بالقرض الرِّبَوِي.

٥ـ الاهتمام بالكُتَيِّـبِ الشعبي الذي يُطبع بكميات كبـيرة ويُوزع بالمجان، بحيث يتناول قضايا الدين المهمة، ويُخاطِب ضميرَ المجتمع، ويُوَجِّهُهُ نحو الالتزام بشرع الله ـ تبارك وتعالى ـ.

٦ـ الاهتـمام بدور الشـريط الصـوتي الذي أَثْبَتَ تأثيـرَه البالغ في كل أوسـاط المجتـمع، مع ضرورة الاهتـمام بالإخراج الصـوتي والتوسع في التـسويق التـجاري والتوزيع المجاني.

٧ـ توزيع أرقام هواتف الـعلماء والدعاة وشـيوخ الصحـوة (المتفـرِّغِ لهذا الدور منهم)، وحثُّ أفراد المجتمع على الرجوع إليهم في قضايا العصر ومسائل الفتوى.

٨ ـ ضرورة أن تتناول مصنفاتُ الدعاة ومقالاتُهم ـ في الصحف والمجلات ـ مشكلات المجتمع وقضاياه محلَّ الاهتمام، وألا يغيبَ الدعاة عنها بزعم التركيز على قضايا الدين الأكثر أهمية، فإن إشعار الناس بعدم غياب الدعاة عن قضايا المجتمع له دور في تَوْثِيقِ مَرْجِعِيَّتِهِم لدى كل شرائح المجتمع.

٩ ـ الاهتمام بالأنشطة الدعوية المختلفة التي لها دور في تعميق انتماء المجتمع لدينه، مثل مسابقات القرآن الكريم والمسابقات الدينية في المواسم كشهر رمضان والأعياد، وعلى نفس الصعيد أنْ تَتَبَنَّى الحركةُ الإسلامية قضايا الأمة وتدعو الناس إلى المشاركة في تحمل مسئولية الدين، فإن ذلك يورث شعورًا تلقائيًا لدى الكافة أن الحركات الإسلامية تُمَثِّلُ الدين والأمة.

١٠ ـ أما بالنسبة لمفردات الخطاب الديني، فيجب أن تتعاون الحركات على تأصيل الأولويات التي تضعها في الخطاب الدعوي، وعلى أقل تقدير أن تجتمع على القاسم المشتَرَك الذي يجمع بينها، وأنْ يَسُودَ التفاهم في نقاط الاختلاف بشرط عدم الاصطدام مع الثوابت والمسلمات، كما يَنْبغي أن يتفق الدعاة على تبسيط الخطاب الدعوي، وتيسير وصوله إلى كل شرائح المجتمع، ونَبْذ النُّخْبَوِيَّة والانتقائية المطلقة في توجيه الخطاب الدعوي، فَمِنْ أَمَارَات الدَّعْوَة الحَقَّة أَنَّ كُلَّ شَرَائِحِ المُجْتَمَعِ تَنْتَمِي إليها وتَتَبَنَّى صَدَى خِطَابِهَا وتُنَافِحَ عَنْ رُمُوزِهَا وتَسْتَجِيبَ لِنِدَاءَاتِ أَقْطَابِهَا.

⸻ ◆◆◆ ⸻

الطريقة الخامسة عشرة

الخُطْبَةُ والدَّرْس

ستظل الخطبة والدرس في المسجد يحتَلان الموقِعَ الرَّائدَ في سلسلة أساليب الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ، وسيستمر تعظيم الناس لهاتين الشَّعيرَتَيْنِ باعتبارهما مَظْهَرًا تقليديًا نَشأتِ الأُمَّةُ جَمْعَاءُ عى التأثر به والتجاوب معه.

ومـا من مجـتمع مـسلم إلا وينظر إلى هذين الأمـرين (الخطبـة والدرس) نظرة تختلف عن نظرته لمظاهر الدعوة الأخرى، فـأضحت الخطبة والدرس لذلك من أيسر الوسائل وأكثرها تأثيرًا على شرائح المجتمع المختلفة.

ونحن إذْ نُنْكِرُ على من يريد قَصْرَ مفـهوم الدعوة على الخطبة والدرس فلا يعني ذلك أننا نَسْـتَقِلُّ من شأنـهما أو نُهَـوِّنُ من خطرهما، فـالمقطوع به أنه ما من وسـيلة يَضْمَنُ الدعـاةُ حَشْـدَ الناس بها وتواجـدَ كل الشرائح مثل الخـطبة أو الدرس، ومن المقطوع به أيضًا أنه ما مـن وسيلة نضمن بها تنشئـة الأجيال في جَوٍّ مقـدس ومحيط طاهر مـثل الخطبـة والدرس؛ حـيث يَـرْتَعُ الحـاضـرون في رياض الجنة، ويجـوبون بأرواحـهم في بساتين الذكـر الفَيَّـاحَة، فـتَطْهُرَ قـلوبُهم، وتَزْكُوَ نفـوسُهم، وتَتَـعَطَّرَ أرواحُهم بأرِيْجِ الجو الإيماني الذي يحيط بهم من كل صَوْب.

وإذا كان ذلك كـذلك، فلابد أن يعـمل الدعاة على اسـتغلال هذه الوسـيلة بما يحقق المقـصود، وينتج الثمـرة المَرْجُوَّة، فلا يليق أن نرى الجـموع الغفـيرة تأتي إلى المساجد طوعًا أو كرهًا ثم تكون خُطَبُنَا عامِلَ هَدْمٍ وتَنْفير لتلك الجموع.

الخطبة موصوفـة في القرآن بالذِّكر، وقد أجمع أهل العلم أنها مشروعـة للتذكير بالله ـ تبارك وتعـالى ـ وبقضايا الدين المهـمة، وكانت خُطَبُ النبي ﷺ موصـوفةً بالقِصَـرِ مع طُولِ الصلاة (أي صـلاة الجمعـة)، وأن هذا المسلك هو من فِقْـهِ الإمام ودرايته بما ينفع ويفيد.

إن هذه الصفات يجب أن تراعى من الدعاة التزامًا بسنة النبي ﷺ واعترافًا بأنَّ الحَيْـدَةَ عنها ضارٌّ غـيرُ نافع، وليس من الفقـه والعلم بالدين. فليس من المناسب أن يخطُبَ بعضُ الدعـاة في ساعـتين أو أكثر، كـما أنه ليس من المناسـب بعد ذلك أن يقصر الصلاة، فكأنه يتعمد مخالفة السنة، مع أن الدعاة أحق الناس باتباع السنة.

وليس من المناسب أن تُكَرَّسَ الخـطبة للكلام في مـوضـوعات لا تمت للتـذكيـر بِصلة، كأن يخطب الدعـاة في الأمور الخلافيـة، ويُسخِّروا خُطَبَ الجمـعة للرد على بعضهم البعض، أو نحو ذلك من المسالك الـتي تنال من مِصْدَاقِيَّةِ الدين قبل أن تنال من مصداقية الدعاة أنفسهم.

فليس على الدعـاة من بأس أن يَقْصُـرُوا الخطبة في حـدود النصف سـاعة، ولا يزيدون عن السـاعة بحال، وإذا أرادوا بـسط الكلام في قضـية تحتـاج إلى تطويل أن يكون ذلك بعد الصلاة وبشـريطة ألا يُتَّخَذَ عادةً وسُنَّةً، وإلا قد يَدْخُلُ الاعْـتِيَادُ على هذا المَهْيَعِ في باب الابتداع.

أما مـوضوعات الخطبة فـيجب أن تدور حول أسـاسيات الدين، وأقول مـؤكدًا (تَدور)، وليس المعنى أن تَرْتكِزَ على الأساسيات ولا تَزَحْزَحَ عنها، فقد يحتاج الدعاة إلى التذكير ببعض القضايا الملحة التي ليست من ضروريات الدين، ولكنها ذات خطر وشأن في الحالة الراهنة.

والأفضل أن يدور فَلَكُ الخطبـة حول موضوع واحـد، مُتَحَاشِـيًا ـ الخطيب ـ أن تكون خطبته من النوع الهُلامي الذي لا يمكن الإمساك بمضمونه أو التعبير عن عنوانه.

وتوحيد الموضوع في الخطبة الواحدة يفيد المستمع في تركيز الاستفادة من عناصر الخطبة، فيخرجُ بفائدة مُتَحَقِّقَة، بخلاف ما لو استمع إلى موضوعات متعددة واستمتع بهذه النزهة العلمية، ولكنه في ذات الوقت لا يستطيع أن يختزل فوائد الخطبة في عناصر محددة.

وقد كنتُ أتعمَّدُ أنْ أسألَ إخواني بعد استماعهم لأي خطبة أو درس عما استفادوه، لأتبينَ طريقة انتفاع الناس من الخطبة أو الدرس، فتبين لي أن معظم الناس تُطْرِبُهُم الخُطَبُ ذاتُ القَصَص والحكايات، ويَتَبَرَّمُونَ من الخطب العِلْمِيَّة الصَّمَّاء التي لا تحرك القلوب، وأن نسبة التركيز تكون في أعلى مُعَدَّلاتها في بداية الخطبة أو في أوقاتِ الذِّرْوَة من الحماسة والإثارة، وأن نسبةَ الذين تَسْرَحُ عقولُهم في مراعي الدنيا أو ينامون ليست بالقليلة، وبخاصة عندما تكون الخطبة مشجعة على هذا المسلك.

هذه فوائدُ أضعُها بين يدي الخطباء والدعاة ليقرروا لأنفسهم ولمستمعيهم النافعَ المفيد ويَنْأَوْا عمَّا يُضْعِفُ من تأثير الخطبة على الناس.

ولكننا - كدعاة - يجب ألا نَتَأَثَّر بطريقة الناس في الاستماع، ونُكَيِّفَ أنفسَنا ودعوتَنا وموضوعاتِنا المهمة على نمط المستمعين وهواهم.

وبِئْسَ الخطيبُ الذي يُطرِبُه صَخَبُ الدَّهْمَاء إذا سَمِعُوا قِصَّةً مُؤَثِّرَةً أو موعظة بليغة، وبئس الخطيب الذي يبحث عما يثير الناس ليخطب به، ويُفَتِّشُ عن نقاط التأثر عند الناس، فَيَعْمِدَ لاستثارتها على الدوام وإن لم تكن مناسبة للمقام، وقد قيل قديمًا: لكل مقام مقال.

فمثل هذا الخطيب أو الداعية سَتَضْمَحِلُّ قضايا دعوته أمام شَهْوَتِه في الضجيج والصخب وما يسمونه بالدِّيْمَاجُوْجِيَّة: أي الهياج الجماهيري الفارغ.

وقد اتَّعَظَ كثيـر من الخطباء والدعاة بهذا الأمر حين استَبَانَ لهم بعد دهر أن من كانوا يَصِيحونَ حولهم ويَهِيجونَ مُتَأَثِّرين بمواعظهم هم أوَّلُ جَمْعٍ يَتَفَرَّقُ عنهم عند حلول المُدْلَهِمَّات.

وينبغي أن يكون الخطيب أو المحاضر مُرَتَّبًا مُنَظِّمًا في خطبته. ينتقل من المقدمة إلى الموضوع فالخاتمة في سلاسة ونظام، وإذا تحدث في الموضوع ينتقل من فكرة إلى نتيجتها، ولا يَقْفِزُ على التسلسل معتمدًا على ذكاء المتلقي والمستمع، فالخطيب المؤثر يَفْتَرِضُ دومًا أنه يخاطب أَدْوَنَ الناس عِلْمًا وثقافةً.

كما ينبغي على الخطيب والمحاضر أن ينتقي الموضوعات بعناية بحيث يتوفر فيها عناصر الأهمية: احتياج الناس، الواقعية، التأصيل الشرعي في التشخيص واقتراح العلاج.

فالخطبة البَتْرَاءُ: هي التي تَهِيمُ بالناس في أودية المشكلات والمخالفات الشرعية، ثم تتركهم دون أن تقترح لهم العلاج الشرعي لما هم فيه.

والخطبة المَنْقُوصَةُ: هي التي يعيش مُلْقِيها في أحلام الكَرَى بعيدًا عن مُعْتَرك الواقع الدامي الذي يموج فيه الناس ويحتاجون إلى من يُقَنِّنُ لهم حياتَهم تلك على وَفْقِ شرع الله - تبارك وتعالى -.

والخطبة القَصْمَاءُ (نَقِيضُ العَصْمَاء): هي التي يُسَخِّرُها مُلْقِيها لِتَصْفِيَةِ حسابات شخصية، فيكون كأهل الكتاب الذين بدلوا كلام الله ليشتروا به ثمنًا قليلاً، فبئس ما يشترون.

وينبغي على الخطيب أن يكون رَشِيقًا مُؤَثِّرًا في تحركاته على المنبر، وأن تتوازى مستويات صوته مع مدى تأثير الكلام وقوته، وأنْ يَتَحَاشَى في تعبيرات وجهه ما يَعُدُّه الناس عيبًا أو مما لا يليق صدوره من الدعاة وأهل العلم؛ كالغَمْزِ وإِخْرَاجِ الأصوات

المُنْكَرَة من الفَمِ والأَنْف، وكذا أن يتحاشى أي حركة مَعِيبَةٍ في عُرْفِ الناس، فكل ذلك من شأنه أن يجعل للخطبة رَوْنَقًا وبَهَاءً.

ومن أقبح القبيح أن يكون دعاتُنا مُلَحِّنين، ليس من لَحْنِ الموسيقى، بل لَحْنِ الكلام: أي خطؤه وانحرافه عن الوَزْنِ العربي الفصيح، ومثلُه في القُبْحِ أن يخطب الدعاة بالعَامِّيَّة الهَابِطَة، مُعْرِضينَ عن اللسان العربي المبين (لغة القرآن الكريم). كما أنه ليس من السَّوِيِّ أبدًا أن يَخْرِقَ آذانَ المستمعين فَتْحُ المجرور وجَرُّ المنصوب ونحوُه مما يجعل الآذان تَدْمَى عند سماع الخطبة.

وليس من العسير على الخطباء والدعاة أن يَتَدَارَسُوا بينهم علومَ العربية كما يَتَدَارَسُونَ العلومَ الشرعيةَ الأخرى، مع اعتبار أن علوم العربية شرطٌ أساسٌ لفَهْم القرآن الكريم، فضلاً عن إفْهَامِه الناسَ.

كما أنه ليس من العسير أن يَجُولَ الداعية والخطيب بَبَصَرِه بين الفَيْنَة والفَيْنَة في كتب الأدب والشعر لِيَصْقُلَ مَلَكَتَه البيانيّة، ويَرْقَى بمستوى أدائه اللغوي، فلو طَالَعَ (العقْدَ الفَريد)، أو (البيان والتبيين)، أو (ديوَانَ الحَمَاسَة)، أو (المُتَنَبِّي)؛ لكانَ له شَأْنٌ في صِيَاغَة فصيح الكلام وبلوغ الرُّتْبَة الراقية في البلاغة والبيان.

والداعية والخطيب لا يجوز أن يكون مُغَيَّبًا عن مجتمعه هائمًا في كواكب الكون بعيدًا عن أرض الواقع الذي يعيش فيه، فيجب عليه أن يكون مُطالعًا للصحف السيارة ليُباشر بنفسه معرفة الأخبار الجديدة، والتي قد يكون لها أثر في الصعيد الدعوي، أو يكون لها أثر على الشرائح التي يقوم بمباشرة علاج أمراضها وآفاتها.

كما أن على الخطيب والمحاضر ألا يكون أُحَادِيَّ العَطَاء، أي: يخطب ويحاضر فقط، ويَسْتَنْكِفُ أو يتكاسل عن حضور خطب الآخرين ومحاضراتهم، فإن من ذلك من شأنه أن يَحْصُرَهُ في مستوى واحد من الأداء والإفادة، فإن من يستمعُ أكثرُ استفادة

ممن يتكَلَّمُ فقط، ومن يتكلم ولا يستمع فسيأتي عليه الوقت الذي يشعر فيه أنه لا يملك ما يتكلم به، ولذلك نَبَّـهُ بعضُ الأذكياء أن للإنسان فمًا واحدًا وأذنين وعينين، ليتكلم قليلاً ويسمع كثيرًا ويرى كثيرًا، والمراد بالسمع والنظر ما يكون وسيلة لحصول المعلومة في الفؤاد، كما أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (النحل: ٧٨).

ويجب على الخطيب أن يعوِّدَ نفسَه على الارتجال، أي بَدَاهة الإلقاء، وسرعة تحضير الموضوع، ويكون ذلك بالدُّرْبة وكثرة القراءة والمطالعة، والإكثار من محفوظات النصوص، وبخاصة التي يمكن استعمالها في كل المواطن كالشواهد الشعرية والحكم العربية القديمة، أما الآيات والأحاديث فلا ينبغي أن يحتاج الخطيب إلى من يوصيه بحفظها، فهي رأس ماله وعدته وعتاده.

أما الموضوعات المطروحة فلابد أن تكون مناسبة لمستوى الحضور، ومناسبة للزمان والمكان، فلا يليق أن يخطب بين الناس في دقائق علم السلوك حال كون جمهور المستمعين ممن لا يصلُّون إلا الجمعة، أو يحدثهم عن اللحية والنقاب بينما المسجد الذي يخطب فيه يؤمه العلمانيون الذين يرون حاكِمِيَّةَ الشرع من أصلها محلَّ نظر.

وكذا موضوعات المحاضرات يجب أن تُلَبِّيَ حاجات المجتمع، وخاصة شَبَابَه الذين هم أكثر رواد المساجد هذه الأيام ـ بحمد الله تعالى ـ، فينبغي أن يبحث الداعية عن الموضوعات التي تُهِمُّ الناس، ويُعِدَّها إعدادًا جيدًا، ويَعْرِضَهَا عَرْضًا حَسَنًا.

ولقد كانتْ تجربة الأسابيع الثقافية مُوَفَّقَـةً إلى حد بعيد في كثير من الأقطار، حيث عالجت كثيرًا من القضايا، وحَشَدَتْ تَفَاعُلَ الجماهير مع تلك القضايا المهمة، ومن المناسب في تلك الأسابيع الثقافية أنْ يَتِمَّ اختيارُ عُنْوَانٍ عَامٍّ لها، مع الإعداد الجيد لموضوعاتها، وضرورة تكامل الدعاة في طَرْحِهِم، حتى لا يحصل التكرار أو التناقض والاصطدام في العرض.

وحبَّذا لو اجتمع الدعاة على عقد دورة تدريبية بين حين وحين، ويفضل أن تكون هذه الدورة نصفَ سنوية، يُدعى إلى المحاضرة فيها كبارُ الخطباء والدعاة والمتخصصون في أساليب الإلقاء وفنونِ محادثة الناس، بحيث نوفِّرُ للخطباء في مدة يسيرة مادةً علمية تُعْتَبَرُ خُلاصَةَ تجارب المُجَرِّبين وعُصَارَةَ جهود المُشْتَغِلِين في الحقل الدعوي عمومًا، وفي حَقْلِ الخطابة خصوصًا.

ولابد أن يكون في حسبان الدعاة ومسئولي النشاط الدعوي في أي منطقة أن يُخَرِّجُوا للمساجد خُطَبَاءَ جُدُدًا، يقومون بسد حاجة المساجد من الخطباء والدعاة، فهذا من شأنه أن يوسع مساحة الدعوة، ويقويَ تَجَذُّرَها في أنحاء المجتمع عَبْرَ تَوَزُّعِ الدعاة على مختلف مساجد المناطق المختلفة.

وفي الختام أَلْفِتُ نظرَ الخطباء والدعاة إلى شيء مهم يجب أن يتنبهوا له ـ استفدته بالتجربة ـ ولم أجده مسطورًا في الأسفار، ألا وهو تَفَاعُلُ الداعية مع ما يدعو إليه، فإن كل إناء بما فيه يَنْضَحُ، والداعية الذي آله تركُ المسلمين للصلاة سيستطيع أن يخطبَ خطبةً مؤثِّرةً في هذا الموضوع، ومن تَمَزَّقَ فؤادُه قَلَقًا على مستقبل شباب المسلمين وما آل إليه حالهم سيستطيع أن يؤثر في كل من حوله، ولو كانت كلماتُه يسيرةً ومفرداتُه بسيطة.

إن الصدق الذي جعله الله علامة للتوفيق، والإخلاص الذي يجب أن يكون شعار الداعية في كل ما يأتي وما يَذَر.

وبدونهما ستجدُ الداعيةَ باردَ العواطف، رَخِيَّ الأشجان، بَطِيءَ التفاعل، ومثلُه لا يصلُح أن يرعى شئون المسلمين ويقوم بدور الإصلاح فيهم[١].

---

(١) يقول الأستاذ الراشد ـ حفظه الله ـ: «ومعقود اللسان من الدعاة يصبح بالنية ناثرًا من فيه جواهر البلاغة الآسرة للناس، كما قال عبد القادر الجيلاني: كن صحيحًا في السر تكن فصيحًا في العلانية. وأعظم بها من مصيبة». «الرقائق» (ص٣١).

على صعيد المستوى الفردي في هذه الطريقة يجب أن يعمل كل طالب علم وداعية على صَقْلِ خِبْرَاتِهِ في الخطابة والإلقاء ومواجهة الناس، ومن لم يستطع أن يقوم بهذا الدور فلا أقل من أن يكون وسيلة الخطباء والمحاضرين لدعوة الناس.

فبإمكان كل إنسان أن يبذل مجهودًا منظمًا في الإعلان عن الخطب والمحاضرات، عبر الهاتف والزيارات، والإعلانات الورقية وما شاء من ابتكارات مشرعة تساعد الناس على معرفة طريق العلم والمعرفة.

وبإمكان كلٍّ ناصح وغيور أن يكتب الإيجابيات والسلبيات التي يراها في خطبة بأسلوب ناصح مهذب وشفيق، ويقدمها للخطباء والمحاضرين، مقترحًا عليهم الحلول والعلاجات.

وهكذا فلن يعدم أي منتم للصحوة دورًا ما في هذه الطريقة المهمة، والمهم هو أن تتكامل الجهود في الانتفاع ونفع الناس بالخطبة والدرس.

على صعيد المحاضرات فإن الدعاة يستطيعون أن يجعلوا من تلك المحاضراتِ مُؤْتَمَرَاتٍ ضخمة تُسْتَعْرَضُ فيها قضايا المسلمين العامة، ويَتَنَاوَلُ فيها الدعاة همومَ الصحوة، فيفكرون بصوت عال، ويقترحون العلاجات المختلفة، ويوجهون الأمة إلى التصرف الصحيح إزاء القضايا المصيرية الداهمة.

◆◆◆

الطريقة السادسة عشرة

الجُهْدُ الإعـلامي

إنَّ الإسلامَ دينُ عـالمي، جاء للناس كافَّة، وأنزلـه الله - تبارك وتعالى - مُهَـيْمنًا على الدين كله، وناسخًا لكل شـريعة سابقة، ومُبْطِلاً لكل مـذهب فلسفي أو قانون أَرْضِيّ أو اتِّجَاه فكري، قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣).

ومن قول الله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الحجر: ٩٤)، نفهم البعد الإعلامي في الدعوة الإسلامية، وأنها لم تُوجَدْ لتكونَ سِرِّيَّةً مُتَوَارِيَة، أو قُطْرِيَّةً مُنْزَوِيَةً، أو إقْلِيْمِيَّةً محدودة.

إنه دين كل الناس، ويجب أنْ يسمع به كل الناس وأن يتعرف عليه كل الناس، ونحن لا يمكن أن ندعي أن دعاة اليـوم على صعيد الدول والحكومـات أو الحركات الإسلاميـة والهيئات العـالمية العملاقـة أو الأفراد لهم نظرة إعلامية واضـحة لدينهم الذي يدعون إليه.

وقد يسـارع البعض قائلاً: لا ضـرورة لتعقـيد الأمور، فـإن دعوة الله ستَـسْري سَرَيَانَ النار في الهـشيم، وهذا وعد الله الأكيد، وليس لنـا أن ندخل في جدال حول أن دين الله مُنْتَصِرٌ لا مَـحالة، فإن إيراد الاعتـراض على هذا النحو إلزام بما لا يلزم، ومغالطة في مقدمات النتيجة.

والذي يجب أن نعـترف به جـميعـًا أن نصر الله لا يُؤْتَاه كَـسُولٌ أو خَـذول أو مُـرجِف، ولن يصل الدين إلى الناس بينمـا حَمَلَتُـه نِيَـامٌ، ولن يَعْلُوَ صوتُه إذا كـان أصحابه قد صاموا عن الكلام.

وفي ظل الواقع السياسي والاقتصادي المعاصر لا يمكن أن نسمح للمثالية الكاذبة[١] أن تُحَرِّكَ اتجاهَ التفكيـر وطريقةَ التدبير، فالرسول ﷺ لم يكن مـثاليًا يوم هاجر من مكة إلى المدينة فـاتخذ الصاحبَ والرَّاحِـلَةَ والزَّادَ والخِرِّيْت[٢]؟! ولم يكن مثـاليًا يوم حارب حروبه مع الكفار وأعد العدة والعتاد وحشد الجنود وجهزهم بِجَهَازِهِم؟!.

إنه واقع شَرِسٌ دَامٍ، اسـتُعْمِلَتْ فيه كلُّ الـوسائل ـ المشروع منها وغـير المشروع ـ لتدمير هذا الدين والقـضاء عليه، ويجب أن نتعامل مع هذا الواقع بشراسـة أيضًا كما قال ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧)، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٤)، وقوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأنفال: ١٢-١٣).

وعلى الصـعيد الإعـلامي، فإننا لو ذهبـنا نُحصـي ما يسـتخدمه أعـداء الله من آله إعلاميـة في إضلال الكون، وما سَخَّرَهُ الشـيطان لهم من أسلحة شَهْوَانِيَّة فَـتَّاكة لطال بنا الحديث.

لكنني سأتعرض لتحدٍّ واحد ماثل أمام عين كل ذي عين، ولا يمكن أن ينكره إلا عنيد، وعلى ضوء هذا التحدي نتعرض للجهد الإعلامي الدعوي.

إننا نشاهد في قلق واجف ذلك الزحف الفضـائي التلفازي الذي اقتحم كل بيت عبر القنوات الفضـائية المشفَّرة وغير المشفرة، وعبـر شبكات الإنترنت التي تعرض كل شيء، ومثل هذه الوسائل قد دخلت بيـوت المسلمين بالفعل، شئنا أم أبينا؛ فإنه واقع يجب أن نعترف بأنه يمثل تَحَدِّيًا خطيرًا للدعوة لم تمر به عبر قرون متطاولة.

---

(١) أعني بها ادعاء اليقين بنصر الله، واستعراض مظاهر التوكل على الله بالعزوف عن الأسباب.
(٢) الدليل البصير بالدروب الآمنة ليسلكها والخطرة ليتجنبها.

والأخطر من ذلك أن من القائمين علـى هذا الزحف الإعلامي الفاجر: جـهات تنتسب إلى الإسلام وتتكلم باسمه (أعني الحكومات الإسلامية).

وفي ظلال هذه الصورة الـواضحة لكل عـيان يمكننا أن نتـصور (مجـرد تصور) حجم المجهود الإعلامي الذي يجب أن يقوم به الدعاة لرَتْقِ هذا الفَتْق.

إن الهُوَّةَ ليست بالسحيقة، فمـازال في الزمان مُتَّسَعٌ إذا تَضَافَرَت الهِمَمُ، وتعاون الأفراد مع الجماعات العاملة للدين في تدارك هذا المشكل.

■ ***ونحن نبني تصورنا لمقاومة هذا التحدي عبر اتجاهين:***

الاتجاه الأول ـ اتجاه الهدم: أعني هَدْمَ هذا الرُّكام الإعلامي في قلوب المسلمين، وتدميـر ذلك التعلق الماثل فـي انجذاب المجتـمع أفرادًا وجـماعات إلى هذه الـوسيلة الإعلامية الغازية.

ويتحقق هذا الاتجاه بمثل الطرق الآتية:

١ ـ نشرُ فتاوى العلمـاء التي تحرم اقتناء التلفاز أو أجهزة الاستقـبال لغرض غير شرعي، والجهرُ بهذه الفتاوى في خطب الجمعة والمحاضرات والدروس وعبر الأشرطة الصوتية وغير ذلك من وسائل.

٢ ـ مـراسلةُ الشـركـات التي تقـوم باستـيـراد أو تصنيع أو بيع هذه الأجـهـزة ومناصحتـها بترك هذا الجانب التـجاري بتوضيح أثره الهدام فـي المجتمع، من باب: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥).

٣ ـ مراسلةُ أفـراد المجتمع بهـذا الصدد وتحذيرهم من آثار هذا الغـزو الإعلامي على البيوت في انتشار المخـدرات والانحلال الخلقي، وذلك بضرب الأمثلة من واقع المجتمع الغربي نفسه.

٤ ـ مُناصحةُ ولاة الأمور حول هذه القضية وحثهم على منع بيع وشراء مثل هذه الأجهزة المفسدة.

٥ ـ القيام بجهد مضاعف مع الشباب والناشئة في تحذيرهم من خطر هذا الدور الإعلامي على الأمة عامة وعلى شبابها خاصة.

الاتجاه الثاني ـ اتجاه البناء: ويتضمن إيجاد البدائل وتحقيق السُّبُل الكفيلة بملأ فراغ الأوقات لدى الناس، وتقوية الشعور الإيماني، وتكوين الموقف الشرعي لدى قلوب الناس ضد الغزو الإعلامي الفاجر، وهو ما يمكن أن نسميه: المَنَاعَة الإيمانية.

ويمكن أن نُجْمِلَ طُرُق هذا الاتجاه فيما يلي:

١ ـ حَثُّ الحكومات الإسلامية والهيئات العالمية على تبني مشروع قناة فضائية إسلامية عالمية مهمتها أداء الدور الإعلامي الإسلامي وصرف الناس عن الغزو الإعلامي المدمِّر الذي يجتاح بيوت المسلمين[١]، وإن تعسر هذا المسلك فلا أقل من أن تتداعى همم الغيورين من أصحاب الثروات على تكوين شركة تجارية

---

(١) قد بدأت بعض المحاولات الجيدة التي أصبح لها وجود حقيقي بعد أن كانت حلمًا من أحلام الكرى، حيث تأسست قناة تليفزيونية تتبنى عرض البرامج الدينية النافعة غير المخلة، واسمها قناة (اقرأ) بيد أن هذه القناة فيما لاحظت من إعلانات برامجها أن لديها فصامًا في الجانب التأصيلي الفقهي، حيث تستجيز القناة عرض المسلسلات ـ التي تسمى بالدينية ـ والتي يقوم بأداء الأدوار فيها ممثلون معروفون بدورهم الداعر في إفساد المجتمع من خلال أفلام ومسلسلات أخرى (وغير ذلك من المنكرات الخطيرة التي كثُرت في هذه القناة).
ـ ولا يجوز أن تنساق المشاعر الإسلامية الصادقة وراء الوسائل المبررة بالغايات، وإلا أصبحت الجهود كأنها خَبْطُ عَشْوَاء أو خَطْوُ عَمْيَاء، كما أن بعض تلك المسلسلات ـ التي تسمى دينية ـ تحوي تشويهًا متعمدًا للتاريخ الإسلامي، وترسم صورة كاذبة عن حياة السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ، مما يعني مزيدًا من الانحراف الفكري، بل مزيدًا من المسخ والتدمير لعقلية المسلم والمُسَلَّمَات المستقرة في وجدانه وضميره.
ـ وفي سياق كلامنا عن تكوين شركة إسلامية استثمارية تتبنى مشروع قناة فضائية، فإنني أذكر بمزيد من الفخر أنه في دولة غير إسلامية استطاع المسلمون أن ينشئوا إذاعات للقرآن الكريم، تبث عبر أربعة وعشرين ساعة تلاوات القرآن الكريم والبرامج الدينية الهادفة والتي لا تحوي أية مخالفات شرعية، كالموسيقى ونحو ذلك.

لتأسيس قناة فضائية إسلامية كما فعل المستثمرون الآخرون عندما أسسوا شركات تجارية تملك قنوات ترفيهية.

٢ ـ تشجيع بعض الشركات ـ ذات الاتجاه الإسلامي ـ الناشئة على إنتاج برامج مطابقة للمواصفات الشرعية، بحيث تحوي عنصر الجذب والإثارة في نفس الوقت[١].

٣ ـ تثقيف المجتمع المسلم وتوجيهه في كيفية قضاء أوقات الفراغ، وذلك عبر نشر الكتب التي تبين أهمية الوقت، وتشرح قضايا الإسلام والمسلمين، وضرورة تكاتف القوى في مواجهة الكيد العالمي ضد الإسلام والمسلمين، واستلزام ذلك أن تستغل كل الأوقات فيما ينفع ويفيد وعدم إضاعتها في اللهو والعبث، ولاشك أن هذه الطريقة تحتاج إلحاحًا وتركيزًا على شريحة الشباب الذين هم أكثر الشرائح عُرْضَةً للحَيْرة في كيفية قضاء أوقات الفراغ، كما يستلزم على الدعاة القيام بدور اجتماعي في الأحياء بتنظيم الدورات الرياضية والمناسبات الثقافية والدعوية لمحاولة إيجاد البديل النافع للشباب، لِئلا يجدوا الفرصة للانزلاق مع قُرَنَاءِ السوء بقضاء أوقات الفراغ معهم.

٤ ـ توجيه خطاب دعوي مباشر إلى الآباء والأمهات لحثهم على القيام بدور توجيهي فاعل مع الأبناء لمساعدتهم في قضاء أوقات فراغهم ـ وخاصة في الإجازات الصيفية ـ فإنَّ هذا من شَأنِه أن يُكَوِّنَ حِصَارًا تربويًا على النشء، ولا يترك فرصة لعناصر الفساد أن تَتَسَلَّلَ إلى محيطهم لتَنْسِجَ شِبَاكَ صَيْدها حولَهم.

---

(١) وقد تمكنت بعض الشركات من إنتاج أفلام كرتون هادفة مثل: محمد الفاتح، وقصة أصحاب الأخدود، خالية من أية مخالفات شرعية: مثل العنصر النسائي أو الموسيقى، بالإضافة إلى رصانة الحوار وجمال العرض وقوة التأثير.

٥ ـ أن تقوم الدعوة بدور توجيهي مباشـر في المدارس ومحافل العلم كالجامعات والمعاهد المختلفة، من خلال المدرسين المنتمين إلى الصحوة، أو بطريق غير مباشر عبر مناصحة المسؤولين بضرورة القيـام بدور تربوي فاعل لإنقاذ النشء من الغزو الإعلامي المدمر الذي يجتاح بيوت المسلمين، والذي لن تخطئه عينٌ مُرَاقِبة.

والحق ـ أيها القارئ الكريم ـ أننـي أكتب هذه الكلمات وأقترح هذه المقـترحات، ولست على يقين من تطبيقها على المدى القريب، ولكن يقيني بضرورة بذل أي جهد ـ بعد يقيني بخطورة الوضع الراهن ـ أَمْلَى عليَّ أن أكـون بعيد المدى في تصور الحلول، والذي نتصوره مستحيلاً ليس مستحيلاً لذاته، بل لعارض طارئ ينبغي إزالته.

وأما على صـعيد المجهود الفـردي فإن الحِصْنَ الإيماني الذي يقيـمه كل راعٍ على أهل بيته كفيل أن يقيَهم شرور هذا الزحف الإعلامي، ولعلك ستعجبُ ـ أيها القارئُ ـ أَيَّمَا عَـجَبٍ إذا علمت أن هناك مـدارس أجنبيـة تشترط عـلى أولياء الأمور أن يمـنعوا أولادهم من مشاهدة التلـفاز، وإلا فإن إدارة المدرسة ستكون غـير مسئولة عن نتـيجة مستواه التعليمي والتربوي.

والعجيب أيضًا أن دراسـة قديمة صدرت في الثمانينيات من هيـئة اليونسكو تثبت أن مشاهدة الأطفال برامج التليفزيون تـورث تخلفًا عقليًا بنسبة ٥% كل عام، وأنا لا أشك أن البَـلادَةَ التي تعانيـها أمـتنا أول أسبـابها ذلك الركـام الإعلامي الذي مَـسَخَ العُقُولَ، وشَوَّه الفِطَرَ، وقَلَبَ الحـقائق، وأنسى الناسَ ربَّهم والدارَ الآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ومن هنا نعلم: أن المواقف الإعـلامية التي تـتبناها الدعوة بفـكر إعلامي واضح وسياسة إعلامية مدروسة وخطوات تنفيذية منظمة من شأنها أن تجعل للحركة الدعوية زخمًا اجتماعيًا مؤثرًا، فلا تكون المجهودات الدعوية مجرد شرارات تنطلق هنا وهناك

لا يشعــر بها إلا من رأى خطفــة نورها البارق، بــل نريد أن يكون المجهــود الدعوي شَمْسًا مُنيرَةً لقلوبِ كلِّ أفراد المجتمع ومُحْرِقَةً لكلِّ كَيْدٍ يكيدُه أعداءُ الحق.

إننا نرى أصحابَ المنتــجات العالمية يخطِّطُون لسيــاساتٍ إعلاميةٍ مُعَــقَّدَةٍ ومُكَلِّفَةٍ بِهَدَفِ الترويج لتلك السلعة أو المنتج، وما أحرانا أن نخطط لديننا الأعظم كما يخطط الناس لدنياهم الحقيرة.

وليس خافيًــا على أحد أنَّ آلةَ الإعلامِ اليهــودي العالمية كان لهــا أَثَرٌ في التَّرويج لكثير من الشائعات اليهودية الكاذبة حتى صارت من المُسَلَّمَات والبدهيات التي يُسْجَنُ منْ يَتَجَرَّأُ على تكذيبهــا على نحو ما حدث مع (جارودي) حينما دَحَــرَ مزاعمَ اليهود في المَحَارِقِ التي أقامها النَّازيَّة لليهود إِبَّانَ الحرب العالمية الثانية.

ومثل هذا يملي على الهيئــات الإسلامية العالمية والجماعات الإســلامية التي تعملُ في حَقْلِ الدعوة أنْ تَتَبَنَّى خَطًّا إعلاميًا لنشر الدين؛ لتكونَ كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السُّفْلَى، ولِيَكُونَ الدين كله لله.

◆◆◆

الطريقة السابعة عشرة

حَرَكَةُ التَّأليف

إن المُتَابع للنشاط العلمي والثقافي الذي يموج في بلاد المسلمين لَيُدْرِكُ مدى الخلل الذي يَعْتَوِرُ عـقليَّة المسلمين، والهُزَال المعْرِفِيَّ الذي أصاب ذاكـرتهم الثقافية، فَـتَأخُّرُ البلاد الإسلامية في حجم الكتب المؤلفة مقارنة بالدول الأخرى أمرٌ أثبتته الإحصاءات الرسمية[1] بما لا يدع مجالاً للشك أن المسلمين يعانون ضمـورًا في المعرفة والثقافة لا يقل عن ضمور إرادتهم في الصلاح والإصلاح.

إن حجم المطبوعـات في دولة مثل (المَجَر) التي لا يتجاوز سكانها بـضعة ملايين في سنة واحدة يفوق حجم المطـبوعات في الدول العربية مجتـمعة؛ حيث يبلغ سكان الأخيرة أكثر من مائتي مليون نسمة.

وعدد العناوين التي يتم التأليف حولها في البـلاد الأوربية مثلاً - حيث يبلغ عدد السكان قرابة الخمسمائة مليون نسمة - يتجاوز عشرات المرات ما يتم التأليف حوله في البلاد الإسلامية مجتمعة؛ حيث يبلغ سكان الأخيرة ألفًا ومائتي مليون نسمة.

ولستُ من المُنْبَهِرِيْنَ بمثل هذه الإحصاءات أو ممن يُعَـوِّلُ عليها في التقويم بصورة مطلقة، فنِظَامُنَا المَعْرِفِي الإسلامي يختلف عن مُنْطَلَقَاتِ القَوْمِ في التقويم والإحصاء، ورُؤَانا في اعتبار المفيد وغير المفيد تتباين كل التباين عما يراه القوم ويعتبرونه.

---

(١) جاء في كتاب «تسـريع القراءة» لمؤلفه (لروي روزاكس) ما يلي: الطبعة الواحدة من صحـيفة نيويورك تايمز تحتـوي على معلومات تفـوق ما تعلمه شـخص في القرن السادس عـشر طوال حيـاته، ويصدر خمسون ألف كتاب في الولايات المتحدة سنويًا، وتصدر حاليًا عشرة آلاف مجلة في الولايات المتحدة وتصدر سبعة آلاف دراسة علمية يوميًا في أنحاء العالم.

ولكن الذي لاشك فيه أن حـركة التأليف المُسْتَعِـرَة في الدول الغربية لَدَلِيلٌ على رَوَاجِ سوق المعرفة ـ مُطْلَقُ المعرفة ـ وأن الناسَ عِطَاشٌ للثقافة والعلم بالدرجة التي لا نجدها في بلادنا الإسـلامية، ولاشك أن هذا النَّهَم في المعـرفة نتَاجٌ طَبَـعيٌ لأساليب التربـية والتعلـيم والتثقـيف التي تمارس في دُور العلم عندهم، وليس هذا هـو محل البحث، ولكن الذي نريد أن نُقـرره أن سوق المعرفـة عند أولئك الأقوام تتميـز بحالة تَشَبُّعٍ موضوعيٍّ عال، فلا يوجد أمر أو قـضية إلا وفيها مصنف أو اثنين على الأقل، فهذا هو المقصود من السَّبْر.

كما أن لديهم تقنية عالية المسـتوى في الاستفادة من هذه العناوين المتكاثرة، وآلية سهلة لتيسير تداول تلك المصنفات وتقريبها من راغبيها.

فالمكتبات مـجهزة بأحدث الأجهزة لتسهـيل الوصول إلى الكتاب أو الكتب محل الاهتمام، وأَنْظِمَـةُ الفهرسة الموضوعـية باتَتْ فَنًّا يتخصص له أمناء المكتبـات لمساعدة شُدَاةِ المعرفة في التَّجْوَالِ عبر عالم الكتب.

كما أن صفحات الإنترنت قد وَفَّرَتْ في هذه الآونة خدمات عالية التقنية لوصول أي كتاب إلى أي مكان في العالم.

ونحن ـ كدعاة ـ حريصون على وصول كلمة الحق إلى الناس، واستغلال التأليف كوسيلة لخدمة الدين ـ يجب أن نستوعب كل هذه التطورات أو بعضها لنبلغ في البذل شَأْوًا مُعْتَبَرًا.

كما أن تأليف الكتب النافعة لم يَعُدْ أمـرًا متروكًا للكاتب والمؤلف ليقرر هو ما الذي ينفع أو لا ينفع، فـالأكاديميـات العلميـة والهيـئات التـعليميـة والدوائر ذات الاهتمام بالشـأن المَعْلُومَاتِي وحتى الشركـات التجارية ودور النشر العمـلاقة صارت

تَسْتَكْتِبُ المؤلفين، وتُؤَاجِرُهُم على التأليف، فَتُحَدِّدُ عُنْوَانَ الكتاب وموضوعاته وعددَ صفحاته ومُدَّةَ التأليف.

ولعل كثيرًا من الدعاة المخلصين يَسْتَهْجِنُ هذه الطريقة في التعامل مع العلم والعلماء، وهذا ولاريب صحيح وجيه، ولكننا نسوق هذه الأمثلة للاعتبار فقط، ولْنَذْهَبْ بالتَّأمُّل مَدَىً يساعدنا على الوصول إلى أفضل السبل لتقنين هذا السيل الجارف من المؤلفات الغَثَّة، والكتب العقيمة، والمجلدات الهَشَّة (أي: الضخمة في الحجم القليلة في النفع).

إن مجال التأليف قد يكون أسلوبًا نقُودُ به المجتمعات، ومسلكًا نوجه به تحركات الشعوب، ويمكننا أن نستدل على ذلك بمذكرات الشيوعيين التي أَحْدَثَتْ هَزَّةً في الفِكْرِ السياسي والاقتصادي الغربي على مدى قرنين من الزمان حتى تَمَخَّضَ عن تحركاتِهم قيامُ دولة عُظْمَى هَيْمَنَتْ على القرار الدولي رَدَحًا من الدهر.

وعلى صعيد صحوتنا المباركة وُجِدَتْ بعضُ المؤلفات المباركة التي كَتَبَ الله لها القبول في الأرض، وهدى الله بها من الخلائق ما لا يحصيهم إلا هو، ومثالُهُ النَّاصِعُ كتاب: (ففروا إلى الله) للداعية الرباني الشيخ/ أبي ذر القلموني الذي فاقت طبعاته المائة على أقل تقدير غير ما يطبع بدون إذن المؤلف بقصد الاتجار والتربح.

وكذلك كتاب (عودة الحجاب) للشيخ العلامة/ محمد إسماعيل، والذي طبعت منه أكثر من عشر طبعات في سنوات قلائل، وكان لهذا الكتاب بأجزائه الثلاثة أثره الفاتح على كثير من الأسر، وبخاصة على شريحة النساء المتبرجات، فقد أحيا الله به الحجاب الشرعي، وأقام به صرحًا من صُرُوح العِفَّة والطُّهر في عصر انتشر فيه التبرج والسفور.

والملاحظ أن الذي يملك زمام المبادرة الإصلاحية في هذا الشأن طرفان مهمان: المُؤَلِّفُ والنَّاشِرُ؛ فهما المحوران الأساسان في عملية صنع الكتاب ووصوله إلى القراء.

والصحوة الإسلامية بحمد الله تضم - بين المنتمين إليها - عددًا لا بأس به من المؤلفين والناشرين الذين صار لهم دور دولي في نشر الكتاب الإسلامي، ولاشك أن هؤلاء يستطيعون أن يتضامنوا لتقنين عملية التأليف والنشر؛ حتى يكون للكتاب الإسلامي دوره الفاعل في إصلاح المجتمعات.

ولا يمكن أن نُنْكِر أن هناك فريقًا من المؤلفين والناشرين قد اتخذوا من الكتاب الإسلامي حِرْفَةً وتجارة للتكسب، ولو كان ذلك على حساب المضمون والنفع العائد على القراء.

وصِرْنَا نرى وجوهًا من الحِيَل في طبع الكتب تَنُمُّ عن جَشَعٍ غيرِ مسبوق ورغبة في الحصول على المال بأقصر الطرق.

فبعض المؤلفين لا يتورع عن تحضير بعض الملازم لِيُدَبِّجَ على طُرَّةِ الكتاب عُنْوَانًا عَرَمْرَمًا يُذَكِّرُكَ ببيت الحجَّاج:

أَنَا ابْنُ جَلا وطَلاعِ الثَّنَايا ... مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وإذا ما تَصَفَّحْتَ الكتاب (وما هو بكتاب) أَلْفَيْتَ الموضوع بحثًا في ورقة واحدة، ولكنها مفرقة على صفحات معدودات، وفي كل صفحة حَاشِيَةٌ واسعةُ المَفَاوِزِ من تَرَاجِمَ لا فائدة منها، أو نقول: لا علاقة لها بالموضوع، أو تعليقات ساذجة تَنُمُّ عن ضَحَالَةٍ في العلم والتخصص.

وآخر يَعْمِدُ إلى مخطوطة (أيِّ مخطوطة) ويُوسِعُها تعليقًا وتَخْرِيجًا وتحقيقًا وتعقيبًا، فإذا ما تَبَيَّنْتَ اسْمَ المخطوط عَلِمْتَ أَنَّهُ مُؤَلَّفٌ مُطَّرَحٌ عند أهل الفن يُغْنِي عنه

ما هو أَجْـدَرُ بتحقيـقه وإخراجـه للناس، أما إذا تفحصت التـحقيق ألفـيت العجب العجاب، فما أصهل أن يسود مثلُ أولئك حواشيَ تحـقيقاتِهم بأمثال: كذا في الشامية والصواب كـذا، كذا في النسخـة التركيـة، وأظن أن كذا أصح، وليس كل ذلك إلا تَبَعِـيَّةً وانْزِلاقًـا وراء منهج المستـشرقين في التخـريج والتحـقيق تَبَيَّـنَ للأَفْذَاذِ خَطَؤُهُ وعَوَارُه، وقد نَبَّهَ العلامة المحقق الشيخ (أحـمد شاكر) ـ رحمه الله تعالى ـ على هذه المسألة وبَيَّنَ أن التحقيق الصحيح النافع بعيد كل البعد عن هذه الفَذْلَكَة الأوربية والتي يسميها الأكاديميون: أصول التـحقيق والتدقيق، والواقع أنه من التشقيق الذي لا طائل تحته ولا نفع من جرائه.

أما أحَابِيلُ الناشرين ـ الجَشِعين منهم ـ في التـغرير بالقراء وخداعهم فَحَدِّثْ عن ذلك ولا حرج، فبعضهم يَعْمِدُ إلى كتاب ضخم مشهور ويُقَطِّعُه إربًا إربًا، ويطبع كل باب في كتاب مـستقل بعنوان مستـقل حتى يظن الظان باديء الرَّأي أن المؤلِّف ـ وهو مشهور بالضـرورة ـ صدر له كتاب جديد، فيبادر القـارئ المسكين لشراء الكتاب فإذا قرأه اكتشف عملية الخداع والتزوير.

وناشر آخر كـالأسد الضاري، يَفْتَـرِسُ كلَّ من أمَامَه ويُفَرِّقُ أشـلاءَهُ شَذَرَ مَذَرْ، يعمد إلى أي كـتاب مشتهـر بين الناس فيعيد طبـعه في سرعة جنونيـة ليحصل على قصب السـبق في سُوقِ الكتـاب، وينافس الآخرين بأسعـار مُحِيـطَة، ولكنك ما أن تَتَصَفَّحَ الكتـاب حتى تتذكر المثل السـائر: اِخْبَرْ تَقْلَه. أي: اعرف الأمـرَ جيدًا عِنْدَهَا ستَهَجُرُ ما عَرَفْتَهُ وتَتْرُكُ ما خَبُرْتَهُ.

ولستُ مُسـتمتـعًا والله بسردِ هذه الأقـاصيص، فإنه لابد أن تمثل همًـا يجأرُ منه العبورون على دين الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ولذلك نحن ندعــو ذاتكم الطرفين (المؤلف والناشــر) إلى ميـثاق شرف يتــواطآن عليه ويلتزمان به ويمضيان على سـبيله، وندعو القراءَ كذلك إلى التكاتف لمحاربة الثلة المنحرفة التي تتخذ من التأليف والطبع حرفة للكسب السريع فحسب[١].

ندعو المؤلِّف إلى احترام الذات، واحترام عقول القراء، ومن قبل ذلك وبعده إلى مراقـبة الله - تبارك وتعالى - فـيما يكتب، وندعـوه إلى اختيار الموضـوع على أساس موضوعي يعنمد على:

أهمية الموضوع:

- احتياج الناس إليه.
- خلو المكتبة من كتاب يعالج ذلك الموضوع.

كما ينبغي أن يحسن التأليف والعرض، وذلك عن طريق:

- دراسة الشريحة التي يؤلف لها، وما هو الأصلح لمستواها.
- ينتقي المادة العلمية التي يحتاجها الموضوع بعيدًا عن الحَشْو.
- يحسن تناول القضية بالتركيز على النقاط المهمة والتأكيد عليها وبيانها.
- أن ينسق المعلومة عن طريق ترتيبها في عناصر يسهل حفظها واستحضارها.

---

(١) لا يحتاج إلى بيــان أننا لا ننكر مبدأ التكسب من التأليف والنشــر، ولكننا نحارب من يتكسب بدون مقابل، أو يربح بالغش والخداع والتغرير واستغلال سذاجة الناس، ومصيبة الكتاب الإسلامي في هذا الزمان أنه ابتلي بمجتمع لا يحترمه، فـالقراء قليلون، والقليل منهم من يتذوق ما يقرؤه، وأقل القليل من يعمل بما قرأه وعلمه، فأضحى الكتاب غريبًا لا يجد من يدافع عنه وينافح عن قضاياه.
واتحاد الناشرين والكتاب والأدباء، وهلم جرا صارت لا تغني فتيلا ولا تنفع قطميرا، إذ لم يعد هَمُّهم إلا الدفاع عن الملحدين والشـيوعيين والعلمانيين ومؤلفي الروايات الماجنة والأشعـار المنحلة والقصائد المختلة، ومع أن الكتاب الإسـلامي أثبت تفوقه وصدارته بالنسبـة لعدد القراء والكمية المطبوعـة (كما تثبت إحصائيات مـعارض الكتب في الدول الإسلامية قاطبة) فهو لا يجـد من يدافع عن حقوقه ضد المغتالين والخائنين.

أما الناشر فندعوه إلى ثلاثة أمور مهمة يجب أن يوجد لها المعادلة التي تحققها:

ـ طبع الكتاب بصورة مقبولة (ولا نقول ممتازة)، بمعنى أن يختار لها ورقًا مناسبًا وأحبارًا جيدة، ولا يشترط أن يكون الطبع على مستوى راق جدًا، والمنصوح به أن تطبع طبعتان: طبعة شعبية بأعداد كثيرة (لأن غالبية القراء من ذوي الدخل المحدود) وطبعة فاخرة لمن أراد اقتناء الكتاب الفاخر.

الاهتمام بمعالجة الأخطاء المطبعية، وذلك عن طريق صَفِّ الكتاب بالحاسب الآلي الذي توجد به إمكانيات عالية لعلاج الأخطاء، أو بتدارك تلك الأخطاء عبر المراجعة وتكرار تجارب الطبع، أو بإلحاق صحيفة تتضمن الأخطاء المطبعية وأماكن وجودها، وقد صارت كثير من المطابع لا يُوثَقُ بطبعاتها بسبب فضائحها في هذا الباب.

ـ الاهتمام بسعر الكتاب، وتسويقه، والسعر له دور كبير في سرعة تسويق الكتاب، وبعض الناشرين ـ للأسف ـ قد يعمد إلى إماتة الكتاب عن طريق رفع سعره لأنه واثق من تسويقه باحتكاره للكتاب واحتياج الناس له، ولكنه سرعان ما يكتشف أن جشعه هذا له نماذج شبيهة، فيبتليه الله بناشر آخر يطبع الكتاب (أو يسرقه باصطلاح الناشرين) ويبيعه بسعر زهيد منافس، مما ينتج عنه نفوق كتابه وإعراض الناس عن طبعته، إن كل ما سبق قصدنا منه أن نجعل من التأليف والنشر وسيلة لخدمة الدين ورفع رايته، ونحن ننادي في كلا الطرفين نخوته، وحبه للدين حتى يكونوا جنودًا في خدمة الشرع المطهر ورجالاً مؤتمنين على قيادة المجتمع الإسلامي.

أما على صعيد الفرد العادي فإن له دورًا أيضًا في استغلال هذه الوسيلة في خدمة الدين، فالواقع يشهد أن الذي يجعل للكتاب قيمة ـ فيشتهر المؤلف ويكسب الناشر ـ إنما هو القارئ الذي هو أنا وأنت وكل فرد مخلص وغيور في الصحوة المباركة، وما رَزَقَنَاهُ الله من عقل وعلم وبصيرة وَرَوِيَّة يُجْبِرُنا أن نَهجُرَ الرَّديء ونَلْفِظَه، وأن نشجع الجيد ونتبنى نشره بين الناس.

وبناءً على ما سبق فـأنا أدعو الناشئة والمربين على نهج سـواء أن يتناصحوا بينهم فيـما يقتنونه من الكـتب، أو يستعـملونه في دعوتهم، وليسـألوا أهل الدراية والعلم والخبرة والتـجربة في الكتب النافعة الجـديرة بالاقتناء، وليعملوا بنصـائحهم في هجر الكتب أو الكتيبـات التجارية التي لا تمت لعاطفة الإسلام بصلة فـضلاً عن أن تنخَرِطَ في سِلْكِ حَمْلِ أمانة الدين بما سُطِرَ في صفحاتها.

◆◆◆

الطريقة الثامنة عشرة

المَطْبُوعَاتُ والمَسْمُوعَاتُ والمَرْئيَّاتُ

إن الذي يُطَالِعُ أساليب الدعوة منذ قـرن من الزمان سيدرك بسهولة مـقدار الفرق بين عصرنا وعـصر من قبلنا، بل سيـدرك بجلاء أن كل عصر له أسلوبه وتقـنيته في التعامل مع الحياة.

والمتأمل لنصوص الشريعـة الغراء يلاحظ بوضوح أنها لم تتعرض للوسـائل كثيرًا بقدر تعرضها للمقـاصد، وذلك؛ لأن هذا الدين قد قَدَّرَ الله أن يكون خاتم الأديان، والمهيمن على غيره من الملل، وأن يكون أهله هم قادة البشر إلى يوم الدين.

فَنَاسَبَ ألا تأخـذَ المقاصدُ قَـوَالبَ معـينة، أو تتحدد الأوامـر والنواهي في نماذج جامدة لا يجوز الحيدة عنها، ونعني بذلك ما لم يأت في تحديده نص أو في تعيينه أثر.

ولسنا من ذلك الفريق الذي يتخذ من هذه الملحظ تُكأةً ليُغير على النصوص يَرُومُ تبديلها بزعمِ العَصْرَنَةِ والتطور، وعدم الجمود والتحجر.

وقـد بينا في (ابتكار الوسـائل الدعوية) ضـوابط الابتكار في الوسـائل بما يقطع مآرب المنافقين وغايات الهدَّامين.

وقد شهد عصرنا فتوحات كبيرة في الجانب الدعوي تمثل في اتساع مساحة الميدان الدعوي، وتعاظم عدد المدعوين لكثرة الوسائل الدعوية التي تخاطب الناس.

وكان من جملة الوسائل التي استَفْحَلَ خطرُها وعَظُمَ أثرُها في الناس:

(المطبوعات والمسموعات والمرئيات) وأعني بذلك أشرطة العرض المرئي (الفيديو) والأشرطة الصوتية (الكاسيتات) والكتب والصحف والمجلات والمنشورات المختلفة.

إن هذه الوسائل كافة تعتبر عنصر بناء أو عنصر هدم، والغالب في دنيا الناس أنها لا تستعمل إلا في هدم الدين وتقويض أركانه ومحاربة المتمسكين به والمعتصمين بأهدابه.

وغدت هذه الوسائل سلاحًا يُشْهَرُ في وجه الدعوة الإسلامية في كل مكان، وحصنًا منيعًا يحول بين الناس وبين وصول صوت الحق إليهم، حتى عرف الناس جميعًا أن الإعلام المتمثل في صناعة السينما والصحافة (هذان بشكل خاص) أصْبَحَا مِلْكَ الأصابع الصهيونية الخفية التي صاغت بروتوكولات حكماء صهيون، ولم يعد خفيًا أن تلك الأصابع هي التي تصوغ الرأي العام العالمي، وهي التي تقرر ما يجوز نشره وما لا يجوز، وما يستحق الاهتمام وما يستحق الإهمال.

والصحوة الإسلامية في مقابل هذا التحدي لابد أن تحدث انقلابًا على هذا الاحتكار الإعلامي في المرئيات والمسموعات والمطبوعات، وفي إطار الشرعية التي تحكم كل تصرفاتنا في هذه الدنيا، وهي شرعية الكتاب والسنة والمثل والأخلاق الإسلامية التي نلتزم بها في السلم والحرب.

وقبل أن يتمادى التفكير بك - أيها القارئ -، فأنا لا أدعو إلى إقامة سينما أو مسارح أو أشرطة غنائية إسلامية (كما ينادي البعض ممن انحرف فهمهم لمقصود الخطاب الدعوي القرآني بل لمقصود الوجود الإنساني على هذه الأرض) بل في وضوح وجلاء: أنا أدعو إلى استعمال كل التقنيات الممكنة والمتاحة من تلك الآلة الإعلامية وتسخيرها للخطاب الدعوي، وبذل كل وسع ممكن في ملاحقة المستجدات الإعلامية التقنية وإمداد الكتائب الدعوية بها.

إن أشرطة الفيديو يجب أن تُسْتَغَلَّ في الحركة الدعوية، وأشرطة الكاسيت (ومثلها الأقراص المرنة - سي دي -) يجب أن نؤصِّل طريقة الاستفادة منها، والصحف والكتب المطبوعة كذلك.

ونحن أمام هذه الوسائل ما بين بادئين لها أو لم نَخْطُ فيها خطوات جادة، مثل أشرطة الفيديو، أو مُجَرِّبين ولكن ينقصنا التصور الإستراتيجي لاستخدام تلك الوسيلة مثل الصحف والمجلات وأشرطة الكاسيت.

في مجال أشرطة الفيديو أرى أن الدعوة لا يجوز أن تستأخر أي وقت في استغلال هذه الطريقة، فالذي لا مِراءَ فيه أن كل البيوت تملك جهاز العرض - الفيديو - حتى الكثير من البيوت الفقيرة، ولا أدل على ذلك من انتشار نوادي الفيديو ومحلات تأجير وبيع أشرطة الفيديو في الأحياء الفقيرة والشعبية، بما يعطي انطباعًا مباشرًا أن الناس كافة صاروا يتعاملون مع هذا الجهاز.

والذي لا مراء فيه أيضًا أن الناس لديهم استعداد لمشاهدة أي شريط إذا تضمن جانبًا يثير فضولهم واهتمامهم، نعم.. يهتم الغالب بأفلام الإثارة بأنواعها كالعنف والجنس ونحو ذلك، ولكن الجميع مستعد للتجاوب مع أية مادة يرى أنها تجذب اهتمامه.

والدليل على صحة دعواي أن كثيرًا من القطاعات استجابت لأشرطة المناظرة بين الداعية الإسلامية الشهير الأستاذ أحمد ديدات - رحمه الله - وبين القسيسين والمنصِّرين، وكان لهذه الأشرطة صَدى عالميٌّ أَقْلَقَ جُنُوبَ أولياء الكفر والشرك، وهَزَّ عروشَهم من الأساس، وذلك؛ لأن العامة والسذج والبسطاء صاروا يهتمون بهذه القضية بحكم حَمَاسَتِهم الفِطْرِيَّة وتَعَصُّبِهم الجِبِلِّي لدينهم، فكأن هذه الأشرطة قد أيقظت في الناس شعورهم الديني وحركت انتماءاتهم الفكرية.

كما أن أقراص - سي دي - التي تتضمن دروسًا مرئية لبعض الدعاة والعلماء لاقت قبولاً فائقًا من قطاع المتدينين وذوي الشعور الإسلامي العالي.

والمطلوب أن يتبنى إنتاج شرائط الفيديو جهات دعوية (حتى لو كانت تجارية) تُسَوِّقُ لأشرطة الفيديو التي تعرض أنشطة الدعوة المختلفة مثل المحاضرات الدينية أو

الأشرطة الموضوعية التي تعالج شأنًا شرعيًا كتربية الأولاد أو تطرح الرؤية التي تتبناها الحركة الإسلامية لجوانب سياسية أو اقتصادية معينة، أو أشرطة تتضمن أخبارًا للعالم الإسلامي وعرض أحوال المسلمين ونكباتهم، على نحو ما حاولته بعض هيئات الإغاثة الإسلامية حينما سَوَّقَت لشريط يشرح مأساة المسلمين في البوسنة، ولاشك أن هناك مجهودات أخرى وكثيرة ولكنها تفقد عنصرين مهمين: الإتقان في الإخراج وحسن التسويق.

أما جانب الإخراج التصويري فليس لي فيه ناقة ولا جمل، ولكن المتيقن أن الأمر لو احتاج تكليف شركات متخصصة لتصنيع مادة الشريط فليس في ذلك من بأس، وقد وجدت شركات ذات اتجاه إسلامي تتبنى مثل هذه المشروعات وهي جديرة بالتأييد والإعانة.

أما الذي يجب أن أَلْفِتَ الأنظار إليه، فهو الجانب التسويقي، حيث تتقاصر همم الدعاة والقائمين بالشأن الدعوي عمومًا عن الترويج للمُنْتَج الدعوي (إن جاز التعبير)، مع أن فرصة توزيعه على نطاق واسع ليست مستحيلة، بل إننا نرى كيف تتمكن المصانع والشركات التجارية من تسويق المنتج الرديء عن طريق آليات تسويقية معروفة مبنية على التعريف بالمنتج (الإعلانات) وتسهيل وصوله للمستهلك (عبر المحلات باختلاف درجاتها ومندوبي المبيعات)، وقد توسَّعَتْ أساليب التسويق في العصر الحاضر، حيث أصبح بإمكان المستهلك أن يشتري السلعة عبر الهاتف بعد مشاهدة مواصفات السلعة في التلفاز، مع ضمان أن يأتي إليه المنتج في بيته، وتدخلت خدمات الإنترنت في تسويق السلع حيث يقوم المشترك في الشبكة بشراء كل احتياجاته عبر معاينته لأوصاف السلعة من خلال الشبكة واختياره لما يناسبه ثم استخدام البطاقات الائتمانية في سداد المصروفات.

أما الأشـرطة الصوتية (الكاسـيتات) فـأنا أنقل لك كلامًـا بديعًا قديمًا للأسـتاذ الراشد ـ حفظه الله ـ كـتبه منذ أكثر مـن عشر سنين، وكان ما سَطَرَهُ مـجرد أحلام وأمنيات كما عَبَّرَ هو، ولكن في هذه الآونة قد تحقق كثير من أحلامه تلك، مما ينبئ أن كثيـرًا من الطموحات الواقعية قـابلة للتحقيق إذا اتخذت لهـا الأسباب الموصلة، يقـول ـ حـفظه الله ـ[1]: ومنهـا (من نداءات الدعـوة) اسـتثـمـارٌ مُنَظَّمٌ لأشـرطة الكاسيت، فإنهـا اليوم تنتشر بلا تخطيطات مركـزية ـ ينبغي أن تكون في كل بلد ـ وبلا انتقاء للمتكلمين، وفيهـا ما فيها من الارتجال أو التكرار أو الخلط أو الأحاديث الموضوعة أو الصَّخَب أحيانًا.

إن بإمكاننا أن نسـجل مائتي شـريط أو أكـثر، وفق قـائمة مـواضيع مـتكاملة، ولمتحـدثين من ثقاة الدعـاة وبأثمان مخـفضة فـتدخلَ كلماتُـنَا قلوبَ ربَّات الخُدور، ويتجاوب معها الشيخ والأُمِّي والانْعِزَالِيُّ والنَّائي الذي لا يَصِلُهُ الدعاة، ونَمْلأُ أوقات سَمَرَ الفـلاحين في الليالي، ونشغل رواد المقاهي وركـاب السيارات، كل أولئك على درجة سـواء مع المثـقف الذي يبتـغي التكرار، فَتُـرَطِّبَ هذه الأشرطة أرواحـهم عند إنصاتهم لها.. ثم يقول: إن إشاعة الأشرطة تعتمد اليوم على مبادرات فردية وأذواق مخـتلفة، ومن الواجب أن تُبَرْمَجَ قـياديًا في كل قُطْر، لتكون سلاحًـا إعلاميًـا رديفًا للكتب والمجلات تحكمـه موازين ويُسَيِّرُهُ تخطيط واضح في أهدافـه الجزئية التي يراد تحقيقـها، ومن الممكن أن تستورد الدعوة الأشرطة الخام ليـنخفض السعر إلى أقلَّ من النصف وأن تتحـمل الدعوة بعضَ تَكْلِفَتِـها لينخفض السعـر إلى الربع فتشيع أكـثر، ويَحْسُنُ آنذاك أن يَتِمَّ طبع دليل لهذه الأشرطة تخصص كل صفـحة فيه لإيجاز معاني شريط معين والتعريف بالخطوط العامة للكلام الذي يحتويه.

---

(١) «المسار» (ص: ٣٧٤) فما بعدها.

ثم يقول ـ حفظه الله ـ: إنها نعمة كبرى هذه الأشرطة، قَلَبَتْ الموازين وفَتَقَتْ على الحكومات الطاغية فَتْقًا ليس له رِقَاءٌ، ولكننا مازلنا لا نُجيد استخدام هذه النعمة ـ نحن معاشر دعاة الإسلام ـ، وبإمكاننا أن نحدث بواسطتها هَزَّةً سياسية كبيرة ونهضة فكرية تربوية معنوية قوية، وبأرخص التكاليف ولكننا قومٌ نُحبُّ الكسل، سيقول العَجَزَةُ من الدعاة: إن هذا العمل سيعرضهم لمتاعب مع زَبَانِيَة الطغاة من رجال المباحث والأمن، وعَجَبًا لهم ثم عَجَبًا، كأن طريق الدعوة خلا يومًا من المتاعب والتضحيات! قد تكون مثل هذه العملية صعبة في بعض البلاد التي تحكمها الأحزاب الإرهابية ولكن أكثر بلاد الإسلام الأخرى يَسْهُلُ فيها مثل هذا العمل، ولا يحتاج إلا إلى عَزْمَة جدٍّ قيادية، والتبكيرُ في شراء آلات الطباعة وأجهزة استنساخ الأشرطة واجبٌ قبل أن تمنعها الحكومات[1].

أما في مجال المطبوعات فلاشك أن الكتاب الإسلامي يحظى بشعبية جارفة أَهَّلَتْهُ أن يحتل صدارة الكتب الأكثر مبيعًا على مستوى معارض الكتاب في العالم الإسلامي، والذي نقطع به أن الكتاب الإسلامي لو أخذ حريته الكاملة (من جانب قوى الطغيان) وتلقى العناية الفائقة (من جانب المؤلفين والناشرين) لكان له عندئذ أعظم الأثر في نشر الصحوة الإسلامية على أوسع نطاق.

وقد عالجنا في الطريقة السابقة من طرق خدمة الدين (السابعة عشر بعنوان: حركة التأليف) كيفية النهوض بالكتاب الإسلامي تأليفًا ونشرًا وتسويقًا، وهنا نريد أن

---

(١) قد منعتها الحكومات بالفعل، فكأن الأستاذ ـ حفظه الله ـ كان ينظر إلى الغيب من ستر خفي، ولكن الفرصة مازالت سانحة لتكوين شركات إعلامية بترخيص حكومي معتمد، وقد انتشرت بفضل الله مثل هذه الشركات ذات التوجه الإسلامي، وتعمل بجد على نشر الشريط الإسلامي، وتساهم بدور فعال في نشر الثقافة الإسلامية وإعلاء مفردات الخطاب الدعوي للصحوة الإسلامية، ولكنها تحتاج ـ ولا ريب ـ إلى التنسيق فيما بينها وإلى تبني استراتيجية موحدة بدلاً من التنافس التجاري المقيت الذي سيؤدي ـ والعياذ بالله ـ إلى ما لا تُحْمَدُ عُقْباه.

نتباحث في بعض الوسـائل الممكنة لجعل المطبوعات وسيلة حيـوية من وسائل الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

فالملاحظ أن الكتاب الإسـلامي ينحو تسويقه جانبًا تجاريًا، والمـطلوب أن تعتمده الدعوة وسيـلة دعوية محضـة تعويلاً على أن الأصل في وصول كلمة الحق وتعلـيمه للناس أن يكون حِسْبَةً.

والأمـران الجديران بالطـرح هنا: تمويل طبع الكتب المجـانية، وحـسن اخـتيـار الموضوعات مع إتقان نشر هذه المطبوعات.

أما قضية نفقات توزيع الكتب بالمجان فهي فرع ما تحدثنا عنه في الطريقة التاسعة بعنوان (المال المبارك)، ولا بأس أن نطرح هنا بعض الأفكار التي لم تذكر هناك.

ففي مـجال طبع الكتيب الإسلامي مـازالت هناك مَنْدوحَةٌ وفسْـحةٌ، ويجب أن تبحث الدعوة عن كل الوسائل المتاحة ليتبنى ذوو اليَسَار طبع الكتيب الإسلامي.

تقـوم بعض الجمـعيـات الإسلاميـة التي تنتـمي للصحـوة بطبع بعضٍ من هذه الكتيبات، ولكن لابد من تنسيق وروية في اختيار الموضوعات وطريقة التوزيع.

والواجب أن يتباحث الدعاة في أصْلَح الكتب للنشر، أو بالأحرى التي يحتاجها المجتـمع المسلم على ضوء الأولويات المتـفق عليهـا، ويقبح أن نستـغل توزيع الكتب بالمجان في الترويج لفكرة ساذجـة أو الانتصار لخلاف سائغ، فالساحة مليـئة بالقضايا المصيرية التي تتطلب شفافية أكثر من هذا الزَّخَمِ الثقافي الكاذب(١).

---

(١) ولا يفهم من قولنا: المسائل المصيرية: في المجال السياسي والاجـتماعي كقضية القدس وتطبيق الشرع ومحاربة إدمان المخـدرات ونحو ذلك فحسب، بل المراد المسائل التي تعد من مهـمات الدين إجمالاً، كالصلاة والحجاب ونحـو ذلك، ونشر كتيب عن وجوب اللحية مثلاً لن يكون زخمـًا ثقافيًا كاذبًا إذا اعتبرناه إحياءً لسنة مهجورة، ودعوة إلى المفاصلة الأخلاقية والاجتماعية عن المشركين.

. ومن الضروري أيضًا أن يناصح الدعاةُ أصحابَ دور النشر في تحديد نسبة من الكتب التي يطبعونها لتوزيعها على طلبة العلم الفقراء أو على من يحتاجها من الدعاة لاستعمالها في حركته الدعوية، أو الاتفاق مع بعض الأثرياء وذوي اليسار على طبع كتاب واحد كل سنة.

أما الكتيبات الصغيرة التي تتناول قضية معينة ذات شأن ويُبْتَغَى توزيعها بالمجان فإنها لن تشكل عائقًا أمام الدعاة، فالمال اليسير يكفي الآن لطبع الآلاف من تلك الكتيبات الصغيرة.

ولو تعاون الدعاة والغيورون على الدين في جمع فتات المال كل حين وحين، لأثمر عندهم من الرصيد في طبع تلك الكتب ما لا يقع في الحسبان، والمطلوب أن يكون من بين الدعاة والقائمين بالشأن الدعوي من يُحْسِنُ عرض فكرة طبع الكتاب على ذوي الشأن ويطلب منهم التبرعات المطلوبة؛ لتكون عونًا للدعوة على طبع الكتب المطلوبة.

وطبع الكتب من أرجى الصدقات الجارية إذا ضُمِن توزيعُها بطريقة تَجُرُّ النفع على المسلمين عامة وطلبة العلم خاصة، فينبغي حَضُّ ذوي اليسار الذين يرغبون في إجراء الصدقات الجارية لهم أو لذويهم الأموات أن يساهموا في طبع الكتب الإسلامية التي تناصر شرع الله وقضاياه.

وعلى صعيد المجهود الفردي، فإن الاستفادة من هذه الوسائل أمر ميسور لكل إنسان، ولو اجتهد كل غيور على الدين بتكوين مكتبة صوتية أو تجميع بعض الكتيبات التي تحوي موضوعات ذات صلة بواقع المجتمع المسلم ثم عمل على تسخير سماعها لجيرانه وأقربائه وأصدقائه؛ لأسهم بعامل قوي وفاعل في بناء صرح الصحوة، فبهذا المسلك ستصل كلمة الحق ولا ريب إلى كل أُذُن وسيَعْلُو نداء الإسلام في كل بيت، وعندئذ تبدأ إرهاصات النصر المبين.

ولاشك أن هناك الكثيـر من الأفكار التي ذكـرت هنا أو لم تـذكر قـد نفـذت بالفعل، وبإمكان الدعاة أن يتناصحوا فيمـا بينهم حول أفضل السبل والوسائل لإحياء أو تنشيط هذه الوسيلة من وسائل خدمة الدين.

ويمكننا أن نصوغ أفكار هذا الباب فيما يلي:

١ ـ تكوين لجان اختصـاصية في كل منطقة دعوية من مهمتـها الاعتناء بجانب المطبوعات والمرئيات والمسمـوعات، حيث يكون من اختصاصها اخـتيار الموضوعات باسـتشارة قـادة الدعوة وعلمـائها، واتخـاذ الآليات الضـرورية لتنفـيذ المشـروعات الإعلامية المطلوبة.

٢ ـ يجب أن تعتني الدعوة بالجانب التمويـلي لهذه الطريقة، وذلك عبر الوسائل التي ذكرنا في الطريقة التاسعة والتي ذكرت ههنا.

٣ ـ تبني سياسـة إعلامية واضحـة المعالم ـ كما سبق وبينا في الطريقـة السادسة عشرة ـ، فمن شـأن السياسة الإعلامية أن تحدد للصـحوة مساراً عمليًا وحركـيًا مُعَيَّنًا تَتَـوَاثَبُ الجهـود على تنفـيذه وتنـشيطه، وأي نشـاط في هذا الجـانب دون تبني هذه السياسة من شأنه أن يصم أي مجهود بالارتجالية والعشوائية.

٤ ـ على صعـيد العمل الفـردي بإمكان أي داعية أن يجـتهد في الاستـفادة من الأشرطة الصـوتية والمرئيـة والمطبوعـات، وذلك عبـر شرائها أو طـبعهـا ونسخـها، واستعمالهـا في نشاطه الدعوي الميداني، أو تغذية مكتبة المسـجد الصوتية، أو تكوين نادٍ إعلامي في المنطقة لإعارة تلك الأشرطة على اخـتلاف أنواعها لسكان المنطقة نَظيرَ أجر رمزي أو بدون أجر، أو على حسب ما يرتئي كل داعية في منطقته.

٥ ـ مناصحة الناشرين وأصـحاب الشركات الإعلاميـة الإسلامية على تبني دَوْرٍ دعوي واضح والمساهمة في نشـر الصحوة عبر منتجاتهم الإعلاميـة، مع التأكيد على ضرورة أن يلتـزم كل أولئك بالخط الدعوي السائد، وألا يكـونوا أداة في يد المنافقين والمبتدعة من أعداء الصحوة المباركة.

الطريقة التاسعة عشرة

ثَـورةُ الاتِّـصــالات

الحاسب الآلي والوسائل العصرية في الاتصالات

قد مر معنا في حكم الوسائل الدعوية أن شريعة الله الغَرَّاء لا تَأبَى المُسْتَحْدَثَ من طُرُقٍ عادية في خدمة حَوْزَةِ الدين، وأن نصــوص الشرع تنادي ببذل كل متاح وإعداد كل مستطاع لرفع راية الحق والذبِّ عن حماه.

وإذا تقرر ذلك، فـإن الدعوة لابد أن تأخذ مجـراها في كل القنوات التي تلتقي فيها أفكار البشر، ولا يجوز أن تَنْأى عن هذه المواطن بزعم عــدم ملاءمتها أو تضمنها ما لا يليق اقتران الشرع المطهر به.

وقد أكد الباحثون أن ثورة الاتصالات في هذا العصر ستُحدث انقلابات جوهرية في كل مناحي الحيــاة (سياسيًــا واقتصاديًا واجـتماعيًــا)، وبِدَوْرِنَا لابد أن نُضيفَ أننا سنحدث بهـذه الثورة انقلابًا دعـويًا، ابتداءً من الهاتف والبـيجر والهاتف المحـمول، ومرورًا بإمكانيات جـهاز الحاسب الآلي، وانتهاءً بقنوات الاتصال الدوليـة المسماة في عرف عصرنا بالإنترنت.

وقد تم توظيف هذه الإمكانيات في بعض الأنشطة الدعوية، بيد أنها مازالت تأخذ طابعًــا فرديًا ومنحى اجتهــاديًا، والذي لا ريب فيه أن تقنية الاتصــالات لها تقنية استخدام، ولابد أن يتجاور مع شعـورنا بأهمية هذه التقنية أن نتخصص في أدق تفاصيلها، وليس ذلك بمُسْتَـبْعَد أو مُسْتَصْعَبٍ إذا صَدَقت مشــاعرُنا في قضية البذل للدين.

لقد عَلِمْتُ أن الرهبان البوذيين في بعض بلاد الوثنية تتطاول هممهم لإتقان التعامل مع الحاسب الآلي، ورأيت حركة التنصير في بلاد العالم تدار بتقنية إدارية عالية المستوى تنبئ عن مهارة وعبقرية في أداء العمل وتنفيذه.

بل من أعجب ما سمعته أن بعض الشباب المتحمس في أمريكا ضاق ذرعًا باحتكار شركة مايكروسوفت للبرمجيات المحاسبية، لدرجة أنها احتكرت سوق أنظمة التشغيل بالاتفاق مع الشركات المصنعة للحاسب الآلي أن تلزم المشتري بشراء الجهاز ومعه نظام التشغيل (ويندوز) التابع لمايكروسوفت، فانْبَرَى طالبٌ جامعي مَغْمُور (حانقٌ على تلك الشركة المذكورة) وابتكر نظام تشغيل عالي الكفاءة وبَثَّهُ في الإنترنت بالمجان، فاجتمع على نصرته كل الشبيبة الذين اشتركوا معه في الحنق على مايكروسوفت، حتى وصل عدد من صاروا يجتهدون في تطوير ذلك البرنامج المجاني وتحسين كفاءته: أكثر من ألف من الشباب المتحمسين المتخصصين في تقنية الحاسب الآلي.

فانظر - أيها الأريب - كيف جَمَّعَ أولئك وحَزَّبَهم تَبَرُّمُهم من الضَّيْم، وإباؤُهم أن يَفْرِضَ أحدٌ عليهم وصاية تكنولوجية، فثاروا ثورة تلقائية على وضع اقتصادي ليس ذا بال، فَأَجْدِرْ بدعاتنا بل بكل شبابنا الغيور ممن أوتي بَسْطَةً في العلم والاطلاع على تقنيات العصر أن يَسْتَنْفِرَهُم حُبُّ البذل للدين، وليقدموا لأمتهم ما يقض مضاجع الكافرين ويشفي الله به صدور قوم مؤمنين.

ولست بالذي يتمنى الأماني الحالمة، ويَغْرَقُ في بحار الوهم العميقة، لكنني أزعم أن الدعوة الإسلامية بآليتها الفكرية تستطيع أن تستعين بخبرات الأفذاذ من المتخصصين في كل المجالات التقنية المذكورة آنفًا دون أن نُلْزِمَ كل المنفِّذين أن يكونوا من أصحاب هذه التخصصات.

وفي إطار ما ذكرناه مرارًا أن الدعوة ليست حكرًا على أصحاب العمائم والشهادات الشرعية، فإننا نؤكد هاهنا أيضًا أن كل المتخصصين في كل المجالات العصرية لابد أن يكونوا جُنْدًا من جنود الإسلام، وأن تُسخَّرَ هِمَمُهُم وطاقاتهُم وإبداعاتهُم في خدمة الدين، ولابد أن يُبث في روع كل الشباب أن أي علم يدرسونه أو تَخَصُّص يُتْقِنُونَه إذا لم يكن للدين منه نصيب فهو وَبَالٌ على صاحبه ونِقْمَةٌ تَلْعَنُهُ أينما حَلَّ وارتَحَلَ، فالذي يعيش بنعمة الله لنفسه دون أن يبذل زكاتها ويؤدي حق الله فيها حريٌّ به أن يتوارى عن مجتمع الناس وأن ينزوي في دائرة النسيان كما نسي هو حق الله عليه.

وإذا ما أردنا أن نحرر أوجه الاستفادة من هذه الطريقة التي نحن بصددها فينبغي أن نعلم أن ثورة الاتصالات في هذا العصر قوامها على الأقمار الصناعية التي صارت الشركات التقنية تتنافس على تصنيعها بأسعار منافسة.

وصارت دول ـ ليست ذات شأن ـ بإمكانها أن تشتري قمرًا صناعيًا لتطور إمكانياتها التقنية في الاتصالات سواء في مجال الإعلام أو في مجال نظم المعلومات.

وكما سبق أن بحثنا فإن الكلام عن الطرق التي يجب أن تستثمر في خدمة الدين يجب أن ينأى عن دائرة الممكن أو غير الممكن، لأننا نزعم أن الحركات الإسلامية الآن تملك ثروات ضخمة وإمكانيات فذَّة، لكنها غيرُ مُسْتَثْمَرَة، وغيرُ مُوَظَّفَة على الوجه المطلوب، أو على أحسن الظنون: تحول كثير من العوائق دون توظيفها.

وسيأتي الزمان القريب الذي يصبح التعاون بين كل الحركات الإسلامية لتكون كلمة الله هي العليا حقيقة ماثلة، وواقع جاثم رغم أنف الحاسدين، وعندئذ لابد أن تُسْتَدْعَى كلُّ المشروعات التي كان الظن استحالة تطبيقها في ظل التشرذم.

وإذا كان الشأن كـذلك فأنا لا أستبعـد أن تملك الحركات الإسلامـية في القريب العاجل قمرًا صناعيًا يكون بمثابة انطلاقة كـبرى لمشروعاتها الدعوية. ولقد سمعت أن جمعية النور في تركيا (وأحسـبها تتبنى نهج الشيخ بديع الزمان النورسي - رحمه الله -) تملك قناة تليـفزيونيـة فضائيـة والكثيـر من محطات الإذاعـة المحلية، والعـشرات من الصحف والمجـلات، ولا ريب أن دعوةً تَدْخُلُ البيـوت باستدعاء أصـحابها لها عَـبْرَ أزرار التليفزيون تستطيع حينئذ أن تناطح خصومها بقدم راسخة وخطوات واثقة.

ولقد ذكـرنا بعض الوسائـل المتاحة لتـوفيـر التمـويل اللازم لمشروعـات الدعوة الكبرى، والأمر كما ألححت مـرارًا ليس مجرد حُلُم أو أمنية مغرورة، بل هو واجب لابد أن ننذر له صومًا عن النوم حتى يَتأدَّى.

وفي مجـال الاتصالات نرى التقنيـة قد أفرزت لنا الكثـير من الاختـراعات التي تحتاج قبل كل شيء إلى دراسة وتمحيص لمعرفـة أوجه الاستفادة منها، فكما علمنا أن تقنية الاتصالات تحتاج إلى تقنية استخدام، وقد رأينا كثيرًا من الهيئات الحكومية وغير الحكومية في بعض الدول الإسلامية عاجزة عن الاستفادة من إمكانيات الحاسب الآلي بسبب عدم درايتها بمجالات الاستفادة.

إن الهاتف والمحـمول وجهاز الاسـتدعاء (البيـجر) بتقنياته صـار يمثل عنصرًا حيـويًا لكثيـر من الناس، وأَجْدَرُ الناس بالاسـتفادة منه هم الدعـاة الذين تتطلب احتياجـات الدعوة تواجدهم في أكثر من مكان في وقت واحد، كمـا أن احتياج كل الناس إليـهم يلزم مـعه ضـرورة ربطهم بالناس وربـط الناس بهم، كنوع من المبادرة في مخاطبة الجماهير، والسابقون في الوصول إلى الناس هم القادرون على التأثير فيهم أكثر من غيرهم.

فمن الضروري أن تكون بعض أرقام هواتف الدعاة مشاعًا بين الناس (أرقام معينة)، وأن يعمل طلبة العلم والمعنيون بالشأن الدعوي أن يحثوا الناس على استفتاء الدعاة وعرض مشكلاتهم عليهم، ولو استطاعت الدعوة أن تسهِّل اتصال الناس بالدعاة ـ بحيث يكون الدعاة أول من يفكر فيهم الناس عند حدوث أية مشكلة ـ فإنها بذلك تكون قد ضمنت قيادة المجتمع، وامتلكت ناصيته، وأمسكت بدفة توجيهه، ومع مرور الزمن فإن الدعوة هي التي ستملك توجيه الناس إلى أي موقف تتبناه أو تريد للناس أن يتبنوه.

وفي مجال الاتصالات يبرُزُ الحاسب الآلي وثورة البَرْمَجِيَّات، فهذان القطاعان صارا يمثلان عصب السياسة والاقتصاد والعسكرية في معظم دول العالم، وحتى نتصور أهمية هذين القطاعين فيمكننا تذكر مشكلة عام ألفين (ويعرف بمشكلة الصفرين)، وهي مشكلة عجز الحاسبات القديمة على التأريخ لعام ألفين لعدم تصميمها آنذاك إلا على التأريخ لخانتين فقط، وبحلول عام ألفين ميلادي ستعجز الحاسبات القديمة عن التأريخ للعام الجديد مما سيتسبب في خلل في كل البرامج والمعلومات المحملة على تلك الحاسبات القديمة، وقد قدر بعض الباحثين أن دول العالم ستحتاج إلى ما يقرب من ثلاثمائة مليار دولار على أقل تقدير لحل هذه المعضلة.

كل ذلك ذكرتُه حتى نُولي هذا الجانب بعضَ الاهتمام؛ لأنه من المتفق عليه أن قطاعات عريضة من الدعاة وغير الدعاة من المعنيين بالشأن الدعوي يُهْمِلون الاستفادة من هذه الوسيلة.

وسنذكر بعض أوجه الاستفادة من هذه الطريقة وكيفية الاستفادة منها بالنسبة للدعاة ليكون ذلك من باب التذكير، والله الموفق والمعين:

أولا - الاستفادة من الحاسب الآلي في إطار برامج الخدمات:

إن البرامج التي صار باستطاعة الحاسب الآلي أن يتعامل معها صارت لا تُعَدُّ ولا تُحصى، ومما هو معلومٌ أنَّ سـوقَ البرمجيات تَعَدَّى مـرحلةَ الضروريات إلى البرامج المسلية بل المضـيعة للوقت، مما ينبيك أن أُطُرَ اسـتعمال هذه البـرامج تناولت جوانب شتى من الحياة، بحـيث أصبح بالإمكان إدارة هيئة دعوية عالميـة ببرنامج واحد تخزن فيه كل المعلومات المتاحة ويتم استدعاؤها وَفْقَ أي منظومة.

وصار بإمكان الدعاة أن يستـخدموا برامج كتابية تسهل علـيهم تخزين المعلومات والتصـنيف والرجوع أيضًـا لكل ذلك وبمنتهى السـهولة، ولاشك أن هذا يوفـر على الداعية من الوقت والجهد الكثير الذي يجب أن يوفره في مصالح أخرى مهمة.

وقد انتشرت البـرامج التي تخزن كتب العلوم الإسلامية من مـعارف شتى، حتى أصبح تخـزين آلاف المجلدات في قُرْصٍ مَـرِنٍ يُوضع في الحاسب الآلي أمـرًا عاديًا، بحيث يمكن استدعاء أية مـعلومة وبسرعة غير عادية، وبينما كـان الداعية يحتاج إلى الألوف المؤلفة مـن الأموال ويحتـاج إلى الغرف الفـسيحـة ليملأها بالـكتب، أصبح باستطاعته أن يشتري هذا الجهاز بثمن زهيد وكذلك البرامج المذكورة.

وليس من الغريـب الآن أن الطبيب والمهندس والمدرس والمحاسـب لا يستطيع أن يسـتغنـي عن هذا الجهـاز المهم، فلقـد عـمل هذا الجهـاز على توفـيـر المجهـودات والمصروفات بطريقة مذهلة.

إن الداعيـة يجب أن يكون ضنينًا بوقتـه شحيـحًا بزمانه، ويجب أن يهـتبل كل فرصة في توفيـر الدقائق بل الساعات، وإذا أمكن لدعاتنا أن يجتـهدوا **قليلاً في تَعَلُّم نُظُمِ** الحاسب ولو بـالقدر الذي يؤهلهم للتـعامل معـه فإنهم بذلك **سيَـخْطُون** خطوة واسعة المدى في خـدمة الدين، فإن أوجه الانتـفاع من الحاسب الآلي **تتضـاعف كما** يقول الخبراء.

ثانيًا ـ الاستفادة من الحاسب الآلي في إطار الاتصالات:

لقد غدا الإنترنت وسيلة العصر في الاتصالات السريعة، بل تعدى ليصبح في بعض الدول وسيلة التسوق والتسويق للسلع، وصار بإمكان المعلومة أن تنتقل إلى أرجاء المعمورة في أقل من الثانية وفي أي وقت وفي أي مكان بواسطة الضغط على مفتاح واحد من لوحة المفاتيح.

وصار البريد الإلكتروني وسيلةَ كل ذوي المعارف في تبادل الخبرات والعلوم، فيتم الإعلان عن المحاضرات والندوات واللقاءات بصورة فورية عبر عناوين البريد الإلكتروني دون تجشم عناء تبليغ المواعيد شفاهية.

بل صار من الممكن عقد الندوات عن طريق الحاسب الآلي عبر خطوط عديدة ولو كانت متباعدة بعد المشرق والمغرب، ومثل هذه الثورة في الاتصالات لابد أن تنال منها الدعوة النصيب الأكبر، ونحن لم نتحدث عن ضرورة دخول سوق تصنيع الحاسب والبرمجيات، فهذه قضية تحتاج إلى مصنف خاص استوفاه بعض الغيورين من أبناء الأمة[1]، ولكننا نتحدث عن إمكانية استغلال الحاسب الآلي والانتفاع بالإمكانيات التي توصلت إليها تقنية الاتصالات.

إنني أرسم صورة عامة لما يجب تداركه من أوجه خدمة الدين، أما تفاصيل أوجه استخدام الحاسب الآلي في خدمة الدين فمما لا يَفِي به مصنَّفٌ مستقل، ولكننا نَحْسبُ أن أوجه الانتفاع ستحتاج إلى متخصصين من الجانب التقني والجانب الشرعي.

وقد رأيت في إحدى الكليات الإسلامية أجهزة الحاسب الآلي قد ملأت غرف الأساتذة والمدرسين، بيد أن التراب قد علا أركانها، فأضحت كقطع الآثار التي تحتاج

(١) ننصح بكتاب «العرب وعصر المعلومات» إصدار سلسلة عالم المعرفة، وزارة الثقافة بدولة الكويت.

أماكن عرض مناسبة، فلما سألت عن هذه الأجهزة قالوا: تبرع بها بعض المحسنين لتلك الكلية، فلم يروا بُدًا من حَبْسِهَا في غرفة المدرسين، فقلتُ ـ في نفسي ـ: أولَمْ يَكُنْ من الأحرى أن تجمع تلك الأجهزة في غرفة ويتم تدريب الأساتذة عليها وكذلك الطلبة؟!! أولم يكن من الأجدر أن يُعْطى الجهاز الإداري في الكلية جهازًا واحدًا يتم تخزين المعلومات فيها وكذلك طبع الأوراق المطلوبة بدلاً من الكيفيات البدائية التي يتعامل بها الإداريون؟!!

وإذا كنا سنعتبر مجرد استعمال الحاسب ـ دون أن يكون للأمة الإسلامية دور في تصنيعه ـ نَقْصٌ يجب تَدَارُكُه، وفرضٌ كفائي يجب السعي لِدَرْءِ الإثم عن الأمة بأدائه، فكيف بنا ونحن نرى البعض يقنع من الغنيمة بالإياب، ويستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير؟

◆◆◆

الطريقة العشرون
إِصْلاحُ ذَاتِ البَيْن

من أكثر مـا يَتألَّمُ له قلبٌ غيورٌ على دين الله تعـالى ـ ما نراه كل يوم من اتساع هوة الخلافـات بين الأفراد والجمـاعات ـ على نطاق الصـحوة الإسلامـية ـ وبين كل الناس وفي كل مكان ـ على نطاق المجتمع المسلم كله.

ولاشك أن هذا من شُؤْمِ تَنَكُّـبِ الصراط المستـقيم، وهُجْرَان المنهج الصـحيح، والخطإِ في التربية الإسلامية القويمة، مما يستتبع بالضرورة نهضةً لاستدراك هذا الخلل، وذلك بمحاربة الفُرْقة، والتأكيد على مبادئ الوحدة ولَمِّ الشَّمْل وجَمْع الصف.

وقد يتساءل البعض، كيف يمكن أن نتصور هذا العملَ طريقةً من طرق خدمة الدين؟

وأنا أخبرك ـ أيها اللبيب ـ كيف نستطيع أن نبني أمة واحدة ونبدأ في تأسيس هذا البنيان بالمجهودات البسيطة، التي قد يظنُّها بعضُ الناس هَزْلاً، وما هي إلا الجِدُّ الذي لا هَزْلَ فيه؟

قال الله تعالى: ﴿ يا أيُّها الَّذين آمنُوا كُونُوا قوَّامين بالْقسْط شُهداءَ للَّه ولوْ علىٰ أنفُسكُمْ أو الْوالديْن والأَقْربين ﴾ (النساء: ١٣٥)، وقال الرسول ﷺ: «وكل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين اثنين صدقة»[١].

لقد درس بعض البـاحثين في المجـال الاقتصـادي عن سبب تفـوق اليابان على الدول الغربيـة في المجال الصناعي والتقني والإداري، مع أن الدول الغربيـة أسبق في كل هذه المجالات.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

فخَلُصَ هذا الباحث إلى أن التنمية اليابانية بما فيها من حركة اقتصادية وصناعية وإدارية تتضمن عنصرًا اجتماعيًا حيويًا ليس موجودًا في المجتمع الرأسمالي الغربي، ألا وهو الروح الجماعية في آلية التنمية اليابانية، ويعني بذلك أن الصناعة والتجارة والإدارة اليابانية ـ وإن كانت رأسمالية ـ ولكنها كانت بعيدة عن الفردية المتطرفة التي نادى بها رأسماليو الولايات المتحدة، والتي هي أشبه ما تكون بالإقطاع، أو نظام الرق المقنَّن.

إن عجلة التنمية اليابانية حَرِصتْ على ألا تجعل لأصحاب رؤوس الأموال خاصية تسلطية على من تحتهم، وأضحى هذا المسلك عقيدة اجتماعية لدى أصحاب رؤوس الأموال أنفسهم، فصاغوا فكرًا اقتصاديًا قائمًا على إشراك كل العمال في الوحدة الصناعية أو التجارية في مصير الربح والخسارة، فإذا ابتكر عامل طريقة جديدة لحل مشكل صناعي نسب هذا الابتكار الجديد إلى كل الوحدة، مع عدم إهمال مكافأة المتميز.

كما أن التنمية اليابانية احتفظت بالطابع الشرقي الذي يُعَظِّمُ مكَانَةَ الأستاذ والمعلِّم، فالعامل الصغير يعظم رئيسه في العمل بمقتضى موروثاته الاجتماعية، مما أكسب العمال ترابطًا تلقائيًا كَسَرَ من حِدَّةِ أي تسلط رأسمالي على حساب طبقة العمال.

ويمكنك أن تلمح هذا الترابط الاجتماعي في المجتمع الياباني عبر احترام بعضهم لبعض، وحرصهم على أداء التحية اليابانية المعروفة في كل لقاء.

ونحن لسنا بصدد نقد حضارة وثنية مثل الحضارة اليابانية، ولكننا نتبصر في جوانب الخير والحكمة التي هي ضالة المؤمنين، لنتمثلها في أخلاقنا وعاداتنا، فالشرع ما تَرَكَ من خير إلا وأَمَرَ به، وما وَدَعَ من شر إلا ونهانا عنه، وقد قال الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (النحل: ٩٠).

وما نحن بصدده الآن أن نوجد ذلك المجتمع المتوحد في معرفة المصير والهدف، وأن نقلل من الخلافات المحتدِمَة فيه، وأن نوجد الآلية التي نضمن بها اجتماع المسلمين على كلمةٍ سَوَاء.

إن ترابُطَ المسلمين من شأنه أن يَخْطُوَ بنا خطوات واسعة نحو النصر والتمكين، وتعاونَ الجماعات العاملة في حقل الدعوة من شأنه أن يُكْسِبَ رصيد الصحوة زخمًا يؤثر ـ ولاشك ـ في انطلاقتها العالمية.

ولاشك أن ما ننادي به هنا يَعُدُّه بعض الناس حُلُمًا، وبعضُ الناس يعده أمرًا غير مطلوب بالدرجة الأولى، ونحن لا ننكر صعوبة ما نتحدث عنه، كما لا ننكر أن قضية الوحدة في هذا الوقت ليست مِن أولى الأولويات(١)، ولكننا يجب أن نعتقد أنها واجب مهم من واجبات الشرع، وأساس متين من أسس الجماعة المسلمة التي وعدها الله بالنصر والتمكين.

وعليه فلا يجوز التَّعَامي عنها كهدف نسعى إلى تحقيقه، حتى ولو بصورة بدائية، أو بطريقة مَرْحَلِيَّة، تتحقق فيها الأناة والروية اللذان هما شرطان أساسيان في كل عمل ناجح ودائم.

---

(١) يرى الكثير من الدعاة أن توحد الجماعات الإسلامية في هذا الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية يواجه صعوبات جمة، كما أن تربص أعداء الدين بتيارات الصحوة المختلفة أكسبها وجلاً من محاولة إعلان التوحد لئلا يؤدي إلى حملة استئصالية لكل تيارات الصحوة، ولاشك أن هذه النظرة تحوي بعض الوجاهة، ولكننا لا ينبغي أن نرضى بهذه الحال، بل يجب أن يكون عملنا منصبًا في تهيئة الجو المناسب لإحداث هذه الوحدة، لا أن نرضى بهذا الوهن والهوان، ثم نمضي في طريق تأصيل الخلاف والتهاجر، فهذا والله مما لا يرضي الله ـ تبارك وتعالى ـ، ونحن نبرأ إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ من كل خلاف مبني على الهوى، ونبرأ إلى الله من كل من يحاول الوقيعة بين المسلمين، ويعمل على تأجيج نار الفرقة بينهم، وهؤلاء لعمر الله أضر على الأمة من أعدائها الحقيقيين، فإلى الله المشتكى، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نعم - أيها القارئ الكريم - إن إصلاح ذات البين يجب أن يكون هدفًا نسعى لتحقيقه بالقدر المستطاع، وغايةً يجب أن تعم كل تطلعات شباب الصحوة ودعاتها.

بل هي هدف اجتماعي يجب أن يتحقق على مستوى الأفراد بالصورة التي تكون سببًا في تحققها على مستوى الجماعات.

إننا نراقب بكثير من الألم والقلق مواقف كثير من الدعاة من بعضهم البعض، ونَنْدَهَش من هذا التَّرَاشُق الذي يحدث بين أناس يجمعهم منهج واحد في فهم الكتاب والسنة، بل وتَحْدُوهُم غايةٌ واحدةٌ في إعْزَازِ الدين، بل ويجمعهم مصيرٌ مشترَك ضِدَّ أعداءٍ معروفين للإسلام والمسلمين.

والأدْعَى للتعجب أن هؤلاء لا يَتَفَرَّقُونَ في أصول عقدية واضحة، بل في مسائل هي معدودة على التحقيق من فروع المعتقد، بل يَعُدُّهَا بعضُ الأئمة من الخلاف اللفظي.

أنا لا أُنْكِرُ بَدَهِيَّة وجود خلاف واختلاف، ولكنني أزعم أنه ليس من ضرورة الخلاف أن تحدث العداوة والبراءة بل والمحاربة، وأن تستخدم المنابر التي ما نصبت إلا للأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر في تصفية تلك العداوات والخلافات.

وقد رأى أحد السلف رجلاً يغتابُ مسلمًا، فسأله: هل غَزَوْتَ هذا العام؟ فقال: لا! فقال: سَلِمَتْ الرومُ والكفارُ من سَيْفِك ولم يَسْلَمِ المسلمون من لِسَانِك؟

وأرى أنَّ هذا المشهد يحدث بحذافيره في العصر الحاضر، فقد سَلِمَ أعداءُ الله من العلمانيين والشيوعيين وأهلُ البدع المنكرة الضالة كالقَادْيَانيِّين والشيعة الرافضة من ألسنتنا معاشرَ دعاة أهل السنة، ولم يَسْلَمْ بعضُنَا من لِسانِ بَعْض.

لَعَمْرُ الله إنها الفَاقِرَةُ التي تَرَكَتِ الديارَ بلاقعَ، والحَالِقَةُ التي تَحْلِقُ الدين، وموروثات الهوى ورواسب الجاهلية التي مازالت مُتَمَكِّنَةً في النفوس، وتحتاج إلى

قومة لله صادقة، نَسْتَأْصِلُ بها هذا الدَّرَنَ، ونُطَهِّرُ بها حنايا القلب، ونُحَرِّرُ النية، ونُصْلِحُ الطَّوِيَّة، ونُمَحِّصُ القصد، ونُمَحِّصُ الإرادة، والله الموفق والمعين.

إن الصحوة تشهد استقطابًا حادًا في مسائل فرعية وليت الخلاف يبقى في دائرته الشرعية الضيقة من مناصحة بالأدلة وتَغَافُر بعد المحاورة، واعتقاد ثبوت الأجر للجميع، ولكن الأمر لم يركن إلى شيء من هذه الآداب الإسلامية، بل تعداها إلى تَحَزُّبٍ وتَنَاحُر، حتى صارت بعض الجماعات توالي وتعادي على مسألة واحدة من فروع المعتقد، وكل ذلك من شؤم الخلاف والفرقة، والله المسئول أن يصلح أحوال المسلمين.

إن هذا الكتاب ـ أيها القارئ الكريم ـ يخاطب قلب ووجدان من اعتصره حال الإسلام والمسلمين، وينادي على كل ذرة شفقة في قلوب المسلمين لِيَقِفُوا وَقْفَةً واحدة أمام أعدائهم، ولن أقول كما يقول بعض الهلاميين: أن نَنْسَى خلافاتنا، فإن هذا ليس معقولاً، ولا مشروعًا، فالخلاف سنة قدرية، واعتقاد الراجح سنة شرعية، والمعقول والمشروع ألا يكون الخلاف السائغ سببًا في الفرقة والتنازع.

وقد نادى بعض الدعاة بتكوين لجنة حكماء وظيفتها تدارك الخلاف بين الجماعات التي تجمعها آصرة أهل السنة والجماعة، بحيث تقوم بدور لجنة المساعي الحميدة بين المتخاصمين والمختلفين من الدعاة أو الأفراد.

وهي فكرة جديرة بالتطبيق، وحَرِيٌّ أن يهتم بها ولها كل غيور على دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، ولكن في إطار الشرعية العقدية والجماعية التي أصلتها نصوص الشرع ومنهج السلف الصالح في الاجتماع والولاء والبراء.

إن لنا أن نتصور المصالح العظيمة التي ستعود على الصحوة لو تحقق مثل هذا الأمر، ويمكننا أن نتصور كمية الجهود التي كانت تبذل في تلك الخلافات العقيمة، وكيف أنها ستصرف في صالح الإسلام والمسلمين.

إذ لم يعد من المقبول أن نرى العالم كله يَتَوَحَّد، والأعداء كلهم يتعاونون لتحقيق غاياتهم وأهدافهم، ونحن نرى المسلمين، بل أهل السنة والجماعة متشرذمين، وهم نُقَاوَةُ المسلمين وخُلاصة الخلق أجمعين.

وهذه بعض الأفكار التي نقترحها لتحقيق وحدة الجماعات العاملة في حقل الدعوة بالدرجة الأولى:

١ ـ تلاقي القيادات الإسلامية والدعاة والعلماء في المناسبات المختلفة، والأفضل أن تكون هناك لقاءات دورية ومؤتمرات لمناقشة شئون الدعوة، وعلى الصعيد الفردي فإنه من السهل على كل داعية أن يتعهَّد إخوانه بالسؤال والزيارة، والتهنئة والمواساة في المناسبات المختلفة، أو أنْ يبعثَ بالرسائل الإخوانية التي تَبُثُّ الدِّفْءَ في العلاقات وتذيب كل بقايا الشَّحْنَاء والبَغْضَاء والنَّزْغ الذي يزرعه الشيطان.

٢ ـ تكثيف الأدبيات التي تُعْنَى بتوحيد المناهج وفق الكتاب والسنة، وضرورة الأخذ بمبدإ المناصحة، وعدم احتكار الحق، والتغافر في قضايا الخلاف السائغ.

٣ ـ تكثيف التعاون بين الجماعات في القضايا المصيرية، والتوحد في المواقف التي تستلزم عدم التنازع والفرقة أمام أعداء الدين.

٤ ـ الرقي بمستوى التعاون بين الجماعات العاملة في حقل الدعوة عبر تكثيف تبادل الخبرات الدعوية لتوسيع مساحة الدعوة بين شرائح المجتمع، ومن مقاصد هذا الاتجاه أن يتم التنسيق بين القيادات في الأعمال الدعوية بحيث لا يجور بعضنا على بعض؛ فالمجتمع ساحته رحبة تتسع لعمل كل الدعاة، فلنَهْجُرْ مسلك التناحر والتسابق إلى احتلال المواقع من بعض، وليكن النزاع بيننا وبين أعداء الله تعالى.

٥ ـ تنمية روح المودة في الأفراد عبر هجر مسلك التحذير وتشويه الصورة، بأن يكون حديث الدعاة عن بعضهم حديث أخ محب لأخيه، مُحْتَرِمٍ لِغَيْبَتِه، فينشأ

الناشئون في الصحوة على احترام كل الدعاة وتوقيرهم والتماس المعاذير لمخطئهم، والدعاء لهم جميعًا بظهر الغيب.

٦ ـ تشجيع المخيمات الصيفية المشتركة لتنمية روح المودة بين الأفراد والجماعات والدعاة، ولتكن هذه المخيمات نواة وبداية لتوحد الصف.

٧ ـ تكوين مجلس حكماء من قادة ودعاة الجماعات العاملة في الساحة يقوم بحسم النزاعات بينها، والتخطيط والسعي لوحدة الصف الإسلامي.

٨ ـ إصدار البيانات المشتركة في حالة الأحداث الجسيمة التي تلم بالأمة، فإن هذا من شأنه أن يُشْعِرَ الشباب بتوحد القيادات، فتنمو روحُ العزة الإسلامية في نفوس الشباب ويزدادون ثقة وطاعة لقياداتهم.

٩ ـ دَرءُ كل خلاف يحدث بين الأفراد والجماعات، ومحاولةُ منع تَفَاقُمِهِ، أو التقليل من أضراره ومفاسده، وتسوية الخلافات عبر المسئولين، وعدم استخدام المنابر ووسائل الإعلام للحديث عن الخلافات بين الدعوات والدعاة.

١٠ ـ ضرورة التخلق بآداب العمل الجماعي، وبآداب الأخوة الإسلامية على وجه العموم، وتطبيق مواثيق المودة والموالاة بين المؤمنين.

◆◆◆

الطريقة الحادية والعشرون
الدَّعْوَةُ الفَرْدِيَّةُ

إن الدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ سِمَةٌ من سمات المسلم لِمَحْضِ كونه مسلمًا، وقد سبق أن استدللنا لهذه القضية عند كلامنا عن (خدمة الدين ضرورة من ضروريات الدين).

ونريد هنا أن نُفَعِّلَ دور المسلم في البنيان الدعوي، لنجعل مصير الدعوة هَمًّا مشتركًا بين جميع المسلمين، فالمتصور أن الصراع بين الحضارات الآن يأخذ طابع الصراع المصيري الذي هو أشبه ما يكون بميدان حرب تستخدم فيه كل الأسلحة، ومثل هذا الصراع المصيري الذي يكون شعاره: نكون أو لا نكون، لابد أن يتحمل كل فرد مُنْتَمٍ لحضارةٍ ما مسئوليته في الدفاع عن مصيره بل وجوده، ولم يعد الأمر مجرد دفاعات جماعية حول الحصون المغزُوَّة من كل جانب.

وعصرنا الذي نعيشه الآن يحمل هذه السمات، لذا كان لزامًا أن تتفاعل جهود كل المسلمين للذَّب عن دينهم والقيام بأمره، ونحن لا ننتظر من مسلمي البطاقات شيئًا، ولكننا نَنْظُرُ بعين الأمل، ونَرْقُبُ بهاجس الاسْتِبْشَار إلى من خَالَطَ الإيمانُ بَشَاشَةَ قلبه، واحْتَرَقَ أَلَمًا لما يراه من مكر الليل والنهار، والكيد العظيم الذي يُكادُ للمسلمين في كل بقاع الأرض.

إلى مثل هذا الغيور نَمُدُّ أيدينا وننادي عليه أن هَلُمَّ إلى القافلة، وبادر إلى تسجيل نفسك في كتيبة المدافعين عن حياض الدين، ولا تكن كالمُخَلَّفِينَ الذين فَرِحُوا بِمَقْعَدِهِم خلافَ رَكْبِ الإيمان، ورضُوا بأن يكونوا مع الخوالِف، ذَرْهُمْ في ريبِهِم يَتَرَدَّدُونَ وانْهَضْ بهِمَّةِ المجاهد إلى مُنادي الفلاح، واجعل الإيمان من خير العتاد.

إننا نتصور أن أي واحد من أولئك يستطيع أن يقيم للإسلام صرحًا لو أنه أسهم بجهد قليل في الدعوة إلى الله، ونحن نضع بين يديك - أيها الغيور على دين الله - هذه الطريقة وهذه الأفكار لنقطع عليك المعاذير، ونلجم إرادتك بلجام العزيمة القوية، فإذا عَزَمْتَ فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

إن المسلم موجود في كل مكان على هذه الأرض، موجود في الفاتيكان (مقر البابوية الكاثوليكية)، موجود في تل أبيب، موجود في أمريكا أرض الفساد والشرور، موجود في كل البلاد الوثنية وغير الوثنية، موجود في أدغال أفريقيا والأمازون، وصحاري العالم أجمع، موجود فيها ذلك المسلم.

ونريد من ذلك المسلم أن يقوم بوظيفة واحدة، سهلة يسيرة، أن يتكلم مع غيره، أن يفتح حوارًا، أن يختار هو مادة هذا الحوار، أن يوجِّه دفته بذكائه، أن يأخذ بمن يحاوره ذات اليمنة واليسرة ليقوده إلى النتيجة بنفسه، فإذا خَصْمُهُ قد حَجَّ نفسَه بنفسِه.

نريد ذلك المسلم أينما كان أن يتبنى قضية سهلة يستطيع أن يجوب بها البلاد، لا نريد أن نُعَقِّدَ له الأمور، نريده أن يحملَ همًا واحدًا، ويجعله القضية التي يحول بها ويصول، ويفكر ويدبر ويخطط، نريد أن نجعله يحدد أهدافه على ضوء تلك القضية التي جعلها محور دعوته.

إن الدعوة الفردية عالَمٌ خَصْبٌ من الجهود والأفكار والأعمال، وأكثر ما يُمْتِعُ فيه أنه سَهْلُ التنفيذ سريع الأثر، وهذان هما المقصدان الأساسيان في الدعوة الفردية.

إن الدعوة الفردية ليست تربية عميقة الأثر، فذلك مَقْصِدٌ أَفْرَدْنَا له طريقة خاصة بل طُرُقًا، ولكن الدعوة الفردية رسالةٌ مُتَنَقِّلَةٌ يحملها الداعية الميداني إلى كل مكان، إنه لن يُعاني كما يعاني المربي؛ لأنه ليس مخاطبًا بالنتيجة ومحاسبًا عليها كذاك، ولكنه يحمل قضية الإسلام كدين يجوب بها في كل مكان، إنه يخاطب كل

البشـر، يدعو كل الطوائف، ينصح كل الناس، يحـاور كل الأجناس، يتداخل مع كل الأنواع والأصناف.

عُدَّته مـا تَعَلَّمَـه من العلم ولو كان قليـلاً، فهـو ينصح من يراه لا يصلي، لأنه يعـرف أن ترك الصلاة من كـبائر الذنوب، ويَزْجُرُ شـاربَ الدخـان؛ لأنه علم دليل حرمـته، ويحاربُ المخـدرات ومن يتاجر فـيها؛ لأنه تبين له وجـه الخطر والشر على المجتمع منها، يواجه التـبرج والسفور باعتباره رذيلة تُهَدِّدُ عفَّـة المجتمع ومُثُلَه، يُجَابِهُ الانحلال في أجهزة الإعلام، لأنه يعلم خطر ذلك على البناء الخلقي للمجتمع.

إن مثل هذه القـضايا يحمـلها كل مسلم أينمـا حل أو ارتحل، ونحن نطالب كل مسلم ألا يقف مـوقف المتفرج، بل يبـادر إلى الصدع بالحق في كل ميدان، ليـحاور زملاءه في العمل، ليحاور المدرسُ تلاميذه، ليحـاورْ طالبُ الجامعة أصدقاءه، ليحاور الراكبُ في المواصلات مَـنْ مَعَهُ من الركـاب، ليحاور المسلـمُ أقرباءه في كل زيارة أو مناسبة اجتماعية، ليحاوِر المسلمُ كل من حوله من الناس.

إن هذه الدعوة الدءوب هـي التي ستجـعل الإسلام قضـية المجتـمع، وهي التي ستُـحيي في الناس عـاطفة التدين، وتَصْـرِفُ اهتمـاماتهم إلى المعـالي، ومثل هؤلاء الدعاة في كل مـيدان هم الذين يحددون للمـجتمع أولويات اهتمـاماته، وهم الذين يصوغون الرأي العام إن جاز التعبير.

إن المطلوب من المسلم الذي يمارس الـدعوة الفـردية ألا ييأس من النتـائج، وألا يَقْنَطَ من التخـاذل، فهو لا يـدعو ليهـدي، ولكنه يدعو لتكون كلمـة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

إن المتصور في هذه الطريقة أن نستثير بها اهتمامات الناس بالدين، لا أن نصل بهم إلى نقطة معـينة في الالتزام بالدين، فالعمليـة الدعوية التي تفرز إنسانًا ملتـزمًا بالدين

عمليـة معقدة، وهي أشـبه بالدورة التي يلتقط فيـها المدعو من كل بستـان زهرة حتى تتكون لديه باقة من الأزهار إن أعجبـته جمعها وزين بها بيـته، فيعلم الداخل أن ذلك المدعو قد أعجب بتلك الأزهار، إذ لو لم تعجبه لما زين بها بيته، وقضايانا التي ندعو الناس إليهـا أشبه بتلك الأزهار، فـيتلقى المدعو زهرة في مكان عـمله، حتى إذا ركب وسيلة المواصلات وجـد من يقدم له زهرة أخرى، فإذا أفـضى إلى الشارع الذي يسكن فيه وجد من جيرانه من يقدم له أخرى، ثم إذا عرج على دكان ليشتري شيئًا وجد داعية في الدكان يهـديه زهرة رابعة، ثم إذا دخل البيت قـد يجد ابنه الملتزم يبـادر إليه بزهرة خامسة، ثم تتوالى الأزهار على ذلك المدعو حتى تتم الهداية بتوفيق الله تعالى.

إن هذه الصورة التي رسمتها لك ـ أيها الأريب ـ هي أقرب ما تكون للواقع الذي نعيـشه ونحـياه، فـالناس من حولنا يرون بسـاتين الصحـوة في كل مكان، منهم مَنْ يَجْفُلُ ويخاف، فَيَـرقُب من بعيد، فهذا يحتـاج إلى تشجيع، ومنهم من يَشُكُّ ويظن الظنون، فهذا يحتاج إلى إقناع، ومنهم من اقـتنع ولكنه واهن العزيمة فهذا يحتاج إلى دَفْعَة، ومنهم من اقتنع واندفع ولكنه انتكس ومل، فهذا يحتاج إلى شحنة.

وكلما تعـمقتَ في فهم أسـرار الحركة الاجتـماعية الدعـوية والتي أسميـها نظرية الكيس الممتلئ[1]، ستعلم أن الدعوة الفردية من أكثر طرق الدعوة تأثيرًا في المجتمع[2].

---

(١) فكل إناء بما فيـه ينضح، والفرد في المجتـمع ما هو إلا كيس يتلقى مـا يلقى فيه، فهـو إن مر بتلك السلسلة التي ذكرناها فلم يجد من يدعـوه أو تخاذل الدعاة عن دعوته فسيجد من يملأ كـيسه بقضايا أخرى، ولربما كانت تلك القضايا تَصُبُّ في العداء للدين، ويكون الخُـسْرَانُ المبين عاقبة الذين قصروا في إيصال الحق إلى الخـلق لظنهم أن كلمتهـم لا تفيد، والواقع أن الكلمـة الواحدة لا تفـيد، ولكن كلمة منك وأخرى من غيرك ستجعل للمدعو رصيدًا ينهض بإيمانه ويدفع بيقينه ليسامت العليين، وما أدراك ما عليون؟!.

(٢) في أواخر القرن السابع عشر تقريبًا دفع أحد رؤسـاء الولايات المتحدة الأمريكية بمحام يسمى هيوستن إلى مقاطعة من المقاطعات المجاورة للولايات المتحدة، وقال له: إن أمريكا تحتاج إلى تلك المقاطعة، =

ومن باب الاحتراف في خدمة الدين فنحن نطالب كل من تصدى وسيتصدى للدعوة الفردية أن يتسلح بعُدَّة هذه الدعوة، وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.

والحكمة وضع الأمور في نصابها، والموعظة الحسنة هي التي لا غلظة فيها، والجدال بالتي هي أحسن هو ما كان مثمرًا، لا الجدال العقيم الذي أمر النبي ﷺ بتركه[1].

وسأسوق أمامك بعض الوصايا التي أعتقد أنها من الأهمية بمكان حتى تستطيع ممارسة الدعوة الفردية بصورة أفضل، وبعد قراءتك لهذه الوصايا ستحصِّل ما يلي - إن شاء الله -:

١ - الثقة بالنفس، والثقة في الله.

٢ - الاستعداد وعدم الارتجال.

٣ - الهدوء والروية وعدم الاستعجال.

٤ - التركيز وعدم التشتت وراء الموضوعات الفرعية.

٥ - تلخيص نتائج دعوتك للخروج بفائدة واضحة.

= وليس عندي من مال ولا عتاد ما أمدك به لتأتي إلي بهذه المقاطعة، فجمع هيوستن ثيابه وذهب إلى تلك المقاطعة واستأجر مكتبًا للمحاماة، وفي بضع سنين وعبر محاوراته ومقالاته في الصحف ومداولاته مع الوجهاء أقنع شعب تلك المقاطعة أن يطالب بالانضمام إلى الولايات المتحدة، وقد حدث المتوقع وتم الاستفتاء، وضُمَّتْ تلك الولاية التي سموها بولاية هيوستن امتنانًا لجهود ذلك المحامي الذي لم يطلق رصاصة واحدة في سبيل ضم مقاطعة تعادل مساحتها نصف مساحة فلسطين تقريبًا، فهل من مدكر؟!!، الخبر مذكور في كتاب «صناعة الحياة» للراشد، فليراجع.

(١) قال ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في رَبَضِ الجنة لمن ترك المراء ولو كان مُحِقًا**»، رواه أبو داود وصححه الشيخ الألباني، وحمله العلماء على الجدال غير المثمر، أو الجدال مع من حصل اليقين بعدم استجابته وعناده، جمعًا بين هذا الحديث وبين قوله تعالى: ﴿**قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾ (هود: ٣٢). «المفيد لجواز الجدال».

أولاً - اقتنع بالقضية واعتبر نفسك الجندي الوحيد في الميدان وأن معركتك مع شيطان الهوى ستحسم بمجهودك.

ثانيًا - تَبَرَّأ من حَوْلِكَ وطَوْلِكَ واستيقن أن الهداية بيد الله - عزَّ وجلَّ -.

ثالثًا - اختر الزمان والمكان المناسب، إلا في بعض الحالات التي تقتضي الصدع بالحق خوفَ فواتِ الفرصة.

رابعًا - الأصل في سمتك الهدوء والابتسام، فإذا احتجت إلى التهجم لصرامة الموضوع فلا بأس، شريطة ألا يئول ذلك إلى التنفير، وأنت خبير بردود أفعال من أمامك.

خامسًا - تكلم في المنكر الحالِّ، وتجنب النصح في أمور لا تعلم عن حال المدعو فيها شيئًا (إلا إذا كنت تعلم من المدْعُو أمرًا بعينه يحتاج إلى النصح فيه) فإذا رأيته يدخن فلتكن نصيحتك عن حرمة التدخين، ولا تكلمه عن غض البصر مثلاً حال كونك لا تدري: هل هو ممن يغض البصر عن المحرمات أم لا؟ ويمكن نصحه في الأمور الأخرى عبر جذبه إلى تلك الموضوعات بطريقة سلسة.

سادسًا - نحن دعاة الحق نتكلم بلسان الشرع، فلابد من النطق بأحكام الشرع لا أحكام العرف، فلا يناسب أن تنصح متبرجة قائلاً: إن السفور عيب، بل يجب أن تعلم حكم الشرع، فإن جهلته بينته لها.

سابعًا - إن التخويف بالنار قد لا يصادف محلاً عند البعض فلا بأس أن تميل بهم إلى الحديث عن البشارة، وما أعد الله للطائعين، ثم تُرْدِفُ ذلك بِلَفْحَةٍ من نار جهنم.

ثامنًا - كن بسيطًا في حديثك، وتَجَنَّب التَّفَيْهُقَ والتَّقَعُّرَ واستخدام غريب الألفاظ والمعاني، ومن لوازم الدعوة الناجحة رَشَاقَةُ العرض، ويكون ذلك بالتناسق بين تعبير

الوجـه ومعـاني الكلمـات وحسن المنطق وعـدم التكلف في حـركـة الشفـتين ولفظ الحروف، وكذا التناسق بين تعبـير الوجه ومعاني الكلمات مع حركـة اليد، ولتحرص على تناسب إشارة اليد مع معاني الكلمات لتكون مـعبرة عن ثقة في المتحدث وجدية في الحديث، ويناسب عند الحـديث عن الأمور الصارمة مثـلاً أن يشير بقبـضة اليد، وفي سنة النبي ﷺ شواهد على هذا المعنى.

تاسـعا - ركِّز نظرك في وجـه من تحدثه، فللعين جـزالة في التأثيـر وتعبـير عن الصدق يفوق ما في فصيح الكلام.

عاشرا - لا تهجر نصـوص الوحي المطهر عندما تحدث الناس، فإنهم مـخاطبون بكلام ربهم بالأصالة، وليس بكلامك، فـاستيقن إذَن أن في كـلام الله - عزَّ وجلَّ - وكلام رسوله ﷺ من البركة في التأثير أكثر مما في كلامك.

الحـادي عشر - لا تكثر من الكلام عن نفسك وعن غيـرك، فتقول: أنا وفلان، وفلان وأنا، بل حاول أن تجـعل من تحدثه في محل اهتمامك نظرًا وحديـثًا، فحاول إذن أن تستغل خصلة فيه محمودة فتمدحه عليها مكتسبًا وُدَّهُ وإعجابه.

الثـاني عشر - حاول أن تُرَطِّبَ الحوار ببعض الفكاهة إن اقـتضى المقام، وخاصة إذا احْتَدَمَ الحوار، وذلك للإبقاء على ركن المودة الذي هو بابك إلى قلبه.

الثـالث عشر - لا تجعل القيادة للحوار بيد أحـد غيرك، فإذا حاول أن يصول بك ويجول فالزمْ نقطةَ الحـوار ولا تَتَشَتَّتْ في أودية الحديث، حـيث لا جدوى من جراء ذلك إلا الجدال العقيم، وقد علمتَ حكمَه.

الرابع عشر - حاول أن تركـز في موضوعك، وأن تسـوق له من الأدلة والشواهد الشرعية والمنطقـية ما تغزو به ضميره، فإذا احـتللت مكانًا في القلب فحافظ على هذا المكان ثم ابدأ هجومك الكاسح من ذلك الموقع (لا تتراجع أو تتأخر إلى مواقع سابقة).

الخامس عشر - حاول أن تستخلص من كلام من تحاوره ما يفسده، مع التلطف في بيان وجه الاستدلال، مبتعدًا في كل ما سبق عن حب الظهور والرياء والاستعلاء[١].

السادس عشر - ألا فاعلم أنك تتكلم بلسان الحق، فاجعل له هيبة ووقارًا، وأحسن عرض ما عندك من الحق، يزهد الناس فيما في أيديهم من الباطل، واصبر على أذى لاحق من عَنَتٍ ممن تدعوه، فهذا ثمن الهداية.

كما ينبغي أن تُعطي الاحترام المناسب لمَقَامِ وعُمْرِ من تُحَدِّثُهُ، فلا يناسبُ أن يَنْصَحَ الصغيرُ الكبيرَ دون أن يُضَمِّنَ نصيحتَه بالغَ التوقير وفائق الاحترام.

وبعد أيها الداعية الأريب.. فإن للدعوة الفردية حديثًا ذا شجون، وأنا أحيلك على بعض المصادر المهمة في الباب لتنهل وتستفيد[٢]، فإنما ذكرنا هنا رؤوس الأقلام، واختصرنا المقاصد لتكون منها على ذُكْرٍ والله المستعان.

◆◆◆

---

(١) فقد كتب الله النصر لمن خلا من ذلك كله، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (القصص: ٨٣).

(٢) اقرأ كتاب «الدعوة المؤثرة» للأستاذ جمال ماضي، و«فقه الدعوة الفردية» للدكتور علي عبد الحليم محمود، و«فقه الدعوة الفردية» للسيد محمد نوح.

الطريقة الثانية والعشرون

العناية بالشباب

إن الدعوة وهي تستحث خطاها في محاربة الجاهلية ترنو إلى من هم أكثر الناس عُرضة للافتتان بمظاهرها وتسربًا إلى مصارفها.

وليس هناك مجال للمراء في أنَّ مرحلةَ الشباب هي مرحلةُ نضجِ الغرائز واكتمال فورتها وتعاظم حاجتها، وأنَّ هذه الغرائز هي التي تتعامل معها النفس إيجابًا أو سلبًا، أي استجابةً أو رفضًا، وأن هذا التعامل هو الذي يُفْرِزُ نوعية الأخلاق التي تتخلق بها تلك النفس.

فالذي تَنْزِع نفسه لشهوة الفرج وتتهاوى حصونه أمام فِتَنِها سُرْعَانَ ما تُستَعْبَدُ نفسه للخبائث، فيظل أسير شهوته ورهين فتنته، سادنًا في محراب الصُّور، عاشقًا للأوهام والخيال، يُمَنِّي نفسه باللذة فإذا هي حسرة وندامة، وشؤم وتَبِعَة.

والذي تُبْهِرُه زخارف الدنيا وبهارجها سرعان ما سيجد حياتَه مكيَّفَةً على اللَّهْثِ وراء جمع حُطامِها ومُنازَعَةِ كلابِها فُتَاتَها.

إنهم أولئك الشباب الذين عَدِموا التجربة وفقدوا الحكمة وافتقروا إلى الأناة، فتراهم حريصين أشدَّ ما يكون الحرص على خوض كل مغامرة بذواتهم، ويأبون النصح أشد الإباء، وتغريهم الحِيَلُ بسهولة، وتَشُدُّهُمْ حَبَائِلُ الكيد دون رَهَقٍ أو إلحاح.

أَغْرَارٌ أَغْمَارٌ، لا يعترفون بالخطأ بسهولة، تُقَلِّبُهُمْ رياحُ الفتن ظَهْرًا لِبَطْنٍ، يدخلون إلى كهف المعصية لاهثين، ويخرجون منه نادمين منكسرين.

وبنفس الوتيرة النفسية فقلوب هؤلاء الشباب أَسْرَعُ ما تكون نزوعًا إلى الحق وقبولاً له وإقبالاً عليه وقرارًا فيه ومنافحة عنه.

وفي ذلك يقول الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (الكهف: ١٣): «ذكر تعالى أنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عَتَوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شبابًا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتيةً شبابًا»[1] اهـ.

وذلك لما أسْلَفْنَا من أن قلوبهم لم تجرب الحياة ومذاهبها، ولم تُلَوَّثْ تُرْبَةُ فِطْرَتهم بأهواء المصالح وأنانية الذات وحب البقاء؛ لأنهم ليسوا كالشيوخ أَحْرَصَ ما يكونون على حياة، بل تراهم أَنْزَعَ للتضحية من الشيوخ، أسْرَعَ للفداء بما عندهم، أخَفَّ لُنصرَةِ ما يؤمنون به ويعتقدونه.

وقد أدرك صِنفَانِ من أعدائنا جَلِيَّةَ هذا الأمر وهما إبليس اللعين، وقوى الجاهلية العتيدة من يهود ونصارى ومجوس وغيرهم، فطَفِقُوا يتخذون كل الوسائل لاختطاف هذه الشريحة (أعني الشباب) وتنحيتها عن جادَّةِ الحق (على أقل تقدير) أو غَمْسِها في مُسْتَنْقَعَاتِ الرَّذِيلة والكفر (على أكثر تقدير).

ولن تُخْطِئ عيناك الصَّرْعَى من أولئك الشباب ممن هوى في ظلمات الكفر السحيق أو انغمس في مستنقعات الفسق الشنيع، أو المُكَرْدَسَ أو المخْدُوشَ، أما الناجي المسلَّم فقليل ما هم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (جـ٣، ص: ٧٣) طبعة دار التراث.

لذلك كان مِنْ أهَمِّ الأولويَّات التي يجب أن تتبناها الدعوة: العناية بشريحة الشباب، فمما لاشك فيه أن دعوتهم ليست بالمهمة اليسيرة، وخاصَّة في ظل فتن هذا الزمان، ولكنه سيبقى الحلُّ الوحيد لمواجهة الطوفان الجارف من الانحلال، مع الكفر الذي نراه يزحف أول ما يزحف في شريحة الشباب.

ومُخْطِئٌ من يظن أن دعوة الشباب قضية عادية لا تستحق أن نفرد لها بابًا خاصًا، بل كتبًا مستقلة، ويظن أولئك أن دعوة الشباب مثل دعوة غيرهم، بل إنني أعلم أن كثيرًا من الدعاة يتعاملون مع شريحة الشباب مثل تعاملهم مع أي شريحة في المجتمع، ومن الدعاة من يعاملهم مثل الأطفال، وكل ذلك خطأٌ أقَلُّ ما يوصف به أنَّهُ تَنَكُّبٌ عن سنة النبي ﷺ في التعامل مع الشباب.

إن دعوة الشباب وتربيتهم وتخريج الدعاة والعلماء والقادة وحملة الدين من بينهم من أعظم الأمانات والمسئوليات التي نِيطَتْ بالدعاة، ولا يدرك خطورة هذا الشأن إلا من عانى هذا الدور وخاضَ غِمَارَه، وتَجَرَّعَ من مشكلاته، وصبر على الطريق ثم رأى النتاج وذاق الثمرة.

أجل أيها القارئ الكريم . . إننا معاشر الدعاة يجب أن نُوقف المهزلة التي تُرْتَكَبُ في حق الشبيبة، والتي نسميها دعوة، وما هي بدعوة، إن هي إلا نصائح - على الماشي - بينما الكفر والفسق يكيد بليل، ويدبر من مكر الليل والنهار ما تزول به الجبال.

وحتى أُوقِفَكَ على حجم المهزلة فأنا سائِلُكَ: كم هي - ولن أقول: ما هي - المصنفات الإسلامية التي عُنِيَتْ بمشكلات الشباب وعلاجها بالطرح الإسلامي الرشيد؟

بل قل: كم من الدعاة من يهتم بهذا الشأن بحيث يكون مَفْزعًا ومرجعًا للشباب يُهْرَعُونَ إليه عندما تُعْيِيهِمُ الحِيَلُ وتضيق بهم السُّبُل؟

لقد عَانَى كاتبُ هذه السطور بنفسه في أول النُّسُك مُشكلاتٍ جَمَّة كان مَأْتَاها عدم وجود المرشد والمربي، وانعدام التصور الواضح لسمات كل مرحلة يمر بها الشاب فكريًا واجتماعيًا ودعويًا، حتى أضحت حياة كثير من الشباب الملتزم - فكيف بغير الملتزم - مجموعة من التجارب الحياتية التي يخرج من كل تجربة منها جريحًا مُنْهَكَ القُوَى مُستَأْنِفًا طريقَه من جديد، ومنهم من يخرج صريعًا مُنْتكِسًا.

ليس بكثير على شباب الإسلام أن يتواصى الدعاة فيما بينهم على تعيين مجموعة من بينهم تهتم بأمر الشباب تربويًا وفكريًا، بحيث يكون هَمُّهُمُ الشَّاغِلُ مشكلات الشباب، ويكونون هم بالضرورة مرجعَ الشباب في كل ما يعرضُ لهم من قضايا وخُطُوب.

إن وجود لجنة تُعْنَى بقضايا الشباب هي أولُ خطوة في بناء سد منيع ضد طوفان الإباحية والانحلال الذي تواجهه مجتمعاتنا الإسلامية الآن، وليس يخفى أنَّ أولَ الصَّرْعَى من هذا الطوفان هم الشباب، إدمانٌ وفجورٌ وشذوذٌ وزنْدَقَةٌ وعَلْمَنَةٌ وإلحاد بل وعبادةٌ للشيطان، فماذا ننتظر بعد كل ذلك؟ هل ننتظر حتى نرى الشيطان باديًا بِخِلْقَتِه يَخْطَفُ الشباب عيانًا لنبدأ التحرك؟!!

ومن وظائف تلك اللجنة تحديدُ القضايا ذات الخطر وتبنِّي الأولويات في مشكلات الشباب وطرح سبل العلاج - بمشاورة أهل العلم - ووضعُ تَصَوُّرٍ واضح لمراحل دعوة الشباب مع تصورٍ واضح لأهداف كل مرحلة ووسائلها[1].

---

(١) إن بعض الدعاة للأسف الشديد يتعامل مع الشباب بسذاجة شديدة، ويظن أنه بنصيحة عابرة يمكنه أن ينجب لنا صلاح الدين الأيوبي، والواقع الأليم يشهد بأن مشكلات الشباب صارت من التعقيد بمكان بحيث لا تحتمل الدور الدعوي الهزيل الذي كنا نقوم به أيام كانت الفتن تمشي الهُوينى، بل يحتاج الأمر إلى مُعالجة خاطفة ومُعالجة راقية مُتَأَنِّية تَتَنَاسَبُ طردًا مع حجم الفتن التي يتعرض لها الشباب، =

ولا بأس ـ إذا سمحت الظروف ـ أن يُجعل لكل شاب مَلَفٌ تربوي تُسَجَّلُ فيه كل مشكلاته وتطورات حياته من بداية النسك، ومقترحات علاجه ونحو ذلك، ولا بأس أيضًا أن تعرض مشكلات بعض الشباب على متخصصين تربويين أو ذوي خبرة عالية في قضايا الشباب للاستنارة بآرائهم والاستفادة من خبراتهم، ومثل هذا المسلك وإن رآه بعض الناس جافيًا غليظًا جافًا فأنا أعتبره سببًا شرعيًا ـ وإن لم يكن واجب السلوك ـ في ازدياد نسبة نجاح الدور التربوي.

إن توثيق المعلومات ـ أو حفظها على الأقل ـ له أثر بالغ في إثمار الدور التربوي الذي يمارسه الداعية مع الشباب، وقد رأيت شيخنا الوالد المربي الشيخ محمد حسين يعقوب ـ حفظه الله وأمتع المسلمين به ـ كيف كان يستقبل الشباب في منزله منذ

= وقد أسرَّ إليَّ الكثير من الشباب بأنهم كانوا على شَفِيرِ جُرُفٍ هَارٍ، وكانوا يحتاجون إلى يَدٍ قوية وعزم أكيد يَجْتَثُّ لَوْثَةَ الفجور من قلوبهم ولكنهم وجدوا بُرُودَةً من بعض الدعاة في فهم حجم مشكلاتهم، بل برودة في علاجها، إلى القدر الذي حملهم على تفضيل المضيِّ في الفجور عن أن يَخُوضَ تَجْرِبَةَ نُسُكٍ غير واضحة المعَالِم.

نعم.. إنه واقع أليم يجب أن نعترف به قبل أن نبدأ العلاج، وإلا فلا علاج، إننا على وشك الدخول في قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ (الأنفال: ٢٧)، إن لم نكن دخلنا بالفعل.

ودعوة الشباب لابد لها من التصور الواضح الذي ذكرناه، يجب أن يحدد المربي المراحل التربوية التي سيقوم بها مع الشاب، ويحدد لكل مرحلة متطلباتها ويتوقع مشكلاتها، ولا يظل أسير ردود الأفعال والظروف، ثم إن ذلك المربي يطور نفسه ويبحث كل يوم عن أفضل السبل للرقي بمستوى من يربيه ويعنى بشأنه.

ومن صفات المربي الصادق أن يعتقد أُبُوَّتَهُ لكل من يربيه، فَيُسْبِغُ عليهم من الشفقة والحرص مثل ما يُسبِغُ على نسله بل أكثر، وليس بِمُرَبٍّ من يرى أبناءه صرعى الفتن والشهوات وهو عن ذلك عَمٍ وغافل.

إن المربي الصادق من يَأرَقُ في الليل من حال من أَسَرَتْهُ فتنة، ويُضْنيه رَهَقٌ إيمانيٌّ أَلَمَّ ببعض من يربيه، وتَهْمِي عَبَرَاتُه إذا رأى شبيبة الإسلام يَتَخَنَّثُون وعن نهج محمد ﷺ يَتَنَكَّبُون.

الظهيرة وحتى صلاة المغرب يستمع إلى مشكلاتهم ويتلقى مكالماتهم الهاتفية بل ويهاتفهم بنفسه مُسْتَفْهِمًا عن حالهم مع الله وعن مشكلاتهم التي اقترح لهم علاجًا لها من قبل، ثم يحاضر في دروسه التربوية[1] إلى الليل، ثم يبدأ زياراته الميدانية والتربوية إلى منتصف الليل، ويعود إلى بيته مُنْهَكَ القُوَى، فإذا جن الليل دخل مكتبه وقرأ وطالع ثم سَطَرَ كل ما رآه وواجهه مُحَلِّلاً معالجًا مُسْتَرْشِدًا بمنهج السلف الصالح وسيرتهم متمثلاً قول مالك: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وكان لا يستنكف ـ حفظه الله ـ من عرض بعض المشكلات على الدعاة طالبًا منهم النصح والمشورة، كما كان لا يستحيي عن الاعتراف بالخطأ إذا تبين له.

إن الدور التربوي إذا لم تُصَاحِبْهُ حُرْقَةٌ على حال الشباب وهَمٌّ على مشكلاتهم وقَلَقٌ على أحوالهم فسيظل دورًا رتيبًا باردًا، عديم النفع مبتور الأثر.

وقد بدأ دعاتنا بحمد الله يدركون أهمية وجود الطرح الإسلامي السلفي في علاج مشكلات الشباب، فصرنا نرى المؤلفات التي تعنى بعلاج الواقع الشبابي[2]،

(١) تكاد تتفق كلمة دعاة العصر في القُطر المصري على تَثْمِينِ الدور التربوي الرائد الذي يقوم به الشيخ محمد حسين يعقوب ـ حفظه الله ـ وقد كتب الله له من القبول لدى قلوب الشباب ما نسأل الله أن يجعله شهادة صدق له في الدنيا قبل الآخرة، والله لا يضيع أجر المحسنين.

(٢) وأضرب مثلاً بكتاب الشيخ محمد حسين يعقوب «كيف أتوب؟!!»، وكتاب «إلى الهدى ائتنا»، وكتاب «نصائح للشباب»، وكتاب «كيف تواجه الشهوة؟»، و«الجدية في الالتزام»، وكله له حفظه الله، وكتاب «أريد أن أتوب ولكن!» للشيخ المنجد، وكتاب «علو الهمة» للشيخ محمد إسماعيل، وكتاب «رحلة مع أحبائي الشباب» للشيخ نجيب خالد العامر، وهو جدير بالاطلاع.

ولاشك أن هناك كثير من الكتب التي عنيت بالجانب التربوي للشباب، ولكنها تفتقد لسمات ضرورية حتى تؤتي أكلها ويبدو صلاحها، أهمها: الاختصار وعدم التطويل، والتركيز والوضوح في طرح المشكلات، والصراحة وعدم المواربة في علاجها، والشباب لا يعجبهم اللف والدوران ـ كما يقال ـ فحري أن نخاطبهم بما يعرفون ويعقلون ويفكرون.

ولكننا بَعْـدُ لم نَصِلْ لدرجـة العُمْقِ المطلوب في هذا الـطرح، مُقَـارَنَةً بِطَرْحِ المناهج الكفرية البـاطلة، والمأمول أن تكون المكتـبة الإسلامـية ـ على صـعيد المطبـوعات أو المسموعات ـ تحوي مراجعَ كافيةً للدعاة والمربين والشباب على حَدٍّ سواء، تعينُهم على تناول مشكلات الشباب وعلاجها.

وبإزاء أهمية وجـود الطرح الإسلامي الموثق يبرز دورُ الداعية المباشـر في التربية، وحِرْفَتُهُ في التعرف على مشكلات الشبـاب وعلاجها وإثمارِ الطاقات الهائلة لديهم بما يعود بالنفع على الإسلام والمسلمين.

ومن المهم جدًا أن يكون الداعيـة على بصيرة بواقع الشباب وبحقـيقة مشكلاتهم وأسبـابها والعلاجات المـقترحة، حـتى لا يتعرض لمحـاولات فاشلة أثناء أدائه الدور الدعوي مع الشباب.

ومن مقتضيـات هذه البصيرة أن يكون الداعية المتصدر لدعـوة الشباب لَيِّنَ المَعْشَرِ وَاسعَ الصبر، ذا شـفقة بالغة وتَحْنَانٍ مُؤَثِّـرٍ، عليمًا بمشكلات فترة المراهقـة إجمالاً، خبيـرًا بما يدور في كواليس الشباب تفصـيلاً، دقيق الملاحظة لما يسمـعه ويراه، ماهرًا بأساليب الاستنباط والتحليل لما لديه من مـعلومات، لديه حظٌّ وافرٌ من فِرَاسَةِ المؤمن وإحساسه الصادق المرهَف الذي نادرًا ما يخطئُ له تَوَسُّمٌ.

قد تُدَاعِبُ ـ أيها الـقارئ ـ وتقول: إنها صفـاتُ ساحرٍ وليست صـفات مُرَبٍّ، فأقول: أجل إن المربي أشـبه ما يكون بساحر، ولكنه السحـر الحلال الذي أودعه الله في قدرات من امتلأ قلبه شفقة على حال المسلمين.

وجُلُّ الصفات المؤثرة التي في المربي تحصل بالاكتـساب والدُّرْبَة والخبرة والتَّجْرِبَة المتكررة، والقليل هو الذي يحصل بالقواعد والعلوم ـ نَـظَرِيِّها وعَمَلِيِّها ـ؛ لأن المربي ليس كالطبيب الذي يتعامل مع أَدْوَاءَ وأَدْوِيَةٍ معروفـة، وجسدٍ يمكنه أن يكتشف ما فيه

عَبْـرَ الأشعَّـات والتحـاليل، بل إنه يتـعامل مع نَفْسٍ ورُوحٍ لا يمكن لأحـد أن يزعم الإحاطة بما فيها، لذلك فإن المربي يحـتمي بأوامر الشرع التي هي زَكَاةٌ للنفوس ـ ولا ريب ـ، ويَتَسَلَّحُ بالوحي المطهَّر دواءً من كل داء رُوحي، وحلاً لكل مشكل اجتماعي نفـسي، ولعل هذه الصفـة هي التي تُكْسِبُ المربي مِـصْـدَاقِيَّـةً لدى الخلق أكثـر من مصداقـية الطبيب، لدرجة أن المربي قـد يكتسب الأبوة الروحية بمـمارسة ذلك الدور الإصلاحي، وإنهـا ولاشك منزلة هو حري بها، فالمربي هو الذي يقـود الإنسان إلى الله، ويعرفـه به، ويعالج له وسـاوس الصدر، ويجمع عليـه شتـات الأمر، ولذلك اعترف السـلف بفضل المربي ودوره في تبيين الدرب والطريق إلى الله فـقال أحدهم: لولا المربي ما عرفت ربي.

ولاشك أن هذه القضـية تحتـاج مصنفًا خـاصًا بل مصنفـات، ولكننا نمر هنا على بعض القضايا المهمة والقواعد العامة التي ترشد إلى المطلوب، وعلى الحصيف أن يقيس الغائب على الشاهد والخفي على الجلي، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

ونحب أن نشـير هنا إلى مـا يجب أن يهـتم به المربي والداعي الذي يمارس دورًا تربويًا أو دعويًا ما مع الشباب:

١ ـ وضوح فكرة الدعوة والتربية لدى الداعـية والمربي، وذلك عبر تصور واضح للمراحل التي سيمر بها مع المدعو، ولا مانع أن تحتاج بعض تفاصيل العملية التربوية لتعديلات على حسب شـخصية المدعو، ولكن المهم أن ينبذ الدعـاة الطريقة الارتجالية في التربية، وذلك يسـتتبع بالضرورة تكثـيف التحصيل العلمي حول شـأن التربية[1]، ومشاورة أهل الخبرة، وتلقي النصيحة من المتخصصين.

---

(١) ننصح بقراءة كتاب «التربية على منهج أهل السنة والجماعـة» للشيخ الفريد الدكتور/ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ فقد ضمَّنه بعض طرق التربية ووسائلها.

٢ ـ إن أهم نقطة ترتكز إليها العملية التربوية هي فَهْم المُرَبَّى، أي: فهم شخصيته، وسَبْرُ أَغْوَارِها، ومعرفةُ مُيُولاتِه، وتشخيصُ عيوبه، وحَصْرُ خِصالِه وأخلاقه الحميدة، والمقصود وضع خريطة نفسية له بحيث يسهل على المربي تناول هذه الشخصية بالتربية على بصيرة وهدى، ولا يكون كالذي يَخْبِطُ خَبْطَ عَشْوَاءَ ويُجري التجارب تلو التجارب دون أن يكون هناك أساس علمي أو اتجاه تربوي أو خط دعوي معين يسير عليه، وكمثال نقول: إن كثيرًا من الدعاة يبدأ عملية التربية الإسلامية دون أن يتعرف على مشكلات الشاب المدعو، فيتعرض في مسيرته التربوية لأَزَمَاتِ انْتِكَاسٍ، أو مصاعب كثيرة منشؤها أن مشكلات الشاب لم تعالج من البداية، فقد يكون ذلك الشاب يعاني أزمة أُسَرِيَّة مع أبيه أو أمه أو أخيه، أو أنه يعاني قلقًا نفسيًا معينًا، أو أنه يعاني مشكلة الشهوة مثلاً، فلا يستساغ أن نبادر إلى تحميله هم الإسلام والمسلمين دون أن نوجد الشخصية السوية التي تستطيع على الأقل أن تواجه مثل تلك المصاعب بإيمان واثق ويقين راسخ.

إن عملية فهم شخصية الشاب معقدة جدًا، وقد تبنت بعض الدراسات النفسية عقد اختبارات نفسية لمعرفة مشكلات الشباب، ولكنها ستبقى عديمة الفائدة إذا قام بها غير متخصص، وستظل هذه الاختبارات في كل الأحوال ظنية النتائج لكثير من الاعتبارات التي لا يتسع المقام لذكرها، ولكن المربي الذي يتبنى نهجًا إسلاميًا يستغني عن هذه الاختبارات النفسية المعقدة بالأخوة الإيمانية ومبدأ المناصحة الذي يتسم بالشفافية من المنظور الشرعي، ولاشك أن الأخوة والنصيحة لن تتم على الوجه المطلوب إلا عبر اكتساب ثقة الشاب، ويستلزم ذلك القيام بدور سابق على الدور التربوي وهو ما يمكن أن نسميه تأليف القلب، وجذب الثقة، وإزالة الحواجز النفسية. وبعض الدعاة يتعامل مع مشكلات الشباب بشيء من الغِلْظَةِ والجَفَاء، مما لا يناسب الدور التربوي الذي يقوم به، والذي يَسْتَلْزِمُ عَطْفًا وحنانًا وشفقة. إن بعض الشباب

قد يحتاج أبًا فَقَدَهُ في البيت، أو صديقًا وفيًا لم تُوَفِّرْهُ له المدرسةُ أو صحبةُ الجيران، قد يحتاج قلبًا يَحْمِلُ عنه بعض الهموم، قد يحتاج عقلاً لِيُفَكِّرَ معه في بعض الحلول لبعض المشكلات. وقد يكون حَلُّ مشكلة أو بعض من عطف أو حنان أو صحبةٌ صادقةٌ كفيلةً بأن تجعل ذلك الشاب كالظِّلِّ للمربي، **والقاعدة**: أن يَتَعَرَّفَ المربِّي على الباب الذي يستطيعُ أن يدخُلَ منه إلى قلبِ الشَّابِّ.

٣ - تأجيلُ معركة المَدْعُوِّ مع أهله، في شأن المنكرات التي قد تعترض طريق التزامه بالدين، وهي معركة قد تكلفه الكثير إذا أصَرَّ على خوضها، ونحن نعلم أن المجتمع المسلم يحوي الكثير من المنكرات التي صارت كالموروثات والعادات والتقاليد المقدسة، ونعرف أن مثل هذه التقاليد لا يمكن أن تَلْتَقِي مع أحكام الشرع في طريقٍ، فناسَبَ أن يقتنع بها المدعو كمرحلة أولى، مع توفير بعض الوظائف الإيمانية لتثبيت كراهية المنكر في قلبه، ومناصحته بالصبر مع أهله، وعدم التسرع في محاربة المنكرات التي تَلَبَّسُوا بها. وقد تكون هناك بعض المنكرات التي لا تحتمل السكوت أو الصبر، فيجب على المدعو أن يتخذ قرارًا مصيريًا في حياته، ويجب أن يساعده المربي ومن ورائه الدعوة، فنحن ملتزمون أمام الله تعالى بمناصرة المؤمنين، ومَدٍّ يَدِ العون لهم والذَّبِّ عنهم والمصابرةِ معهم في طريق الإيمان.

٤ - إن من أهم ما يجب أن يَتَلَقَّنَه الشاب من أصول: طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ واحترام أهل العلم، وهذه الأسس الثلاثة التي يجب أن يقوم عليها إيمان الشاب واجتهاده في الطاعة والدعوة، ويتأكد ذلك في عصرنا هذا الذي اضطربت فيه الأفكار، وماجت المناهج بأهلها، واختلط الحابل بالنابل، فلا عاصم من هذا الهيجان الفكري إلا تَلَمُّسُ خُطا العلماء المعتبرين، الذين شهدت الأمة لهم باستقامة النهج، وكتب الله لهم القبول بين الخلق، وذَاعَ صِيتُهُم بين الناس بالصلاح والتقوى، واستقر إجماع أهل المعرفة على علمهم وتمكنهم من تخصصات الشريعة.

٥ ـ يظن بعض الدعاة أن فترة ما بعد الالتزام (التنسك) أسهل مما قبلها، والحق أنها من أدَقّ مراحل حياة الإنسان على الإطلاق، وفيها يقول أهل السلوك: إن فساد النهايات من فساد البدايات، وبداية حياة الإنسان يوم أن تتم معرفته بالله، ويبدأ في سلوك طريق الآخرة، وأشد ما يكون الشاب محتاجًا إلى الإرشاد والمعونة عندما يبدأ هذه المرحلة، فليس الإشكال أن يصلي الشاب في جماعة، ولكن أن يداوم على صلاة الجماعة، وليس الإشكال أن يحب الشاب سنة النبي ﷺ ويحرص على اتباع أحكامها، ولكن الصعب هو أن يتعلق بها طوال حياته، متمسكًا بأهدابها، منافحًا عنها، إن وظيفة المربي الحقيقية تبدأ منذ أن وضع الشاب قدمه الأولى في طريق الالتزام، إنه البناء الإيماني الجاد الذي يجب أن نُحْكِمَ إعْلاءَهُ حتى نصونَ ذلك الشاب من خطر احتمالات الانتكاس، وهي الحال التي يشكو من انتشارها الكثير من الدعاة، ويتساءلون عن سببها، وعن علة تكررها في هذه الآونة[1]. وتبيان هذا الخَطْبِ أن الدور التربوي قد ضَعُفَ في هذه الآونة لقلة المربين، وكثرة الملتزمين، ولم نكن لِنَرَ هذه الانتكاسات في العقود السابقة، أي: بدايات الصحوة الإسلامية، حيث وُجِدَ الكثير من القائمين بالدور التربوي، ولقلة عدد الملتزمين، فكان الالتزام يَحْظَى بالوَفْرَة الكَيْفِيَّة لا الوَفْرَة الكَمِّيَّة، والعكس من ذلك هو الذي أحدث هذا الخلل الذي نراه، فعلاجه إذًا أن تحاول الدعوة توفير المربين القادرين والكافين للقيام بالدور التربوي التي تحتاجه الجموع الغفيرة من الشباب الذين ينتمون للصحوة المباركة يومًا بعد يوم.

ثم إنه يجب أن يقوم الدعاة بدور إصلاحي جذري للعملية التربوية التي يقومون بها، وأن ترتكز عمليتهم التربوية إلى التجارب السابقة، كما يجب على الدعاة أن

(١) من أوسع وأدق ما صُنِّفَ في مشكلة انتكاس الملتزمين كتاب سماحة الوالد الشيخ محمد حسين يعقوب «إلى الهدى ائتنا»، وفيه أتى بكثير من أسباب الانتكاس في عصرنا وعالجها علاجًا شرعيًا محكمًا، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرًا.

ينحوا بالتربية جانبًا علميًا، فإننا لا ندعو العصاة للصلاة وحسب، بل إن دعوتنا ستواجه الشاب الملحد والعلماني والشيوعي والشهواني والمنبهر بالثقافة الغربية، وستحتاج إلى غزو قلوب من يظنون أنفسهم مُثَقَّفِينَ ومُتَنَوِّرِين، وسلاح الدعاة حينئذ عِلْمٌ قاهرٌ ويقينٌ ظافرٌ، والتعمقُ في معرفة طبيعة النفس البشرية، وطبيعة المجتمعات التي ندعو فيها تستلزم توسعًا معرفيًا فائقًا، قِوَامُهُ البحثُ والتحليل والاستنتاج، ولا مجال لأن نَجْفُلَ أمام زحْفِ الجاهلية، وقد طَرَقَتْ أفكارُ المدنية الغربية حصونَ الصحوة بِجُرْأة، وفَرَضَتْ بعضُ النظريات العلمانية نفسها على الأُطُرِ الفكرية لكثير من المثقفين الإسلاميين، حتى صرنا نسمع منهم من ينادي بدولة إسلامية تتبنى تَعَدُّدَ الأحزاب حتى لو كان منها أحزاب علمانية وشيوعية، إن أي خَرْقٍ يتسع في سِرْبَالِ الصحوة فمنشؤه الفرار من الزحف الدعوي والفكري الذي يخوضه دعاة الصحوة ومفكروها، وأيُّ انهيَارٍ أو ثَلْمٍ في جدار الصحوة فمأتاه من تقصير حماتها والمدافعين عنها من الرد على مدافع الجاهلية العتيدة، إن حالات الانتكاس المتكررة التي نشاهدها هي في نظري ردُّ فِعْلٍ بَدَهيٍّ لحالة الإفلاس التي يعانيها بعض الدعاة، فَـأَفْلَسَ معهم ذووهم، وكان عاقبة أمرهم خسرًا، وأي علاج نُغْفِلُ فيه جانب العلم الرصين والمعرفة الواسعة والتحصين الثقافي الراقي يُعَدُّ تَرْقِيعًا بِبَالٍ وجَبْرًا بِمُنْكَسِرٍ، والله الهادي إلى طريق الرشاد.

٦ - إن المربِّي يجب أن يكون له دور مؤثر في توجيه المرَبَّى إلى العملية التعليمية التي تتخلل فترة التربية، ويجب أن يهتم المربُّون بثلاثة أمور:

(أ) كَبْحُ جِمَاحِ الشباب في شراء الكتب والمراجع العلمية، وحَثُّهُمْ على استشارة المتخصصين لدى الرغبة في شراء أي كتاب جديد.

(ب) تنميةُ المهارات البَحْثِيَّة لدى الشباب، ومساعدتهم في إجراء البحوث الميدانية النافعة، بالتوازي مع الاهتمام بجانب العلوم الشرعية، والتركيز على الجوانب التطبيقية.

(جـ) الاهتمام بجانب حفظ النصوص، وبخاصة القرآن الكريم، فالملاحظ تقصير الدعاة مع الشباب في هذه الناحية، مع أن المأمول من هؤلاء الشباب أن يكونوا خطباء الغد ودعاة المستقبل، ولاشك أنه عدة الداعية في محفوظاته المختلفة.

٧ ـ إن الطاعة والعبادة من آكد القضايا التي يتأسس عليها التزام الشاب، ويجب أن يعلم الشباب الملتزم أن النُّسُكَ لا يتم لهم إذا تكاسلوا في جانب العبادات، وأن اجتهادهم في العبادة دليل صدق السلوك، ومن هنا وجب على الدعاة أن يلقنوا هؤلاء الشباب أُسُسَ العبادة الصحيحة وفِقْهَ الاجتهاد في العبادة، وسياسة النفس عند المَلال والتعب، وأَرْحَبُ ميدانٍ يمكن تطبيق هذا المنهج من خلاله ميدان الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، أو في المخيمات الصيفية التي يختلط الشباب فيها بالدعاة عن كَثَبٍ، وتكون التربية بالقدوة حينئذ من أكثر أساليب التربية تأثيراً.

٨ ـ التربية على العزائم، والحذر من مسلك المترخِّصين، فالدعاة قادةُ المجتمع، واجتهادهم محل نظر العامة والخاصة، فلزمَ أن يُرَبَّوا على معالي الأمور، وتُوَطَّنَ نفوسُهم على الصعب لا الذَّلُول، وذلك في كل مجال يسلكه المربي مع من يربيه، ففي مجال العلم يجب أن يدرب الشاب على بعض العزمات في طلب العلم مثل الإقلال من الطعام والنوم، وفي مجال العبادة يجب أن يتعاهد نفسه ببذل أقصى الطاقة في الاجتهاد، ويكون ذلك بمثابة تمارين يُلِيْنُ بها قسوةَ قلبه بين الحين والحين، ولا يليق أن يكون داعية المستقبل كثيرَ الشكَايَةِ من طول صلاة التراويح في رمضان، أو دائم التَّمَلْمُلِ من كثرة الأبحاث التي أُلزم بإعدادها، بل ينبغي أن يَتَمَرَّسَ على تلقي المهام الصعبة وتنفيذها دون شكاية، وهي من صفات الجندية التي يجدر بالمربين أن يحرصوا على تلقينها للشباب، فهم جنود الإسلام في الحقيقة، وقد كان بعض الدعاة يعود من يربيه على بعض الألفاظ التي يستعملها الجنود مع الضباط مثل: عُلِمَ وسينفذ إن شاء الله، جاري التنفيذ بحول الله، تم التنفيذ والحمد لله.

٩ ـ طاعة المربي من الصفات المهمة التي يجب أن تغرس في الشاب أول النسك، ومنشأ هذه الطاعة الاحترام والتعظيم لمقام شيخه ومربيه، وهذا بما يدعو له الإسلام ويحث عليه، ولا يليق بالملتزم أن يعامل مُرَبِّيَه معاملة العوام والسوقة، واحترام العالم والشيخ والمربي مما يجلب البركة في العلم ويحدث عظيم الأثر في الانتفاع من الشيخ، فهذا مما يجب أن يَتَلَقَّنَهُ كل مبتدئ في بداية الطريق، ومن لوازم ذلك أن يفهم الشاب أن الشيخ بشر ككل البشر، وليس بكامل في الصفات والأعمال، وبالتالي فليس مُتَصَوَّرًا أن يكون معصومًا من أي خطأ، وأنه متى رأى خطأ فإن أمكن التأويلُ الشرعي السائغ تَأَوَّلَ، وإلا لزم أن يدعو الله بستر عيوب شيخه عنه، وأن ينفعه بعلمه وقدوته.

١٠ ـ التوازن في المقاصد من أهم ما ينبغي مراعاته طوال فترة التربية الأولى، فيجب على المربي أن يُعْنَى بالجوانب التي تُرَطِّبُ القلب، وتمنع عنه الإياس والقنوط، فليس مُشِينًا أن يَمْنَحَ المربي من يربيه بعض الوقت للهو المباح، وليس قادحًا في المروءة أن يشاركهم الضَّحِكَ والتَّبَسُّمَ فيما لا يوقع في مَأْثَمٍ أو مَغْرَمٍ، بل إن ذلك أدعى إلى انصهار المربَّى مع المربِّي، وإفضائه لأسراره ومشكلاته لشيخه فيمكنه التداول معه في حلها وعلاجها، وكثير من المشايخ يقيم سياجًا منيعًا من الوقار والحشمة الزائدة التي تَنْقَلِبُ مع مرور الأيام إلى عُتُوٍّ ونُفُور، لقد كانت أُخُوَّةُ الرسول ﷺ وأُبُوَّتُهُ الحانية على الصحابة مثلاً لكل مُرَبٍّ في منهج التربية، وحَرِيٌّ بكل مرب أن يهجر التكلف ويربي الشباب على عدم التكلف أيضًا، فالتكلف في كل أمر مذموم، والمناسب أن يتعامل المربي مع الشباب من منطلق الأبوة الروحية التي تكسبه احترامًا ووقارًا تلقائيًا، ويبقى على المربي أن يزيل الجليد بعد ذلك بمداخلاته ومناقشاته ومحاولته لفهم الشاب الذي يريد أن يربيه.

وبعد.. فإن ما نحن بصدد التنبيه عليه ليس دورًا دعويًا عاديًا يقوم به أي إنسان، بل هو دور مصيري، ويحتاج إلى شخصيات فذة تدرك عِظَمَ المسئولية التي قال عنها الأستاذ سيد قطب: «إن المسألة ليست هي النصر، إنما هي تربية الجماعة المسلمة، التي تُعَدُّ لتتَسَلَّم قيادةَ البشرية.. البشرية بكل ضعفها ونقصها، وبكل شهواتها ونزواتها، وبكل جاهليتها وانحرافها.. وقيادتُها قيادةٌ راشدة تقتضي استعدادًا عاليًا من القادة، وأول ما تقتضيه صلابةٌ في الخُلُق، وثَبَاتٌ على الحق، وصبرٌ على المعاناة، ومعرفةٌ بمواطن الضعف ومواطن القوة في النفس البشرية، وخبرةٌ بمواطن الزَّلَل ودواعي الانحراف ووسائل العلاج.. ثم صبر على الرخاء كالصبر على الشدة.. وصبر على الشدة بعد الرخاء وطعمها يومئذ لاذع مرير. وهذه التربية هي التي يأخذ الله بها الجماعة المسلمة حين يأذن بتسليمها مقاليد القيادة ليعدها بهذه التربية للدور العظيم الهائل الشاق الذي ينوطه بها في هذه الأرض، وقد شاء سبحانه أن يجعل هذا الدور من نصيب الإنسان الذي استخلفه في هذا الملك العريض»[1].

---

(١) «في ظلال القرآن» عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٤٣).

الطريقة الثالثة والعشرون
العنَايةُ بالمَرْأة

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يَذكُرَ خديجةَ فيُحسِنُ عليها الثناء، فذكرها يومًا من الأيام فأدركَتْني الغَيْرَةُ فقلت: هل كانت إلا عجوزًا قد أخلفَ الله لك خيرًا منها؟ قالت: فَغَضِبَ حتى اهْتَزَّ مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أخلف الله لي خيرا منها، لقد آمنتْ إذْ كفرَ الناس، وصدَّقتني إذْ كذَّبني الناس، وواسَتْني بمالها إذ حَرَمني الناس، ورزقني الله - عزَّ وجلَّ - أولادَها إذ حَرَمَني أولادَ النساء»، قالت: فقلت بيني وبين نفسي: لا أذكرها بسوء أبدًا[1].

وقد استفاض عند أهل السير تسميةُ العام الذي ماتت فيه خديجة زوج النبي ﷺ وأبو طالب عمه بعام الحزن، لما كان لهما من يد في نصرة الإسلام.

والشاهد من حديثنا مكانة خديجة رضي الله عنها عند النبي ﷺ، ودورها الذي كان له أبلغ الأثر في تقوية جَأْشِ النبي ﷺ.

وعن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء وكان يخلو بغارِ حِراءَ فَيَتَحَنَّثُ فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات ا' مدد قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق

(١) رواه مسلم وأحمد.

وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجَهْد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: «**ما أنا بقارئ**»، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: «**ما أنا بقارئ**»، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ**﴾ (العلق: ١-٣)، فرجع بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤادهُ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: «**زَمِّلُوني زملوني**». فَزَمَّلُوهُ حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**»، فقالت خديجة رضي الله عنها: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبدًا، إنَّك لتصلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتقري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائب الحقِّ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَةَ بن نَوْفَلَ بن أسدِ بن عبدِ العُزَّى ابن عَمِّ خديجة، وكان امرأ تَنَصَّرَ في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نَزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هم؟!**»، قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي[1].

إن المرأة عنصر مكمِّلٌ للرجل في كثير من مناحي الحياة، لا جَرَمَ جعل الله السكينة الكاملة في التقائهما ومعاشرة أحدهما للآخر[2].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) وفي كتاب «عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل نماذج فذة من نساء السلف ممن ضربن المثل في البطولة والريادة، حري بنساء هذا الزمان أن يقتدين بهن.

ومظهر البطولة في حياة خديجة أنها كانت أول من آمن به وأسلم من النساء، والحق أنها أول مَنْ آمن من البشر بالنبي ﷺ، يدل عليه حديث عائشة السابق، وكانت أول من أَيَّدَ ونَصَرَ وثَبَّتَ، ثم كانت أول من بذلت مالها وبيتها وحياتها لدين الله - تبارك وتعالى -.

وإذا تقررت هذه المعاني، فإننا نستطيع أن نفهم: كيف يمكن للمرأة أن تكون أداة لخدمة دين الله - تبارك وتعالى -؟

إن الدعوة الإسلامية للأسف لم تستطع حتى الآن أن توجد المعادلة الصائبة لتقوم المرأة بدورها في الدعوة إلى الله - تبارك وتعالى -.

ومن خلال تجربتي في الدعوة أَيْقَنْتُ أن المرأة في كثير من الأحوال أَقْدَرُ على إصلاح الأسرة من الرجل، ودورها في إصلاح العِوَجِ والمعونة عليه في معظم الأحوال - إذا كان في نطاق الأسرة - أَعْظَمُ من دور الرجل.

وقد علمتُ أُسَرًا يَنْقَلِبُ حالُها من الجاهلية[1]، إلى الالتزام بأحكام الدين عندما تبدأ الزوجة في النسك والتوبة، وكم رأيت من أولاد صغار أينعت في قلوبهم شجرة الإيمان؛ لأن الغَرْسَ قد طَابَ بطيبِ أَصْلِه، وتَلَقَّى السُّقْيَا المباركة ممن حوله، فاستوى على سُوقه واشتدَّ عُودُ الخُلُقِ الإسلامي الأصيل في أعماقه، فصار أرضًا خصبةً للفضائل، تَغْرِسُ ما شئت فيها من الخير والحكمة.

إن الخطاب الدعوي يجب أن يهتم بالمرأة من باب الاقتداء بالنبي ﷺ، فها هو - صلوات ربي وسلامه عليه - يخص النساء بالموعظة، فعن ابن عباس أن رسول الله

---

(١) استخدامنا لمصطلح (الجاهلية) في كثير من المواطن لا يعني بالتأكيد إطلاق وصف الكفر، وإنما نعبر به عن غياب بعض معاني الإسلام والالتزام فحسب.

ﷺ خرج ومعه بلال، فظن أنه لم يُسْمِعْ، فَوَعَظَهُنَّ وأمرهن بالصدقة، فجعلت المرأة تلقي القُرْطَ والخاتَم، وبلالٌ يأخذُ في طَرْفِ ثوبه. ويبوِّب لذلك الإمام البخاري في كتاب العلم من صحيحه قائلاً: باب عِظَةِ الإمامُ النساءَ وتعليمِهن، وبعد بابين يعقد بابًا خاصًا لهذه المسألة فيقول: باب: هل يجعل للنساء يوم على حِدَةٍ في العلم؟ ويورد حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا، لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: «**ما منكن امرأةٌ تُقَدِّمُ ثلاثةً من ولدها إلا كان حجابًا من النار**»، فقالت امرأة: واثنين؟ فقال: «**واثنين**».

ثم عقد بابًا آخر في كتاب (الصلاة) من صحيحه، فقال: باب موعظة الإمام النساء يوم العيد، ثم أورد فيه حديث جابر بن عبد الله قال: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى، فبدأ بالصلاة ثم خطب، فلما فرغ نزل فأتى النساء فذكرهن وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسطٌ ثوبه يلقي فيه النساء الصدقة، قلت لعطاء: زكاة يوم الفطر؟ قال: لا، ولكن صدقة يتصدقن، حينئذ تلقي فتخها ويلقين، قلت: أترى حقًا على الإمام ذلك يأتيهن ويذكرهن؟ قال: إنه لحق عليهم وما لهم لا يفعلونه؟!

قال ابن حجر - رحمه الله -: وفي هذا الحديث من الفوائد أيضًا استحباب وعظ النساء وتعليمهن أحكام الإسلام، وتذكيرهن بما يجب عليهن، ويستحب حثُّهن على الصدقة، وتخصيصهن بذلك في مجلس منفرد، ومحل ذلك كله إذا أمن الفتنة والمفسدة. اهـ.

وهذا كالنص في ضرورة الاهتمام بتعليم النساء وتثقيفهن في أمور الدين، فلزم أن تهتم الدعوة بتوفير الدروس الخاصة التي تُعْنَى بفقه النساء، من حيض ونفاس ونكاح وتربية أولاد على منهاج الشرع، بل إن هذا الزمان قد احتاج فيه النساء لمن يعلمهن أحكام الحجاب، بعد أن ضيعه الكثيرات وتساهل فيه منهن كُثْرٌ.

وأمام الحملة الشرسة التي يقودها الطابور الخامس في المجتمع المسلم ضد الحجاب والعفة، لزم أن يتصدى الدعاة لها بتحصين المرأة المسلمة من محاولات التشكيك في أحكام الشرع المطهر، وحِرْصِه على طهارة المرأة وعفتها، وصيانتها من الابتذال والامتهان.

وكثير من النساء يَحْتَجْنَ أكثر ما يحتجن إلى أحكام النكاح، وكيفية معاملة الزوج بمقتضى الشرع، وكيفية تربية الأولاد تربية إسلامية صحيحة، وكيفية المحافظة على أحكام الشرع وطبع المنزل بطابع الإسلام والإيمان.

وليس خافيًا أن هناك الكثير من الأسر الملتزمة بدين الله تعالى في الظاهر، ولكنها تفتقد المعرفة الكافية بأحكام الشرع، ومع انتشار الصحوة على مستوى كل الشرائح الاجتماعية صرنا نرى ركامًا هائلاً من المظاهر الإسلامية الطيبة كالحجاب والنقاب واللحية والمصلين، ولكن هذه المظاهر تفتقد الجوهر الإسلامي النقي، والتطبيق المتكامل ولا أقول: الكامل لشرع الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وقد شاهدت بنفسي بعض المحجبات حجابًا شرعيًا كاملاً يَسِرْنَ في الطرقات مع بعض الشباب الفاجر بمشية خليعة لا تتناسب مع وقار الحجاب، فعلمت أن مثل هذه النماذج تنشأ من انتشار الدعوة كمًا لا كيفًا، حيث يَطْغَى المظهر على حساب الجوهر.

وكل هذه الملاحظات تملي علينا أن نعيد الحسابات في الدور التربوي الذي يجب أن نحمِّله للمرأة كأمانة تقوم بها في ملكوتها، وهو بيتها وبيت زوجها.

وقد أَتَتْ إليَّ امرأةٌ تعمل مُوَجِّهَةً في وزارة التربية والتعليم (!)، تشكو إليَّ فساد ابنها وإدمانه المخدرات وأنها فعلت المستطاع في سبيل درء الفساد عنه.

ولسوء حظ هذه المرأة أن ابنها قد سبقها يشكو سوء معاملة أبيه وأمه، وتفريقهما في المعاملة بينه وبين إخوته، وأن أباه يسبه كثيرًا بأقذع السباب، وأمه ليس لها دور

مؤثـر في البيت، مع أنه يحـبهـا ويقدرها، وشكا إليَّ أنه عندمـا كان يحـرص على الصـلاة في المسجـد وجد أسـرته في مـوقف المستنـكر عليه؛ لأن أخـاه على وشك الحصول على ترقية في مركز حـساس، وأن من شأن صلاته في المسجد أن تؤثر على هذه الترقية.

فأخبرت تلك الأم بجلية الأمر، وأن الجاني في الحقيقة ليس الابن، بل الأسرة، بل الأم في المقام الأول، وأن الأولادِ هم ضحية جهل الأسرة بأحكام الشرع، وضحية بلادة الأم في رعاية أبنائها وَفْقَ شرع الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وأنا أتصور حـجم الخسائر التي تقع في مـجتمعنا الإسـلامي كل يوم بسبب هذا الإهمال، كما أتصور ما يمكن أن نجنيه من نجاح تربوي هائل، وفتح دعوي كاسح إذا كان للمرأة مـساحة مناسبة من الخطاب الدعـوي، وأعني الأمَّ بالدرجة الأهم، ونحن نظن أن دعوة النساء مقصورة على أمرهن بالحجاب وطاعة الزوج، ولعمري ليس هذا كل الدين في حق المرأة، فإنها تَحْمِلُ من أمانة التربيـة في بيتها ما لا يحمله الرجل، لا جَرَمَ جعل الرسول ﷺ مـسئولية البيت للمرأة، أي: القـيام بأمر الأبناء ورعاية شئونهم وتلقينهم مبادئ الدين والأخلاق.

وفي ذلك يقـول الرسول ﷺ: **«كلُكُم راع ومـسـؤول عن رَعِيَـتِـهِ، الإمـامُ راع ومسؤول عن رعيته، والرجلُ راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومـسـؤولةٌ عن رعـيتـهـا، والخـادم راع في مـال سـيـده ومـسـؤول عن رعـيتـه، وكلكم راع ومسؤولٌ عن رعيته»**[(١)].

(١) رواه البخاري ومسلم.

وتأمل كيف جعل مسئولية الرجل رعاية أهله، إذ القوامة في يده، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣٤)، وجعل مسئولية المرأة رعاية البيت، وبيت المرأة يشمل نَشْأَهَا الذين أنْجَبَتْهُم وأُمِرَت بالقيام بأمرهم وتأديبهم ورعايتهم.

والجانب الذي يُلاحظُ في نساء عصرنا أنهن يَمِلْنَ للدعة والخمول أكثر من نساء الأزمنة الغابرة، فبينما كنا نسمع ونقرأ عن الأديبات والفقيهات والمقرئات والمحدثات، وبينما كانت سلسلة الإسناد لأي محدث لا تخلو من (شيخة)، فإننا نرى نساء عصرنا حتى اللواتي تَنَسَّكْنَ ينتشر بينهن الخوضُ في أعراض الناس، والغيبة والنميمة، والشكوى من الأزواج والأولاد، وإفشاء أسرار الأسرة إلى الغرباء، وتضييع الأوقات في الزيارات غير المفيدة، وإثقال كاهل الزوج بالطلبات الكثيرة المضنية، ويَنْدُرُ أن تسمع عن امرأة حفظت القرآن، أو اشتهرت بفقه أو حديث أو غير ذلك من العلوم، ومن تخصصت في علم من العلوم فإنك ستجدها لا محالة في المرتبة الدنيا من متخصصي ذلك العلم.

ونحن لا نلقي الملام كله على المرأة، بل نُحَمِّلُ الدعاةَ جزءًا عظيمًا من المسئولية، فعلى عاتقهم تقع مسئولية تعليم أولئك النساء وتربيتهن التربية الصحيحة المستمرة.

والمقصود هنا بيان خطورة الاهتمام بهذه الشريحة، والعناية بتوفير المناهج الملائمة لها، حتى تتبوأ المرأة مكانتها في تنشئة الأبطال، وتربية القادة والخالدين.

كما أن المقصود تفهيمُ المرأة لدورها، ودعوتُها للاضطلاع به، وتحريكُ فَعَالِيَتِها في الإطار الذي رسمه لها الشرع، مع إيجاد التنسيق المناسب لتكامل دور المرأة مع بقية الأدوار الدعوية التي تتم في محيط المجتمع المسلم.

فأولُ ما يجب أن تنصرف إليه جهود الدعاة بالنسبة لشريحة النساء أن يُوجدوا الآلية التي تُسَهِّلُ طلب العلم للنساء، وتجعل الثقافة الإسلامية بالدرجة الأولى أمرًا ميسرًا عليهن جميعًا.

وقد أقام بعض الدعاة مدرسة لتعليم النساء العلوم الشرعية بالمراسلة، حيث وَفَّرَ لهن الأشرطة التي تشرح المناهج، ووضع في المسجد صندوقًا لتلقي الأسئلة، ثم عقد الامتحان بعد فترة محددة متفق عليها، وقد آتت هذه المدرسة بعض ثمارها، ولكنها لم تستمر لافتقادها لآليات الإدارة الأكاديمية التي توفر جهود المدرسين وتضفي رونقًا نظاميًا محترمًا.

ولاشك أن الدعوة - بإمكانياتها القليلة - ستضطر أن تخوض الكثير من التجارب حتى توفِّر لشريحة النساء جوًا علميًا مناسبًا، بل إنها ستحتاج إلى مجهودات المفكرين من الدعاة في تصور الحل المناسب لمشكلات طلب العلم بالنسبة للمرأة الحامل والمرضع ونحوهما.

ثم إن حركة التأليف يجب أن تتوافق مع هذا الاتجاه في توفير المؤلفات التي يحتاج إليها النساء، وخاصة ما يتعلق بالأحكام الشرعية للمرأة، فإنها متفرقة في بطون كتب الفقه، وقد تصدى لهذا المشروع جملة من العلماء الغيورين جزاهم الله خيرًا[1]، ولكن يبقى الباب مفتوحًا لتيسير تناول هذه المؤلفات وجعلها مناهج علمية لتدرس لا لتكون مجرد ديكور منزلي تزين به المرأة بيتها.

ومع هذا الدور الدعوي للدعاة مع المرأة، فإن المرأة يجب أن يكون لها دور ذاتي مستقل في تكوين الأسرة، وحمايتها من لَوْثَاتِ العصْرَنَةِ الكاذبة، والتطور الزائف، وتحاول المرأة المسلمة - من باب التعاون مع الدعاة - في صبغ بيتها بالصبغة الدينية، وذلك بمقاومتها لكل عناصر الفساد والانحلال التي ينجرف لها المجتمع.

---

(١) نذكر من هؤلاء الدكتور عبد الكريم زيدان - حفظه الله - الذي ألف «الموسوعة الفقهية للأسرة المسلمة»، والتي حاز لأجلها جائزة الملك فيصل - رحمه الله -، وكذلك الشيخ المحدِّث مصطفى العدوي الذي ألف «موسوعة أحكام المرأة»، وتضمنت أحكام النكاح والطلاق والزينة والحجاب وغير ذلك مما ينبئ عن تضلع الشيخ - حفظه الله - من أحكام الشريعة.

والمرأة في كل مكان في العالم لها قدرة على التأثير في مجريات أمور البيت أكثر من الرجل، حتى التي تكون شخصيتها ضعيفة، فإنها تستطيع أن تكون المَوْئِلَ والمرجع لكل مشكلات البيت، وهي التي تستطيع أن تستوعب كل ما يحيق بالأسرة من نكبات وغِيَر.

فالمرأة كأم لها دور واسع في رسم الخطوط العريضة للتربية التي يجب أن يتلقاها أولادها، فهي التي تعودهم على الصلاة وقراءة القرآن واحترام الكبير وبرِّ الوالدين، بل هي التي تُرْضِعُهُمْ مَخَافَةَ الله - تبارك وتعالى - كما تُرْضِعُهُمْ لُبَانَهَا، وهي أول من يعلِّم الأبناء كلمتي الحلال والحرام.

والمرأة كزوجة لها دور متعاظم في إصلاح اعوجاج سلوك زوجها، وهي التي تستطيع أن تأطِرَهُ على الحق أطرًا، إذا توفرت لها العزيمة الصادقة[1].

ثم إن زوجة الداعية أيضًا لها دور كبير في الصبر عليه، والصبر على حياته الدعوية التي تتطلب تفهمًا لدوره، وتعاونًا معه في متطلباته الدعوية، والزوجة التي أقرت عين زوجها الداعية جديرة أن تنال لقب: الزوجة الخَدِيْجِيَّة؛ لأنها تشبهت بأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في مؤازرتها النبي ﷺ في دعوته.

---

(١) قد أفتى بعض أهل العلم لامرأة زوجُها تارك للصلاة أنه لا يجوز أن تمتنع عن إعطاء زوجها حق الفراش لأنه تارك للصلاة، وذلك أن تارك الصلاة فاسق - عند ذلك المفتي - والصحيح أن المرأة يجوز لها أن تُعَزِّرَ زوجها وتمنعه بعض الحقوق إذا امتنع عن أداء حقوقها فحقوق الله - تبارك وتعالى - أولى حينئذ، وكيف تكون عقوبة تارك الصلاة - حدًا أو ردة - هي القتل ثم لا يجوز للمرأة أن تعاقب زوجها بهجر الفراش؟ والأصل الذي نتمسك به قوله تعالى: ﴿**وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ...**﴾ (النساء: ٣٤)، مع أنه تعالى قد قال: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فلهن مثل ما للرجال من حقوق، ومنها حق الهجران في المضاجع، واستثني الضرب لمنافاته حق الزوج من التعظيم والاحترام والذي ثبت بأدلة متضافرة مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾، والمعروف عدم استساغة ضرب المرأة للرجل.

كما أن للمـرأة دورًا مع صُوَيْحِبَاتِها وجـاراتها وقريباتها، فـي نصحهن ووعظهن ومهـاداتهن بالكتيبات والأشـرطة، ولا يخفى أن كل ما ذكـرناه من طرق يجري على النساء كما يجـري على الرجال، فهنَّ شقائقهم، ولا يخـرجن عن القاعدة إلا بما دل دليل من الشرع على استثنائهن.

◆◆◆

الطريقة الرابعة والعشرون

العِنَايَة بِالأَطْفَال

اعتبرتْ دراساتٌ صادرةٌ عن الأمم المتحدة أن الدول التي تُنْفِقُ من ميزانياتها قدرًا مُخَصَّصًا للأمومة والطفل هي دُوَلٌ متقدمة أو ساعية في التقدُّم، أما الدول التي يعاني فيها الأطفال والأمهات مشكلاتٍ في الصحة والتغذية والعلاج فهي دول مُتَخَلِّفَةٌ أو آخِذَةٌ في التخلُّف.

واهتمام الدعاة المسلمين بالأطفال لن يَتَّجِهَ بالطبع إلى تقديم الحليب والألعاب ولكن المقصود من إيراد تلك الدراسة التنبيه على أن الأطفال هم رجال المستقبل وعدة الأمة في التحضر، وبقدر الاهتمام بتربيتهم وتنشئتهم وتعليمهم نستطيع التَّنَبُّؤ بالمستقبل الذي ينتظر أمتنا.

وليس خافيًا أن الاهتمام بالطفل عندنا معاشرَ الدعاة يَحْتَلُّ مَرَتبةً متأخرةً من أولويَّاتنا، بل الواقع المشاهد يعطينا الحق في الجزم بأن كثيرًا من الدعاة لا يُعِيرُ هذا الجانب أي اهتمام أصلاً.

ونحن لن نتحدث عن قوافل التَّنْصير التي تَتَصَيَّدُ الصِّبْيَةَ بالحلوى أو عصابات المافيا التي تخطف الأطفال لسرقة أعضائهم وبيعها أو استخدامهم في شبكات الدعارة العالمية[1]، مما هو معلوم لكل متابع لأخبار العالم اليوم.

---

(١) تم اكتشاف شبكة دولية مقرها في بلجيكا والولايات المتحدة تقوم بترويج دعارة القُصَّر من الأطفال، وقد اكتشفت هذه الشبكة في بلجيكا إثر بحث الشرطة عن أطفال تم اختطافهم، وتبين فيما بعد أن قيادات عليا في الشرطة البلجيكية كانت ضالعة في هذه الشبكة، مما فضح المدنية الغربية أمام كل العالم. =

ولكننا سنتحدث عن الدور الإجرامي الذي تقوم بـه وسائل الإعلام تجاه عـقول الأطفال، والتقاليد والعادات المنحرفة التي يَنْشَئُونَ عليها، وحَمْلَة التغريب التي تُمَارسُ من قبل من يَتَوَلَّوْنَ تربيتهم، بالإضافة إلى الحملات الضاربة من علمانية موتورة أو قومية مُفْلِسَة، فماذا ننتظر أن نرى من نشئنا بعد كل هذا؟!!

إننا لا نتعجب الآن حينما نرى أطفال المدارس يتبارون في استعراض تَبَعِيَّتهم للغرب عَبْرَ التقليد الأعمى في الملبس والعادات وحتى في المأكل والمشرب[1]. ولم نعد نستغرب تنافس الأطفال الصغار في ملاحقة الموضات العالمية أو في تقليد مُغَنِّي الغرب أو ممثليهم وراقصيهم.

ومنذ خمسة عشر عامًا تقريبًا أحضَرَ إليَّ بعض الأصدقاء طفلاً لم يتجاوز عمره السابعة، وقال لي ذلك الصديق: إن هذا الطفل من بَيْتٍ مُغْرَمٍ (بمايكل جاكسون) وقد شاهد هذا الطفل كل رقصاته وسمع كل أغانيه، ثم فاجأني ذلك الصديق بطلب

= ففي الوقت الذي خرجت الأصوات المطالبة بحقوق الإنسان والطفل من هناك إذا بهذه الدول أول من تقدم الدليل على كفرها بما تدعو إليه. ومن أنكى مظاهر الانحلال الذي جرف براءة الأطفال والفتيان انتشار الشذوذ الجنسي بينهم على وجه لا يجرمه القانون ولا يعارضه، بل يعتبره حقًا قانونيًا يُجَرَّمُ من يعترض عليه أو يحاربه، وفي أوائل خمسينات هذا القرن الميلادي أقر مجلس العموم البريطاني قانونًا يسمح بالشذوذ الجنسي لمن هم فوق العشرين، وكان ذلك إثر انتشار موجة الشذوذ بعد الحرب العالمية الأولى، وقامت المظاهرات في السبعينيات تنادي بخفض السن المسموح له ممارسة الشذوذ دون تجريم إلى ثماني عشرة سنة، فاستجاب القانون لنداء الغريزة المنكوسة، وفي أواخر التسعينات خرج الفتيان بل الأطفال ينادون بالسماح لمن هم في السادسة عشرة بهذا الفجور والعُهْر. فأي مدنية تلك التي يراد للمسلمين أن يسيروا في ركابها ويخطوا خطوها؟

(١) لقد صار من أدلة التحضر والرقي وملاحقة التطور ـ عند أولئك الذيول ـ أن يطعم الواحد منهم في محلات (ماكدونالدز) أو محلات (البيتزا) بأنواعها أو (كنتاكي) و(دويت) وسامحني ـ أيها القارئ ـ أن أدرجت هذه الأسماء أمام عينيك، ولكنني تعمدت ذلك لأقرر أن وجود هذه المحلات في بلاد المسلمين مظهر من مظاهر الاستعمار، بل قل من مظاهر الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين.

غريب فقال: لو سألت هذا الطفل ـ وهو مسلم للمعلومية ـ تحب الله أكثر أم (مايكل جاكسون)؟ لأجابك بالعجب، فلما سألته هذا السؤال، ويبدو أنه يُسْأَلُ عنه كثيرًا أجاب بما يُذْهِبُ اللُّبَّ ويُجَنُّ له العقل.

إن هذا الطفل الذي لم يبلغ الحلم ليس له من ذنب أن يقول: إنني أحب (مايكل جاكسون) أكثر من الله، ولكن الذنب على المجتمع الذي أَوْجَدَ صبْغةً وهُويَّةً لهذا الطفل تستسيغ أن تحب المُخَنَّثِينَ (وَسَاَغُضُّ الطَّرْفَ عن الكفرة والفُجَّار).

إن هذا الهَوَسَ الذي يَبْرُزُ في مجتمعاتنا كمظهر من مظاهر الانحراف الأخلاقي يتمادى في تأثيره ليصل إلى براءة النَّشْءِ الصغير وفطرته الطاهرة فَيَغْتَالُهَا بدعاوى العَصْرَنَة والتطور والموضة.

من لهؤلاء الأطفال؟ من الذي سيحميهم من هذه الموجات الجارفة؟ من الذي سَيَتَقَلَّب أرَقًا لملايين الأطفال الذين تستعبدهم تقاليد مجتمع مُنْهَزِمٍ مَخْذُول؟

إننا بصدد خيانة جماعية يمارسها الآباء والأمهات ضد هؤلاء الأطفال، فلم يَعُدْ أحدٌ من المسلمين يَأْبَهُ لهم أو يلتفت للأخطار المُحدِقَة بهم، ومما زاد الطين بِلَّةً ذلك الميراث الأخرَقُ الذي اجتاه الناس من المدنية الحديثة ألا وهو مذهب الأنامَاليَّة، فصار كل امرئ يقول: نفسي نفسي، وإذا ما رأى أطفال المسلمين يتهَاوَوْنَ مِنْ حَوْلِهِ لا يَتَحَرَّكُ له سَاكِنٌ، ولن يتحركَ حتى يُصابَ في ولدِهِ نفْسِه.

وهكذا صرنا نرى الأُسَرَ يقع أبناؤها صرعى الإدمان وعصابات المجون وعَبَدَةَ الشيطان، فلا يتحرك لإصلاحهم غيور، حتى إذا ما وقعت الفَأْسُ وبانت الرَّأْسُ عَضُّوا الأناملَ من النَّدَم.

إن أطفال المسلمين مسئولية كل المسلمين، ومستقبلُهم هو مستقبل الإسلام نفسه، ومن يُغَامِرُ في إهمال مستقبله فهو سَفِيهٌ يجب أن يُحْجَرَ عليه، ويُعَامَلَ معاملة

السفهـاء. لم يعد الأمر يقبل تطييب الخـواطر، ولو ملكت من الأمر شيء لأسقطت ولاية كثير من الآباء لأبنائهم، فما هم بآباء، بل والله ما هم من البشر الأسوياء[١].

إن أية فرصة تَسْنَحُ لداعية في تربية طفل، سواء كان قريبًا أو جارًا أو ابن صديق أو تلميذًا عند الداعية المدرس فلابد أنْ يَهْتَبِلَهَا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وفي إطار الأنشطة التي تعـرَّضنا أو سنتعرض لها فـي كتابنا كدور المسـجد ودور التأليف ودور الجهـد الإعلامي يجب أن تحتل تربية الطفل المسلم مـساحة تتناسب مع خطورة الأمر.

وعلى هذا المنظور فإن الدعاة يجب أن يـكونوا أُبويين أكثر من الآباء، ويجب أن تتضافـر جهودهم لجعل هذا النشاط المـهم سائغًا لدى المجتمع، فـالذي لاشك فيه أن كثيرًا من المجتمعـات تنظر إلى الدعاة نظرَةَ ريبةٍ، بل الواقع أن الإعلام قد مَارَسَ دورًا قَذِرًا في تشويه صورة الدعاة عند الناس، بحيث صارت الأسر تُحَذِّرُ أطفالها والناشئة فيـها من الملتزمين بالدين ومن دخـول المسجد، كمـا تُحَذِّرُهُم من الحيات والعـقارب وبيوت السَّحَالي السامة!!

---

(١) إن بعض الآباء والأمهات يستحـقون أن نُشَبِّهَهُم بالذئاب التي ترعى الغنم، فمجتمـعاتنا لم تَعُدْ تُعير للمثل والقيم احـترامًا، فلا بأس أن يشجع الأب ابنتـه على هواية السباحة، ويتـباهى أمام الناس بأن ابنته بطل سـباحة، وآخر إذا سـمع أن ابنه شرب الدخان أو زنا أو شـرب الخمر قال: «طيش شـباب وبُكْره يعقل»، وأم تذهب إلى الموجهة الاجتماعـية في المدرسة وتكيل لها من اللوم والتقريع ما تكيل لأن تلك الموجهـة تجرأت وأخطرت الأم أن ابنتهـا تقابل شابًا غريبًـا خارج المدرسة وأنهـا تكلمه على الدوام دون حياء، والأعجب أن الأم عللت تصرف ابنتها بأن هذا ضروري حتى تخوض البنت تجربتها في الحياة!

إنها أمثلة حقيـقية وحية وليست من دراما التلفاز والسينمـا، وهي تلقي ضوءًا ساطعًا على نماذج الآباء والأمهات المضيعين لذرياتهم.

إن اكتساب ثقة الأسر من أهم الخطوات التي يجب أن يتخذها الدعاة للقيام بدور تربوي فعَّال تجاه الأطفال، وقد أثبتت التجارب أن سد الحاجات الأساسية للأسر له دور مهم في كسب الثقة وكسر الحواجز(١).

فالداعية المدرس الذي يعطي درسًا خصوصيًا مخفضًا أو بدون أجر يستطيع أن يدخل أي بيت أراد، والداعية الطبيب الذي يعالج الأطفال مجانًا أو يوزع الأدوية على المرضى مجانًا يلقي بنصائحه وهو على ثقة أنها ستلقى أرضًا خصبة مستعدة للإثمار.

وعلى ذلك فإن الدور التربوي الذي سيقوم به الداعية تجاه الأطفال ليس بالضرورة أن يكون دورًا تربويًا مباشرًا، فقد يكون الداعية نموذجًا لأطفال المنطقة إذا كان حديثَ بيوتاتهم ومَضْرِبَ المثل في المروءة عند أسرهم.

ويكتسب الدور التربوي مع الأطفال فعالية عالية في التأثير على شخصية الطفل بعد ذلك، كون الطفل مستعدًا للتلقي أكثر من تأهله للمناقشة والمجادلة والتمرد الذي هو من شِيمَةِ المراهقين والشباب.

ثم إن غرس الفضائل في الأطفال أحرى لثباتها وتَجَذُّرِها في الطَّبْعِ من أن يتعلمها بعد أن يشبَّ عن الطَّوق، وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أن العقائد الاجتماعية والعادات والتقاليد تتأصَّل في مرحلة الطفولة أكثر من أية مرحلة أخرى.

ولنا عِبْرَةٌ في حديث النبي ﷺ حين قال: «**مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناءُ سبعِ سنينَ، واضربُوهُم عليها وهم أبناءُ عشرِ سنين**»(٢)، فالحديث يوضِّحُ بجلاء أنَّ سنَّ

(١) كذا من أنجح الطرق في كسب ثقة الأسر وكسر الحواجز أن يشجع الداعية الأطفال على المبالغة في بر والديهم والعناية بهم، وكذا الاهتمام بدراستهم ويعطيهم الجوائز والهدايا على تفوقهم، ويلقن الطفل أن يقول للأسرة: تعلمت هذا في المسجد أو من فلان.

(٢) رواه أبو داود وصححه الشيخ الألباني.

الطفولة سنٌّ أمر؛ لأنه غير مجبول إلا على التلقي والاستيعاب والتطبيق دون مناقشة أو مجادلة.

وهناك الكثير من الوسائل التي نخطو بها دَرْبًا إلى قلوب الأطفال إن لم نستطع أن نستولي عليها استيلاء، وهي وسائل يسيرة وعفوية، لكنها تحتاج إلى انتهاز الفرص ومواتاة الظروف.

من تلك الوسائل كَثْرَةُ مُـهَادَاتِهم، ومشاركتهم في ألعابهم والتَـوَدُّدُ إليهم بجميل الألفاظ والمعاملة الحسنة، وكثرةُ التَّبَسُّمِ في وجوههم، وإظهارُ الحنان والعطف عليهم، ومناداتهم بأحب الأسماء إليهم، واللعب معهم ومضاحكتهم، والتجاوب مع أسئلتهم وعدم النفور من إلحاحاتهم وحب استطلاعهم.

وقد أكدت لي التجربة المتكررة أن الأطفال أكثر ما يكونون استعدادًا لقبول النصيحة والتوجيه ممن يحترم عقلياتهم ويتعامل معهم بود وتفاهم، ويكسب احترامهم بأن يغمرهم من فيض حبه وعطفه عليهم.

والأطفال في حقيقة الأمر كُتْلَةٌ من المشاعر الفَيَّاضَةِ التي لا تستخدم العقل في الغالب، وإذا استخدمه الطفل فإنه لن يَتَعَمَّقَ في فلسفة الأمور والبحث عن عِلَلِهَا الأولى كما يفعل من عَرَكَتْهُمُ الحياة وطَحَنَتْهُم رَحَاهَا.

ومن خصائص الأطفال أن لديهم طاقة متعاظمة لتلقي الجديد من العلم والأخلاق والمثل والمكارم والمعالي، وأن ما يتلقونه في أيام طفولتهم من تلك المكارم يصبح من المسلَّمات إلى أن يأتي من يغيرها ويبدِّلُها لهم.

إن عَقْدَ مقارئ القرآن في المساجد في الإجازات الأسبوعية والصيفية نشاط يجب ألا تخلو منه أي منطقة يتحرك فيها الدعاة، بل هي من لب الأنشطة الإستراتيجية،

وإذا ضاقت السبل في عقد هذه المقارئ في المساجد فلن يَعْدَمَ الدعاة مكانًا في بيوتاتهم يجمعون فيه أولادهم وأولاد الجيران والحي ليحفظوهم من كتاب الله تعالى آية كل يوم.

إن فطرة هؤلاء الأطفال ستكون فطرةً قرآنية كاملة، تَتَّجِهُ بِمَحْضِ ما تَنَشَّأَتْ عليه إلى معالي الأمور ومكارمها وتَنْبِذُ السفساف الحقير؛ لأنها تحصَّنَتْ ضد الشر وينابيعه.

كما أن استغلال الأعياد كالفطر والأضحى في إدخال السرور على الأطفال عبر مهاداتهم وتوزيع الحلوى والألعاب من أيسر السبل لتنمية الشعور الديني تلقائيًا، إذ تقرر أن صغار السن تَتَكَوَّنُ تَصَوُّرَاتِهِم عن الشَّأنِ المهم في حياتهم بما يلحظُونَ أنه يجلبُ لهم مصلحة ما، فالصغير ما أسهل أن تُعَلِّمَه أهمية حفظ القرآن بمجازاته بالهدايا - ولو كانت رمزية - عند كل سورةٍ يُتِمُّ حفظها.

ومما يتعلق بهذا الصدد قضية على جانب كبير من الخطورة، وهي غرس محبة المسجد في قلوب الصغار، والعمل على تنمية الحنين إلى المسجد داخل نفسية الطفل على مر الأيام.

وسبيل ذلك أن نوفر للصغار جوًا من العطف والمرح والسرور عبر أنشطة المسجد المختلفة، وأن يصبر الناس على أخطائهم التي يرتكبونها في المسجد، واستخدام جانب اللين في عقوبة المخطئ منهم.

وقد تركَّز في ذاكرتي مُذْ كنت طفلاً أُحِبُّ التَّرْدَادَ إلى المسجد وجوهٌ بغيضةٌ لم تكن تعرف إلا الزَّجْرَ والطَّرْدَ حَلاً لإزعاج الأطفال، مع أن كثيرًا من الأطفال الذين يأتون إلى المسجد يأتون مدفوعين بفطرتهم السويَّة إلى بيت الله حبًا وتعلقًا بمظهر الصالحين الذين يترددون إلى المسجد.

فليَتَّقِ الله أقوام قد يكونون سببًا في الصد عن سبيل الله بمسلكهم في زجر الأطفال، فلربما نشأ الطفل مبغضًا للمسجد، مبغضًا لمن يصلي فيه لا لشيء إلا لأنه ضرب في المسجد أمام الناس مرة فتكونت عنده عقدة نفسية يصعب علاجها.

ومع ذلك فيجب التأكيد على أنه ليس من السنة الإتيان بالأطفال الذين لا يعقلون إلى المسجد في كل وقت، بل المستحب المجيء بهم بين الفَيْنَة والفينة، أما الطفل الواعي العاقل المميز فيجب تنبيهه وتعليمه آداب المسجد قبل المجيء به إليه.

وعلى صعيد المجهود الفردي الذي يستطيع كل مسلم أن يزاوله، فإنَّ تحبيب الأطفال في دين الله تعالى عبر التودد إليهم وإعطاؤهم الصورة الطيبة عن الدين والمتدينين كفيلةٌ بأن تفتح لهم باب هداية واسع وهم في نعومة أظفارهم، حتى إذا ما سمعوا في شَبِيبَتِهم موعظةً أو دعاهم إلى الفلاح داعٍ كانت الفطرة مستعدة، والتربة خصبة، فأنبتت الكَلأَ والعُشْبَ الكثير.

وعلى صعيد تعليم الأطفال الدينَ فإن المكتبات الإسلامية أصبحت عامرة بالكثير من الكتب التربوية، وبرامج الكمبيوتر الشَّيِّقَةِ التي تَغْرِسُ فيه حب العلم والمعرفة، وتزيده دراية بأحكام دينه المختلفة من عقيدة وفقه وآداب وسيرة[(١)].

فالواجب على أولياء الأمور أن يُنَشِّئُوا أولادهم على حب المعرفة والقراءة والمطالعة، فبذلك ينبت الطفل وقد غُرِسَ فيه حب العلم، ولن يجد في كِبَرِهِ عوائقَ تَحُولُ بينه وبين الاطلاع والقراءة.

---

(١) من أفضل الكتب التي تعين في الاهتمام بالأطفال كتاب «مسئولية الأب المسلم في تربية الولد» لعدنان حسن باحارث، وكذا كتاب «المدارس والكتاتيب القرآنية وقفات تربوية وإدارية» صدر عن دار المنتدى الإسلامي.

إن طفلَ اليوم ما هو إلا شابُّ الغد، والصغير الذي نراه أهونَ من أن نَلْتَفِتَ إليه عَن قليل سيصبح رجلاً يعاملنا بنفس الشعور، وأَوْكَارُ الشر والخبث تَكِيدُ بليلٍ لتنال من أطفال المسلمين كل منال، ومن فروض الكفاية المتأكدة في هذا الزمن أن نقيم سياجًا منيعًا مبكرًا ضد انحرافات المدنية التي تطول الشباب، ولن يكون ذلك إلا بغرس الفضائل في المهود، وإرضاع القيم عند نعومة الأظفار، وبالله التوفيق.

◆◆◆

الطريقة الخامسة والعشرون

الفُقَـراءُ والمَسَاكِينُ

إن الإحصـائيات المتداولة تثـبت أن نسبة الفـقراء في العـالم الإسلامي تزيد عن النصف من تَعْدَادِ السكان، مما يُنْبِئُ بالخلل العظيم في تبادل الحقوق والواجبات.

ومن المعلوم أن ثروات العالم الإسلامي تكفي لإطعام العالم كله، كيف لا، وقد كانت مصر وحدها تطعم إمبراطورية روما من محصول قمحها.

فوجب التضافر حينئذ لتدارك هذا الخلل بين الأغنياء والفقراء، والدعوة الإسلامية بدعاتهـا ورجالهـا مأمورون أن يكون لهم قـصب السبق في تحـمل مسئـولية الفـقراء والمساكين في كل مجتمع، من باب الديانة والتقرب إلى الله أولاً، ثم من باب الدعوة إلى الدين ونشر الحق بين كل شرائح المجتمع.

وما من شك أن الدور الذي يضطلع به الدعاة الآن في توزيع الصـدقات وأعمال البر يحتاج إلى الترشيد والتدريب لتحقيق أعلى قدر من الاستفادة.

فإذا تحـملنا إطعام الفـقراء لسـد خلتهم وإشـباع جَوْعَـتِهم فـأولى بنا أن نَرْتَفِقَ لأرواحهم من زادِ الإيمان ما ينجون به يوم القيامة، وهذا لَعَمْرُ الله أولى بالاهتمام.

وطريق الدعاة إلى قلوب الناس مع الإحسان أَيْسَرُ وأَمْضى، فالقلوب جُبِلتْ على حُبٍّ من أحـسن إليهـا، فَلَزِمَ أن نَعْرِفَ كـيف يمكن أن نجعل المسـاعدات التي تـقدم للفقراء والمساكين وسيلة لجذب قلوبهم لدين الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وقد جعل النبي ﷺ العطاء والصدقات سبيلاً لتأليف القلوب، فألف قلوب الكثير من مشركي العرب بما كان يعطيهم من الأنعام والهدايا، وكان وجهه ﷺ يَتَمَعَّرُ إذا رأى من المسلمين من ظهرت عليه بوادر الجوع والمخمصة.

ونصوص الشرع المطهر تجعل الإطعام والدعوة إليه من آكد الواجبات الاجتماعية المحققة لمقصود الإيمان، والمستجلبة لمرضاة الله، والمؤدِّية للنجاة يوم القيامة.

يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ (المدثر: ٣٨-٤٤).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ (البلد: ١١-١٤)، ومدح المؤمنين المخلصين فقال: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: ٨-٩)، وذم من خصال المشركين بخلهم فقال: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (الماعون: ١-٣)، وذم المتعلقين بالدنيا فقال: ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر: ١٧-٢٠).

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، أَفْشُوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطعامَ، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنَّةَ بسلام»[1].

إطعام الطعام من شعار الدين الذي يجب أن يحييه الدعاة، ويعملوا على حض الناس عليه، ويتعاونوا فيما بينهم على القيام بها كفرض كفائي لرفع المأثم عن الأمة.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

ومن أول ما يجب أن يعتني به الدعاة للاستفادة من مساعدات الفقراء والمساكين في الدعوة إلى الله أن يكون القائمون على البحث الاجتماعي وتوزيع النفقات والمساعدات والصدقات مُدرَّبين على المعاملة الحسنة والصبر على إلحاح بعض الفقراء، وعلى امتثال آداب الصدقة من السماحة والتبسم في الوجه وعدم نهر السائل واستعمال طيب الكلام عند انعدام النفقة[1].

ومن شأن تصرفات بعض القائمين على الصدقات أن يَصُدَّ الناس عن دين الله ـ تبارك وتعالى ـ، كأن يتعامل مع الفقراء من منطلق أنهم لصوص أو مستغلون، وإغلاظ الكلام لهم ونهرهم، والتطاول عليهم بالسباب، والتكبر والتعالي عليهم، وإتباع الصدقات بالمن والأذى، وكل ذلك من شأنه أن يُشَوِّهَ صورة الدعاة عند الناس، وخاصة لو كانت الصدقات توزع عبر المساجد وعن طريق الدعاة.

وقد ضرب لنا السلف أروع الأمثلة في آداب التصدق، وقد يطول المقام بذكر تلك الأمثلة، ولكننا نشير إلى أن المُنَصِّرين استخدموا الآداب الإسلامية في الإحسان إلى الناس، وجعلوا الإحسان وسيلة لتنصير الفقراء والسذج من الخلق، وها هي ذي أصقاع العالم تشهد مستشفيات ومراكز رعاية الفقراء واليتامى والمرضى والعجزة والمشردين، ورأينا كيف هرعت منظمات التنصير إلى الصومال وإلى البوسنة لرفع المعاناة والآلام عن المسلمين بزعم أن يسوع المسيح جاء لينقذهم[2].

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ (الضحى: ١٠)، وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾ (الإسراء: ٢٨)، وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ (البقرة: ٨٣).

(٢) معلوم لدى كثير من الدعاة أن هيئات التنصير تدرب دعاتها على استعمال أساليب الرفق مع الخلق، والصبر عليهم، وعدم اليأس منهم، ومعلوم أن مهنة التمريض نشأت كعلم مستقل في الكنائس الأوروبية أوائل القرن الثامن عشر الميلادي حيث كانت الراهبات يقمن بتمريض جرحى الحروب، ثم تأصلت هذه المهنة في هيئات التنصير واستخدموها في مستشفياتهم التي أسسوها في أصقاع العالم.

ثم إن الأصل في الدعاة أن ينفقوا بسخاء مما في أيديهم، وألا يخشوا الفقر والإملاق، ولا يليق أن تدخر أموال الزكاة والصدقة بزعم الإنفاق منها عند قلة المتصدقين والممولين لمشروعات الإحسان والبر، وإقتار بعض الدعاة في الإحسان إلى الفقراء من شأنه أن يؤدي إلى نتيجة عكسية.

ولا نريد أن يأتي اليوم الذي يستقر في قلوب الناس أن الدعاة إلى الله من أَبْخَلِ الناس، فليس على الإنسان من بأس أن يعطي بسخاء مما في يده، فإذا انعدمت النفقة اعتذر للناس، وهذا أَرْجَى مما لو رأى الناس ما في يديه ثم لاحظوا بخله وإقتاره.

وقد رجع أعرابي إلى باديته بعد أن أعطاه النبي ﷺ غنمًا بين جَبَلَيْنِ فقال لقومه: «يا قومِ أَسْلِمُوا! فإن محمدًا يُعْطي عطاءَ من لا يَخْشَى الفقر»[1].

وقد قال النبي ﷺ لبلال: «**أَنْفِقْ بِلالُ، ولا تَخْشَ من ذي العَرْشِ إقْلالاً**»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ لا يَدَّخِرُ شيئًا لغد**»[3].

كما يجب على القائمين على الصدقات أن يبحثوا عما يَسُدُّ خَلَّةَ الفقير ويعملوا على تحصيلها عبر المتصدقين، وليس بالضرورة أن يكون طعامًا، فقد يحتاج الفقير إلى الملبس، وقد يحتاج إلى مصروفات تعليم أبنائه في المدارس وتجهيز ما يحتاجون إليه، وقد يحتاج مصروفات علاج باهظة.

وهناك الكثير من الأساليب والطرق في رعاية الفقراء واليتامى والمساكين، ولكن المقصود هنا أن نوفر لهم فرصة لتعلم أحكام الدين، وأن نأمرهم بالمعروف ونعينهم

---

(١) رواه مسلم وأحمد وابن حبان والبيهقي.
(٢) رواه البزار والطبراني في «الكبير»، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».
(٣) رواه ابن حبان، وصححه الشيخ الألباني في المرجع السابق.

على أدائه، وننهاهم عن المنكر ونعينهم على تركه، بل إن الدعاة يستطيعون أن يقوموا بدور في دعوة الطلبة الفقراء عن طريق تنظيم مجموعات تقوية، ودروس دينية خاصة، مع الاهتمام بالأطفال، وتنشئتهم نشأة إسلامية صحيحة.

ولن يغيب عنا أن ننبه أن كل ما يقوم به الدعاة في سبيل هؤلاء الفقراء إن هو إلا حق مكتسب لهم، وواجب على المجتمع بحيث يجب ألا يشعروا فيه بمنة على أحد لئلا تَحْبَطَ أعمالهم وهم لا يشعرون.

وقد قال الله تعالى: ﴿ وآت ذا القُربىٰ حقَّهُ والمسكين وابن السَّبيل ﴾ (الإسراء: ٢٦)، وقال ﷺ في وصيته لمعاذ بن جبل لما أوفده إلى اليمن: «ثم أعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ إلى فقرائهم»[1]، وكأن الصدقة سترد إلى أصحابها الحقيقين بها والجديرين بنوالها.

وعلى الصعيد الفردي، فكلُّ مُتَصَدِّق يستطيع أن يبذل مع الصدقة نصيحة، فيأمر الفقير بتقوى الله والمحافظة على الصلاة، ويُحَذِّرُه من أن يستخدم المال فيما يُغْضِبُ الله كَشُرْبِ الدُّخَان ونحو ذلك، وليس علينا أن قَبِلَ منا الناس أو أَبَوْا، ولكن المقصود أن تتكامل أعمالنا الدعوية، فلا نَدَعَ بابًا إلا وَلجناهُ، ولا جَادَّةً إلا سلكناها، وتلكم هي الدعوة الصادقة التي تجعل حياة الداعية كلها دعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ومن المهام التي ينبغي للدعاة أن يوفروها للفقراء والمساكين: العلمُ الشرعي الذي يُنَجِّيهم من عذاب يوم القيامة، فمن المفيد أن تُقامَ دروسٌ خاصةٌ للأرامل وفصولٌ دراسية خاصة للأيتام وللفقراء الذين لا يَجِدُونَ إلا جُهْدَهُم فيكون ذلك مَدْعَاةً لشعورهم بالدفء والحنان.

---

(١) رواه البخاري وغيره.

وقد يعجزُ بعض الفقراء عن تحصيل العلم الشرعي، وسماع الموعظة، فمن حقه على الدعاة أن يوفروا له الكتب ومصروفات المواصلات وأشرطة الدروس والمواعظ، ولربما كان النفع والرجاء فيه أعظم من غيره، وقد قال - تبارك وتعالى -: ﴿أما من استغنى (٥) فأنت له تصدى (٦) وما عليك ألا يزكى (٧) وأما من جاءك يسعى (٨) وهو يخشى (٩) فأنت عنه تلهى (١٠) كلا إنها تذكرة﴾ (عبس: ٥-١١).

وليعلم الدعاة والناس أجمعون أن السعي على الفقراء والمساكين من أرجى القربات عند الله تعالى، فقد جعله الرسول ﷺ عِدْل قيام الليل وصيام النهار[1]، ثم إن لهم يوم القيامة دولةً ووجاهةً عند الله، ويسبقون الخلائق إلى الجنة بخمسمائة عام[2].

فأجدِر به من سبيل خير، وأخْلِق بالدعاة أن يكونوا أول السالكين فيه، وليكن شعارهم: ﴿إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا (٩) إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا﴾ (الإنسان: ٩-١٠).

---

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله»، وفي رواية في الصحيح: «كالقائم الذي لا يفتر، والصائم الذي لا يفطر».

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

الطريقة السادسة والعشرون

إيجادُ الدَّاعيةِ المَيْدانيِّ

إنه الداعية المتحرِّك في كل صوب، المتقن لدعوته في كل ثوب، إن كان في بيته فنعم العائل والمربي، فإن نزل الشارع وخالط الناس وَسِعَهُم بدعوته، فإن ركب وسيلة مواصلات تناثرت بَرَكَاتُ دعوته على من حوله من الركب، إذا دَخَلَ مصلحة لم يخرج منها إلا بغنيمة دعوية؛ نصيحةٌ يُسَارُّ بها موظَّفًا، أو موعظةٌ يُسمِعُها لِسَافرة، أو كلمةُ معروفٍ يذكِّر بها من يقف معه في الطابور، إنه المبارك في حَلِّهِ وتَرْحَالِهِ، كالغيث أينما وَقَعَ نَفَعَ:

فلا مُزْنَةٌ وَدَقَتْ وَدْقَهَا *** ولا أرضٌ ابْقَلَتِ ابْقَالَهَا

قلبٌ عامرٌ وعقلٌ يثابرُ، وعزمُ مُغامرٍ، وإيمانٌ يجاهرُ، تقي خفي، نقي أبيّ، جبهته شَمَّاء، كبرياءُ دينه بلغ عَنَانَ السماء، ونفعُه مُتَعَدٍّ، وخيره عامٌّ، يتجذَّرُ هُداهُ في كل أرض أقام فيها، ويَيْنَعُ غَرْسُه حتى في الأرض القاحلة، تَنْدَاحُ جَحَافِلُ وعظه كالسيل العَرِمِ تذهب بكل سدٍّ منيع جاثم على قلوب الغافلين، إذا قال أسمع، وإذا وعظ أخضع، دؤوب الخطوِ بَدَهِيُّ التصرف، إذا اعترضته العوائق نظر إليها شَزْرًا وقال: أقبلي يا صعاب أو لا تكوني، محمَّدي الخُلُق، صديقي[(١)] الإيمان، عُمريُّ الشكيمة، عُثْمَانيُّ الحياء، عَلَويُّ الصلابة، فُضَيْليُّ العَبْرة، حنبلي الإمامة، تَيْمَوِيُّ الثبات.

---

(١) نسبة إلى أبي بكر الصديق ﷺ وما بعده من النسب فإلى الصحابة والسلف - رضي الله عنهم أجمعين -.

إنه الداعية الذي لا تعوقه عوائق الكون عـن القيام بواجب الدعوة أينما كان، إذا حيل بينه وبين الدعوة فكأنما أخرجْتَ سـمكًا من ماء، أو أسكنْتَ بشرًا في الصحراء، حَرَكِيٌّ كالنَّمل والنَّحل لا يعرفُ القَرَار.

إنه الداعية الفصيح، جنانه حاضر، وبديهته كالبرق الخاطف، ولسانه لا يفتر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعـوة إلى الخير، وما عدا ذلك فـذاكرٌ شاكر، أو صامتٌ صابر.

إن مظهره متناسـق مع وظيفته السَّرْمَـدية، هِنْدَامٌ نظيف ومتواضع، وهيئـة تَقِيَّة، وإخباتٌ غير متكلف، إذا رآه الخلق ذكروا الله تعالى.

وهو داعيـة مُتعـال على السفاسف، لا يسـتنكف عن فعل الخـير وإن استَـهْجَنَهُ الناس، إنه لا يُساوِمُ البـاعة أو يُلِحُّ في خفض الأسعـار، ولا يأنفُ من إماطة الأذى عن الطريق، يسلم على من عرف ومن لم يعرف، يبتـسم في وجوه الناس أجمعين، ويحفظ حِشْمَتَهُ من نَزَقِ الطائشين وسُمُود[1] العابثين.

مستعد للدعوة في كل ميدان، إذا فتشت حقيبته وجدتها مليئة بالحلوى والكتيبات والهدايـا الصغيـرة غيـر المكلِّفة. يصـطحب معـه في سَيْرِهِ أشْـرِطَةَ الدعاة والخـطباء والوعاظ، بل وأشرطة القرآن الكريم لمشاهير القراء، يحمل معه العطر والطِّيب دومًا، إنها أسلحة الداعية الميداني.

يستخدم الحلوى في التعارف، والكتيبات في التأليف والوعظ والإرشاد، والهدايا مع دعوة لحـضور محاضـرة أو خطبة، والأشرطة لتكون البـديل عن شريط غناء أقنع صاحبه بهجره، والطيب لإزالة حَزَازَاتِ النفوس، وتَوَجُّسِ الخائفين من مظهر الدعاة.

---

(١) السمود: هو اللهو أو سـماع الغناء، قـال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ۝٦١ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ (النجم: ٥٩-٦٢).

حتى إذا ما ألقى السلام فكأنك تسمع تَرْنِيمَةً كونية تَطْرَبُ لها أُذُنَاكَ، ذاك صوت الداعية الشَّجِيِّ، فإذا ما رأيته أقبل بوجهه الضَّحوكِ وسلامِهِ المُرَوْنَق (أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ).

لقد وقع القلب في شَرَكِ هذا الداعية واشتبكت القلوب المؤمنة وائتلفت[1]، والتقت العيونُ والمُقَلُ، فإذا أَدْمُعُ الخوف من الله تَتَعَرَّفُ على نفسها، حتى إذا ما سكَبَ ذلك الداعية الميداني كلمات الوُدِّ والمحبة في الله والتقت إرادة الله بالهداية أبصرت الهوى صريعًا في ساحته، والقلب تتهاوى شهواته وغرائزه أمام هذا السيل الدافق من فيض الإيمان والتُّقى، وكأنك بالشيطان رابضٌ ثَمَّ ينادي بالويل والثبور: ويلي ويلي قد اختطفه فلان الصالح مني!

إن الداعية الميداني متحرك لدينه، سواء كان مدرسًا أو طالبًا، مهندسًا أو طبيبًا، عالمًا أو متعلمًا، سائقًا أو راكبًا، حالاً أو مرتحلاً، أميرًا أو مأمورًا، رئيسًا أو مرؤوسًا، زوجًا كان أو عَزَبًا، فقيرًا كان أو غنيًا، صحيحًا كان أو سقيمًا، مبصرًا كان أو أعمى، سليم الأعضاء أو مُعَوَّقًا، في الشارع أو في البيت أو في الجامعة أو في المدرسة، أو في الدكان أو في الحافلة أو في الشارع أو في أي مصلحة حكومية، بلسانه ويده، بنفسه وماله، بكُلِّه يتحرك للدين وينافح عنه، لسانُ حاله: ﴿إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، وشعَارُهُ: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨).

---

(١) قال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، رواه أبو داود وابن حبان، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود»، وقال ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، رواه أحمد، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع».

إن من أولى المهـمات التي يجب أن تكون في همـة كل ملتزم بالديـن وساعٍ في البذل له أن يمهِّـد لنفسه أن يكون ذلك الـداعية الميدانـي، أو أن يُربِّيَ من حوله على أخلاق هذا الداعـية. ولنُنْجِب لأمـتنا بِضْعَ مئـات من هؤلاء الدعاة الميـدانيين يكونون جحافل حق، وجنود صـدق تغزو القلوب في عقر دارها، وتهـاجم أوكار الخبث في فؤاد كل ضـال، فتـسفك دمـاء الشيـاطين الغوية وتقـتل الأبالسة المُدَجَّـجَةَ بأسلـحة الشـهوات والـشبـهـات، وتسبي ذراريهـم من بقايا وَالجَـاتِ الهـوى، إن هؤلاء هم المقصودون من قـول الله تعالى: ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (هود: ١١٧).

ولنحاول صياغة بعض وظائف هذا الداعية الميداني واستعداداته وصفاته في نقاط مركزة فيما يلي:

١ ـ داعيةٌ مـخلصٌ يُمَحِّصُ النية قبل الـعمل، ولا يعتذر عن أي جهـد يستطيع القـيام به بزعم العـجز أو خـوف الرياء، بل يتعلم ويعـالج الهـوى ويخوض غِـمَارَ التكليف، مملوءَ الثقة بمعونة الله وكلاءته.

٢ ـ لا يبخل على الدعوة بأي مجهود أو طاقـة، فأينما دَعَاهُ دَاعِي البَذْلِ شَمَّرَ، لا يدَّخِر وقتًا خاصًا للدعوة، بل أصلُ عُمُرِه موقوف للدعوة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

٣ ـ يهـتم بالمظهـر الذي له دور في التأثيـر على الناس، هندامـه مـحتـرم، منظم الخطوات، رشيق العبارة (ينتقي الألفاظ ولا يلقيـها خَبْطَ عشواء)، يستولي على اللب إذا تحدث أو وعظ أو حاضر أو نصح، طيب الرائحة، حُلْوُ المَعْشَرِ، طَلْقُ الوجه مُبْتَسِمُه.

٤ ـ مُسْـتَعِدٌّ لكل مـوقف، فلديه الحلوى والكتيبـات والأوراق الإرشادية، ولديه الأساليب الجاهزة لغـزو القلوب، والطرق المنمقة لاستـمالتها، والأسلحة الفـتاكة في محاربة هوى النفوس، والمغْرِيَاتُ الشرعية في جذب الشاردين.

٥ ـ إنه لا يجعل مقصوده الأساسي في الدعوة أن يتنسك كل الناس وينخرطوا في سلك الدعوة إلى الله وإن كان يتمنى حصول ذلك، بل يتفانى في تقديم كل معونة للرُّقِيِّ بحال المدعوين إلى أي مستوى، ينقذهم من نفوسهم الأمارة بالسوء وشياطينهم الغوية أو أعداء مِلَّتِهِم المتربصين بهم.

٦ ـ إن الداعية الميداني يترقب الفُرَصَ ويسعى إليها ولا ينتظر مجيئها إليه، يُبَاغِتُ المواقف ولا يكون هو رد فعل لها، لا يترك فرصة لما يسميه الناس الصدف أو الفجأة، بل تراه بدهيًا مستعدًا لكل موقف بما يناسبه.

٧ ـ إن الداعية الميداني يتجاوب مع المشكلات التي تهدد المجتمع المسلم، ولا يشغل نفسه بتوافه الأمور وسفسافها، يقيم لأولويات الدين قِسْطَاسًا مستقيمًا يضبط اهتماماته، ويوجه تحركاته، يَتَعَامَى عن أَذِيَّة المغْرِضين وسَفَه المستهزئين، يَمْضي إلى هدفه غيرَ مُلتَفِت، قد أَرَّقَهُ حالُ الإسلام والمسلمين، وأَفْزَعَهُ طَرْقُ العدو لأبواب الحصون، فكأنه في رباطٍ يُنَافِحُ عن ثَغْرٍ مَثْلُوم يرد العدو من قِبَلِهِ.

٨ ـ يعتمد الداعية الميداني على كل الإمكانيات المتاحة، ويستغل الظروف لصالحه، لا يَلْعَنُ الظلام ولكنه يشارك في إيقاد شمعة، إذا قصرت به وسيلة نزل إلى التي دونها، حتى لو لم يجد إلا لسانه[1]، أو الإشارة باليدين لاستعملهما متوكلاً على الله الهادي إلى صراط مستقيم.

٩ ـ الداعية الميداني متحرك في كل الجهات، يشارك في كل مجالات الدعوة، بالقدر الذي يتقن به دوره، ولكنه عنصر حيوي في كل عمل، فالدعوة تعتمد على

(١) يذكرنا هذا بموقف خبيب بن عدي ﷺ لما وضعه المشركون على خشبة الصلب وجعلوا يقطعون من جسده القطعة تلو القطعة (هل مَنْ في مثل حالته يستطيع تقديم خدمة لدينه!)، ومع ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تغادر منهم أحدًا، فيا ويح أقوام لم يُقطعوا أو لم يصلبوا ومع ذلك بخلوا على دينهم بطاقاتهم!!

حركيته الواسعة وعلاقاته المتشعبة وقبوله لدى قلوب الناس وتمكنه من الانخراط في أي عمل يسند إليه.

١٠ ـ من أكثر سمات الداعية الميداني جدية أنه يعمل في صمت ويُؤْثِرُ العمل الدؤوب على الثَّرْثَرَة والتَّفَيْهق، ليس بالمنَّان ولا بالمعجب، شعاره بعد سماع الأمر من القادة: عُلِمَ وسَيُنَفَّذُ إن شاء الله، وإذا سئل عن تكليف أُنيطَ به قال: جارٍ التنفيذُ بعون الله، فإذا أَتَمَّ مَهَامَّه أبلغ المسئول في صمت: تم التنفيذ والحمد لله، إنها الجندية في أرقى صورها.

وبهذه الصفة الأخيرة نختم ناقلين قول الراشد حفظه الله ـ[1]: قال بعض السلف: ما ادَّعَى أحدٌ قط إلا لِخُلُوِّهِ عن الحقائق، ولو تَحَقَّقَ في شيء نَطَقَتْ عنه الحقيقة وأَغْنَتْهُ عن الدعوى.

فكما أن الفرد إذا امتلأ سكت ونطق عنه حاله، ولم تكن به حاجة إلى دعاية نفسه، فكذلك جماعة المؤمنين، إذا اتصفت بما تدعو إليه، وانْبَثَّتْ وأَحْكَمَتْ صفوفَها ووفَّرَتْ أسباب القوة ـ أَغْنَتْهَا هذه الحقائق عن الدعوى والمقال، وكان فعلُها مُغْنيًا لها عن الوصف أو التهديد، ولست ترى جماعة كثيرة الكلام إلا كان كلامُها دليلاً على ضَعْفِ رصيدها العملي.

إنها حقائق مُعَبِّرَة تتمثل في كل جزء من مفردات الأخلاق تَحُوزُهُ، وفي كل لبنة من البناء التنظيمي، وفي كل فن من فنون التخصص والخبرة العملية، وتعبيرُها يكفي ويُغني، وإنما يُطيل اللسان ويذكر الأمنيات من لا يملك الشيء، وأما من يملك فإنَّ مِلْكَه يُفْصِحُ عنه، والناس تشعر بالقوة الحقيقية تلقائيًا، ويَأْسِرُهَا النَّظَرُ وتَتَبَّعُ الأثَر. اهـ.

---

(١) «المسار» (ص١١).

الطريقة السابعة والعشرون

العَمَلُ الجَمَاعي(١)

إن من سمات أية حركة اجتماعية وليدة أن تكون ضعيفة تَتَلَمَّسُ أسباب القوة، وتَنْفِر من عوامل الضعف، وهكذا كانت دعوات الأنبياء، مصداقه قول النبي ﷺ: «بدأ الدين غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء»(٢).

ومن البَدَاهَة أن نقول: إن أية دعوة ربانية يجب أن تتخذ من أسباب القوة ما بها تعلو على عروش الباطل، وتَدُكُّهُ دكًا، فقوةُ الحقِّ بدون حَقِّ القوة ضَعْفٌ، والدِّين بدون سَيْفٍ يَنْصُرُهُ، هَضِيمٌ عِزُّهُ مَهِيضٌ جَنَاحُهُ، قال رسول الله ﷺ: «بُعثتُ بين يدي الساعة بالسيف»(٣).

وتحتاج الصحوة الإسلامية أكثر ما تحتاج إلى أن تُبَصَّر بأسباب القوة فتتخذها، وبمواطن الضعف لتجتنبه، كما نحتاج إلى تَجَرُّد وموضوعية في تناول القضايا، وسمو في استيعاب روح الشريعة والبعد عن الحرفية والظاهرية المحضة، إذ المماحكة في تحكيم ظواهر النصوص قليلة في مسألة ضخمة عظيمة بُعْدٌ عن حقيقة الاجتهاد والاستنباط.

---

(١) لقد أولينا هذه الطريقة كثيرًا من الشرح والتنظير، لأنه المناسب لها من حيث هي إشكال حركي يحتاج إلى تنظير فكري، وأخرنا الكلام عنها مع أهميتها لئلا يظن ظان أن الكتاب مؤلف لأجل هذه المسألة بعينها، ولأن العمل الإسلامي لا يعتمد على أهمية العمل الجماعي باعتباره شرط صحة، بل باعتباره شرط كمال، ومع ذلك فقد لا تتم بعض الأعمال إلا على وجه جماعي فتنسحب هذه الطريقة إلى قاعدة: «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».
وأنا أطالب من قرأ هذا الفصل أن يتجرد في تأمله، وأن يطرح كل الرواسب القديمة التي نشأ عليها، وأن ينشد الحق، ويردد: اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه. (٣) رواه أحمد وغيره بإسناد حسن.

ومن الأسباب التي تَبُثُّ القوة في أَوْصَالِ الصحوة فِكْرُ الحَرَكَةِ وحَرَكَةُ الفِكْرِ، فقُعودُ العقول عن فهم الواقع، والتكيف مع متطلباته من أعظم الشؤم الذي أصاب واقع الصحوة الإسلامية.

فالحق الذي نبذله للناس ونناضل دونه لابد أن يكون له رجال فَقُهُوا واقعَ أمتهم واستطاعوا أن يهضموا من المعارف والفنون ما يجابهون به واقعًا مدنيًا مُعَقَّدًا لم يَعُد ينفعُ معه مجرد حفظ المتون وقراءة الشروح.

إننا نحتاج إلى كوادر تفهم واجبها وتتقنه أيضًا، تُلِمُّ بواقع العصر، ولا تغيب عن التراث وتتجاهله.

وإن أخطر قضية شغلت شباب الصحوة وتوقف على حسْمِهَا سَرَيَانُ روح النشاط في أجسادهم قضية العمل الجماعي ومشروعيته، بل إن هذه القضية يعتبر حسمها لدى الدعاة من أهم الخطوات التي ستنحو بدعوتهم نحو العالمية، وتؤهلهم بثبات للصراع الحضاري العنيف، الذي نخوضه الآن مع كل ملل الكفر، كما أن الصحوة الإسلامية ستظل تراوح مكانها إذا وقفت من هذه القضية، موقف الحياد أو السلب.

فالعالم من حولها يَتَكَتَّل، والأعداء قد أمكنهم التلاقي لحرب الإسلام واستئصاله، ودول الكفر أَصْبَحَ لها عُمْلَةٌ واحدةٌ، وجوازات سفر مشتركة، وحدودٌ مفتوحةٌ، ومصالحُ مشتَرَكة، وما لم يدرك الدعاة بل المسلمون موقِعَهم في هذا العالم المتلاطِم، وما يجب عليهم أن يفعلوه، فإنهم سيكونون فريسة سهلةً لتلك السباع المتربِّصة، أو ساحة ليِّنَةً للجوائح المهلكة.

ونحتاج - ونحن بصدد الكلام عن خدمة الدين - أن نتحدث عن هذه القضية متعرضين لمفهومها الحركي، وحكمها الشرعي، متعرضين للأدلة الشرعية التي تفيد في هذا الباب، مع مناقشة أهم الشبهات التي تُطرح حول هذا الموضوع.

وجَلالَةِ هذا الموضــوع في نظري وارتباط نشــاط كثيــر من الدعاة بمعــرفة المحك الشرعي لهذه القضــية رأيت أن أُولِيَهُ شيئًا من الاهتمــام، وسأحاول طرحه عن طريق عناوين ذات مقــدمات متــسلسلة تسوق إلى النتــيجة الصــحيحــة آملاً أن يُنزِّل الكلام منزله، وألا تُحمَّل العبارات أكثر مما تحتمل.

تَحْرِيرُ مَحَلِّ النِّزَاعِ فِي المُسْأَلَةِ

نَعْنِي بقضيــة العمل الجماعي: أيَّ تَعَــاوُنٍ مُثْمِرٍ بَنَّاء مُسْــتَطَاع يَدْخُلُ في حَيِّزِ القدرة الشرعية، ويؤدي إلى تنشيط واقع الدعوة الإسلامية ويُسْهِمُ في إعزازِ الدين ونصــرته، والتمكين للشــرع المطهر، ويؤدي إلى الــنكاية في الكافرين بالضــوابط الشرعــية المعتبــرة عند العلماء المعتــبرين وبما لا يترتب علــى هذا التعاون مفــسدة راجحة تمنع من الإقدام عليه.

وكل قيد في هذا التعريف مقصــودٌ به إخــراجُ ما يخالفُه فَلْيُعْتَبَر، ولا التفات بعد ذلك إلى أي إيرادات على غيــر محل النزاع كأن يُقال: إن العمــل الجماعي يؤدي إلى مفــسدة وذلك بما توجِّــهه قوى العــدوان والبغي ضد الدعــاة، فهــذا لا يكون العمل الجماعي في حقهم ضروريًا فَلْيُفْهَم ولْيُقَس الغائبُ على الشاهد.

ثم إن المقصــود بالضوابط الشــرعية كل القــواعد العامــة والأصول العلمــية التي اعتبــرها أئمتنا في فقه السيــاسة الشرعية، ومــنها عدم التعاون مع الكافــر والمبتدع إلا بشروط، وعدم توليــة الفساق وأهل البدعة لولاية عــمل إلا بشروط أيضًا، فكل هذا يَسْري فيما نحن فيه، بل أجدر.

والمقصود بالعــمل ما يشمل القول والفعل، كالدعــوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد باللسان والأموال والأبدان.

■ والمراد بالجماعية هنا: مَحْضُ التعاون المشترك بين أكثر من فرد، فالجماعة المقصودة هنا: الجماعة الخاصة، لا الجماعة المسلمة العامة التي تَنْضَوِي تحت إمْرَةِ حاكم شرعي، فإنَّ العمل بالنسبة لهم على حسب قانون دولتهم المسلمة، وأمر حاكمهم الشرعي وبالضوابط والأصول المعتبرة أيضًا.

فكلامنا إذن في جماعة الدعوة التي تَنْشُدُ عِزَّةَ الدين والتمكين له في بلدان لا تتمتع بحكم إسلامي شرعي، ولا بوجود حاكم يَرْعى حِمَى الدين (وليس بالضرورة أن يكون كافرًا)، فمجرد وجود الحاكم المسلم مع غشه وظلمه وفسقه ليس سببًا للقعود عن نصرة الدين بل والقيام بما تأخر عنه ذلك الحاكم المسلم، فَلْيُتَنَبَّه.

شبهات القائلين ببدعية العمل الجماعي

لاشك أن كثيرًا من المسائل التي يتداولها الدعاة تكون الحقيقة فيها تَائِهَةً بين اختلاف العبارات وتباين المصطلحات، وعدم تلاقي المقاصد من الكلمات، فكان من الأهمية بمكان أن حررنا محل النزاع فيما نحن بصدده لنقلل مساحة الاختلاف ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

ولكننا سنجد من تبقى لديه بعض الشبهات التي حالت بينه وبين إدراك مقصد شرعي أو واقع دعوي، فمن الإنصاف أن نتعرض لأَشْهَرَ ما يتداولُه الدعاة من شبهات في هذا الباب لنوفي المقام حقه من التمحيص والدرس.

الشبهة الأولى - يقول الذاهبون إلى بدعية العمل الجماعي: إن الأدلة العامة التي أمرت بالاجتماع ونهت عن الفرقة، تنص على عدم شرعية التجمعات الدعوية التي تمزق كيان الأمة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال: ٤٦)، يقولون: إن العمل الجماعي يؤدي إلى التحزب والفرقة بين الجماعة، وهذا منهي عنه، فما كان كذلك لا يكون مشروعًا.

وهذا الاستدلال غير مستقيم، لأنه يُقال: هل مجرد وجود الجماعة وتعاون الأفراد فيما بينهم هو النزاع والافتراق؟، أم أن النزاع أمر خارج وطارئ؟، فإن قلنا بالأول: لزم اطراح كل النصوص التي تأمر بالاجتماع، وإن قلنا بالثاني: فيُقال: لو كانت الطاعة تؤدي إلى مفسدة من قبل البعض، فهل هذا يسوغ أن نقول ببدعية الطاعة وعدم مشروعيتها؟!.

إننا يجب أن نتبرأ من كل التصرفات التي تتنافى مع الاجتماع والتعاون كالعصبية والحزبية، وعقد الولاء والبراء على غير الإسلام، وإذا حدث هذا من بعض الجماعات بل من كل الجماعات فليس هذا دليلاً على حرمة الاجتماع وبدعيته، بل يُنهى عن المحرم ويُقَرُّ الصالح على صلاحه، ومحل ذلك بوضع المناهج التي تضبط أداء العمل الجماعي، وتقنين الأسس التربوية والأخلاقية للعمل الجماعي، وإثراء أدبيات العمل الجماعي بكل مجالاته (مبدأ ومنهجًا وأسلوبًا وأخلاقًا)، وليس ببتر العمل الجماعي من أصله، وحرمان الدعوة من ثماره لأجل بعض سلبيات ليس هو مسئولاً عنها، بل المسئول عنها خللٌ تربوي نشأ عليه بعض الدعاة، قال تعالى: ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ (الإسراء: ١٥)، وقال: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ (المائدة: ٨).

الشبهة الثانية - (الأدلة الخاصة) التي تنهى عن التحزب، والصريح في هذا الباب حديث حذيفة بن اليمان الذي رواه البخاري وبَوَّبَ له في (الصحيح)، فقال: باب «كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة؟»، ثم روى حديث حذيفة قال: كان

الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشر مَخَافَةَ أن يُدْرِكَني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟، قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟، قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**»، قلت: وما دخَنُه؟، قال: «**قومٌ يَهْدُونَ بغير هديي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرْ**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟، قال: «**نعم .. دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله صِفْهُم لنا، قال: «**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟، قال: «**تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المسلمينَ وإمَامَهُم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟، قال: «**فاعتَزِل تلك الفِرَقَ كُلَّهَا، ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شَجَرةٍ حتى يُدْرِكَكَ الموت، وأنت على ذلك**» الحديث.

قالوا: هذا أمر نبوي صريح باعتزال كل تلك الفرق والجماعات المتناحرة المختلفة حال كون المسلمين فاقدين للإمام الشرعي والجماعة المسلمة الكبرى المنضوية تحت لواء شرع إسلامي وحاكم مسلم.

■ والجواب عن هذه الشبهة: أن قوله ﷺ: «**اعتزل تلك الفرق كلها**»: يعود إلى أقرب مذكور وهم الدعاة على أبواب جهنم، ولو عاد إلى أبعد منه فهم القوم الذين يهدون بغير هدي النبي ﷺ، ولاشك أن كليهما يجب اعتزالهما، كما لاشك أن الجماعات الإسلامية العاملة في حقل الدعوة والمنضوية تحت لواء أهل السنة والجماعة والمستظلة بظل الصحوة الدينية المباركة، والساعية في سبيل إعلاء كلمة الله ليست من الدعاة على أبواب جهنم، وليست أيضًا ممن يهدون بغير هدي النبي ﷺ، ولا يجوز أن يُقال إن (ال) في كلمة (الفِرَق) للعهد الذهني، لأن اسم الإشارة (تلك) المنوه بما سبق قرينة على تعيين المراد، هذا وجه.

الوجه الثاني ـ أن الاعتزال لا يكون إلا بعد انعدام الجماعة والإمام، والواقع ليس كذلك، فإن الإمام إذا كان معدومًا فلن تنعدم الجماعة المسلمة، فإن زعم زاعم أن الجماعة المسلمة أيضًا منعدمة فإننا نحيله على:

الوجه الثالث ـ قال الحافظ في (الفتح) (١٣/ ٤١) قال الطبري: والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نَكَثَ بيعته خرج عن الجماعة. اهـ.

تنبيه:

قال الطبري بعد النقل السابق: «وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزابًا فلا يتبع أحدًا من الفرق، ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر» اهـ.

اتَّكأ على هذا النقل القائلون ببدعية العمل الجماعي، وقالوا: بوجوب مفارقة الجماعات العاملة في حقل الدعوة، وليس لهم مُسْتَنَدٌ فيه، لأن مراد الطبري ـ رحمه الله ـ الأحزاب التي تتنافس على الإمارة والإمامة والحكم، ولذلك قال عَقِبَهُ: خَشْيَةً من الوقوع في الشر، وهو شر التنافس على الدنيا، لأن السعي إلى الإمامة مذموم شرعًا، أما الأحزاب العاملة للدين ولا تتنافس على الإمارة بل تسعى لنصرة الدين والتمكين له فليست على شر، بل هي ساعية في دفعه، وفي جلب الخير المحض، ولا تدخل في النهي عن الاعتزال جزمًا.

ولسر بديع أعقب البخاري الباب الفائت، وهو: «كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟»، بباب آخر قال فيه: «باب من كره أن يكثر سواد الفتن والظلم»، وساق فيه حديث ابن عباس: أن أناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، فيأتي السهم فيرمى به فيصيب أحدهم فيقتله أو يضربه

فيقـتله، فأنزل الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذين توَفَّاهُمُ المَلائكَةُ ظالمي أنفُسهمْ﴾ (النساء: ٩٧)، وهذا السر البديع هو أن الأمر بالاعتزال السابق في الباب قبله مشروط بألا يؤدي إلى تكثير سـواد المشركين والـظالمين، وأهل الفتـنة والظلم، ولاشك أن تَفَـرُّقَ الدعاة، وعـدم تعاونهم يؤدي إلى تقوية الظالمين ونكايتهم للمؤمنين.

وما أشـبه أولئك القـائلين باعتزال الجـماعـات العاملة في حقل الـدعوة بأولئك المسلمين الذين بَقُوا في ديار الكفر وكَثَّروا سَوَادَ المشركين، ففي الوقت الذي نرى ملل الكفر تتلاقى علـى هدم الإسلام، وتتناسى خلافاتها لتـتفق على مناوأة المسلمين نرى المسلمين عاجزين - حتى - عن التعاون في تكتلات ذات أثر.

الشبهة الثالثة - استدلوا بقول النبي ﷺ: «**لا حلفَ في الإسلام**»[1]، قالوا: لا يجوز الانتماء إلى التجمعات الدعوية ولا التعاون معها لأنها أحلافٌ نهى عنها الشرع ونَفى اعتبارها في الإسلام.

■ ***والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:***

أولها - أن الوقوفَ عندَ ظواهر النصوص التـقيدَ بِحَرْفيَّتـها وإهدارَ روحها لا يخدم المسألة بل ينحرف بها عن فهم المقصد الشرعي الذي هو أساس الاجتهاد في مسائل النوازل.

ثانيها - أن المراد بالحلف ما كان يتـحالف عليه أهل الجاهلية من إيصـال الحقوق إلى أربابها، وكان المتحالفون يجمع بينهم آصرة الحلف، ويترتب عليها من الحقوق في الإرث والقرابة والـزيجة والالتزامـات ونحوها مـا يتعارض مع الشـرع، ويدل لذلك رواية مسلم حيث قال ﷺ: «**لا حلفَ في الإسلام، وأيُّما حلفٍ كانَ في الجاهليَّة لم يزدْهُ الإسلام إلا شدَّةً**»، وهو من رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري ومـسلم، ولفظ البخاري بإسناده عن عاصم بن سليمـان الأحول، قال: قلت لأنس بن مالك رضي الله عنه: أَبَلَغَكَ أن النبي ﷺ قال: «**لا حلف في الإسلام**»، فقال: قـد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري.

قال الطبري فيما نقله عنه الحافظ في (الفتح): ما استدل به أنس على إثبات الحلف لا ينافي حديث جبير بن مطعم في نفيه، فإن الإخاء المذكور كان في أول الهجرة، وكانوا يَتَوَارَثُونَ به، ثم نُسِخَ من ذلك الميراثُ وبَقِيَ ما لم يُبطِلْهُ القرآن، وهو التعاون على الحق والنصر، والأخذ على يد الظالم، كما قال ابن عباس: إلا النَّصْرَ والنصيحة والرِّفادة ويُوصِي له، وقد ذَهَبَ الميراث، ثم نقل عن الخطابي قوله: قال ابن عيينة: حالف بينهم أي: آخى بينهم، يريد أن معنى الحلف في الجاهلية معنى الأخوة في الإسلام، لكنه في الإسلام جارٍ على أحكام الدين وحدوده، وحِلفُ الجاهلية جَرَى على ما كانوا يَتَوَاضَعُونَه بينهم بآرائهم فَبَطَلَ منه ما خالف الإسلام وبقي ما عدا ذلك[1] اهـ.

▪ وخلاصة القول أنه قد وَرَدَ إثباتُ الحلف ونفيه، ولاشك أن فهم الصحابي أجدرُ بالتَّأسِّي، وما جَمَعَ به الطبري يَجْرِي وَفقَ طُرُقِ الترجيح، ويأتي على نسق قاعدة: الجمع بين دليلين أولى من إهمال أحدهما (الإعمال أولى من الإهمال).

ثالث الوجوه ـ أنَّ الحلف كلمة مُجْمَلَةٌ يُرْجَى ممن استدل بها على بدعية العمل الجماعي أن يَحُدَّ هو معناها، فإن أراد العمومَ لَزِمَ تحريمُ أيِّ حِلف، حتى لو كان ذلك الحلف بيعة الإمام الشرعي، وهو معلومُ البُطلان، وإذا كان التخصيص قد ثَبَتَ بالقطع، عَلِمْنَا جوازَ التخصيص بغيره، والمزعوم: أن عموم النهي أو النفي في حديث: «**لا حلف في الإسلام**»، مُخَصَّصٌ بآيات حفظ العهود والوفاء بالوعود والعقود، كما أن: «**لا حلف في الإسلام**»، قَضِيَّةٌ كلية سالبة، فهي في معنى: كل حلف في الإسلام غير جائز، ونقيضها جزئية سالبة، وهو: بعض الحلف في الإسلام جائز، ووجب صدق أحد القضيتين، فإما أن نلجأ إلى القول بالنسخ، وهو قول

(١) انظر «الفتح» (٤/٥٥٣) فما بعده.

لبعض العلماء، أو نلجأ إلى القول بالتخصيص، وهو ما فعله أنس بن مالك ـ رحمه الله ـ، فقد فهم الراوي أن: «**لا حلف في الإسلام**» بمعنى: كُلُّ حلف في الإسلام منهيٌّ عنه، فصحح له أنس سور القضية قائلاً: قد حالف رسول الله ﷺ بين قريش والأنصار في داري، وكان أنسًا رضي الله عنه أراد أن يصحح مدلول الحديث كالآتي: بعض الحلف في الإسلام منهي عنه، وهو ما أكده الطبري ـ رحمه الله ـ في جمعه بين حديث النفي والإثبات.

ولا مجال لادعاء أنّ (لا) نافية للجنس وهي تفيد القطع في نفي كل مفردات اللفظ، وهي عند الأصوليين تفيد العموم ولاريب، بيد أن عموم النفي مسلط على الجنس المعهود (وهو الحلف المذموم)، فلا يشمل الحلف المحمود، ودليله ورود التخصيص بعد عموم النفي في رواية جبير بن مطعم، فَأَفَادَتْ تلك الرواية نَفْيَ العمومِ لا عمومَ النفي.

وقد زعم الطحاوي ـ رحمه الله ـ في (شرح مشكل الآثار)[1] أن حديث أنس في إثبات الحلف منسوخ بحديث النفي، لأن الرسول ﷺ قاله في (فتح مكة). وإذا سلمنا بصحة النسخ، فإن البحث سيظل دائرًا حول مورد النسخ، وقد ثبت بالدليل الصحيح وتفسير الصحابي المعتبر كابن عباس وأنس رضي الله عنهم ثبوت الحلف بمعنى النصرة والمؤاخاة بشروطها المعتبرة، فيكون النسخ واردًا على ما مَنَعَته النصوص الأخرى، كالتَّوَارُثِ والعصبيةِ والنُّصرةِ حتى بالباطل، ويَبْقَى ما أَقَرَّتْهُ النصوص ولم تَمْنَعْهُ.

الشبهة الرابعة ـ يحتج المُبَدِّعون للعمل الجماعي بأنَّ جَمَاعِيَّة العمل تُورِثُ البَغْضَاءَ والشَّحْنَاءَ والتَّحَزُّبَ والولاء والبراء على الاسم، على حساب المسمى.

---

(١) «شرح مشكل الآثار» (٤/ ٢٠٣).

■ **والجواب على جزأين:**

الأول - في شرعية التسمي بأسماءَ لَقَبِيَّة غيرِ اسم الإسلام وأن ذلك لا حَرَجَ فيه، بل قد يكون واجبًا إذا احتيج إليه شرعًا[1].

---

(١) **بشرطين:** ١ - أن تكون الأسماء لا تحتوي على مخالفة شرعية.

٢ - أن ينعقد ولاء المنضوين تحت هذه الأسماء على اسم الإسلام لا اسم الجماعة، وأن يكون تسمية الجماعة لأجل مصالح نظامية تصب في مصلحة العمل الجماعي، أو للتميز عن أهل البدع والضلالات أو نحو ذلك من المقاصد الشرعية المعتبرة.

ومن قصد بالتسمي مفاصلة أهل السنة وبث العصبية الجاهلية فقد أجرم وأتى بالمنهي، أما إذا قصد تحصيل مصالح شرعية كالتعريف بوظيفة الجماعة أو تمييز العمل الدعوي حتى لا يحصل الاختلاف (كما هو معلوم عند المبصرين بالواقع) فهذا لا شيء فيه، فإذا وقع التعصب على الاسم من بعض الأفراد كان ذنبه على نفسه، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

والأدلة على مشروعية التسمي بأسماء مختلفة للجماعات المتعددة في ساحة الدعوة كثيرة من الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب.. فقوله تعالى: ﴿**لقد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ**﴾ (التوبة:١١٧)، ووجه الدلالة أن الله - عَزَّ وَجَلَّ - سمى طوائف المسلمين بأسماء مختلفة مع اشتراكهم في اسم الإسلام، ﴿**هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ**﴾ (الحج:٧٨)، وهكذا فعل رسول الله ﷺ (وهو دليل السنة)، فكان يعقد في حروبه للمهاجرين لواء، وللأنصار لواء، ولبعض القبائل ألوية خاصة بهم كما حدث في فتح مكة مثلاً، وإذا ثبت جواز ذلك مع وجود الإمام الأعظم، فأولى أن يثبت مع عدم وجوده، ولا يُقال: إن وجوده عاصم من الاختلاف، لأننا نزعم أن التسمي بهذه الأسماء إنما هو لمنع الاختلاف، وفرض المسألة أنه قصد بالتسمية تحقيق مصلحة شرعية، وإلا فإن الخلاف يحدث مع التعدد وبدونه.

وأما الإجماع.. فاتفاق الأمة قاطبة بدون نكير على مر القرون على جواز التلقب بالألقاب المذهبية، كفلان الحنبلي، وفلان الشافعي، وفلان الظاهري، ولاريب أن هذه الأسماء إنما هي عناوين لمناهج استنباط انتشرت في الأمة، وحصل بينها اختلاف في فهم النصوص الشرعية، وطرائق الاستدلال ومع ذلك لم يتناكروا هذه التسمية، لأن المقصود بها التمييز العلمي والتخصصي وليس الاختلاف والعصبية، وما زال أهل السنة يتسمون بأسماء مختلفة على مر القرون ليتميزوا عن غيرهم، فطورا سموا أنفسهم بأهل السنة، وطورا بالجماعة، وطورا بكليهما (أهل السنة والجماعة)، وطورا بأهل الحديث، وطورا تسموا بالحنابلة في مقابلة الأشعرية، وطورا بالسلفيين.

ونعود لنؤكد أن كل المحاذير المذمومة نتبرأ منها ولا نقرها، ونقول فيها ما قال رسول الله ﷺ حين تعصب المهاجرون لبعضهم والأنصار لبعضهم: «**دعوها فإنها منتنة**» رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما».

والثاني - أن كل الآفات المترتبة على العمل الجماعي نَتَبَرَّأ منها ونُحَذِّرُ منها ونَنهَى عنها، كما لا نعترف أنها ناشئة عن مشروعية العمل الجماعي منهجًا، بل هي في الغالب بسبب أخطاء شخصية وانحرافات تطبيقية أو مساوئ خلقية وتربوية ناتجة عن عدم فهم منهج العمل الجماعي والتحلي بآدابه، وسبب ذلك أمور:

١ - أن الأمة عاشت دهورًا لم تَسْتَظِلَّ فيها بظل الدولة المسلمة، ولم تَسْتَنْشِق عبيرَ الحكم الإسلامي الذي من أركانه السمع والطاعة لأولي الأمر ومراعاة مصالح الأمة، بل نشأت في الأمة جماعات على نسق النظريات الغربية التي تعتمد الحرية المطلقة طريقةَ حياة (ليبرالية) والفردية منهجًا للتعامل مع الآخرين، والنسبية نظرية للحكم على الأشياء، فَلَمْ يَأنَسِ الناسُ حبَّ الاجتماع على أساس ديني، ولا البذل للدين والتضحية له من مُنطَلَقٍ جهادي.

٢ - جهل الكثير بأدب الخلاف وفقهه، حتى أضحت المسائل التي تتبناها أي حركة - وإن كانت فرعية - لا تقبل النقض أو المناقشة من أحد.

٣ - شيوع الروح الاتهامية وتلاشي مبدأ المناصحة والتواصي بالحق، الذي أمر به القرآن.

٤ - غَلَبَةُ الهوى عند البعض (دون تعيين)، والهوى هو منشأ الظلم، والظلم هو منشأ الاختلاف، والتناحر بين الناس.

وتلافي ذلك يكون بأضداده لا بنقض مبدأ الاجتماع من أصله وأساسه، فالعمل الجماعي نسق فطري لأية حركة اجتماعية تنشد التغيير الصحيح.

هذا وليس من الإنصاف أن نؤاخذ التجمعات الدعوية بجريرة بعض الأفراد، وننسى أو نَتَنَاسَى حَسَنَاتِها وأَثَرَهَا في واقع الأمة، وأنها التي حفظت على الناس

عقيدة الإسلام وآدابه وأحكامه، وكم رأينا من دعاة كانوا يَتَحَرَّكونَ فُرَادَى بَيْدَ أنَّ أثَرَهُم لا يتجاوز مساجدَهم وإقليمَهم، وآخرون اجتمعوا ونسَّقوا، فكانت شجرتُهم الباسقة تُظَلِّلُ أرجاء الدنيا.

الشبهة الخامسة - يقولون: إن كل ما ذكر عن ضرورة الاجتماع والعمل النظامي والسمع والطاعة للمسئولين عن العمل الدعوي، كل ذلك لا يكون إلا في ظل دولة إسلامية، وتحت إمْرَةِ خَليفةٍ شرعي، والنصوص الشرعية التي استدللتم بها إنما هي في حق الإمامة العظمى وفي ظل الخلافة المسلمة.

والجواب: بعدم التسليم أن النصوص الشرعية الآمرة بالاجتماع والسمع والطاعة في حق الإمامة العظمى فقط، بل هي عامة، كقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)، وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣)، وقوله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وليسَ في عُنُقِهِ بَيْعَة مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»[1].

فلابد للمسلمين من جماعة، ولابد لهم من إمام، فإن لم يستطيعوا تكوين الجماعة العامة التي تَنْتَظِمُ الأمَّة تحتَها والإمامَ الذي يحكمُ الجميعَ عَدَلُوا إلى القدر الذي يستطيعونه، ريثما يتيسر لهم إقامة الخلافة العظمى، لأن الميسور لا يسقط بالمعسور، وقد قال ﷺ: «إذا أمَرْتُكُم بِأَمْرٍ فَأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُم»[2]، وعندما تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة لم يتولَّها إلا على مكة والمدينة والبحرين، أما بَقِيَّةُ الجزيرة فَقَدِ ارتَدَّت عن بكرَةِ أبيها، ولا ولاء لها للمدينة، ولا لأحد من الصحابة، فلم يُثْنِهِم ذلك عن السعي للإمامة والاجتماع حتى تنتظم حياتهم.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه».

(٢) رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما».

ثم إننا نتساءل عن الفـرق بين التجمعات الدعـوية في ظل الحكم الإسلامي وفي غيره، أوليس مفروضًا في الدولة الإسلامية أن تكون لها هيئات ترعى شئون المسلمين في كل المجالات؟، فما الفرق بين تلك الهيئـات التي تعمل في ظل الأنظمة الوضعية ساعيـة لإقامة الحكم الإسـلامي واسترجاع الحـياة الإسلاميـة، وبين تلك التي تعمل بالفعل تحت نظام حكم إسلامي، اللهم إنه لا فـرق إلا أن يُقال: إن تلك تعمل تحت إمرة حـاكم شرعي، والأخرى لـيست كذلك، وهذا ليس بوصف مُـؤَثِّرٍ في الحكم، للإجماع على أن جُلَّ التكاليف الشـرعية لا يُشترط فيهـا وجود الإمام، ومن ثم اتفق العلماء في العصور المتأخرة على عدم اشـتراط وجود الإمام في الجمعة، مع أن بعض المذاهب اشترطت ذلك، ولم يقل أحد الآن بلزوم وجودِ الإمام حتى نُؤَدِّيَ الجُمَعَ.

ونتساءل أيضًـا عن الفروض الكفائية التي لا يخـتلف أحد على وجوب إقامـتها على وجـه يحـصل به الإجزاء والكفـاية، كـيف يمكن للأفـراد أن يقـوموا بهـا دون تعاون؟، قد نتصور إمكانية العمل الفردي في خطبة جمعة أو محاضرة علمية، ولكن مساعدة المسلمين الذين يقتلون في بـقاع الأرض، وتقديم يد العون لهم، ومناصرتهم بالمستطاع، أمر لا يَجْحَدُ وجوبَه عاقِلٌ فضلاً عن عالم، كما لا يجحد ضرورة التعاون فيه إلا جَهُولٌ لا يعيش واقع الناس.

وثمة أمـر ينبغي أن يتنبـه له الجميع: وهي أن التـجمعـات الدعوية التي نقـصد ضروريتـها لا يمكن تصـور الدعاة الآن بدونهـا، حتى أولئك الـذين يبدعون الـعمل الجماعي، فهم يقومون بمقتضاه، شاءوا أم أبوا.

فتنظيم محاضرة عمل جماعي، وتنظـيم دورة علمية عمل جماعي، وطبع كتاب إسلامي وتـوزيعه في أي خـانة ندرجه؟!، لا أيهـا الإخوان، إن الأمر أيـسر من أن نتناوله بهذه الطريقة، وأخطر من أن نعالجه بهذا النحو، فدين الله ينادي علينا بالبذل،

وخطاب القرآن يخترق الآذان قائلاً: ﴿انفرُوا خفافًا وثقالاً﴾ (التوبة: ٤١)، ويقول: ﴿خُذُوا حذْركُم فانفرُوا ثُبات أو انفرُوا جميعًا﴾ (النساء: ٧١).

فكيف نتشاغل عن هذا النفير بقضايا من قبيل: نعمل فرادي أو جماعات، نتعاون أو نعتزل؟!.

وآخر ما نُوَسِّسُهُ في هذا الاتجاه ضرورة أن يتنبه الدعاة إلى أهمية الإدارة العِلْمِيَّة في تنظيم العمل الدعوي، وأن الدعوة شأنها شأن أي نشاط بشري يحتاج إلى نظام وإتقان، ومثل هذا النظام يَتَعَقَّدُ كلما تَعَاظَمَ النشاط، فيحتاج الدعاة إلى دَرْسِ علوم الإدارة وهَضْمِهَا، ومحاولةِ استثمار أصولها في خدمة الدين وتنظيم صفوف الصحوة.

لقد أشار النبي ﷺ إلى أهمية الإدارة والنظام في قوله: «ولكنَكُم غُثَاءٌ كَغُثَاء السَيْل»[1]، عددٌ بلا فائدة، قُوَّةٌ غيرُ مُسْتَغَلَّةٌ، طَاقَةٌ مُبَدَّدَةٌ، مَهَارَاتٌ غيرُ مُوَزَّعَةٌ، جُهُودٌ مُبَعْثَرَةٌ.

وليسَ من تَفسِير لذلك إلا عدمُ اجتماعِهم، وعدمُ انضوائِهم تحت نظام يرتِّبُ شئونَهم ويَرْقَى بثرواتهم وطاقاتهم.

العمل المؤسسي

إن وفاة الرسول ﷺ كانت أعظم فاجعة أَلَمَّت بالمسلمين، ولقد توقع الشيطان أن تنهار الصروح التي بناها النبي ﷺ، وينشغل الناس بالحزن عليه عن القيام بما أمرهم الله تعالى به.

---

(١) رواه أحمد في مسنده، وأبو داود وابن أبي شيبة في «المصنف»، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود».

ولكن الله أنقذ الأمة، وجعل إنقاذها على يد أكثر الناس حبًا للرسول ﷺ، وأكثر الناس حزنًا عليه، وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

فما أن مات النبي ﷺ حتى وقف أبو بكر وقفته التاريخية التي لم يكن لأحد أن يقفها غيره، فأعلن في صراحة أن الرسالة الإسلامية لن تمضي في سبيلها بالحزن على صاحب الرسالة ومبلِّغها، بل يجب أن يتعلق الناس بالغاية الأصلية في الوجود وهو عبادة الحي القيوم، فقال رضي الله عنه: من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

لم تكن عبارات سهلة أو يسيرة على أبي بكر رضي الله عنه، وليس من المعقول أن تكون قد خرجت بدون أحاسيس أو مشاعر، ولكن المسؤلية الضخمة التي استشعرها أبو بكر، وعلمه بحقيقة الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ هما اللذان أمليا عليه أن يتغلب على العواطف، وأن يتحكم في منظومة الأحداث التي تلت وفاة النبي ﷺ.

لقد علم أبو بكر أن دعوة الإسلام عالمية وأن موت الرسول ﷺ ليس نهاية الإسلام، بل ولا نهاية الكون، فكان واقعيًا وعمليًا إلى أبعد الحلول، إذ ليس الحزن على النبي ﷺ هو الذي يثبت حبنا للنبي ﷺ، وليس إعلان الحداد عليه هو الذي سيدخل السرور عليه، بينما أوصال الدين تقطع والأمة تجتث من جذورها.

لقد أسس أبو بكر رضي الله عنه ما يعرف في العصر الحديث بأصول دولة المؤسسات التي لا تتأثر بموت زعمائها وقادتها، فتحرك رضي الله عنه قبل أن يُغَسَّلَ النبي ﷺ لتثبيت دعائم الدولة التي أرساها النبي ﷺ، لعلمه أن ذلك هو الذي يقر عين النبي ﷺ.

اجتمع في سقيفة بني ساعدة، وتمت له البيعة، وشرع في استكمال بنيان الدولة، بل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، على إثر ارتداد العرب لما علموا بموت النبي ﷺ.

وهذا هو الذي نقصده بالعمل المؤسسي، أن تتجه الدعوة الإسلامية بكل فصائلها وجماعاتها، وهيئاتها وحركاتها إلى إنشاء مؤسسات دعوية داخل الكيانات، تتحرك وفق أنظمة عمل مقننة ومعروفة لا تتيح فرصة لأحد أن يخترع عملاً من عنديات نفسه، أو يبتكر أصولاً من مزاجه، فالدعوة القوية هي التي تتحرك وفق رؤى مدروسة، واتجاهات متفق عليها، وأساليب متعارف على تطبيقها، والاجتهاد يكون بعد ذلك فيما يسوغ فيه الاجتهاد.

إن العمل المؤسسي هو الذي سيعمل على استمرار نشاطات الدعوة، وعدم تأثرها بموت الأشخاص، أو بالمكان أو بالزمان، حركة دائبة، تمضي وفق الخطة المرسومة وإن تخلف أحد من الركب أو تأخر فرد من العاملين لعذر أو لغير عذر.

ومما يؤكد أن أبا بكر الصديق ﷺ قد أدرك معنى العمل المؤسسي، أنه أمضى جيش أسامة بن زيد الذي جهزه رسول الله ﷺ، وحرص على ألا يغير شيئًا مما جهزه النبي ﷺ، بما في ذلك إمرة أسامة التي اعترض عليها بعض الصحابة، ولم يكن أبو بكر الصديق ﷺ يريد التقيد بأسامة لمجرد أن رسول الله ﷺ أمَّره فحسب، بل ليغرس في نفوس الصحابة أن الأعمال يجب أن تمضي على النظام الذي وافقت عليه الجماعة، وألا تتأثر بموت شخص، حتى ولو كان ذلك الشخص هو رسول الله ﷺ.

إننا نشاهد بجلاء كيف أن كثيرًا من الحركات والأنشطة الدعوية تنشأ في مكان ما، ثم تستمر إلى ما شاء الله، فإذا ما سافر قائد المسيرة أو مات أو تخطفته الزبانية (زبانية الطغيان) توقف العمل، أو تقهقر وتقلص على أقل الأحوال.

منشأ ذلك هو تعودنا على المسلك الدعوي القطبي، أي: الذي يكون العمل فيه معتمدًا على قطب يدور حوله ويتحرك في فلكه[١]، يضعف بضعفه، وينشط بنشاطه، وينتكس بانتكاسه.

والدعوة الإسلامية إذا ما أرادت أن تؤثر (لا مجرد أن تدعو) في مجريات الأمور، فيجب عليها أن تنحو في عملها نهج العمل المؤسسي، وتقنن نشاطها بإدارة عالية، ونظام متقن، يسير به العمل، ولا يتأثر بأية ظروف ولا يلين تحت أية ضغوط.

ويستتبع ذلك أن يغير الدعاة كثيرًا من المفاهيم الدعوية التقليدية التي يسيرون عليها، ويظنون أن بها ستهزم معاقل الشرك وأوتاد الكفر في الأرض.

إن آلية العمل وإدارته لم تعد مجرد هوى مطاع أو مزاجًا متقلبًا، بل علمًا يُدْرَسُ ويُدَرَّسُ ويحتاج إلى سعة في المعارف تتيح لصاحبه أن يدير العمل بكفاءة، أي: بما يحقق أفضل النتائج بأقل الخسائر.

بل إن تطوير العمل، صار نسقًا لا يخضع للظروف، ويستجيب للعوامل طردًا أو عكسًا، بل منهجًا مدروسًا، يتأسس عند بداية العمل، ويخضع لرؤى ثابتة ومتغيرة، ويسير وفق منظومة عمل متوازية مع العمل الأصلي.

ولم تعد الإدارة الحديثة تسمح لكلمة الظروف أن تكون عذرًا في فشل مشروع، أو أن يتذرع عامل بالقضاء والقدر في التملص من أخطاء في تطبيق نظام العمل.

---

(١) في كتاب «الأصولية في العالم العربي» (الذي صنفه أحد عملاء الاستخبارات الغربية) عند كلامه عن عن الجماعات الإسلامية في العالم العربي اعتمد أن القيادة في تلك الجماعات غالبًا ما تأخذ الطابع الولائي الديني الذي اصطلح على تسميته بالشخصية الآسرة، والتي في الغالب كانت تتمتع بصفات القيادة والسيطرة، وأن هذه الصفة الآسرة هي التي تضمن استمرار الجماعة أصلاً وأن هذه الشخصية الآسرة هي التي تحرك العمل وتضبطه وتحسم الخلاف وتحدد الأولويات وآلية التنفيذ.

وتدخلت علوم ومعارف كثيرة تساعد علم الإدارة والعمل المؤسسي، مثل: علم النفس، وعلم الاجتماع، بل علوم الحاسب الآلي بأجمعها، وعلوم الرياضة والإحصاء.

ومع غياب هذا العمل المؤسسي لدى قطاعات الدعوة فإن كل مراحل العمل وأطواره وأولوياته وسماته وآلياته لن تُحدد وفق نظرة جماعية واسعة، بل تبعًا لنظرة ضيقة محدودة بحدود عقل المدبر الأساس للعمل الدعوي.

ومثل هذه المحدودية كفيلة بأن تجعل مصالح الدعوة مرتبطة بمصالح المدبر الأوحد لها، فإن الشفافية المطلقة منعدمة في العمل الجماعي، فكيف لو استأثر بالقرار فرد؟!.

والدعاة جميعًا مطالبون أن يحرروا المقاصد، وأن يتخذوا الخطوات العملية التي تثبت إخلاصهم في دعوتهم، وصدقهم في تحركهم، ونقاءهم من مقاصد الدنيا، ولن يكون ذلك إلا بوجود الآلية التي تحرك العمل بعيدًا عن الأَثَرَة، أو ما يسمى في عرف الناس اليوم بالديكتاتورية.

ولن تزال التهمة عالقة بالدعاة إذا ما أصروا على تداول الشأن الدعوي كعمل تجاري، أو مشكل أسري اجتماعي، أو وضع سياسي خاص.

وفي الطريقة الأخيرة من طرق خدمة الدين سنبين فيها معنى الشورى الإسلامية، وحاجة قطاعات الدعوة إليها.

وغني عن البيان أن العمل المؤسسي ليس هواية أو فكرة بسيطة أو إجراء إداري محدود، بل إن ما نتحدث عنه: نظام إداري وآلية تنفيذ عالية المستوى، تتيح لأي قطاع دعوي أن يكون كيانًا مستقلاً في المعنى والمادة، يسير وفق منظومة عمل وضعت بإتقان، يمضي بها العمل ويتطور، لا أن يتراجع ويتخلف.

إن كل داعيــة يحتاج إلى مــعرفة كيــفية اتخــاذ القرار، ودراسة جدوى مــشروع دعوي، والإعداد لتكاليفه، وتنفيذه، ومتابعته، ومراقبة القائمين عليه.

وكل ذلك يجزئ الداعية أن يتعلمه أو يــقرأه من كتاب في الإدارة يشتريه بدراهم معدودة، تكون مِفْتَاحَه للعمل المنظَّم البعيد عن العشوائية والارتجالية.

■ *ونختم بهذه الومضات:*

١ ـ إن قضية العمل للدين يجب أن يتناسب فيــها الجانب التطبيقي مع الاستدلال الشــرعي، فَلُزُومُ الدَّعَة والخــمول، وتركُ الجــهاد بالمال والنفس بحــجة الوقــوف عند النصوص مَوْقِفٌ سيُسألُ عنه كلُّ إنسان أمام الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يوم القيامة.

٢ ـ الملاحظُ أن المُبَــدِّعينَ للعمل الجــماعــي لم يَطرحُوا البــدائل لمواجهــة طغيــان الظالمين والمحاربين لدين الله رب العالمين، وأن مجــهوداتهم قاصرة على إلقاء الدروس العلمية، مع أن نظرة بسيطة إلى شرائح المجتمع تخبرك بهول المهمة.

٣ ـ الاجتــماع على عمل معين، والتــسمي باسم معين لا يعني احــتكار العمل، واحتكار الاسم، فمنهج الحق مشاع بين أهله ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾(الأنعام: ١٦٤).

٤ ـ أي عمل في الوجــود يحتاج إلي قوة ونظام يتناســبان مع حجمــه واتساعه، ودعوة كدعوة الإســلام العالمية الكونية لا يليق بحملتهــا أن تكون قوتهم ونظامهم في العمل أقل ـ أو معدومًا ـ مقارنة باحتياجات هذا الدين المتين.

٥ ـ لقد استطاع الرافضة أن يقيــموا دولة تناطح أمريكا وترهب إسرائيل، وما زال أهل السنة (وهم نُقــاوة المسلمين كمــا يقول شيخ الإســلام ابن تيمــية) يتــجادلون في شرعية العمل الجماعي!!.

أيها الدعـاة . . إن الإسلام تُنْقَضُ عُرَاهُ عُـرْوَةً عُرْوَةً، والمسلمون يُتَـخَطَّفُون من حولكم، فقوموا لله قومة صدق، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ (الفتح: ١٠) ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ[١].

◆◆◆

(١) ولعلك تتساءل أيها القارئ: لماذا لم نذكر الأدلة المفيدة لمشروعية العمل الجماعي؟، والجواب أن الأدلة الآمرة بالاجتـماع أصبحت في حق الدعاة، وفي حق كل عامـل وباذل لدين الله من قبيل المعلوم من الدين بالضرورة، بل لا أغلـو إذا قلت إنها من بدهيات العـقول، وأوليات الذهن التي لا تحـتاج إلى تنظير واستدلال، وقد كتبت في ذلك فصلاً طويل الذيل، رأيت ألا أملأ صفحات الكتاب منه، لأنني كتبتـه لنوعيـات معينة من الدعاة، أمـا إذا أردت الاطلاع على أدلة مشروعيـة العمل الجماعي بـخير عرض، فأحيلك على كتابين للشيخ (عبد الرحمن عبد الخـالق) في مشروعية العمل الجماعي، ففيهما الغنية ـ إن شاء الله ـ، وله كتاب ثالث تناول قصة حيـاة شيخ الإسلام ابن تيمية، وبرهن فيه على أن شيخ الإسلام لم يكن مجـرد داعية أو عالم يدرس العلوم الشرعيـة ويفتي الناس، بل كان رجل دولة يخاطب الملوك والـسلاطين، ويستنفـر القادة لمحاربة الأعـداء، ويراسل ملوك دول النصارى والتـتر، ويرسم الخطوط ويناصح الساسة في شـئون الدولة وشئون المسلمين، بل كان يعـارض بعض سياسات الدولة، ويجـاهر بذلك، بل كان في بعض الأحـيان يقـيم الحدود الشرعـية بإذن ضـمني من سلطان الدولة، وللشيخ (المصـري) في «معالم الانطلاقـة الكبرى» كلام مـتين في توصيف واقع بعض الدول التي تعاني واقعًا إسلاميًا عسيرًا، ينبغي لكل الدعاة أن يقرؤوه.

الطريقة الثامنة والعشرون

التَّرْجَمَةُ

مازالت الدعوة الإسلامية تخطُو خطواتٍ وَئيدَةً في نشر الدين على مستوى الشعوب، فلو ارتضينا المقارنة بين ترجمات معاني القرآن وترجمات الإنجيل، لوجدنا أن الفاتيكان قد قام بترجمة الإنجيل المعتمد لديه إلى كل اللغات الحية تقريبًا، وكان ذلك قبل أن تَبْدَأَ حركةُ ترجمةِ معاني القرآن لدى المسلمين بصورة منظمة ذات أثر.

أما إذا أتينا لِنُقَارِنَ بين صراع نشر ثقافة الحضارات لوجدنا أن المسلمين لا يَعْدُونَ أن تكون حضارتهم مثل حضارة الهند والصين اللتان ينتقي منهما الغرب ما شاء ليترجمه دون أن تكون تلكما الحضارتان ذاتَي ثقافة غازية.

والواقع أن الحضارة الإسلامية عَرِيقَةُ العلوم والمعارف أصيلةُ المُثُلِ والقيم، بَهَرت العالم كله بمنظومتها المعْرفيَّة، وأقامت للبشرية صرحًا من المعارف والعلوم ما زال شاخصًا شامخًا في الضمير الإنساني.

ومثل هذه الحضارة الشَّمَّاء لا يليق بها أن تتوارى عن أعين الخلق، وتَتَشَرْنَقَ مُسْتَتِرةً عن احتياجات الإنسانية بزعم اعتزازها باللغة العربية الأصيلة، أو بزعم أنها غنية بنفسها، أو بزعم عدم قدرتها على منافسة الزحف الحضاري الغربي.

فلقد اتخذ النبي ﷺ ترجمانًا هو (زيد بن ثابت) أَمَرَهُ أن يتعلم السريانية، فتعلمها في بضعة عشر يومًا[1]، واستطاع القرآن أن يكون كتابَ البشرية الأول في خلال عشر سنين عندما استقر في وجدان الشعوب التي فتح بلادها المسلمون الأُوَل.

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

وكان ترجمة التـراث العربي هو السلاح الثاني في الفتوح الإسلامـية حتى غدت اللغة العربيـة هي لغة الثقافة والمعـرفة، لأنها صارت اللغة الوسـيطة بين كل الشعوب لنوال العلوم الراقية.

وبدأ الضعـف يَدِبُّ في أوصال الثقـافة الإسـلاميـة، يوم انتدب بعض ضـعاف النفوس أنفسهم لترجمة علوم الحضارات الأخرى إلى اللغة العربية، واشتغلت الحركة الثقافية بهذا الزَّخَم الفارغ، الذي كان نفـعه في ميزان الحضارات الأخرى، إذ جعلت المعايير الفلسفية اليونانية هي الحاكمة على الحق المطلق في النظام المعرفي الإسلامي.

وصَارَ القرآنُ نفسُه يُحَـاكَمُ إلى مَنْطِقِ أَرِسْطُو وأفلاطُون، وشغل المسلمون دهورًا بالنزاع بين الإشراقيين والرواقيين، وكان الجاهل بعلوم تلك الحضارات الوافدة مَعْدودًا فِيمَن لا يُوثَقُ بعلمه أصلاً وإن كان إمامًا من أئمة الدين.

وكل ذلك حينما انعكس الدور الأصيل الذي كانت تقوم به الفتوحات الإسلامية ألا وهو غزو العقول والقلوب بإيصال معاني هذا الدين المتين.

وقد فَطِنَ الاستـعمار (وإن شئت فـقل: الاستخراب) لدور التـرجمة في توطين الثقافة الغازية، فأَسَّسَ بجوار الترسانات العـسكرية الجرارة هيئات علمية راقية المستوى كانت مهـمتها مساعـدة الزحف العسكري عبر استـعراض ثقافة المستعـمر بلغة الدولة المغـزوة، وعندمـا ظهـر الفـرق جليًـا بين تخـلف الدول المغـزُوَّة وإمكانيـات الدول الاستعـمارية في المجال الاقتـصادي والعسكري، وفي المجالات المدنية المتـنوعة تقبل الناس الهزيمة باقتناع ورَاحَتْ نَفْسـيَّة الهزيمة تَتَغَلْغَلْ في جذور الضميـر، حتى مُسِخَتِ الأفئـدة، ووجدنا من أفراد الأمة الإسـلامية من ينادي بكتـابة اللغة العربيـة بحروف لاتينية، ومن يطلب الكُفْرانَ بكل ما هو مُنْتَمٍ إلى الإسلام.

تلك الهيئات العلمية هي المحافل الاستشراقية التي كانت تلعب دورًا لا يقل خطورة عن الدور التنصيري الذي صاحب الاستعمار في مراحله المختلفة.

والغريب أن جُلَّ الباحثين لم يفهموا أو لم يحاولوا أن يتفهموا أسباب قيام المحافل الاستشراقية بترجمة كثير من المراجع العربية إلى لغاتهم اللاتينية على اختلافها، فَبَلَغت سذاجة البعض إلى الزعم أن المستشرقين قد انبهروا بالثقافة العربية، فكانوا خُدَّامًا في مِحْرَابها وسَدَنَةً في معبدها هُيَامًا بجمالها وعظمتها.

ونحن لا ننكر وجود المستشرقين المنصفين لكن عددهم أو انتماءاتهم لا تمت بصلة للدور الجَمعي الذي كان يقوم به جُلُّ المستشرقين، ألا وهو القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق من وإلى اللغة العربية، بغرض أن يتخصصوا هم في اللغة العربية فيحتلوا مرجعيتها دون علماء المسلمين أنفسهم.

وفي غضون بضعة عقود أواخر القرن التاسع عشر كانت الأكاديميات الغربية موئلاً لكثير من الباحثين العرب والمسلمين لدراسة اللغة العربية، والإسلام نفسه، وصارت دكتوراه السوربون أو دكتوراه الدولة من فرنسا، وأكسفورد، وهارفارد من إنجلترا تهيئ صاحبها لِتَبَوُّءِ أعلى المناصب العلمية في جامعات بلاده.

وصار بعض الأكاديميين يتفاخرون أنهم درسوا آداب اللغة العربية في أروقة جامعات أوروبا، والأنكى أن منهم من يزهو أنه درس الحديث أو التاريخ الإسلامي أو سيرة الخلفاء على يد أساتذة الكراسي في الجامعات المسيحية.

لكنَّ المشاهَد لكل ذي لُبٍّ أن الدراسات العربية والإسلامية في تلك الجامعات لا تتم باللغة العربية، كما ندرس مثلاً الأدب الإنجليزي باللغة الإنجليزية، بل إن كل الدراسات ـ بما في ذلك البحث الذي يتقدم به الباحث ـ تتم بغير اللغة العربية، لا لشيء إلا لأن المشرفين أعاجم، والمراجع التي يطالب الباحث العربي والمسلم بالرجوع إليها جلها كتبه المستشرقون بلغاتهم الأعجمية.

وهكذا نرى كيف أن حركة الترجمة التي قام بها المستشرقون كان لها دور واسع بعد ذلك في تبوُّء الثقافة الغربية منصب المرْجِعيَّة في العلوم اللغوية العربية، والإسلامية أيضًا.

ونحن إذا أردنا أن نستعيد المرجعية العلمية للحضارة الإسلامية (في إطار لغتنا وديننا على الأقل)، فلابد من القيام بحركة ترجمة واسعة لعلومنا الإسلامية واللغوية بحيث نكون ـ نحن ـ المتحدثين باسم لغتنا وديننا لا أن يكون وُسَطَاءُ أعاجمُ أعلاجٌ هم الناطقين الرسميين باسم الإسلام[1].

إن طموح الدعاة يجب أن يتجاوز مجردَ ترجمة معاني القرآن إلى ترجمة التراث الإسلامي الأصيل، حتى يقرأ العالم عن ديننا كما نفهمه نحن لا كما يفهمه الأعاجم الأعلاج.

---

(١) لقد صارت هذه حقيقة لا تخطئها عين، فالمجامع اللغوية أول ما تأسست كانت مغرمة بتعيين المستشرقين أعضاء دائمين في مجالسها، وكان طلبة الأزهر ودار العلوم في هيام بأساتذة الاستشراق الذين يدرسون علوم اللغة والدين بين أروقة جامعة القاهرة والأزهر أمثال ماسينيون وأضرابه.
وكاد المسلمون يتيهون فرحًا عندما أعلن ولي عهد بريطانيا ـ المشهور بفضائحه وفضائح أسرته ـ أن الإسلام دين متسامح، وأنه كان ذا دور مهم في بناء الحضارة الغربية.
بل إن الدوائر السياسية والمراقبين يقيمون باهتمام إعلان رئيس أمريكا التفريق بين الإرهاب وبين الإسلام الصحيح القائم على التسامح والاعتدال، حتى وصلنا إلى الحال التي فيها يُصاغ لنا الدين كيف نفهمه ونتمسك به، فها هو مؤتمر يعقد في مصر لمناقشة شئون الأقليات المسلمة في دول الغرب، فإذا بالمجتمعين (وكان منهم من غير المسلمين) يشيدون بالأقليات المسلمة التي استطاعت أن تتكيف مع المجتمعات الغربية محتفظة بإسلامها في إطار قوانين تلك الدول. تأمل!.
وإن تعجب فاعجب من ملك ينتمي للإسلام، وينحدر من النسل المحمدي الشريف ينصح الطالبة المغربية التي تمسكت بحجابها عند دخول المدرسة في فرنسا ألا تتمسك بهذا الحجاب الذي ليس ضروريًا في الإسلام، وأن تحترم قوانين الدولة التي تتواجد فيها.

وهذا يستتبع بالضرورة أن يكون من بين أبناء الأمة عامة والدعاة المخلصين خاصة من يتقن لغات الأمم حتى تأخذ حركة الترجمة جانب الأصالة، وتأمن التحريف، وتضمن الأمانة في النقل والصياغة.

وقد سمعت عن مركز للترجمة أسسه وأقام بنيانه الداعية المتخصص الشيخ سفر الحوالي في أوائل العقد الثاني من القرن الخامس عشر، لهدف ترجمة تراث شيخ الإسلام ابن تيمية للغة الإنجليزية بدعم من بعض المحسنين الغيورين من أهل السنة.

بيد أن هذا المركز ما كاد يخطو خطواته الأولى حتى تعرض لحملة خبيثة من أعداء الإسلام، فتم إجهاضه ولَمَّا يَخْرُج نتاجه للناس، ولاشك أن هذا المركز لو استمر نشاطه من حينه لأضحى علامة بارزة في السعي الدعوي المخلص لنشر الدين على المستوى العالمي.

ولاريب أن حركة الترجمة التي نعنيها تحتاج إلى دعم دولي أو معونة هيئات إسلامية عالمية، وهي أشبه بالدور الجهادي الذي تقوم به هيئات الإغاثة في المناطق الإسلامية المنكوبة، لأننا لا نرى نكبة أعظم من أن نتعلم الدين واللغة من غيرنا.

وإضافة إلى ذلك: لابد أن يتجاور مع حركة الترجمة حركةٌ عِلْمِيَّة بَحْثية راقية المستوى، تقوم بِتَعَقُّبِ كتابات المستشرقين والرد عليها بنفس اللغة سواء عبر طبع كتب مستقلة، أو في دورياتهم العلمية، أو على صفحات الإعلام، أو حتى على صفحات الإنترنت.

وحديثنا على الترجمة لا يتطرق إلى محاربة الاستشراق والتنصير فقط، بل إلى مواجهة كل المذاهب الهدامة والمنحرفة أيضًا من حيث إن خطرها على الدين الحق لا يقل تشويهًا عن الكفر الصراح.

وها هي ذي قوى الرفض والمجوسية المتشيعة تنفث سُمَّها بكل لغات العالم عبر المجلات التي تصدرها سفاراتها بلغات تلك البلدان، وترصد ميزانيات ضخمة لمساعدة الأقليات الشيعية في كل العالم عبر المنح الدراسية للتعلم في قُمْ ومَشْهَد[١] والترويج للمراجح الشيعية - وبخاصة أفكار الخميني - بكل لغات العالم.

وقد رأيت في بعض الدول السُّنِّية جهودَ السفارة الإيرانية في الترويج للمذهب الإثنى عشري بين جموع أهل السنة، لدرجة طبع مجلة فاخرة بلغة تلك الدولة وتوزيع الكتب والمنشورات بالمجان.

وها هي ذي القَادْيَانيَّة[٢] والبَهَائيَّة تَحْرِصُ على طبع أدبياتها بكل لغات العالم مع الاهتمام باللغات العالمية كالإنجليزية والفرنسية والعربية، مما ينبيك - أيها الغيور على دينك - أن الترجمة سلاح ماض في نشر الأفكار.

■ ***ويمكننا صياغة الأفكار المهمة بالنسبة لهذه الطريقة فيما يلي:***

١ - إيجادُ الكوادر التي تتقن اللغات العالمية، ومخاطبة الدعاة في كل بلدان العالم ممن يتقنون لغة بلدانهم مع اللغة العربية، وتكوين جبهة عالمية للتعريف بالإسلام، تمولها الحكومات والدول والهيئات الإسلامية والأفراد، على أن يترك إشرافها للدعاة.

---

(١) مدينتان في إيران، مشهورتان بوجود المراجع الشيعية العظمى على مستوى العالم، ويسبقها في المكانة مدينة النجف لولا أنها تحت سيطرة العراقيين ذوي الأغلبية السنية، بيد أن مدينة النجف مازالت محط أنظار كل الشيعة في العالم لوجود ضريح علي بن أبي طالب المكذوب فيها.

(٢) قامت الطائفة القاديانية التي تقطن أوروبا بكثافة بتأسيس قناة تلفزيونية فضائية سموها: **مسلم تي في**. وذلك في أواخر الثمانينات، ومازال نشاط هذه الطائفة آخذًا في التوسع في معظم بلاد العالم، ومعلوم أن طائفتي القاديانية والبهائية طائفتان منحرفتان عن الملة الإسلامية، وقد أجمع علماء العصر على عدهما من الطوائف المارقة والكافرة.

٢ ـ عقدُ مؤتمرات عالمية أو محلية لمناقشة هذا الموضوع، ومساهمة الدعاة في تقديم الأبحاث التي تخص هذا الصدد، مع تقديم خبرات ذوي الخبرة في هذا المجال.

٣ ـ تكوين مكاتب تَرْجَمَةٍ لدى كل حركة أو اتجاه دعوي تقوم بترجمة الكتب التي تشرح حقائق الإسلام مع التنسيق بين تلك المكاتب حتى لا يحصل التكرار.

٤ ـ تنمية مهارات الترجمة لدى الدعاة بعقد دورات تدريبية للترجمة، واستضافة المتخصصين في هذا المجال لتدريس أحدث تقنيات الترجمة.

٥ ـ صقل لغات المترجمين والرقي بمستواها، حتى تكون ترجماتُهم مَحَلَّ احترام أصحاب تلك اللغات، ويكون ذلك بمزيد من التخصص في أدبيات اللغة الثانية التي يتقنها المترجم.

٦ ـ إنشاء صحف ومجلات بلغات مختلفة تترجم فيها كتابات علماء العصر وفتاواهم، ويوقف الناس من خلالها على أخبار المسلمين برؤانا وليس برؤى (رويتر)، و(أسوشيتدبرس).

٧ ـ المسارعة في استكمال ترجمة معاني القرآن الكريم إلى كل لغات العالم سدًا للفرض الكفائي العالق بكاهل الأمة.

٨ ـ البدء في مشروع ترجمة الحديث النبوي إلى لغات العالم الحية، واختيار الكتب المعتمدة مثل الصحاح أو رياض الصالحين ونحوها من الكتب التي عم نفعها بين المسلمين.

٩ ـ البدء في مشروع جادٍّ لترجمة عقائد أهل السنة والجماعة إلى كل لغات العالم، في مواجهة الحملات الشرسة التي تقوم بها المذاهب الضالة في دعوة غير المسلمين، وإنقاذًا لأولئك الأفراد الذين وَقَعُوا في بَرَاثِنِ تلك المذاهب جهلاً منهم بحقيقة الإسلام.

١٠ ـ تلافي القصور الإعلامي، والبدء في مشروع جاد لقناة إسلامية دعوية عالمية تستخدم اللغات العالمية الحية في عرض الإسلام وتبيين حقائقه.

إن هذه الأفكار ـ أيها القارئ العزيز ـ قد تبدو لك ضربًا من الأحلام الشاردة، ولكنني أجزم لك غير شاك: أن إمكانياتنا تستطيع أن تفعل ما هو أكثر من ذلك، ولكن المطلوب: أن تحصل البداءة، وتنشأ المبادرة الأولى، وستجد الأمر بعد ذلك توجهًا يتصاعد، ومسلكًا يرتاده كل المخلصين.

وأما على الصعيد الفردي فإنني أدعو كل مسلم أن يكون له دور في بث ترجمات معاني القرآن المعتمدة ونشرها بين من يحتاجها.

والمعتمد في هذه المسألة أن تفسير القرآن إذا أعطي للكافر بغرض دعايته إلى الإسلام فلا بأس، أما ما عدا ذلك فهو على أصل الحظر، صيانة للمصحف المطهر.

وتأسيسًا على ذلك؛ فإن كل مسلم يستطيع أن يشتري تلك الترجمات أو الكتب الإسلامية المترجمة ويهديها لمن يعرفه من أصحاب تلك اللغات من غير المسلمين، ولو أن كل واحد اشترى في العام ترجمة واحدة وأهداها إلى من يستحقها لكان عملاً جماعيًا بالغ التأثير.

ولو أننا تتبعنا الوفود السياحية التي تأتي إلى بلداننا الإسلامية ووزعنا عليهم الكتيبات الإسلامية لكان عملاً دعويًا رائعًا، ولكن أين الباذلون؟

⁂

الطريقة التاسعة والعشرون

المُراسَــلاتُ

استعمل الرسول ﷺ طريقة المراسـلة في عهد مبكر من زمان الدعوة، وراسل الملوك في عهده ودعاهم إلى الإسلام، فكان لهـذه الرسائل دور مهم في توسيع نطاق الدعوة وكسر الحصار الإعلامي الذي فرضته اهتمامات الناس العادية.

كمـا كانت المراسلات بين أفراد الأمـة ذات بُعْدٍ إعلامي مهم؛ حـيث كانت هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الأخبار بين الناس، وكانت الرسائل الإخوانية أيضًا تلعب دورًا اجتماعيًا مهمًا.

وقد عَمِـلَ المسلمون على تطوير نظم نقل البريد، حـتى كانوا أول من ابتكر نقل الرسـائل عن طريق طائر الحَمَـام مما أحـدث ثورة في سرعـة نقل الرسائل ووصـول المعلومات المهمة إلى كل الأصقاع.

- ومازالت المراسلات البريدية حتى عصـرنا تلعب دورًا اتصاليًا مهمًا بين كل الشـعوب، بل مازالـت البـشـرية تعتـمد على نظام البريد العادي وسـيلة في كثير من التعامـلات الاجتماعيـة والاقتصادية والسيـاسية في عصر الـبريد الإلكتروني والهاتف النقَّال.

والمظْنُونُ أن البريد العادي سيظل مُتَرَبِّعًا على عرش وسائل الاتصال العادية، باعتباره الوسيلة التي تتيح للناس التعبير عما يجيش في قلوبهم بسهولة عَبْرَ سَطْرِ الكلمات.

ومع تطور نُظُمِ نقل البريد العادي بـين الدول أصبح بإمكان كل إنسان أن يراسل أي فرد أو هيـئة في العـالم متى توفـر العنوان الصحـيح، كمـا أن كثيـرًا من الدول

والشركات الاستثمارية أنشأت هيئات لنقل البريد السريع يضمن وصول الخطاب أو الطرد في مدة يسيرة جدًا حتى لو كان المرسَلُ إليه يَسْكُنُ في أقاصي العالم.

ولقد وُجِدَتْ منظمة عالمية تسهل على الشباب من الجنسين التراسل عبر البريد، بحيث توفر العناوين والمعلومات المطلوبة بين الطرفين، وفي الغالب ما يتم التعارف بين فتى وفتاة من ذوي المراهقة، وفي الغالب أيضًا ما يتم التعارف لأسباب تتنافى مع الشرائع السماوية، فما أشبه دور هذه المنظمة بدَوْرِ القَوَّادِ الذي يُسَهِّلُ الفجور لراغبيه.

وقد ظهر أن وراء هذه المنظمة هيئات دولية وأجهزة مخابرات تخطط لاصطياد الجواسيس وتجميع المعلومات عن دول معينة، ولا نُريد أنْ نُغَالِي - فَنُتَّهَمَ بالشَّطَطِ - فنقولُ: إنه مُخَطَّطٌ عالمي لنشر الفجور بين شباب المسلمين.

وقد تَنَبَّهُ لخطورة المراسلات ودورها في توسيع دائرة التعارف مع الناس كُلُّ الكنائس العالمية، فأسست في هيئاتها الدعوية مكاتب خاصة للمراسلات، مهمتها مخاطبة الناس عن طريق الخطابات، وتجميع العناوين بكل السبل الممكنة، والتجاوب مع الشخصيات الفضولية، واستخدام طريقة الطعم في صيد الفريسة.

ولن نتمادى في سرد تفاصيل المكائد التي تحيكها الكنائس عبر المراسلات، فهو جزء من كيد التنصير الذي يعلمه كل داعية متتبع للواقع، ولكننا سنؤكد على الفائدة المستوحاة من هذه الطريقة، وهي أن قطاعًا عريضًا ممن يتخذون المراسَلة هِوَايَةً يمكنهم أن يسمعوا كلمة الحق إذا وجد من يحسن استغلال هذه الوسيلة.

كما أن المراسلة أضحت خير وسيلة للتبادل العلمي بين الأفراد، وعن طريق البريد الإلكتروني تستطيع الهيئات العلمية أن تتعاون في كل المجالات عبر التواصل المستمر والسريع على صفحات الإنترنت، وليس يخفى أن كثيرًا من الجامعات والمعاهد صارت تمنح الدرجات العلمية للدارسين عن طريق المراسلة.

وفي البلدان الرأسمالية: تلجأ شركات الدعاية إلى الحصول على أسماء المواطنين بكل وسيلة ممكنة، كما أنها تنتقي الشرائح ذات الدخل المرتفع، ثم تقوم بإرسال خطابات تتضمن الدعاية لمنتجات معينة أو أسواق تجارية معينة مع إرفاق الصور الإيضاحية المطبوعة بأعلى مستوى من طرق الطباعة.

ولا يمكن لتلك الشركات الدعائية أن تلجأ لهذه الوسيلة ما لم تكن قد أجْرَت دراساتٍ إحصائية دقيقة على أساسها استعملت وسيلة المراسلات في الدعاية.

وقد مر معنا كيف أن الكنائس العالمية استشعرت الأثر البالغ للمراسلات فعملت على تطوير هذا الجانب الإعلامي في أجهزتها الدعوية، فما برحنا نسمع كثيرًا عن أناس تصلهم رسائل من الكنائس تدعوهم للتنصر مع عرض كثير من المغريات الدنيوية.

وقد فَطِنَ اللاعبون في المجال السياسي هذه الأهمية، فصارت الأحزاب التي تتنافس على الحكم في الأنظمة الديمقراطية التي تتبع نظام الانتخاب الحر تقوم بإرسال الخطابات إلى كل المواطنين في الدوائر التي يتنافسون فيها لأجل كسب أصواتهم.

ويبرز دور المراسلة في إِشْعَارِ الجهات التي يتم مُراسَلَتُها بوجود رأيٍ عامٍّ مُوَحَّد في مسألة معينة، وتتبلور أهيمة تكوين هذا الرأي العام الموحد في تصعيد موقف الدعوة الإسلامية تجاه استنكار بعض الممارسات الإعلامية بما يشعر تلك الأجهزة أن ممارستها لا تُغْضِبُ فئة المتدينين فقط، بل إنها بالإصرار على ممارساتها ستغضب الرأي العام الذي تخدم اتجاهاته ومشاعره.

وقد قامت بعض الهيئات الإسلامية في الولايات المتحدة الأمريكية بحملة مراسلة ضد شركة مشروبات استخدمت الكعبة المشرفة في إحدى إعلاناتها التسويقية، فما كان من تلك الشركة إلا أن قدمت اعتذارها للمسلمين وسَحَبَتْ هذا

الإعلان ولم تُجِزْ عَرْضَه بعد ذلك. ومن المواقف المشابهة ما لاحظته من بعض الصحفيين ذوي الاتجاه العلماني أنهم بمجرد أن تصلهم رسائل احتجاج على بعض الممارسات اللادينية في المجتمع من جهات مختلفة فإنهم يسارعون إلى المشاركة في استنكار تلك الممارسات لشعورهم أن ذلك يَسْتَجْلِبُ وُدَّ الرأيِ العام لهم، ومن سَبْرِ الممارسة الصحفية لكثير من الجرائد والمجلات لاحظتُ أن الإعلام الصحفي يتأثر كثيرًا بالتجاوب الذي يبديه القراء مع تلك الصحيفة أو المجلة، وذلك عبر الرسائل التي تصل إليهم بالبريد.

لذلك، فإن مما يجدر بالدعوة الإسلامية أن تهتم به وتوليه عناية جليلة: وسيلة المراسلات الدعوية؛ فبها يمكن توسيع مستوى الشرائح التي تخاطبها الدعوة، وخلخلة أي حصار يمكن أن يفرض عليها من قوى الطغيان. وبإمكان الدعوة أن توجد رأيًا عامًا إذا استطاعت أن تجعل من هذه الوسيلة نمطًا دعويًا مدروس الأبعاد.

وإن أهم خطوة يجب أن تتخذ لتطبيق هذه الوسيلة أن يوجد الأفراد المهتمون بهذه الوسيلة والمستعدون لمواجهة كل مصاعبها، إذ لاشك أنها وسيلة تتطلب جهدًا وتفرغًا واسع المدى.

والدعوة الإسلامية إذا كانت تقوم بها هيئة منظمة ذات إمكانيات مادية، فأحرى بها أن تؤسس مكتبًا للمراسلات يتبعها يقوم بالدور الدعوي المنوط به، بحيث يتفرغ هذا المكتب كليًا لهذه الوسيلة.

أما على مستوى المناطق التي لا تُسْعِفُها الظروف في إيجاد دعوة منظمة، فليس من العسير حينئذ أن يتعاون على أداء هذا الدور بعض الدعاة، بحيث يتناوبون في توزيع المهمات والأدوار فيما بينهم.

▪ وهذه جملة من الأفكار التي يمكن الأخذ بها في مجال المراسلات مع اعتبار أن هذه الوسيلة تحتاج إلى التطوير المستمر والمنافسة الضروس مع الخصوم، أعني خصوم الإسلام:

إن أهمَّ مرحلة في القيام بهذه الوسيلة الدعوية: تفريغُ بعض الأفراد للقيام بمهمة المراسلات، قد يكون دور هؤلاء الأفراد مجرد تحضير العناوين وكتابة الرسائل ـ أعني نسخها ـ ثم إرسالها لأصحابها، بحيث يكون معهم آخرون يعدون المادة العلمية ويخططون لعملية المراسلات جملة وتفصيلاً.

وهؤلاء المخططون هم الذين يحددون الشرائح التي يجب الاهتمام بها، ويحددون الأولويات التي ستطبق في نظام العمل، كما أن هؤلاء هم الذين يعدون الخطابات والردود بالتعاون مع أهل العلم والمتخصصين في كل المجالات.

ومن وظيفة المخطِّطِين أنهم يقومون ـ بالاستشارة مع أهل العلم ـ باختيار الشرائح التي يمكن مخاطبتها عبر المراسلة مثل الشرائح التالية:

١ ـ مراسلة ذوي المناصب ومناصحتهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو المساعدة في ذلك.

٢ ـ مراسلة شريحة المفسدين في المجتمع، مثل باعة الخمور والمغنين والممثلين أو الصحفيين والكُتَّاب العلمانيين أو الفئات ذات الانحراف الاجتماعي: مثل المدمنين والزناة والشواذ . . إلخ.

٣ ـ مراسلة الصحف والمجلات على وجه التأييد لبعض المواقف الجماعية أو استنكارها، ويدخل ضمن ذلك مراسلة وسائل الإعلام المختلفة كالإذاعة والتلفاز للتعبير عن موقف الدعوة الإسلامية تجاه بعض الممارسات الإعلامية.

٤- مراسلة الشركات أو المصانع التي تنتج منتجات تتعارض مع الشريعة الإسلامية، أو بغرض أن تقوم تلك الشركات بإنتاج منتجات تخدم المجتمع المسلم، فالسوق الاقتصادي يقوم على العرض والطلب، والإنتاج عند تلك الشريحة متوقف على وجود الطلب، والمراسلة خير وسيلة لإفهام تلك الشريحة.

٥- مراسلة الدعاة والمصلحين في كل مكان لتكوين جبهة إسلامية عالمية أقل أوجه التعاون فيما بينها التواصل بالمراسلة، ويدخل ضمن ذلك مراسلة العلماء والمفتين لطلب فتاواهم أو مطالبتهم بتبني مواقف معينة تجاه المجتمع، فالملاحظ أن هناك مجموعة من العلماء الذين يَتَوارَون عن المجاهرة بمواقفهم لسبب أو لآخر، ومثل هؤلاء يحتاجون إلى تحفيز من قطاع الدعاة والمصلحين، حتى يقوم أهل العلم بالدور الذي أناطه الله بهم، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(آل عمران: ١٨٧).

٦- مراسلة الأفراد العاديين في المجتمع بمختلف الشرائح كالطلاب والمدرسين والموظفين والعمال وربَّات البيوت وأصحاب المحلات والأنشطة الاقتصادية.

٧- مراسلة الأغنياء وأصحاب الثروات لِحَثِّهِم على الإنفاق والبذل في سبيل خدمة الدين أو إخراج الزكاة للفقراء والمساكين والمستحقين.

- أما بالنسبة للعناوين؛ فيمكن الاعتماد على المجلات التي تُعْلِنُ عن عناوين بعض الممثلين والمغنين أو لاعبي الكرة، أو بالاستفسار من الدليل أو غير ذلك من الأساليب والسبل.

- من الأفضل للهيئات التي تخصص مكتبًا إعلاميًا للمراسلة أن تضع خططًا وتصورات واضحة لنشاطها، بحيث يُرَاعَى مَعْقُولِيَّةُ الهدف والغاية، وواقعية الوسيلة مع مراقبة الأداء وإصلاحه كلما أمكن.

- استخدام المراسلة للإعلان عن الأنشطة الدعوية كالدروس والمحاضرات والندوات والمؤتمرات، سواء عبر البريد العادي أو الإلكتروني على صفحات الإنترنت.

مما ينبغي الاعتناء به: استغلال المناسبات المختلفة في المراسلة، كالأعياد الشرعية (الفطر والأضحى)، والمناسبات الاجتماعية كأفراح الزفاف للتهنئة، أو مناسبات الجنائز للتعزية، أو مناسبات نجاح الطلبة أو قدوم مولود جديد، أو الفوز بجائزة علمية أو منصب مرموق ونحو ذلك، فمراسلة أصحاب الشأن في هذه المناسبات مع إرفاق الرسالة بنصيحة تناسب المقام دور يسير ومؤثر لا ينبغي أن نغفل عنه.

هذه جملةٌ من الأفكار، ما قصدتُ منها الحَصْرَ - كما أشرت -، ولكن كان المراد فتح الآفاق تجاه وسيلة قد تكون غائبة عن التفكير الجماعي لمنظري الدعوة والمهتمين بشئونها.

والمطلوب: أن تقوم الدعوة في كل مكان باستخدام هذه الوسيلة مع مراعاة إمكانياتها وما هو أصلح لبرامجها، مع اعتبار أن هذه الوسيلة كغيرها من الوسائل تخضع لضابط المصلحة والمفسدة الشرعية المعتبرة، وما لهما من دور في تحديد القرار لتطبيق وسيلة من الوسائل.

وقد يبدو لبعض الدعاة من هذا العرض أن طريقة المراسلة تحتاج إلى إمكانيات ضخمة تَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولي القوة، وليس ذلك بالمقصود لما أسلفناه مرارًا أننا صُغْنا هذه الطرق في خدمة الدين بما يتناسب مع قدرات كل فرد على حدة، بحيث نفترض عدم وجود الإمكانات والمعونات، فيستطيع كل داعية أن يقوم بدور ما في هذه الطريقة.

وقد رأيت بعض الشباب المسلم الغيور يكتب رسائل تأييد ومناصحة وتثبيت للدعاة الذين تعرضوا لبعض الضغوط والظلم؛ لأنهم أحسوا أن مثل هذه الرسائل قد يكون لها دور بعيد المدى في رفع معنويات هؤلاء الدعاة، فَأَكْبَرْتُ فيهم هذا الفَهْمَ



وحَمِدْتُ الله أن وُجِدَ من بين شبيبة المسلمين من يحمل هم هذا الدين، بل ويسعى بذمة دعاته وعلمائه.

وليس من العسير أن يقوم بعض الأفراد في منطقة واحدة بالتعاون فيما بينهم لمراسلة تاركي الصلاة أو المجاهرين بالمعاصي أو قيام المتحجبات بمراسلة المتبرجات في الحي أو اللاتي يسببن خللاً خلقيًا أو رواجًا لمظهر الفجور.

كما أنه من اليسير جدًا أن يراسل الفرد الواحد جريدة يقرؤها ويواظب عليها، يناصحهم في انحراف صحفي عن جادة الحق أو في عرض صور مخلة بالآداب أو في التعرض لقطعيات الدين بقدح أو عيب.

كل هذه الاقتراحات وغيرها مما لا يزال رهين عقول الدعاة الأذكياء الغيورين يمكن تطبيقه دون احتياج إلى إمكانيات ذات بال، وبالنية الصادقة والعزيمة القوية يرتفع البنيان ويعلو؛ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

◆◆◆

الطريقة الثلاثون

المُـؤْتَمَـــرَاتُ

الشورى بين الدعاة في أمور الدين

إن تماسك بنيــان الجمــاعة المسلمــة مُؤَسَّسٌ على ركنين مــهمين، بــهمــا يستــقر الاجتماع، وعليهما يتعاظم العمل والبذل:

الأول ـ التعاون، وعدم التفرق والاختلاف.

الثاني ـ الشورى بين المسلمين.

وقد نطق القــرآن بهذين الأمــرين، حيث قــال **الله تعالى**: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة: ٢)، **وقال تعالى**: ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا ﴾ (الأنفال: ٤٦)، **وقــال تعــالى**: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، **وقال تعالى**: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: ٣٨).

وقد أعطينا الركن الأول (التعــاون وعدم التفرقة) حظه من الــبحث والتنظير عند الكلام عن العمل الجمــاعي، وبقي أن نجيل النظر في قضية الشــورى التي ثار حولها الكثير من الجدل بين تيارات الدعوة الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها.

وقد فــضلت أن أُعَنْوِنَ للشورى بعنوان أساسي هو: (المؤتمرات)؛ لأن المقــصود تفــصــيل الوســائل الخــادمــة للدين ولــيس بحث المشكلات الدعــوية لذاتهــا، فليس

إيثار عنوان (المؤتمرات) زهدًا في اللفظ القرآني، إذ إن قضية الشورى من حيث هي مُشْكِلٌ سياسي دعوي ينبغي أن يُبَتَّ في مسائله الشائكة من خلال الإقرار بضرورة الاجتماع والتشاور والتباحث، وإلا فإن قضية الشورى ستبقى معلقة وغير محسومة.

وكثير من الدعاة لا يزال ينظر إلى هذه القضية باعتبارها ترفًا فكريًا ينبغي أن ينأى بنفسه عنه، والحقيقة أن قضية الشورى من أخطر المشكلات التي واجهت المسلمين عبر تاريخهم الطويل، كما أنها القضية الأولى في جانب فقه السياسة الشرعية وإدارة شئون الدولة، وغدت ـ لغياب الخلافة ـ قضية متصدرة في جانب فقه الدعوة وإدارة شئونها[١].

وليس خافيًا على أحد من الدعاة أن أهم المشكلات التي تواجه الدعاة هي حَيرتهم تجاه القضايا التي تتفجر في الساحة، بدءًا من القضايا المصيرية؛ مثل المواجهة مع قوى الظلم والعدوان كاليهود ومن عاونهم، ومرورًا بالقضايا ذات البعد التأثيري الغائر في المجتمع المسلم؛ مثل كيفية مواجهة أثر الإعلام في تَدَيُّنِ المسلمين أو محاربة الأفكار المنحرفة والضالة؛ كالعلمانية والتشيع الغالي (وأعني به الرفض) وانتهاءً بالمسائل ذات الاهتمام المشترك بين جميع الناس مثل حكم التعامل مع البنوك الربوية والعمل في الفنادق، ونحو ذلك مما يتكرر السؤال عنه.

وإزاء هذا المشكل تبرز المؤتمرات كحل لهذه المشكلة، وأنا أعني بلفظ المؤتمرات معناه اللغوي لا الاصطلاحي، فليس ضروريًا أن يضم المؤتمر مئات المشاركين، كما أنه ليس جوهريًا أن يعقد في صالة للمؤتمرات، ولا أن يأخذ تنظيمه الطابع التقليدي

---

(١) تُرَاجَعُ قضية الشورى وإشكالاتها السياسية في كتاب: «السياسة الشرعية» للشيخ/ عبد الرحمن عبد الخالق ـ حفظه الله تعالى ـ.

الذي نراه أو نسمع عنه (وإن كان تنظيم المؤتمرات في حد ذاته أمرًا محمودًا، بل قد يكون ضروريًا)[1]، فكل اجتماع يَعْقِدُهُ مجموعة من الدعاة للبحث والتشاور في أمر من أمور الدعوة فهو مؤتمر ويمكن أن نسميه اجتماعًا.

وعلى ذلك، فصورة المؤتمرات التي ندعو إليها كوسيلة من وسائل خدمة الدين: هي الاجتماع الدائم بين الدعاة للتباحث والتشاور في قضايا الدعوة، سواء اتخذوا رأيًا موحدًا أم لا، وسواء ترتب على هذه الاجتماعات عمل أم لا، فالتشاور والتباحث مقصود لذاته.

ولعل سائلاً يتعجب: كيف يكون التشاور مقصودًا لذاته؟! والجواب أن هذا التشاور عامل مهم في تقريب الأفهام ووجهات النظر بين الدعاة، بحيث تذوب به

---

(١) تنظيم الاجتماعات يخضع لمعيارين مهمين:

الأول - المعيار الموضوعي، ويشمل:

١ - المقصود من الاجتماع أو المؤتمر (أهداف المؤتمر).
٢ - الموضوعات التي ستطرح فيه (جدول الأعمال).
٣ - كيفية تناول هذه الموضوعات (عرض أبحاث، مناقشات، تصويت لقرار).
٤ - التزام أعضاء المؤتمر بأهداف وجدول أعمال المؤتمر.
٥ - وجود آلية لتنفيذ إرادات المؤتمر وتوصياته.

الثاني - المعيار الشكلي:

ولا يقل أهمية عن المعيار الأول، بل قد يكون الاهتمام به سببًا في نجاح المؤتمر، ويشمل:

١ - وجود فريق إداري لتنظيم المؤتمر يتناسب مع حجمه، أو وجود الشخصية الإدارية التي تستطيع إدارة الاجتماع بحنكة وجدارة.
٢ - معرفة أعضاء المؤتمر والالتزام بالعدد والشخصيات المتفق عليها.
٣ - الالتزام بالمواعيد المتعلقة بالمؤتمر بصرامة.
٤ - تحديد مدة انعقاد المؤتمر والوقت المسموح به للأعضاء ومدة المناقشات، مع التوصية بالالتزام بهذه المواعيد بصرامة شديدة.
٥ - مراعاة الجوانب الفنية للمؤتمر عند وجود الإمكانيات المتاحة وعلى حسب حجم المؤتمر أو الاجتماع مثل أجهزة الصوت ووجود بعض المشروبات ونحو ذلك.

الحزازات بين الدعاة، وتتعاظم مساحةُ القاسم المشترك الذي يَجمع بينهم، كما تتضاءلُ الفَوَارِقُ ويَضْمَحِلُّ سوءُ الظن ووَسْوَاسُ الصَّدْر، وتتجه الاهتمامات بعدُ إذن لتضييق الفجوات واتخاذ الخطوات البنَّاءة، بعيدًا عن النقاش العقيم والنَّقْدِ المُفَرَّغِ من أهدافه.

ولقد صارت المجتمعات المُتَمَدِّنَةُ تُولِي المؤتمرات اهتمامًا بالغًا، حيث أضحت هذه المؤتمرات علامة بارزة على قوة المجتمع وتماسكه وتطلعه إلى مستقبله بالخطو الرشيد.

ولن تخطئ عيناك الندوات التي تعقدها كل الهيئات العلمية وغيرها لمنسوبيها بهدف رفع مستوى الوعي لدى هؤلاء تجاه القضية التي يدعون المتخصصين للحديث عنها.

وقد بينا قبل أن هذه المؤتمرات يطلق عليها في اللسان الغربي (Seminar) حتى سرى استعمال اللفظ بين المتخصصين من أبناء اللسان العربي، والحري أن يستبدلوه بلفظ المؤتمر البحثي أو الندوة أو ما شابه من الألفاظ العربية الأصيلة.

وفي هذه المؤتمرات البحثية يتم دعوة المتخصصين من ذوي الخبرات للحديث عن القضية التي يُرَادُ بَحْثُها، ويتم مناقشة هؤلاء المتخصصين وسؤالهم والتحاور معهم بروح علمية موضوعية.

وفي الغالب ما يتم ختم تلك المؤتمرات بقرارات وتوصيات وإعلان، من شأن كل ذلك أن يكون خطوة مساهمة في أي مشروع يراد إقامته، فكل شيء أقامه الإنسان على وجه الأرض إن هو إلا وليد فكرة تَضَافَرَتْ مع مِثْلِهَا وغَذَّتْهَا العزيمةُ وطَبَّقَتْها الإمكانيات المتاحة.

وما أجدر الدعاة أن يتنادوا إلى مثل هذه المؤتمرات فَيَطْرَحُوا على بساط البحث والمناقشة كل قضاياهم ومشكلاتهم، ليس بالضرورة أن يجدوا لها حلاً ناجعًا، فمجرد الاجتماع والتشاور سيكون له دور في وضع اللبنة الأولى لِحَلِّ أيِّ مشكل.

وأصل الشورى يستند في التنظير السياسي الإسلامي إلى مبدأ النصيحة الذي بَيَّنَ الرسولُ ﷺ أنه يمثل ركنًا مهـمًّا من الدين؛ حيث قال: «الدينُ النصيحةُ»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامَّتهم»[(١)].

لكن الشورى الإسلامية تختلف عن نظرية الديمقـراطيات الغربية التي تجعل الفرد العادي في المجتـمع عضوًا مشاركًا في صنع الـسياسة العامة واتخـاذ القرار، حتى لو كان الشأن متعلقًا بأساسيات الدين وقطعياته وحتى لو كان ذلك الفردُ لَيِّنَ الدِّيَانَة.

فالشورى الإسلامية تحترم رأي كل مسلم وتعطيه الحق في التعبير عن رأيه، ولكن في إطار نظام تَصَاعُدِيّ[(٢)] لا يُخِلُّ بمبدأ التخصص، ويَمْنَعُ افتئات الحقوق، وانتقاصها

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه».

(٢) وفقًا لمنهج الشورى الإسلاميـة؛ فإن الجهة الموكول إليها تداول السياسات العـامة للدولة بما فيها تعيين الخليفة وعزله، هي أهل الحل والعقد، وهم أصحاب النفوذ العلمي والاقتصادي والعسكري من ذوي الرأي والخبرة، وهؤلاء كانوا يوجدون في القديم وفق قوانين اجتمـاعية تلقائية ترقِّيهم بين ذويهم حتى يكونوا أصحاب الكلمـة بين الناس، وكان للمسلمين الأوائل نظام انتخابي يقوم على أسـاس اجتماع أصحـاب النفوذ من الـعلماء والاقتـصاديين والعـسكريين وزعـماء العشـائر والقبـائل من ذوي الرأي والخبـرة، فكان هؤلاء يشكلون مجلس الحل والعـقد الذي يوازي البرلمان فـي الديمقراطيات الغـربية، وكان أهل الحل والعقد يأخذون بمشورة أفراد عشائرهم وقبائلهم عن طريق العرفاء (جمع عريف بوزن عظيم) وهو القائم بأمر طائفة من الناس.

- ففي صحيح البـخاري عن عُروة بن الزُّبير أن مَروانَ بن الحكَم والمِسْوَرَ بن مَخْـرَمَة أخبراه أن رسول الله ﷺ قال حين أذن لهم المسلمون في عتق سبي هوازن، فقال: «**إني لا أدري من اذن فيكم ممن لم ياذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم امركم**»، فرجع الناس، فكلمـهم عرفاؤهم، فرجـعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أن الناس قد طيبوا وأذنوا.

- وقد ظن بعض شـراح الحديث أن العرفـاء هم من يعينهم الإمام لمشـاركته في رعاية شـئون الناس، وهذا ليس بسديد، فلم يعهد أن الرسول ﷺ قد عين العـرفاء والأمراء على القبائل ولا الخلفاء من بعده حتى عندما اعـتمد عمر بن الخطاب طريقة الديوان في تسجـيل أسماء المواطنين، وها هو رسول الله ﷺ يأمر الأنصار قائلاً: «**قوموا إلى سيدكم**» يعني سعـد بن معاذ، وإنما تسود سـعد بين =

من ذويها مع جعل المصالح العامة للأمة فوق كل اعتبار، فليس مقبولاً أن يناقش الأُمِّيُّ الذي لا يقرأ ولا يكتب مشروعَ قانونٍ في الدولة ـ كما يحدث في بعض الدول ـ كما أنه ليس من المنطقي أن يتدخل مَقْدُوحُو العدالة في وضع سياسة تربوية للأجيال الصاعدة.

وقد رأينا المهزلة العالمية التي كان بطلُها رئيسَ دولة خَرَقَ الآذان بكلامه عن مبادئ العدل الذي يجب أن يسود العالم، وإذا به كَهْلٌ بَهِيمِيُّ الشهوة افتضح أمره بين شعوب العالم.

= الأنصار بوجاهته ورأيه وكثرة أتباعه، والصحيح أن زعماء القبائل كان يتم انتخابهم بطريقة ذاتية في القبيلة نفسها، ولم يكن الحكام يتدخلون في ذلك.

وإنما ذكرنا ما سبق لأمرين:

الأول ـ لبيان أن العرب كان لديها نظام سياسي في إدارة شئون الدولة، وكان متطورًا بالدرجة الفائقة مقارنة بغيرهم من الأمم في تلك العصور.

الثاني ـ لقد جاء الإسلام وزاد النظام السياسي تطورًا، وأرسى مبادئ عامة وأصول قطعية للسياسة الشرعية، وسكت عن كثير من التفاصيل، فصارت محل اجتهاد العلماء، كما اعتمده المسلمون من كيفيات في الانتخاب أو إدارة شئون الدولة، فيجب أولاً ـ أن يخضع لتلك المبادئ العامة والأصول القطعية، وثانيًا ـ ألا يتعارض مع المصالح الشرعية العامة للأمة.

ـ ومما سبق نعلم أن الشورى كانت تتصاعد من الأفراد العاديين في الأمة عن طريق عرفائهم وزعمائهم ثم يتداول هؤلاء الزعماء والعرفاء الذين يشكلون (أهل الحل والعقد) أمور الدولة آخذين في الاعتبار آراء عشائرهم وقبائلهم وذويهم.

ـ وهذا النظام على بساطته من أكثر النظم الإدارية تطورًا في العصر الحديث، حيث يتولد القرار من القاعدة إلى القمة، وهو عين ما يسمونه المشاركة في اتخاذ القرار.

ـ ولكن الشورى الإسلامية تجعل لها إطارًا يمنع سيطرة العصبية الجاهلية (وهو ما يسمى في العصر الحديث بالشللية) أو تغليب المصالح الشخصية لفئات معينة (سيطرة اللوبي) أو تدخل العناصر غير المؤهلة لتداول مصالح الأمة العامة مثل السفهاء والفساق أو مقدوحي العدالة على وجه العموم.

مثل هذه المشـاركة الفوضـوية تأباها شريعـة الإسلام، حرصًا عـلى النظام العام ومحـافظة على كـيان المجـتمع من المتـسلقين الوُصُولِيِّين الذين يقـدمون في الغـالب مصالحهم الشخصية على مصلحة الأمة.

كما أن الشورى التي نتحدث عنها لابـد أن توجد السلام الاجتماعي المنشود، لا أن تكون سببًا للتـهارج كما يحدث في الكرنفالات الانتخـابية في دول العالم، حيث يظهر لكل ذي لب أن المقصود بالانتخاب تحقيق مصالح شخصية أو فئوية يتقاتل دونها المنتخبون، وتذهب مصالح الأمة أدراج الرياح أو تحت الأقدام.

كما أننا يجب أن نفهم أن الشورى وسيلةٌ وليـست غايةً، وخُلُقٌ وشِيمَةٌ، وليست شهوةً وغريزة، فممارس الشورى عندئذ لابد أن يتحلى بآداب الشورى مثل:

١ ـ احترام القطعيات والأساسيات وعدم استنفاد المجهودات في نقض الثوابت.

٢ ـ احترام الرأي المخالف وعدم تسفيهه إذا لم يتعارض مع الثوابت والقطعيات.

٣ ـ سلوك السبيل السـويَّة في الرد على آراء المخالفين واستحضار النيـات الصالحة في التقويم والرد.

٤ ـ عدم إهمال أخلاق الأخوة الإسلامية العالية، مثل التسامح والبَشَاشَة والابتسام في الوجه مما يُوْرِثُ مناخًا وُدِّيًا عند التشاور والتباحث.

٥ ـ الالتزام برأي المجـموع، وعدم الخـروج عليه أو قدحـه حتى لو ظهـر خطؤه بعد ذلك، ومن أرقى الأخلاق في الشـورى أن يمدح رأي المجموع وإن كان مـخالفًا لرأيه ويروجه بين الناس.

إن تطبيق نظام الشـورى الإسلاميـة في المؤتمرات الدعوية طريق ضـرورية لتأهيل الدعاة لحـمل مسئوليـة القيادة فيـما بعد، فإن هذه الشـورى هي التي تضمن تكوين

شخصية القائد المنظِّم العملي[1] المتسامح، وتختصر الشورى من شخصيات أصحابها حب السيطرة والأنانية ورؤية الذات.

ويمكننا أن نصوغ كيفية تطبيق هذه الوسيلة في النقاط الآتية:

١ ـ تنمية الروح الجماعية واحترام مبدأ الشورى بين الدعاة خاصة وبين المنتمين للصحوة المباركة عامة، واعتماد المناهج العلمية والتربوية التي تلمح هذا البعد، مع محاولة تلقينه للأجيال الناشئة عبر الطرق التي ذكرناها في الطريقة الرابعة بعد العشرين (العناية بالأطفال).

٢ ـ تداول الأدبيات التي تغذي هذا الجانب بين الدعاة، وفي الملتقيات العلمية كالخطب والدروس حتى يتحول مبدأ الشورى إلى عقيدة اجتماعية لا مجرد مظهر اعتيادي.

٣ ـ أن تتعاهد الحركات الإسلامية على اعتماد مبدأ الشورى في آلياتها الحركية، وأن تنبذ احتكار القرارات المصيرية، وأن تُشعِرَ الواقعَ الدعوي أنها تَصْدُرُ في مواقفها عن آراء المتخصصين من أهل العلم المعتبرين.

---

(١) إن الشورى لا ينبغي أن تكون وسيلة لتصفية الحسابات أو احتلال المواقع أو تعرية المواقف، بل المقصود منها الوصول إلى أفضل السبل لخدمة الدين، فليس يعيب أي داعية أن يظهر عوار رأيه أو خطأ فكرته فهو مأجور ولاريب على اجتهاده، ولكن الخطأ في أن يتمادى المخطئ في خطئه أو الناقد في تربصه كأنه سبع وقع على فريسة ليجهز عليها.

ـ وهناك مسئولية مشتركة على المخطئ في الرأي والناقد للآخرين: ألا وهي تقديم البديل، وهذا هو المقصود بقولنا: أن يكون عمليًا، أي: مفيدًا في نقده وليس هداميًا (ينقد للنقد)، فالمخلص ينقد برفق وينصح بخفاء ويقوم ويرشد ويتمنى أن لو كان الصواب في صف غيره، وأن لو نسب الخير كله للناس ولم يرجع منه بشيء.

٤ ـ قيام المجموعات الدعوية في كل مكان بتكوين مجالس تنفيذية، ومن أعمال هذه المجالس التنفيذية: الاجتماع الدوري لمناقشة مستجدات العمل الدعوي، ومتابعة الأنشطة المعتمدة، والتحاور في إيجابيات وسلبيات الأداء الدعوي لتلك المجالس التنفيذية، ويَسْرِي هذا النظام على أي مجموعة تدعو إلى الله ولو صَغُرَتْ، فأَمَارَةُ جِدِّيَّتِهَا أن يتشاور أفرادها، ويتحركوا تحركات مدروسة، ويخطوا خطوات واضحة المعالم بيِّنة المراحل جَلِيَّة الأهداف والوسائل.

٥ ـ أن يعمل الدعاة على اعتماد الأبحاث الإحصائية قبل تبنيهم لمواقف معينة ذات خطر، فمن علامات الجهل والاستبداد والمخاطرة بمصير الدعوة أن تصدر المواقف دون سَبْر لاستعداد الناس للمشاركة في تبني ذات الموقف.

وقد حرص الرسول ﷺ على أخذ رأي الأنصار قبل اتخاذ قرار المواجهة في غزوة بدر؛ لأنهم الكثرة التي سيعتمد عليها في مواجهة قريش، فلما اطمأن إلى تأييدهم أصدر قرار الحرب وهو مطمئن لتأييد الصحابة أجمعين.

٦ ـ تحديد مواعيد دورية للمؤتمرات والاجتماعات الدعوية، والحرص على ألا تكون عَشْوَائِيّة الهدف والغاية، مع مراعاة الجوانب التنظيمية لإنجاح تلك الاجتماعات.

٧ ـ أصبح بالإمكان عقد المؤتمرات والاجتماعات عبر شبكات الإنترنت بحيث يتحدث مجموعة من الأفراد بالصوت والصورة، مما يتيح قدرًا من الأمان لتلك الاجتماعات في حق من يحال بينهم وبين عقدها بصورة علنية.

٨ ـ يفضل أن تُعْلَنَ توصيات المؤتمرات العامة وتنشر بين قطاعات الصحوة؛ حتى يتبنى الأفراد توجهات القادة.

٩ ـ يُفَضَّلُ للمؤتمرات الدعوية الكبرى أن تعقد بدون إشراف حكومي حتى تكون في مَأْمَنٍ من الضغوط المعروفة، وحتى تعتمد الشَّفَافِيَة المطلوبة لتحقيق مصداقيتها لدى قطاعات الصحوة.

١٠ ـ الوقوف بحزم أمام الشخصيات المريضة التي تشغب في المؤتمرات، وعدم إتاحة الفرصة لها لإفساد الجمع أو تحزيب المجتمعين.

١١ ـ تكريم الشخصيات الدعوية الناشطة والتنويه بجهودها وإجلال بذلها من باب: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**»[1].

١٢ ـ الاجتهاد في عقد المؤتمرات العالمية لشرح قضية الإسلام للناس، ومواجهة حملات التشويه التي تمارس ضد الصحوة المباركة، وتجديد دعوة الأنبياء والرسل بالجهر بنداء التوحيد عبر المنابر العالمية لإقامة الحجة لله ـ تبارك وتعالى ـ والإعذار بأداء الأمانة.

١٣ ـ تبني ميثاق عمل إسلامي بين الحركات الإسلامية لعقد المؤتمرات التي تفيد المسلمين، بحيث يظهر المسلمون كقوة ذات شأن.

١٤ ـ استغلال تلك المؤتمرات في التبرؤ من المذاهب الضالة والاتجاهات المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة، والتي تتمسح بالإسلام وأهله، حتى يعتمد الناس معايير أهل الصحوة المباركة في تقويم الاتجاهات الجديدة.

١٥ ـ محاولة حشد تأييد علماء العصر وأئمة الدين من أهل السنة لتلك المؤتمرات، حتى تغدو هذه المؤتمرات ذات مرجعية علمية دعوية عالمية ينظر إليها المسلمون نظرة إجلال واحترام.

وبعد .. فإن هذا الجانب لا تكفيه مثل هذه العناصر المُجْمَلَة، ولكنه يحتاج إلى صياغة آليات تتناسب مع كل مجموعة دعوية على حدة، وحسبي أنني قدمت الأفكار العامة داعيًا طاقات المبدعين من الكتاب أن يفصلوا المجمل وأن يقدموا للناس تصورات مختلفة لتطبيق هذه الوسيلة المهمة.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حسن صحيح.

ومن آمالي أن أرى شبيبة الإسلام تعتمد نهج الشورى في عملها الدعوي دَقَّ أو جلَّ، وتقديم صورة عملية للدعوة المنظمة التي تمارس العمل الدعوي بطرق راقية الأسلوب، وأن تنبذ العشوائية والاستبدادية، وأن تعظم آراء أهل العلم وتحترم أفكار المتخصصين، وأن يسود بينهم الخطاب العلمي في تناول الآراء دون الخطاب العاطفي.

وبعد.. أيضًا.. فإن دعوتنا تستحق منا الصمود أمام كل العوائق التي تعوق تطوير أداء الدعاة، كما تستحق منا أن نؤمن أن نموَّ ورُقِيَّ الأساليب الدعوية هو من شروط نجاح الدعوة نفسها.

فلْتَصْفَ القلوب وَتُنَقَّ من أغراضها، ولْتَعْنُ الوجوه جميعًا للحي القيوم، ولتصطف الأقدام في جادَّة واحدة، وتتشابك الأيدي والسواعد في نسق جامع، وليكن لسانُ حال دعاتنا:

هُوَ الحَقُّ يَحْشُدُ أَجْنَادَهُ ❊ وَيَعْتَدُّ لِلْمَوْقِفِ الفَاصِلِ
فَصُفُّوا الجَحَافِلَ آسَادَهُ ❊ وَدُكُّوا بِهِ دَوْلَةَ البَاطِلِ

خـــاتمة

لا أجد مـا أختم به إلا قول د. عـبد الكريم بكار، حـيث قال في خاتمة كـتابه (مقـدمات للنهـوض بالعمل الدعـوي): إن النقد الذي وجهناه في هـذا الكتاب إلى بعض الجمـاعات أو الأنشطة الدعوية، لـيس له من دافع سوى الحرص على السـمو بالأعمال الدعوية، ودفعها نحو الفاعلية والنمو ومزيد من العطاء.

وإنني لأنظر نظرة إكبار لكل أولئك الذين يَكُفُّـونَ أذاهم عن المجتمع الإسلامي، فكيف تكون نظرتي إذن إلى أولئك الشيوخ والكهول والشباب الذين يبذلون أعمارهم وأمـوالهم وجهـودهم في سـبـيل الله والتمكـين لدينه ورفعـة أمة الإسـلام والرقي بمجتمعاتهم ومسـاعدة الفقير والضعيف؟ إنني أعتقد أنه مـهما ذكرت من الثناء عليهم فلن أوفيهم شـيئًا من حقوقـهم علينا، فهم عطر المجتمع ومـاؤه ورواؤه، وبهم فخره واعتزازه، وعلى مقدار وفرتهم وسمـوهم يكون عزه وفخاره وصلاحه، ومن ثَمَّ فإني أدعو الله ـ جَلَّ وعَـلا ـ أن يبارك على كل شفة تـهمس باسم الله، وعلى كل خطوة ترسم في سبيل الله، وعلـى كل يد تمرُّ على الورق لتطبع اسم الله على هذا الوجود، والحمد لله أولاً وآخرًا .

وصلى الله على إمام الهدى ونبي الرحمة وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

——— ◆◆◆ ———

الفهرس

الموضوع	صفحة

ترقبوا ..

شرح
منة الرحمن في نصيحة الإخوان
نصيحة في العقيدة والدعوة والعمل والسلوك

بقلم

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع





ترقبوا ..

منطلقات
الدعوة إلى الله

بقلم
ياسر برهامي
غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين





